



روبرت موس

التاريخ السري للأحلام

ترجمة :
محمد إبراهيم الجندي

مكتبة



The Secret History of Dreaming

Robert Moss

مكتبة
t.me/soramnqraa

التاريخ السري للأحلام

روبرت موس

ترجمة: محمد إبراهيم الجندي





الطبعة الأولى: 2025
التّرقيم الدّولي
978-603-8470-41-1
رقم الإيداع
1447/2993

الكتاب
التاريخ السري للأحلام
المؤلف
روبرت موس

Copyright © 2009 by Robert Moss



T3570

حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أيّ جهة
أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة

www.page-7.com

الفهرس

5	ثناء على كتاب «التاريخ السري للأحلام»
11	مقدمة (ميادين الأحلام)
27	الجزء الأول: القوى الدافعة السرية للتاريخ
29	الفصل الأول: المتحدثون باسم الأرض والمسافرون في الأحلام
61	الفصل الثاني: مفسّرون وعَرَافون
87	الفصل الثالث: الحُلم المقدس
125	الفصل الرابع: اليد الخفية التي تُحرّك المياه
151	الفصل الخامس: من مكتبة الأحلام
181	الفصل السادس: كيف تساعدنا الأحلام على تجاوز الصعاب
211	الجزء الثاني: سادة الأشياء الثلاثة «الوحيدة»
213	الفصل السابع: جان دارك وعَرَافات الأشجار
237	الفصل الثامن: جاسوسة الأحلام المدريدية الجميلة
259	الفصل التاسع: شبكة تحرير العبيد السرية للأحلام
283	الفصل العاشر: الحياة المُقَفَّاة لمارك توين
309	الفصل الحادي عشر: الرجل الذي فجّر الأشياء
341	الفصل الثاني عشر: آلات زمن ونستون تشرشل
373	خاتمة التاريخ اللاحق للأحلام
397	شكر وتقدير

ثناء على كتاب «التاريخ السري للأحلام»

«واحد من أكثر الكتب التي قرأتها على الإطلاق شاعريةً وإلهامًا عميقًا عن الأحلام. يضيفي روبرت موس على هذا الكتاب الجديد الرائع براعة الروائي، وعمق الباحث، والحكمة الحائلة المتبصرة للشامان ... والأكثر أهمية من أي شيء آخر هو أن موس يُعبر عن الفرح البدائي الذي تستثيره الأحلام، والحرية الإبداعية المطلقة التي تنطلق من عقلاها في كل مرة نخلد فيها إلى النوم. لو أنني علقت ذات يوم على جزيرة صحراوية مجازية، فسيكون هذا هو الكتاب الذي أود أن يكون معي هناك.»

— كيلي بالكلي، دكتوراه، باحث زائر، اتحاد اللاهوتيين للدراسات العليا،

ومؤلف كتاب «الحلم في ديانات العالم» *Dreaming in the World's Religions*

«لقد فعلها روبرت موس مرة أخرى؛ لقد كتب كتابًا جذابًا، وثريرًا بالمعلومات، وتنويريًا إلى أبعد حد. إنه أيضًا كتاب يتحدى العديد من التحيزات الأكثر رسوخًا وتفاعلية في اللاوعي لدى باحثي الأحلام العلميين ... وكما يوضح الكتاب على نحو وافٍ، فإن الأهمية الجمعية والتاريخية لهذه الأحلام تحديدًا، والحلم بشكل عام، لا يمكن إنكارها. أوصي بهذا الكتاب من أعماق قلبي.»

— جيريمي تايلور، مجلة «شيفت»

«هذا ليس كتابًا تقليديًا عن الأحلام، بل قراءة منيرة وممتعة للغاية لخبر الأحلام الشهير عالميًا روبرت موس، الذي يبدأ بالتركيز على دور الحلم باعتباره «محرّكًا سرّيًا» في التطور البشري والبقاء على قيد الحياة في جميع جوانب المجتمع. يوضح موس ... كيف يمكن للأحلام أن تغير مسار التاريخ، وأنها تفعل ذلك بالفعل، وكيف يمكن استعادة تلك القوة واستخدامها.»

— «يوجا ماجازين»

«مسح واستكشاف بارع لكيفية توليد الحقائق الداخلية التي نحلم بها للحقائق التاريخية الأساسية عبر الزمان والمكان. هذا الكتاب بمثابة قراءة رائعة وغنية بالمعلومات.»

– إيان آر. إدجار، دكتوراه، بروفيسور الأنثروبولوجيا، جامعة دورهام،
A Guide to Imagework «دليل إلى العمل التخيلي» ومؤلف كتاب

«في كتاب جديد يتسم ببصيرة رائعة، يجعل روبرت موس التاريخ ممتعاً من خلال توضيحه لنا كيف ساعد الحلم والأحلام في خلق العديد من اللحظات الأكثر محورية في التاريخ. إنها نظرة مدهشة إلى جانب من جوانب التاريخ كان يفوت الكثير منا. يستخدم موس – معلم الأحلام، والروائي، والباحث الشهير – أمثلة تاريخية ليظهر كيف تمتلك الأحلام قدرة هائلة على التأثير، ليس فقط على الأحداث العظيمة، وإنما على حياتنا اليومية أيضاً.»

– روجر زيجلر، عمود «الصحة»، www.examiner.com

«كشف لنا عمل روبرت موس الاستقصائي عن «تاريخ سري للأحلام» يوضح كيف أدت أحلام الليل – بالتضافر مع الصدفة والخيال – إلى إنتاجات فنية، واكتشافات علمية، وتحولات سياسية، وتطورات روحية، وإلى مسار التطور البشري نفسه. هذا الكتاب المبهر مقدر له أن يصبح عملاً كلاسيكياً، يتجاوز التخصصات ويوفر جدول أعمال للدور الذي يمكن أن تلعبه الأحلام في ضمان بقاء الإنسان.»

– ستانلي كرينر، دكتوراه، مؤلف مشارك لكتاب

«الأحلام غير العادية وكيفية التعامل معها» Extraordinary Dreams and How to Work with Them

«روبرت موس معلم بارع في مجال الأحلام الشاسع والحميم. يكاد يكون كل شيء نتخيله، من الابتكار، إلى الاستراتيجية، إلى الشعر، يضرب بجذوره في عالم الأحلام. يوضح موس ببراعة ولباقة أن الأحلام هي جسد الروح الذي ينبثق منه هذا العالم. يُعد هذا الكتاب نصًا أساسيًا يجب قراءته وتضمينه إلى جانب أي دراسة للتاريخ البشري أو البحث العلمي.»

— جوي هارجو، شاعرة وموسيقية ومؤلفة كتاب
«كيف نصبح بشرًا»

How We Become Human

«لا أحد يستطيع كتابة هذا الكتاب الرائع بطريقة أفضل مما فعل روبرت موس! يدمج موس أقدم سجل للأحلام (منذ خمسة آلاف عام مضت) ويمر عبر العصور، ويضع علامات إرشادية تقود إلى أحدث الأبحاث في مجالات العلوم، والصحة، والطب، والمساعي الإبداعية، وشؤون العقل، وتلك التي تستكشف النفس والروح بوصفها وحدة واحدة متناغمة.»

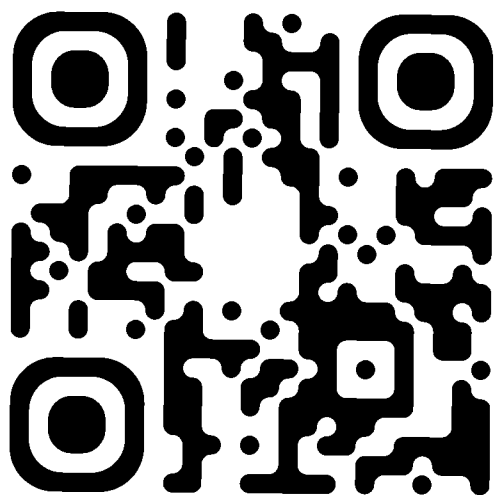
— ريتا دواير، الرئيسة السابقة والمسؤولة التنفيذية،
الجمعية الدولية لدراسة الأحلام

«هذا الكتاب المكتوب بجمال بارع يوصي به بشدة للحالمين وكذلك للممارسي تفسير الأحلام في جميع أنحاء العالم. من المقدر لهذا الكتاب أن يصبح واحدًا من أهم الكتب وأكثرها موثوقية في مجال الأحلام، وهو كتاب سيحتاج جميع الحالمين المخلصين والمكتبات إلى اقتنائه.»

— باربرا تيدلوك، دكتوراه، مؤلفة كتابي

«امرأة في جسد الشامان» The Woman in the Shaman's Body

و«الحلم: تفسيرات أنثروبولوجية ونفسية» Dreaming: Anthropological and Psychological Interpretations



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

إلى مارشا،
التي رأت هذا الكتاب وآمنت به
قبل عشرين عامًا من كتابته....

إن الحياة التخيلية محورية في القصة الإنسانية، ويجب أن تكون كذلك في كتابة التاريخ وتعليمه. فعالم الخيال يغذي قريحة البشر ويدفعهم إلى الفعل. أما التاريخ الخالي من الخيال فهو تاريخ مبتور؛ تاريخ للموتى الأحياء.

— جاك لو جوف، كتاب «الخيال في العصور الوسطى»

كان مشروعنا محفوظًا بالمخاطر. فالأرض التي كنا نأمل استكشافها كانت بكرًا. لم يسبق لأحد أن غربل أو حتى حدد المواد المصدرة المفيدة... كان علينا أن نزيح الأشواك، نحدد موقعنا، ومثل علماء الآثار الذين يقتربون من موقع يُعرَف باحتوائه على كنوز أعظم من أن تُستكشف بشكل منهجي، اكتفينا بحفر بعض الخنادق التمهيدية.

— جورج دوبوي، عن التحضير لكتاب «تاريخ الحياة الخاصة»

1

إن الحلم ضروري للقصة الإنسانية؛ وهو جوهرى لبقائنا وتطورنا، وللمساعي الإبداعية في كل مجال، وببساطة، لمواصلة مسيرتنا. يتناول هذا الكتاب الأهمية الجوهرية للأحلام، والمصادفة، والخيال، بوصفها القوى الدافعة السرية في تاريخ كل ما هو إنساني.

قد يكون الأمر كما لو أن الأطفال، قبل أن يطوروا القدرات الجسدية اللازمة للمشي

والكلام، يتمنون على هذه المهارات في أحلامهم، كذلك ربما يمارس البشر، من خلال الأحلام، استعداداتهم لمراحل جديدة في تطورهم. نحن على أعتاب إدراك ما قد يعنيه هذا عندما نتحدث عن أفكار «في الأجواء»؛ ونرى جانبًا من ذلك حين نكتشف أن الفنانين وكتاب الخيال العلمي قد توقعوا الاكتشافات التكنولوجية قبل تحققها بعقود أو حتى قرون.

لو كنت أكتب بالفرنسية، لربما أسميت هذا الكتاب مقالة «في تاريخ عالم الخيال» *l'histoire de l'imaginaire*، وهو حقل رائد دافع عنه بحماس المؤرخ الفرنسي الكبير جاك لو جوف. لكن كلمة *imaginaire* الفرنسية لا تُترجم بسلسلة إلى الإنجليزية؛ فهي تشير إلى «المجال التخيلي»، وهو بُعد يتجاوز العالم المادي، ويمثل مساحة لعب وملاذًا للخيال «الصادق»، عالمًا خلاقًا قد يكون مهد اكتشافاتنا الكبرى وابتكاراتنا، بل وربما أصل الأحداث والظروف التي تتجلى في العالم الظاهري. تسميه الشعوب الأصلية «زمن الحلم» أو «عالم الحلم». نذهب إليه عندما نحلم، وقد لا يتطلب ذلك أن ننام.

في المجتمعات الغربية الحديثة، نظن أن الأحلام هي تجارب تحدث أثناء النوم. لكن في العديد من الثقافات، الحلم يتعلق أساسًا بالاستيقاظ. ففي لغة مصر القديمة، كانت كلمة «حلم» هي كلمة *rswt*، التي تعني «الاستيقاظ».⁽¹⁾ الدلالة هنا أننا، في معظم الحياة العادية، نكون في حالة أشبه بحالة المشي أثناء النوم، نتبع برامج وأنشطة روتينية محددة. في الأحلام، نصحو على وعي مختلف. قد يحدث ذلك ونحن غارقون في النوم، أو في حالة تأملية بين اليقظة والسبات، أو عبر رؤى وأفكار عابرة، أو من خلال تدفق الرموز والمصادفات التي تتكشف وسط تفاصيل الحياة اليومية. فجميع هذه اللحظات يمكن النظر إليها كأشكال متنوعة من الحلم، تحمل لنا تجارب ثرية تستحق التأمل والتقدير، تمامًا كما نفعل مع أحلامنا الليلية.

(1) Kasia Maria Szpakowska, "The Perception of Dreams and Nightmares in Ancient Egypt: Old Kingdom to Third Intermediate Period" (PhD diss., University of California, Los Angeles, 2000), pp. 23–26.

لكي نكشف عن التاريخ الحقيقي للأحلام، نحتاج إلى قراءة مشاهد من أزمنة أخرى بصبر وحدس يشبهان عمل خبير الأدلة الجنائية. علينا أن نُشير ونوثق كأدلةٍ كُلِّ أنواع القرائن والمصادر التي ربما لم يُنظر إليها سابقاً على أنها ذات صلة. يلزمنا أن نضع نشاط الحلم في سياقه الاجتماعي والثقافي. وقبل كل شيء، علينا أن نتخيل أنفسنا داخل المشهد، بوضوح حيّ كالذي كان يعيشه نجم كرة السلة العظيم/ بيل راسل، حينما كان يلعب المباريات داخل رأسه، ثم نمضي متجاوزين إعادة العرض الذهني إلى استعراض أعمق.

«المنقَّب في الأحلام» هو الاسم الذي أُطلقه على نوعية المحقق القادر على قراءة جميع القرائن من مشهد في زمن آخر، و«الدخول» إلى ذلك المشهد، ثم العودة باكتشافات جديدة تصمد أمام التدقيق والمراجعة. ومع أنَّ علم الآثار يُفهم غالباً على أنه علم التنقيب عن الآثار القديمة ودراستها، فإن المعنى الجذري للكلمة يأخذنا إلى أعماق أبعد؛ إنه دراسة الـ «آرخي» arche، أي الأصل الأوَّلي، والرئيسي، والجوهري.

هناك ثلاثة متطلبات أساسية للمنقَّب في الأحلام. أولها هو الإلمام بطيف واسع من المصادر، مع القدرة على القراءة بين السطور وإيجاد الروابط التي لم يلحظها المتخصصون الذين كانوا يبحثون عن شيء آخر.

ثانياً، يجب أن يمتلك المنقَّب في الأحلام القدرة على وضع الحلم في سياقه، المادي، والاجتماعي، والثقافي. فعلى سبيل المثال، لفهم ممارسات الأحلام لدى هنود المايورونا في الأمازون (المعروفين باسم «شعب القطط»)، علينا أن نعرف أن نمط النوم المعتاد لديهم هو أن تتسلق إلى أرجوحة شبكية منسوجة من نباتات معترشة ومربوطة من أحد طرفيها إلى العمود المركزي للكوخ الجماعي، كما هي كل الأرجوحات الشبكية الأخرى. فإذا ذهبت إلى النوم وحدك، ستسحب معك العمود المركزي وكل الأرجوحات الشبكية الأخرى. لذا عليك أن تتفق مع شخص آخر واحد على الأقل على أن تذهبا إلى النوم في الوقت نفسه. وهكذا تصبح تجارب النوم والحلم تجارب

علينا أن نفهم الفضاء التخيلي، إضافةً إلى الفضاء المادي، الذي تحدث فيه تجارب الحلم. فبعض الثقافات توجه أو حتى تأمر المسافرين في الأحلام أن يرحلوا ضمن جغرافية تخيلية ثابتة. فعلى سبيل المثال، أثناء عمل عالم الأنثروبولوجيا تيموثي ناب الميداني مع شعب ناهواتل في المكسيك، شجّعه موجهوه على أن يضع تجارب أحلامه المتذكّرة ضمن «العالم الآخر»، أو «العالم السفلي»، المعروف باسم تالوكان. فإذا كان هناك الكثير من الماء في مشهدٍ ما، فهذا يعني أنه سافر إلى «عالم الماء» في الجهة الشرقية من تالوكان. وإذا كان معظم الموجودين نساءً، فهذا يعني أنه ذهب إلى «بيت النساء» في الجهة الغربية من تالوكان. ومع انجذاب الدخيل تدريجيًا إلى العقل الجمعي لمضيفيه، يبدأ في أن يجد نفسه يحلم داخل مناظرهم المشتركة.⁽³⁾

ثالثًا، يجب على المُنقَّب في الأحلام أن يطور القدرة على الدخول إلى واقع آخر وتجربته من الداخل. يقول عالم الأنثروبولوجيا روجر إيفار لوهمان: «لا يمكن للمرء إجراء بحث ميداني داخل حلم شخص آخر».⁽⁴⁾ ورغم أن هذا قد يبدو بديهيًا، فإن المُنقَّبين في الأحلام يسعون إلى اختبار هذه الفكرة.

من خلال فنون الترحال الواعي عبر الأحلام، والخيال النشط، و«الرؤى المتبادلة»، يمكننا دخول أزمنة أخرى واكتساب معرفة مباشرة بالظروف السائدة فيها، ثم البحث فيها والتحقق منها، وذلك قد يساعد الباحثين، وكذلك الممارسين، على تجاوز ما كان مفهومًا سابقًا. يمكننا أن نستعيد أفضل ما في التقاليد والطقوس القديمة بطرق أصيلة ونافعة وفي الوقت المناسب.

ومع الغوص في طبقات أعمق من الماضي والمستقبل، قد نستطيع إعادة رسم صورة

(2) Petru Popescu, *Amazon Beaming* (New York: Viking, 1991), p. 60.

(3) T. J. Knab, *A War of Witches: A Journey into the Underworld of the Contemporary Aztecs* (New York: HarperCollins, 1995).

(4) Roger Ivar Lohmann, *Dream Travelers: Sleep Experiences and Culture in the Western Pacific* (New York: Palgrave Macmillan, 2003), p. 6

الأحداث بعيدًا عن خط الزمن المعتاد، نحو منظور يتجاوز التاريخ المؤلف ويعلو فوق حدوده. هناك، يمكن أن نجد أنفسنا داخل مواقف عاشتها شخصيات من عصور غابرة أو قادمة، تربطنا بها وشائج خفية؛ فقد يكونون أسلافنا أو أحفادنا، أو أفرادًا من عائلتنا الكبرى في المعنى الرمزي، أو حتى انعكاسات أخرى لذواتنا تعيش في أماكن وأزمنة مغايرة. وفي هذا الفضاء، قد نخوض تجربة تواصل مباشر مع كائنات في أزمنة أخرى، تبادلاً للفائدة والمعرفة، سواء في حاضرهم الخاص أو في "الآن" الواسع الذي يحتضنه زمن الحلم.

2

إليك لمحة عامة عن الوجهة التي ستأخذنا إليها هذه المغامرة في التنقيب عن الأحلام:

في الفصل الأول، نتعلم أنه، في الشعوب الأصلية، الحالمون هم المتحدثون باسم الأرض وهم المسافرون بين العوالم. إنهم يربطوننا بشبكة الحياة في كون حي، مع الأسلاف، ومع احتياجات الكل. بلغة الإيروكواس، يساعدوننا أيضًا «على ألا ندع عقولنا تسقط» من ذاكرة العالم الأعمق الذي تنبع منها الحياة البشرية ويكمن فيها هدفها.⁽⁵⁾ فالحلم يهتم بالحفاظ على الجسور نحو واقع أعمق وأعلى وتجديدها، وفتح مسارات للروح وشفائها.

في الفصل الثاني، ندرس مقاطع من التاريخ المتشابك لتفسير الأحلام والعِرافة منذ ما قبل أرتيميدوروس وصولاً إلى فرويد. فعلى امتداد معظم التاريخ، لم يكن هناك تمييز صارم بين البحث عن دلائل للمستقبل في الأحلام وقراءة العلامات بطرق أخرى، من تخليق الطيور أو سقوط أحجار الرنون أو أعواد اليارو. سنكتشف أن مفسري الأحلام القدماء غالبًا ما كانوا يفعلون أكثر من مجرد فك شفرة الرموز؛ فقد قدموا لنا طقوسًا لطرد الطاقة المظلمة لحلم سيئ، وحماية المساحة النفسية للحالم، وترويض

(5) Robert Moss, *Dreamways of the Iroquois: Honoring the Secret Wishes of the Soul* (Rochester, VT: Destiny Books, 2005), pp. v, 105–106.

حدث مستقبلي وإعادة توجيهه. كان أفضلهم قادرين على «دخول» مساحة حلم العميل لمعرفة ما يجري هناك. وفي قصة يوسف في الكتاب المقدس، نرى أن دور مفسر الأحلام القديم لم يكن مقتصرًا على قراءة المستقبل من الحلم؛ بل كان عليه أيضًا أن يساعد في تحديد ما يجب فعله. سستمعن فيما قام به فرويد - الذي أنقذ الأحلام من أطباء نفسيين في القرن التاسع عشر أنكروا أن لها معنى - من تحويل تفسير الأحلام من التنبؤ إلى «تاريخ نفسي شخصي»، وأنه، بإصراره على مذهب ضيق النطاق لما يجب البحث عنه في الأحلام، ربما فاتته مع الأسف تحذير صحي كان من الممكن أن ينقذ حياته.

في الفصل الثالث، نتأمل دور الأحلام في الديانات الكبرى في العالم. كتب أسقف في القرن الثاني قائلاً: «إن الغالبية العظمى من البشر تستمد تصوراتها عن العالم الغيبي من الأحلام». فالحلم هو الجذر الذي انبثقت منه الأساطير والديانات التي أرشدت مسيرة البشرية. وفي شعوب كثيرة، يُنظر إلى وجودنا على هذا الكوكب أحيانًا كصدى لحلم كونيٍّ أو تصوّر غامض عن معنى الوجود. ويشكّل الحلم محورًا أساسيًا في ولادة وتطور الديانات التاريخية - تلك التي تُعلّم إلهامًا استثنائيًا لا يتكرر، يتبعه تقدم لا رجعة فيه وفق خطة إلهية - وكذلك جميع الديانات الأخرى. سنكتشف كيف لعبت الأحلام والرؤى دورًا مهمًا في التقاليد الروحية والتاريخية لدى الشعوب؛ فقد اقترنت بعض التحولات الكبرى في الغرب، تاريخيًا، بتجارب رؤيوية وتأملات ليلية. كما سنستعرض مكانة الأحلام في بعض الموروثات الإسلامية، حيث اعتُبرت في بعض السياقات وسيلة للتأمل والتفسير، أو مدخلًا إلى تصورات رمزية عن العوالم غير المنظورة، بوصفها مستويات تتقاطع فيها الذات مع المعنى.

ويشكّل الحلم ركنًا أساسيًا في تاريخ الطب وممارسة الشفاء. ففي الفصل الرابع، ندخل عالم الأطباء الإغريق القدماء الذين استخدموا الأحلام في التشخيص، ونسافر إلى تجربة الشفاء في معابد الأحلام. في بعض الممارسات الروحية القديمة، كان يُعتقد أن الأماكن المقدسة توفر للزائرين بيئة تساعد على التخلي عن أنماط التفكير القديمة والانفتاح على تجربة داخلية تُفضي إلى نوع من الراحة النفسية أو الشفاء، وذلك من

خلال أحلام أو رؤى يُعتقد أنها تحدث أثناء النوم. وتغادر حاملًا معك قصةً أكبر وأعمق من تلك التي كنت تعيشها من قبل، وإذا رغبت في مواصلة الشفاء، فستجد طرقًا لحمل تلك القصة والإبداع بالاستعانة بقوتها. وفي الخاتمة، سوف نستكشف كيف أن الشفاء التخيلي يعاود الظهور كركيزة أساسية في طب القرن الحادي والعشرين، بمساعدة الأبحاث العلمية التي تُظهر أن الجسد والدماغ لا يفرقان بين الفكرة والفعل.

في الفصل الخامس، ندخل عالم الكُتّاب والحلم. من الكاهنات الكاتبات في بلاد ما بين النهرين القديمة إلى ستيفن كينغ أو نيل غيمان، أدرك الكُتّاب دومًا أن للأحلام دورًا محوريًا في الإبداع الأدبي وتوفر معينًا لا ينضب من العتاد للقصص والروايات، والسيناريوهات، والقصائد. سنلقي نظرة فاحصة على كيفية تعامل غراهام جرين مع أحلامه تقريبًا كل يوم من حياته المثمرة الرائعة. سننطلق في رحلة جاعحة مع بعض الكُتّاب الروس الذين استلهموا من الأحلام، واستخدموا الأحلام في مشاهد رئيسة في كتبهم، وعاشوا حياةً غالبًا ما كانت مجنونة وباهرة مثل أي حلم. سنكتشف أنه عندما يكون الكُتّاب في قمة عطائهم، يعمل عديدون منهم في حالة تشبه الحلم الواعي، وسندرس كيف يصلون إلى تلك الحالة.

في جميع الأزمنة وجميع مجالات السعي، ساعد الحلم البشر على التكيف والتغلب على تحديات الحياة. في الفصل السادس، ننظر إلى هذا الموضوع من خلال ست نوافذ. سنجد أنه، من بين الآباء المؤسسين، كان هناك حاملون مكرّسون، بأكثر من معنى واحد. سنحقق في تجربة حلم أدت مباشرة إلى واحدة من أكبر اكتشافات النفط في التاريخ، مما غير تاريخ الشرق الأوسط والعالم. سنعرف أنه، في إحدى الدول الأوروبية الحديثة، تجري مشاركة الأحلام في كل منزل تقريبًا وتُستخدم من قِبَل المزارعين لاستقراء الطقس ومن قِبَل قادة مراكب الصيد للعثور على الأسماك. سنرى كيف تغذي الأحلام خيال مؤلفي ومؤيدي موسيقى الروك، وكيف يستخدم الرياضيون والمدربون الرياضيون «أفلامًا داخلية» للتحضير لحدث ما. سنستكشف دور الحلم - وقبل كل شيء القدرة على الدخول إلى حيز الخيال - في تاريخ الإبداع العلمي.

الجزء الثاني مخصص لسير ذاتية لستة أفراد رائعين يمكن وصفهم بأنهم أساتذة الأشياء الثلاثة الوحيدة، بمعنى أن الأحلام، والتزامن، والخيال غدوا إنجازاتهم ووجهوا حياتهم، وحياة العديد من الأناس الآخرين من خلاهم.

في الفصل السابع، ندخل عالم ورؤى جان دارك. مأساة جان دارك يُمنُّ للمؤرخين المهتمين بعقلية العصور الوسطى والتجربة الرؤيوية. حفظ الكتبة المخلصون في محاكمتها الأولى نسخًا مفصلة تفصيلًا رائعًا، وتبدو دقيقة، من شهادتها الخاصة، وشهادات الشهود، التي تحتوي على أدلة بالغة الأهمية حول الكيفية التي تلقت بها رؤاها وأين تلقتها، وكيف كانت قادرة على رؤية المستقبل، وتمكنها من أسر عقول وقلوب مقاتلين أشداء وحشد شعب محطم ومهزوم وأسياده الإقطاعيين المتفكرين في مواجهة الغزاة. تكشف الوثائق عن أهمية الأشجار في بعض التجارب الرمزية أو التأملية، وقد نلاحظ امتدادًا ثقافيًا في التعبير عنها، ضمن سياقات دينية لاحقة، شبيهة ببعض الممارسات التي ارتبطت لدى بعض النساء في أوروبا القديمة بالطبيعة والطقوس. سنكتشف أن البصيرة «العملية» - قدرة جان دارك على الرؤية عبر الزمان والمكان لاستطلاع موقع العدو أو التنبؤ بنتيجة مناوشة - مكتتها من كسب ثقة أمراء الحرب الوحشين الذين، في الأحوال العادية، لم يكن لفتاة فلاحية أمية نفع لهم إلا في الفراش. وحيثما تمتنع الوثائق عن البوح، تجرأت أنا على التكهن ببعض أسرار حياتها الاستثنائية؛ لا سيما العرافة بالأشجار، و«سر الملك» الذي شاركته فقط مع الوريث الضعيف للعرش الفرنسي الذي جعلته ملكًا لفرنسا، وكيف أن غزالًا كان يجري ربما يكون قد مكن جانبها من هزيمة الإنجليز في معركة حاسمة.

في الفصل الثامن، نسافر إلى مدريد في زمن الأرمادا الإسبانية⁽⁶⁾. وبما أن النساء مُعَيَّبات عن معظم التاريخ الذي كتبه الرجال، فمن المدهش - جزئيًا بفضل محاكم

(6) الأرمادا الإسبانية (1588م): اسم يُطلق على الأسطول البحري الضخم الذي أعدته إسبانيا في عهد الملك فيليب الثاني بهدف غزو إنجلترا وإسقاط الملكة إليزابيث الأولى. جاءت هذه الحملة في سياق الصراع الديني والسياسي بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا. انتهت الحملة بفشل ذريع للأسطول الإسباني، بسبب العواصف البحرية والمقاومة الإنجليزية، وأصبحت نقطة تحول في تراجع الهيمنة البحرية الإسبانية وصعود إنجلترا كقوة بحرية كبرى.

التفتيش الإسبانية - أن نجا ووصل إلينا سجل يضم ما لا يقل عن 415 حلمًا لامرأة شابة تُدعى لوكريسيا دي ليون. كان أصحاب النفوذ يقدرون أحلامها، حتى أنهم أمروا بتدوينها قبل اعتقالها لأنها كانت تمتلك موهبة رؤية المستقبل واكتشاف ما يجري خلف الأبواب المغلقة. استغلَّت أحلامُها كمصادر للمعلومات العسكرية وكأداة للدعاية السياسية، في وقت كان لا يزال يُنظر فيه إلى رؤى الأحلام باحترام بالغ. وقد رُسِمَ بعضها في لوحات، بينما جُسِدَ بعضها الآخر في عروض مسرحية لجمهور المجتمع الراقي في منزل دوقة أرملة ربما كانت أيضًا عميلةً إنجليزية. كانت جاسوسة الأحلام الجميلة في مدريد هي أيضًا امرأة شابة ذات شهية صحية؛ وبينما نتبع أحلامها، لن نرغب في أن نفوّت مدّ التوق الذي تبعته المراتان.

في الفصل التاسع، نذهب إلى الشاطئ الشرقي لميريلاند بحثًا عن هاريت توبمان الحقيقية. إنها شخصية أيقونية في التاريخ الأمريكي: أنجح «قائدة» في شبكة تحرير العبيد السرية، التي ساعدت العبيد الهاربين على العثور على الحرية قبل الحرب الأهلية الأمريكية. ومع ذلك، فإن سر إنجازات هاريت توبمان نادرًا ما رُوي. لقد كانت حاملة وصاحبة رؤى. ففي أحلامها ورؤاها، كانت تطير كطائر. وربما ارتبطت موهبتها بتجربة اقتراب من الموت في طفولتها، حين ألقي عليها مشرف غاضب قطعة معدنية ثقيلة أصابت جمجمتها بجرح غائر. ستتعلم منها أن الهبات العظيمة تأتي أحيانًا مع جراحنا. وقد صرحت هاريت بنفسها بأنها ورثت مواهب خاصة - منها القدرة على الخروج من الجسد وزيارة المستقبل - من والدها، الذي «كان دومًا يستطيع التنبؤ بالمستقبل». كان والدها ينحدر من غرب أفريقيا، وسنستكشف احتمال أن تكون التقاليد الأفريقية المتمثلة في تتبع الأحلام قد بقيت حية بداخلها. كما سننظر في تأثير أولى النساء السود الواعظات المتجولات، الشجاعات والمُلهِمات، اللواتي ربما ساعدن نموذجهن هاريت على تطوير قدرتها على نقل رؤاها. لقد كانت قادرة على غرس الشجاعة في قلوب الناس بأغانيها.

في الفصل العاشر، نمضي مع تيار نهر حياة مارك توين. لقد عاش متبعًا للمصادفات، وكان يلاحظها. فقد أنقذه تسلسل مذهل من المصادفات من أن يصبح

أول تاجر كوكاين في تاريخ أمريكا الشمالية (قد يبدو الأمر دعابة لكنه ليس كذلك)، ومنحه وظيفة على متن قارب نهري استلهم منها اسمه الأدبي وبعضاً من أفضل كتاباته. أجرى تجارب في «التلغرافية العقلية». وكان حالمًا نهمًا وغزير الإنتاج، وقد أقنعت تجاربه الشخصية بأننا مسافرون عبر الزمن في أحلامنا، قادرون على التفاعل مع شخصيات من عصور مختلفة. وفي إحدى قصصه المتأخرة، كتب: «أعلم يقينًا أننا في أحلامنا نمضي فعلًا في الرحلات التي نظن أننا نمضي فيها، ونرى فعلًا الأشياء التي نظن أننا نراها.»⁽⁷⁾ حياته المفعمة بالقوافي تمثل عينة رائعة لكيفية تشكيل المصادفات والأحلام والخيال لحياة إبداعية.

في الفصل الحادي عشر، ندرس مغامرات الحلم والمصادفة (التزامن) لدى عملاقين فكريين، كارل يونغ وولفجانج باولي. في صداقة إبداعية امتدت خمسًا وعشرين سنة، دفع كلٌّ من عالم النفس والفيزيائي الآخر إلى تجاوز حدود تخصصه، والعمل معًا على تطوير نموذج عملي لكون تتشابك فيه النفس والمادة باستمرار. أدى باولي دورًا محوريًا في تطوير يونغ لنظريته عن «التزامن». لم يُشتهر باولي لمساهماته في فيزياء الكم فحسب، بل أيضًا بسبب «تأثير باولي»: ففي حضوره، كانت أشياء «كبرى» تميل إلى التفجر. سنستكشف لغز «المرأة الصينية» لدى باولي، تلك الشخصية الحاملة الجذابة التي أساء يونغ، وباولي نفسه، فهمها، حتى خرجت من حياته الخُلمية لتظهر في العالم، في قلب ثورة علمية.

في الفصل الثاني عشر، ندخل إلى الخيال الهائل لوينستون تشرشل. كان يمتلك هبة عظيمة، تمكنه من نقل رؤية قادرة على أسر خيال أمة بأكملها، وحشدها للعمل، حتى في مواجهة صعاب تبدو لا تُقهر. سنكتشف أنه، رغم كون تشرشل رجل أفعال دائمًا، فإن أعظم قواه كانت كامنة في خياله. ففي ذهنه، كانت المعارك والأحداث الدرامية الماضية والمستقبلية تتحرك كعربات في موكب من عصر النهضة. امتلك هبات عَراف: فقد تنبأ بـ «أسلحة بحجم برتقالة» قادرة على تدمير مدن كبرى، قبل عقود من اختراع

(7) "My Platonic Sweetheart," in *Tales of Wonder*, ed. David Ketterer (Lincoln: University of Nebraska Press, 2003), pp. 117–126.

القنبلة الذرية.⁽⁸⁾ كان دائم البحث عن تواريخ «بديلة»، يدرس ما قد تؤول إليه الأمور لو اتخذت خيارات مختلفة. شغفه بالسفر عبر الزمن لم يعرف حدًا. وقد بلغت قدرته الشخصية على استشراف المستقبل حدًا جعله يتوقع، قبل أعوام، أن رحيله عن الحياة سيكون في اليوم نفسه الذي فقد فيه والده: الرابع والعشرون من يناير.

التاريخ لا يتعلّق بالماضي وحده، بل بالمستقبل أيضًا. في الخاتمة، نستكشف لماذا قد تجد مجتمعاتنا أنه من الضروري، بل ومن المرغوب فيه، أن تصبح ثقافة حاملة من جديد. نحن بحاجة إلى إحياء مهارات العرّاف الحالم كي لا نفل عُرْضة للمفاجآت الكارثية غير المتوقعة التي تتركنا حكوماتنا ومحللو المخاطر عاجزين تمامًا عن الاستعداد لها. نحن بحاجة إلى رؤية في القيادة. نحن في حاجة إلى أن نتخيّل شفاءنا، وأن نحيا بإبداع أكبر، وأن نتأكد من أن أطفالنا يتلقون تعليمًا حليماً. نرغب في إحياء مهارات «صانعي الطريق» - أولئك الملاحين البولنيزيين القدماء - الذين كانوا يعلمون أن السبيل لعبور ألف ميل في البحر المجهول هو الاستماع إلى أصوات الأرض والبحر الكثيرة، وتنمية رؤية لوجهتنا قوية بما يكفي لجعل تلك الوجهة تقترب منا.

3

لقد ألهم الحلم العلماء. لكن، ماذا نخبرنا العلم عن الحلم؟ أحد أهم الاكتشافات أنه، في المجتمعات الحضرية الحديثة، قلة من الناس ينمون بالطريقة ذاتها التي اعتادها البشر طوال تاريخ تطوّرهم قبل اختراع الإضاءة الاصطناعية. على مدى مئات الآلاف من السنين، كان البشر يعتقدون أن ما يعد به مروجو أدوية النوم - أي ليلة نوم متواصل من سبع أو ثماني ساعات - كان أمرًا غير طبيعي وغير مرغوب فيه.

أجرت مجموعة بقيادة الدكتور توماس وير في المعاهد الوطنية للصحة العقلية في بيشيسدا، بولاية ماريلاند، تجارب قدّمت دليلًا مقنعًا على أن التكنولوجيا الحديثة قد انتزعتنا انتزاعًا من دورتنا الطبيعية. فعندما حُرّم المشاركون من الإضاءة الاصطناعية

(8) Winston Churchill, *Thoughts and Adventures* (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949), p. 189.

لعدة أسابيع، تطور نمط نومهم على النحو التالي: الاستلقاء مستيقظين في الفراش لمدة ساعة أو ساعتين، ثم النوم لمدة أربع ساعات، يليها ساعتان إلى ثلاث ساعات من «اليقظة الهادئة الخالية من القلق»، يتبعها نوم ثانٍ قبل الاستيقاظ للأنشطة اليومية. ومن أكثر النتائج إثارة في دراسة وير ما يتعلق بعلم الغدد الصماء أثناء «المراقبة الليلية»؛ إذ تميزت الفترة الفاصلة بين النوم الأول والنوم الثاني بارتفاع مستويات البرولاكتين، وهو هرمون تفرزه الغدة النخامية ويُعرف بدوره في مساعدة الدجاجات على الجلوس بهدوء فوق بيضها لفترات طويلة. خلص وير إلى أن «المراقبة الليلية» يمكن أن تولد حالات حميدة من الوعي المتغير لا تختلف كثيرًا عن التأمل.⁽⁹⁾

أخضع وير وفريقه المشاركين لتجربة تقوم على «النمط الباليوليثي»، أي العيش بلا أي بدائل للإضاءة الكهربائية، حتى الشموع والنار والمصابيح الزيتية كانت غائبة. ولم يكن نمط النوم المزدوج هذا حكرًا على أهل العصر الحجري، بل ظلّ سمة رئيسية لطريقة الناس في قضاء ليلهم قرونًا طويلة، حتى جاء انتشار الإضاءة بالغاز ثم بالكهرباء ليغير إيقاع الحياة الليلية. يصف تحقيق قانوني أسكتلندي في القرن السابع عشر نساجًا بأنه «قد أخذ قسطه الأول من النوم واستيقظ منه». يقول مؤرخ النوم روجر إكيرش: «حتى العصر الحديث، كان نوم معظم الأوروبيين الغربيين يُقَطَّع بما يصل إلى ساعة أو أكثر من اليقظة الهادئة في منتصف الليل» - وعلى الأرجح معظم شعوب العالم أيضًا - ويضيف أن «النوم المتصل، كما نعيشه اليوم، أمر غير طبيعي».⁽¹⁰⁾

وقد يساعد هذا في تفسير مدى ابتعاد الكثيرين منا - في مجتمعنا الحضري - عن الطبيعة وانفصالنا عن عالم الأحلام. كان «النوم المجزأ» هو القاعدة عند أسلافنا حتى وقت قريب، ولا يزال قائمًا لدى بعض الشعوب الأصلية حتى اليوم. ومثل فرجيل وناثانيال هوثورن، يتحدث شعب تيف في وسط نيجيريا عن «النوم الأول» و«النوم الثاني». يستيقظون في أي وقت خلال الليل ويتحدثون مع أي شخص مستيقظ في

(9) Natalie Angier, "Modern Life Suppresses Ancient Body Rhythm," *New York Times*, March 14, 1995.

(10) A. Roger Ekirch, "Sleep We Have Lost: Pre-Industrial Slumber in the British Isles," *American Historical Review* 106, no. 2 (April 2001): 343-386.

الكوخ، وغالبًا ما يدور الحديث عن أحلامهم.⁽¹¹⁾

الأمر المثير للاهتمام للغاية هو أن الحالة المتوسطة التي أطلق عليها الفرنسيون اسم «دورفي» كان يُنظر إليها على نطاق واسع باعتبارها وقت ممتاز لولادة أفكار جديدة. ففي عام 1769، أعلن التاجر اللندني البارع كريستوفر بينشبيك عن جهاز أسماه «المُذَكِّر الليلي»، وهو لوح من الرق داخل صندوق مزود بشق لإرشاد اليد أثناء الكتابة في الظلام، ليسمح «للفلاسفة، ورجال الدولة، والشعراء، ورجال الدين، ولكل شخص ذي عبقرية أو شاغل أو تأمل» بتسجيل «الأفكار والهواجس التي كثيرًا ما تخطر لهم أثناء ليلة يقظة تأملية». ⁽¹²⁾

من المحتمل أن تكون ثقافتنا الحديثة، من خلال قمعها للدورات اليومية القديمة والطبيعية، قد جعلتنا «محرومين من نومنا الأول، ونخدوعين بأحلامنا وخيالاتنا». ⁽¹³⁾

وعلى الرغم من أن أنماط النوم الحديثة قد تتداخل مع وعينا بأحلام الليل وقدرتنا على مشاركتها، فالتقنيات الجديدة لتصوير نشاط الدماغ تخبرنا بأننا مع ذلك نحلم أثناء الليل - وربما نحلم طوال الليل - وأن بعض أنماط نشاط الدماغ أثناء أحلام النوم تشبه بشكل مدهش تلك المرتبطة بالتدفق الإبداعي في حالات الوعي الأخرى. وتقترح العلوم الجديدة للأحلام ما يلي:

- الجميع تقريبًا يحلمون، كل ليلة، حتى أولئك الذين تعرضوا لإصابات دماغية جسيمة.
- الأشخاص الذين يلتزمون بنمط النوم الحديث يحلمون بمعدل ستة أحلام (أو تسلسلات حلمية) كل ليلة، سواء تذكروها أم لا.

(11) Paul Bohannon, "Concepts of Time among the Tiv of Nigeria," *Southwestern Journal of Anthropology*, no. 9 (Autumn 1953): 253.

(12) *London Gazetteer and New Daily Advertiser*, February 11, 1769, cited in Ekirch, "Sleep We Have Lost," p. 373.

(13) Thomas Middleton, "The Black Book," in *The Works of Thomas Middleton*, ed. A. H. Bullen (New York: AMS Press, 1964), 8:14.

• بينما لا يزال العديد من الباحثين يربطون الأحلام بحالة حركة العين السريعة (REM) التي اكتُشِفَتْ في مختبر بشيكاغو عام 1953، تتزايد الأدلة العلمية التي تشير إلى أن الحلم – أو على الأقل نوعًا من «التفكير» – يحدث طوال الليل.⁽¹⁴⁾

• خلال الحالات الإبداعية للدماغ اليقظ – كما يحدث عندما يدخل عازفو الجاز في ارتجالات موسيقية – يتصرف الدماغ بطريقة تشبه كثيرًا طريقة دماغ الحالم.⁽¹⁵⁾

«هناك نوع من الربط الزماني والمكاني يكمن وراء الحلم، ويشبه الربط الإدراكي الذي يُعتقد أنه يكمن وراء الوعي في حالة اليقظة.»⁽¹⁶⁾ وفي حين أن علماء الأعصاب المعروفون يشتهرون بتقليلهم من شأن الأحلام واعتبارها مجرد هراء، تدعم دراسات حديثة – حتى ضمن هذا الحقل المعرفي المتشكك – فكرة أن للأحلام دورًا بالغ الأهمية في تنمية مهارات التعلم وترسيخ الذكريات. فقد أفاد تور نيلسن وفيليب ستينستروم بأن «الحلم بالمواد التي تعلمها المرء حديثًا يعزز استرجاع تلك المواد لاحقًا».⁽¹⁷⁾

لا يشكّل علم الأحياء العصبي فيما يختص بالنوم والأحلام محورًا أساسيًا لهذا الكتاب. هناك مصادر ممتازة لمن يرغب في معرفة المزيد، بدءًا من كتاب أندريا روك الممتع وسهل القراءة «العقل في الليل»، وصولًا إلى الأوراق العلمية المتخصصة التي جُمِعَتْ في المجلدات الثلاثة لـ «علم الأحلام الجديد» بإشراف ديردري باريت وباتريك ماكنهارا.

(14) British researcher Mark Solms, in his work with brain trauma patients, has supplied evidence that dreaming also takes place in other phases of sleep, when the higher visual centers and the emotional centers of the brain are activated. According to Solms, even someone who has suffered major damage to the brainstem or the visual cortex will continue to dream. See G. W. Domhoff, "Refocusing the Neurocognitive Approach to Dreams: A Critique of the Hobson versus Solms debate," *Dreaming* 15 (2005): 3–20.

(15) Charles J. Limb and Allen R. Braun, "Neural Substrates of Spontaneous Musical Performance: An fMRI Study of Jazz Improvisation," *Public Library of Science Journal* 3, no. 2 (February 2008): 1–9.

(16) Tore A. Nielsen and Philippe Stenstrom, "What Are the Memory Sources of Dreaming?" *Nature* 437, no. 27 (October 2005): 1287.

(17) Ibid., p. 1287.

بينما نخبرنا علوم الدماغ بأمور مهمة عن جودة استقبالنا، فإنها لا تفسر لنا كيف تُصنع أحلامنا، تمامًا كما أن تفكيك جهاز تلفزيون لا يمكن أن يُظهر لك كيف وأين يُنتج الفيلم وكيف ينتقل من شبكة ما إلى شاشتك.

وبعد أن أقررتُ بأن هذا الكتاب لا يقدم تأريخًا لعلم الأحياء العصبي للأحلام، يجب أن أشير إلى أنه أيضًا ليس تأريخًا لعلم نفس الأحلام الحديث، رغم أنه يحتوي على دراسة متعمقة لبعض جوانب نظريات فرويد ويونغ وأساليهما. هناك كتب ممتازة متوفرة تستعرض الكثير من مناهج تحليل الأحلام وتقديرها التي تطورت خلال القرن الماضي. وقد أشرنا بالفعل إلى أنه، عند معظم الثقافات الإنسانية قبل العصر الحديث – والعديد من الثقافات غير الغربية في الوقت الحاضر – لا يتعلق الحلم بعلم النفس الشخصي بقدر ما يتعلق بالتنبؤ والخبرة العابرة للشخصية، وفي هذا الكتاب نتبع التيار الرئيسي للتجربة الحية عبر القرون بدلًا من الاكتفاء بآراء المنظرين حولها.

ويمجد بنا أن نلاحظ أمرًا مقلقًا للغاية بشأن الأحلام وعلم النفس في مؤسساتنا الأكاديمية المعاصرة. إذ لا يجد طلاب علم النفس الجامعيون، على الأقل في الولايات المتحدة، أي إشارة تقريبًا في كتبهم الدراسية إلى أن الأحلام تحمل أي معنى، ويتعلمون أن الخيال لا قيمة له أو أنه مجرد مستنقع من الخداع. وإليك هذا التقرير المقلق: يتعلم طلاب تخصص علم النفس في أمريكا أن «الأحلام مجرد نواتج جانبية عديمة المعنى لعمليات الدماغ. ويُدرّس هذا الرأي في كل كتاب دراسي في علم النفس التمهيدي استُخدم في قسمنا خلال العقد الماضي». مصدر هذا الكلام هو روجر كنودسون، أستاذ علم النفس في الغرب الأوسط الأمريكي. ويشير إلى أنه لا يحدث فحسب تجاهل للأحلام في المنهج القياسي لعلم النفس، بل أيضًا يُستنكر الخيال أو يُستخف به. ففي نفس كتب علم النفس هذه، يُعتبر «الخيال في الأساس مصدرًا لأخطاء في الذاكرة، ولذلك لا ينبغي الوثوق به. ومعظم كتب المقررات التمهيدية لا تتضمن إدراجًا لكلمة «الخيال» في فهرسها؛ وإن وُجد، فهو عادةً ما يُشير إلى قسم يناقش أخطاء الذاكرة.» (18)

(18) Roger M. Knudson and Gillian M. Finocan, "What I Learned Teaching Dreams 101 – a Cautionary Tale," *Dream Time* (Fall 2007): 13. *Dream Time* is published by the International

ويبدو أن المشكلة متجذرة في النظام ذاته.

التاريخ هو ما يقول المؤرخون - ومن يوظفهم أو يؤثر فيهم - إنه كذلك. كتب إدوارد هاليت كار، من منظور مختلف تمامًا، في كتابه «ما هو التاريخ؟»، أن الحقائق، خلافًا لما يقوله المثل القديم، ليست غنية عن البيان. «الحقائق لا تفصح عن نفسها إلا عندما يستدعيها المؤرخ. فالحقيقة تشبه الكيس؛ إذ لا يمكنها أن تقف منتصبة بارزة إلا حين تملأها بشيء.»⁽¹⁹⁾

في هذا الكتاب، استعنت بأنواع من الحقائق غالبًا ما تُترك على هامش السرد التاريخي، أو تُهمَل بالكامل، مما يضر بفهمنا للقوى التي تحرك حياتنا وعالمنا. لم يكن الأمر كذلك في السابق. اقرأ أعمال بلوتارخ عن حياة الإغريق والرومان، وستجد أنه يمنح الأحلام والمصادفات نفس القدر من الأهمية الذي يمنحه للأحداث «الواقعية»، مدرِّكًا أن دراما الحياة تُعرض في أكثر من واقع واحد. اقرأ «مقدمة» المؤرخ المسلم العظيم ابن خلدون في القرن الرابع عشر عن التاريخ العالمي، وستجده يبدأ بوصف الحلم كواحد من الشروط الأساسية الستة لقيام مجتمع إنساني، على قدم المساواة مع المناخ والجغرافيا وتوافر الغذاء. أحد أهدافي في هذا الكتاب هو الإسهام في تجديد فهمنا بأن الحلم يشكل سردية حيوية موازية في رحلة الإنسانية - في الماضي والحاضر والمستقبل - وتحفيز الآخرين على إعادته إلى مكانه المُستحق في دراسة التاريخ.

ومهما بلغ عمق واتساع التنقيب الذي يقوم به الباحث، ومهما نال من إرشاد ودعم من المتخصصين والدلائل المحليين، فإن قدرة أي باحث على استكشاف أكثر من جزء صغير من هذه الأرض الغنية والواسعة تبقى محدودة. وآمل أنني قد قَلَبْتُ ما يكفي من التربة، وكشفتُ عن بريق كافٍ من الكنوز الأعظم تحتها، لألهم الكثير من الباحثين والمنقبين في الأحلام الآخرين ليغوصوا أعمق، حتى يكشفوا عن المدن المدفونة في المخيلة الإنسانية.

الجزء الأول

القوى الدافعة السرية للتاريخ

بدون التاريخ، لا يمكن أن يكون ثمة وجود لعلم النفس.

— كارل جوستاف يونغ، كتاب «ذكريات، أحلام، تأملات»

الماضي لم يمت قط. في الواقع، لم يصبح حتى ماضيًا.

— ويليام فوكنر، رواية «قداس على روح راهبة»

قال الغيلم الوهمي: «اشرح كل ذلك.»

قال الغريفون بنفاد صبر: «لا، لا! المغامرات أولاً؛ الشرح يستغرق وقتًا طويلاً مريعًا.»

— لويس كارول، «مغامرات أليس في بلاد العجائب»

الفصل الأول

المتحدثون باسم الأرض والمسافرون في الأحلام

الملاك ...

ثلاث سنوات انتظرناه بترقب

نراقب عن كثب

أشجار الصنوبر والساحل والنجوم.

منصهرين مع شفرة المحراث ومقدمة السفينة،

كنا نبحث لنكتشف البذرة الأولى

لكي تبدأ تلك الدراما القديمة من جديد ...

عدنا حاملين هذه النقوش المحفورة لفن متواضع.

جورج سيفيريس، قصيدة «الملاك»

تجد قرى قبيلة التيميار⁽²⁰⁾ عندما يفتح لك درب ظليل عبر غابة الأمطار طريقًا إلى
حقلي من أرز التلال أو إلى تجمع من نباتات التَّبْيُوكة التي يصل ارتفاعها إلى قامة رجل.
هؤلاء الناس من غابات ماليزيا المطرية يعيشون بالطريقة القديمة، بالزراعة بأسلوب
القطع والحرق، وينقلون بيوتهم المسقوفة بالقش حينما تُنْهَك تربة أراضيهم. إنهم
يعيشون على تماس وثيق مع أرضهم. جدران بيوتهم، المشيدة على ركائز، مصنوعة من

(20) Temiar: إحدى القبائل الأصلية في ماليزيا، تنتمي إلى مجموعة "الأورانج أصلي" (Orang Asli)، وتعيش تقليديًا في غابات المرتفعات وسط شبه جزيرة الملايو. يشتهر أفرادها بعلاقتهم الوثيقة بالطبيعة، ويمارسون الزراعة، والصيد، وجمع الثمار، ولهم تقاليد ثقافية وروحية فريدة، منها الاعتقاد بأهمية الأحلام في التوجيه اليومي.

أعمدة الخيزران المصطفة أفقيًا، مع فراغات بينها، كما أن ألواح الأرضيات المصنوعة من الخيزران متباعدة، مما يجعل الأرض والأشجار مرئية دائمًا. لا توجد حدود صلبة بين مساكن البشر والعالم الطبيعي.

ليس مستغربًا، في هذا السياق، أن يشعر الناس بألفة مع الأرض تصطبغ بها أحلامهم وتتشكل منها. يؤمنون بأن كل شيء حي وواع، وأن الأرواح البشرية أثناء الأحلام، وهي تسافر خارج الجسد، تلتقي بأرواح النباتات والحيوانات والجبال والأنهار. هناك قوة عظيمة في هذه اللقاءات، خاصةً عندما يهدي نمرٌ أو شجرة الحالم أغنيةً يمكنه لاحقًا أن يستحضر طاقتها من أجل الشفاء. تُسمى هذه الأغنية، التي يتلقاها الحالم في الحلم وتحمل قوة استدعاء حارس حيواني أو إيقاظ جبل، «نورنغ»، والتي تعني حرفيًا «طريق» أو «درب»؛ ذاك النوع من الدروب الذي يمكن أن يقود جسدك بأمان عبر الغابة أو يرشد روحك إلى حيث تنتمي.

تعلمت عن قبيلة التيميار من خلال الجهد البحثي الجميل للموسيقية وباحثة الأنثروبولوجي الأمريكية مارينا روزمان، التي لم تكتفِ بتسجيل أغاني أحلامهم، بل غنت أيضًا ضمن جوقة النساء حينما كان المعالجون يُشِدُّون وهم منكبون على أحد المرضى. لقد استمعتُ إلى تسجيلها لأغنية حلم نمر؛ إنه تسجيل مثير للشعريرة. أعلى من صوت طرق أعواد الخيزران، تسمع الصوت الأجش للنمر وهو ينهض من قيلولته ليصبح حليفًا في الشفاء، عبر طرد روح المريض أو إقراض حيويته الشرسة لشخص مريض.

تكشف إحدى الأغاني التي ترجمتها روزمان عن حكاية اكتساب أغنية شفاء مستوحاة من الطبيعة. تروي القصة عن رجل كان يزرع نباتات الكيرالاد ويعتني بها، مثبتًا التربة حول جذورها بعناية. وحين أزهرت، استنشق غيرها الزكي أثناء نومه، فرأى في حلمه أن إحدى هذه النباتات اتخذت هيئة بشرية، وأبدت رغبتها في الارتباط به، قائلة: «أنت من اخترت.» وحين اتخذت هيئة بشرية، بدأت النبتة بالغناء، مانحة الحالم أغنيةً جديدة للشفاء. لاحظ المراحل المتابعة في هذه العملية، والتي تتواصل كما

لو كانت نموًا طبيعيًا لثمرة أو زهرة؛ تبدأ باتصال مع العالم الطبيعي عبر الزراعة والرعاية، ثم إطلاق العبير، ثم تحول الروح إلى شكل بشري، فبداية الحوار، وأخيرًا إنشاد الأغنية. (21)

الشعوب التي تعيش على مقربة من الأرض، مثل قبائل التيميار، تعتبر الحلم وسيلة للتواصل مع الأرض وكل ما يشاركونهم الحياة عليها. كل شيء حي. كل شيء سيتحدث إليك - وسيتحدث من خلالك - إذا أوليت انتباهك. فالحلم لا يقتصر على ما يحدث أثناء الليل؛ بل أيضًا يتطلب أن تكون متناغمًا، عند كل منعطف، مع الأرض الناطقة.

ذات مرة التقيت امرأة رائعة تدعى فريدا جاك، كانت قد شغلت آنذاك منصب أم عشيرة السلاحف لشعب الأونونداغا، حراس النار المركزية لاتحاد أمم الهودينوسوني الستة (الإيروكواس). قالت لي أم العشيرة: «لم أعد أحلم كثيرًا أثناء الليل. رأسي امتلأ بالثقافة الأمريكية الرديئة التي تشبه طعامهم غير الصحي. الآن أحلم بهذه الطريقة: كنت أتساءل في نفسي عما إذا كان ينبغي لي القيام برحلة إلى الغرب. وفي تلك اللحظة، رأيت صقرًا يطير غربًا، تتبعه ثلاث إوزات تطير في تشكيلة رأس السهم. وصلتنى الرسالة من السهم المشير غربًا في السماء.»

الحالمون من السكان الأصليين لا يكتفون بالإنصات إلى الأرض؛ بل يتحدثون باسمها ويسعون للحفاظ على شبكة الارتباط بين البشر وكل مظاهر الحياة. أتذكر صديقي إد هاركنز، وهو محارب قديم في حرب فيتنام من أصول أمريكية أصلية مختلطة، يعيش حاليًا في سفوح جبال كاسكيد بولاية واشنطن، ويعمل مع مدرسة بيئة برية، يتتبع مسارات الأسود الجبلية الأمريكية والدببة، ورحلات النسر والغربان، ودورات حياة السلمون وتوت السلال. بعد الكارثة البيئية الناتجة عن تسرب نفطي من ناقلة «إكسون فالديز» في ألاسكا، جلس إد في مكانه المفضل على مصب بيوجت ساوند، يتأمل الأذى الذي أصاب الأسماك والحيتان والبحر. قال: «دون تفكير كثير، قدمت صلاة قصيرة إلى مياه المصب، عبر تقديم يدي للمياه، معبرًا عن تكفيري عما ما

(21) Marina Roseman, *Healing Sounds from the Malaysian Rainforest: Temiar Music and Medicine* (Berkeley: University of California Press, 1993), pp. 52–53.

حدث هناك. كانت صلاة قصيرة لمخلوقات البحر والطيور المتضررة من تلك الكارثة، أطلب فيها مسامحتهم.»

فيما بعد، وأثناء قيادته عبر ازدحام مروري، بدأ يسمع أصواتًا نبضية عميقة تصل إليه رغم ضجيج الطريق السريع. استغرق الأمر بعض الوقت ليدرك ما كان يسمعه. في تلك الليلة، بينما كان في غرفة مكتبه، سمع الأصوات مجددًا وأدرك فجأة أنها كانت أغاني الحيتان. قال: «ظهر في مخيلتي سربٌ من الحيتان الرمادية. كانوا ينادونني وهم يصفقون بأجنحتهم الجانبية الطويلة، يعبرون عن امتنانهم لصلاتي المتواضعة طلبًا للمغفرة.»

عندما أستحضر مشهد ذلك الرجل وهو يقدم يده للمياه مع صلاته، أتساءل هل سيأتي يوم لن يبقى فيه من يتحدث إلى قوى الطبيعة ويطلب الغفران لما فعله البشر بباقي أشكال الحياة على الكوكب؟ إذا أتى هذا اليوم، فكما تقول نبوءات الشعوب الأصلية، ستكون نهاية زمن البشرية على الأرض.

وجهة نظر معظم شعوب السكان الأصليين هي أن الحلم الليلي إما أن يكون رحلة تقوم بها الروح، أو استقبلاً لزوار. فهم يقرون بوجود جوانب متعددة للروح أو النفس، التي يتمتع بعضها بقدرة كبيرة على التنقل أثناء النوم والحلم.

عندما انتقلت إلى مزرعة تقع على أطراف أراضي قبائل الموهوك الإيروكواسية التقليدية في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، بدأت أحلم بامرأة حاملة ومعالجة من زمن بعيد. وعندما لجأت إلى شيوخ الإيروكواس لمساعدتي على فهم هذه الأحلام، قال لي أحدهم ببساطة: «لقد قمت ببعض الزيارات وتلقيت بعض الزيارات.»

يؤمن شعب تشيكويتانو في شرق بوليفيا بأن للإنسان ثلاث أرواح، تُعرف بروح النَّفْس، وروح الدم، وروح الظل. أثناء الأحلام، تبقى روح النَّفْس مع الجسد، بينما يمكن لروح الدم (أوتور) أن تتجول قليلاً. أما روح الظل (أوسييس)، فبإمكانها القيام برحلات أطول، مغادرة الجسد وروح الدم خلفها. وفي الصباح، تعود روح الظل لتروي للروحين الآخرين مغامراتها. وتُنتج رحلات روح الظل الطويلة

ذكريات عن أحلام «كبيرة» يدخل فيها الحلم عوالم وأزمنة أخرى.⁽²²⁾

لكثير من الشعوب الأصلية، يُعد الحلم نشاطاً اجتماعياً بامتياز، من عدة نواحٍ. عندما تسافر بجسدك الحُلُمي، تذهب إلى أماكن وتلتقي بأشخاص؛ قد يكونون من القرية أو المخيم المجاور، أو كائنات من عالم آخر. كما أن هناك أحلاماً تفاعلية تلتقي فيها بحالين آخرين وتخوض مغامرات معهم. والحلم اجتماعي أيضاً من ناحية أنك تتحدث عن أحلامك مع الآخرين، ربما مع من يصحو معك في الكاينة أو البيت الكبير في منتصف الليل، حيث يساعد أحدهما الآخر على فهم ما جرى في الحلم وما ينبغي فعله بناءً عليه. من عادة شعب الكانييلوس كويتشوا في الإكوادور أن ينام الزوج والزوجة كلٌّ على جانب من جوانب مركز المنزل، وينطلقان في رحلات حُلُمية من جهتيهما المختلفتين. وكثيراً ما يستيقظان أثناء الليل ويتحدثان عن تجاربهما، وقد يتفقان على العودة إلى مكان حُلُمي معين ومواصلة المغامرة معاً.⁽²³⁾ ومع ذلك، هناك أحلام قوية أو سوداوية لدرجة أنك قد تحتفظ بها لنفسك أو تشاركها فقط مع متخصصين - كالشامانات أو معالجي الأرواح أو جدتك المفضلة - ممن لديهم معرفة بهذه الأمور.

ليس من الغريب بين الحالمين من السكان الأصليين أن يجد اثنان أو أكثر أنفسهم، مثل الكانييلوس كويتشوا، يخوضون مغامرات مشتركة داخل عالم الأحلام. وقد تُعتبر تجربة الحلم التفاعلي ذات موضوعية أكبر؛ فإذا كان أكثر من شخص قد عاش التجربة ذاتها، فثمة سبب أقوى للإيمان بما حدث، أو بما قد يحدث مستقبلاً كما كشفه الحلم. فقد روت المعالجة من شعب الداين (النافاهو)، المشهورة باسم ووكينغ ثاندر، أنها وزوجها حلما في الليلة نفسها بشراء سيارة جديدة. وفي كلا الحلمين، تعرضا لحادث فور مغادرتها صالة البيع. وبثقة منهما بأن من المرجح أن يقع حدثٌ مستقبلي كما حلما به،

(22) Jürgen Riester, "Curanderos y brujos de los indios chiquitanos," *Revista de la Universidad Boliviana "Gabriel René Moreno"* 16, no. 31-32 (1972): 5-17. "Chiquitanos" (little people) was a name imposed on a number of peoples of eastern Bolivia and Mato Grosso amalgamated by the Jesuit missions in the seventeenth century.

(23) Norman E. Whitten Jr., *Sacha Runa: Ethnicity and Adaptation of Ecuadorian Jungle Quichua* (Urbana: University of Illinois Press, 1976), pp. 58-59.

قررا تأجيل شراء السيارة شهراً كاملاً، وبذلك تجاوزا الإطار الزمني الذي كشفه الحلم، ولم تحدث لهما أية مشكلات. (24)

دعونا نكون واضحين في هذا الأمر: بالنسبة للشعوب التي تعيش حياة تعتمد على الكفاف وتكاد تكفيهم، فإن الحلم يحمل أهمية عملية كبيرة. فالحلم الماهر غالباً ما يكون صياداً ناجحاً، يجد الصيد أو الطريدة في الوقت المناسب. فقد شرح أحد صيادين الثعالب من شعب التشوكتشي أنه كان يعرف دائماً متى تكون الثعالب قد وقعت في فخاخه، لأن الليلة التي تسبق العثور عليها كان يحلم فيها دوماً بامرأة برية ذات شعر أحمر تهاجه. أحياناً كانت تهاجه ثم تهرب، وإذا تمكن من السيطرة عليها وممارسة الحب معها في الحلم، كان يستيقظ واثقاً بأنه سيجد ثعلباً في فخه؛ ولم يخيب ظنه أبداً. كما يؤمن صيادو الجيفارو بأن لقاء امرأة جذابة في الحلم يرمز إلى صيد جيد، وبعد هذه الأحلام يخرجون للصيد مع بزوغ الفجر. (25)

هناك ممارسة منتشرة بين الشعوب القديمة والسكان الأصليين، تتمثل في فتح باب الاتصال بالمرشدين والحلفاء الروحيين من خلال التماس الحلم في مكان خاص في الطبيعة. ويُعدّ البحث عن رؤى كهذا في سن البلوغ مرحلة أساسية في الحياة في العديد من الثقافات التقليدية. فمن بين تقاليد شعب الأوجيوا بأمريكا الشمالية، أنه قد يُطلَب من الفتى الذي يقترب من سن الرجولة أن يجلس في «عُش» - منصة مشيدة عاليًا بين فروع شجرة - لعدة أيام وليالٍ، داعياً إلى لقاء مع «باواغان»، أي زائر من زوار الأحلام. أحياناً، يُدعم بحث الصبي عن رؤياه برجل بالغ يقرع طبلاً. وفي إحدى الروايات الكلاسيكية، ظهر باواغان لفتى في هيئة بشرية وقال له: «لقد أصبحت قوياً الآن بما يكفي لأن تذهب معي». ثم بدأ الزائر بالرقص، وبينما كان يرقص تحوّل إلى نسر ذهبي. نظر الفتى إلى جسده فرأى أنه مغطى بالريش أيضاً. فرد النسر جناحيه

(24) Nancy Connor and Bradford Keeney, eds., *Shamans of the World* (Boulder, CO: Sounds True, 2008), p. 46.

(25) Michael F. Brown, "Ropes of Sand: Order and Imagery in Aguaruna Dreams," in *Dreaming: Anthropological and Psychological Interpretations*, ed. Barbara Tedlock (Santa Fe, NM: School of American Research Press, 1992), p. 157.

العظيمين وارتفع في السماء، وتبعه الفتى وقد تحول إلى هيئة نسر. (26)

تُعد العلاقة العملية القوية مع الباو اغان أمرًا ضروريًا لصحة الشخص ونجاحه. غالبًا ما يتضمن اللقاء التمهيدي إرشادات للاجتماعات المستقبلية. قد يُظهر الباو اغان للحالم مكانًا آخر في الطبيعة يمكنهما الالتقاء فيه مجددًا، وقد يكون هذا المكان داخل صخرة، حيث يمكنهما الاجتماع في حجرة سرية. وقد تكون هذه الصخرة صغيرة بما يكفي لحملها في حقيبة.

تتضمن ممارسة الحالمين القدامى والسكان الأصليين في كثير من الأحيان إنشاء مثل تلك المواقع المستقرة في نطاق الأحلام، حيث يمكن للحالمين والكائنات القاطنة لهذه العوالم أن يلتقوا لخوض مغامرات أخرى. ويختبر الشامانات المتمرسون المتدربين من خلال إعطائهم بعض المعالم لمكان ذي قوة في عالم الأحلام، ثم يطلبون منهم الترحال بالاستعانة بهذه العلامات والتوغل إلى ما وراءها في أراضٍ لم تُوصف لهم مسبقًا. وعند عودتهم، يُطلب من الحالمين المتدربين وصف الأماكن التي زاروها بتفاصيل مقنعة ودقيقة، فإذا تطابقت أوصافهم مع ما يعرفه الشامانات،⁽²⁷⁾ كان ذلك دليلًا على أنهم قد ذهبوا بالفعل إلى حيث أرسلوا وأكملوا مهمتهم.

الحلم في زمن أحلام السكان الأصليين

يؤمن السكان الأصليون في أستراليا أننا ندخل إلى هذا العالم عن طريق الحلم، ونخرج منه عن طريق الحلم كما شرح لي المعالج الطبيعي والحكيم التقليدي بيرنهام: «نحن نخاطب روح الطفل قبل أن يرى النور». وإذا كان الأب المنتظر من الحالمين، فعادةً ما يكون أول من يلتقي بروح الطفل في الأحلام. وغالبًا ما تتكشف هذه

(26) Irving A. Hallowell, *Culture and Experience* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1955), p. 178.

(27) الشامان هو ممارس روحي أو طبيب تقليدي، غالبًا ما يرتبط بالمجتمعات الأصلية والقبلية، ويعتقد أنه يمتلك القدرة على التواصل مع عالم الأرواح. لديه معرفة واسعة بالأعشاب والشفاء الروحي، ويستخدم هذه المعرفة لمساعدة مجتمعه. غالبًا ما يتم تصوير الشامان على أنه قائد ديني أو كاهن، ويعتقد أنه قادر على شفاء المرضى، والتواصل مع الأرواح، ومرافقة أرواح الموتى إلى العالم الآخر. (المترجم)

اللقاءات الحلمية في أماكن مائية موجودة في العالم الطبيعي – مثل البرك المائية، أو ضفاف الأنهار الضحلة، أو الشلالات – حيث تلعب روح الطفل مع أرواح أخرى من نوعها، دون أن تكون مقيدة بشكل واحد. فقد تظهر كطائر الرفراف أو كخلد الماء، أو كسمكة أو تمساح. وقد يضطر الحلم إلى التفاوض مع روح الطفل، مقدّمًا لها الأسباب التي تدفعها للدخول في جسد بشري. وفي النهاية، يقوم الحلم بدور دليل الروح، مرافقًا الروح القادمة إلى رحم الأم.

وفي الطريق إلى الموت، يظهر دليل الروح من العالم الآخر. إذ تأتي الأرواح الراحلة وكائنات من الأسلاف، تسكن في زمن الحلم، لتزور الشخص المحتضر في أحلامه، مهيئَةً إياه لرحلته. وعندما تغادر الروح الجسد عند الموت، يرافقها هؤلاء الأدلاء من زمن الحلم طيلة الطرق المؤدية إلى الحياة الآخرة، والتي قد تتضمن عبور بحر، أو نزولًا عبر كهف، أو صعودًا عبر شجرة سحرية جذورها ممتدة إلى «العالم العلوي».

تتناقض رؤية السكان الأصليين للأحلام مع تصور فرويد، الذي كتب أن الحلم «ليس لديه ما يوصله إلى أي شخص آخر».⁽²⁸⁾ يعرف السكان الأصليون الأوائل أن الأحلام تعني كل شيء، وأنها نشاط اجتماعي بامتياز. ففي الأحلام نلتقي بأشخاص وكائنات أخرى، ومشاركة الأحلام ليست مسألة تفكيك نصوص غامضة بل وسيلة لاكتساب الحكمة العملية، وتوجيه المجتمع، وتقديم ترفيه عظيم. وبين مجتمعات الرُّحَل، يعد الاستماع إلى حلم حول النار أو أثناء احتساء كوب من الشاي الصباحي أمتع من الذهاب إلى السينما؛ وقد يغطي الحلم طيفًا واسعًا من الرومانسية إلى الرعب، ومن «ستار تريك» إلى المسلسلات اليومية.

تشارك قبائل السكان الأصليين في أستراليا، التي تزيد عن خمسمائة قبيلة، في هذا الفهم؛ فالحلم رحلة. وعندما نحلم، «تذهب الروح في رحلة استكشافية»، كما تقول نونغوراي، وهي امرأة حكيمة من شعب الكوكاتجا في صحراء أستراليا الغربية. توضح نونغوراي، وهي معروفة بقدرتها الكبيرة على الحلم الواعي، أن من يعرف كيف يفتح

(28) Sigmund Freud, *Introductory Lectures on Psychoanalysis*, trans. Sydney Walker (London: Penguin Books, 1991), p. 231.

الـ«تجورني» يستطيع أن ينطلق بخياله إلى عوالم مثيرة، ويعود ومعه «حكاية رائعة». وغالبًا ما تُترجم كلمة «تجورني» إلى «الرحم» أو «البطن»، بينما يمكن النظر إليها، لمن يهتمون بمراكز الطاقة في الجسد، بوصفها موضعًا يرتبط بتدفق طاقة خاصة أثناء الرحلة الحلمية؛ حيث تفتح الحاملة على طاقة داخلية دافقة، بينما يطلق الحالم طاقة توجهه نحو عالم آخ.

إذا كنت تعلم أن حلمك هو رحلة أو زيارة من مسافر آخر في الحلم، فلن تهتم كثيرًا بالتحليل الذي يختزل التجربة الحلمية إلى قائمة رموز تفسّر معانيها لاحقًا. فعندما يتشارك السكان الأصليون التقليديون أحلامهم، يهتمون بمعرفة بمن ومتى وأين. من كان ذلك الساحر الذي رأيته يشير إليّ بالعظْمَة؟ من كان ذلك الشخص الذي جاء إلى مخيمي طالبًا مني علاقة جسدية؟ أين يقع الكهف الذي جرت فيه المراسم الحلمية؟ ومتى ستعطل السيارة؟

عندما تعلم أن الحلم تجربة حقيقية، فإنك تسعى إلى استيضاح المعلومات لفهم ما يجب فعله بها. قد ترغب في سرد حلمك عن الساحر على مسامع الجميع في المعسكر لطرد الساحر الحقيقي، كما لاحظت عالمة الأنثروبولوجي سيلفي بوارير في صحراء غرب أستراليا. وربما تسعين إلى لقاء محبوبك في الحلم (إذا كانت التجربة ممتعة)، أو تجديد وسيلة لمنع ذلك الشخص من التعدي على مساحتك النفسية (إذا لم تكن التجربة كذلك). وربما تسافر إلى الكهف الذي حلمت به وتحتفل بطقس يكرّم ما حدث بالفعل في عالم الحلم ويؤكدده. وربما تعمل على إصلاح سيارتك قبل أن تتعطل.

يعتبر شعب اليولنغو في شمال شرق أرض أرنهيم الأحلام ميدانًا للتفاعل بين الأحياء والأموات. وقد يكون هذا مفيدًا إذا كان اللقاء مع الروح العليا للراحل أو مع أحد الأجداد الطيبين، لكنه قد يكون خطيرًا إذا حدث تواصل مع الجانب الأدنى من روح الميت، المعروف باسم «موكوي». يوضح اليولنغو أمرًا غالبًا ما يكون مُشوّشًا لدرجة میؤوس منها في المجتمع الغربي المعاصر: ضرورة التمييز بين طبيعة ومصير

جوانب الروح المختلفة التي تبقى بعد موت الجسد، والتعامل مع كل منها بما يليق.⁽²⁹⁾

ينظر السكان الأصليون الأستراليون إلى الأحلام باعتبارها موضع اللقاء مع المرشدين الروحيين والمعالجين المقدسين، الذين غالبًا ما يظهرون في صورة حيوانات طوطمية (الطوطم هو أي كيان يؤدي دور الرمز للقبيلة)، ولكن قد يأتون بأشكال أخرى كثيرة. ومنذ وصول المبشرين، أصبح الزائرون الحثميون للسكان الأصليين يشملون المسيح والملائكة. فقد حلمت امرأة من اليولنغو أن «الأخوات البطلات» – المؤسسات الأسطورية لشعبها – آتين إليها وهن يرقصن متألقات بريش طيور اللوريكيت، وقد انضم إليهن يسوع المسيح مبتسمًا. ومعاً أرينها مكانًا مقدسًا كان يُستخدم قديمًا في طقوس الخصوبة، وقد نسيه مجتمعهما، وحَثَّنها على إعادته مكانًا للعبادة.⁽³⁰⁾ كان من رسائل هذا الحلم أن إدراك جوهر الدين يجعل التقاليد المختلفة تتعايش دون صراع.

يعلم السكان الأصليون الأستراليون جيدًا أن الحلم يمكن أن يكون فعلًا نشطًا؛ فيمكنك أن تقرر إلى أين تذهب، ويمكنك السفر بوعي. يمكنك الانتقال عبر الزمن والمكان أو العبور إلى أبعاد أخرى. يمكنك أن تلتقي بحالين آخرين وتنطلقوا في رحلات مشتركة. ويتلقى الشامانات تكليفهم الروحي وكثيرًا من تدريبهم بهذه الطريقة.

ولا يعيش السكان الأصليون الأستراليون الأوائل في وهم ضرورة النوم من أجل الحلم. إنهم يحلمون مع الأرض الحية بطريقة تحيّر الناس الحضريين المقطوعين عن جذورهم. فكل شيء في تلك الأرض حي وواعٍ، ولكل مكان حلمه الخاص. وكما يقولون في شبه جزيرة كيب يورك: «لا شيء ليس بشيء»، أي أن كل شيء له معنى.

ترتبط قوى عالم الحلم ارتباطًا وثيقًا بالأرض. ولا يمكن العثور عليها إلا إذا كنت

(29) Howard Morphy, *Journey to the Crocodile's Nest* (Canberra: Australian Institute of Aboriginal Studies, 1984).

(30) Fiona Magowan, "Syncretism or Synchronicity? Remapping the Yolngu Feel of Place," *Australian Journal of Anthropology* (December 2001).

تمتلك ما يسميه سكان هضبة كيمبرلي في شمال غرب أستراليا «كورارا»، وهي القدرة على «مخاطبة الأرض». وإلا، كما هو الحال عندما تظهر تماثيل وانجينا الغامضة عديمة الفم من كيمبرلي لأولئك الذين لا يسمعون الأصوات الداخلية، يكون المشهد صامتاً. قد تستمع إلى طائر الرفراف، فهو بارع في اكتشاف الأشباح. إذا سمعته يطلق نداءه «إكوي، إكوي، إكوي»، فعليك أن تحذر من شبح شرير قد يجلب المرض أو حتى الموت.

في الأرض الناطقة، لمن يستطيع السمع، هناك أماكن تتحدث بصوت أعلى وأقوى من غيرها. قبل أربعة آلاف عام، في موقع يُدعى «إيغلز ريتش» في منتزه ووليمي الوطني - على مسافة قصيرة بالسيارة من سيدني - أنشأ فنانون الصخور من السكان الأصليين صوراً مذهلة لكائنات مركبة: شخصيات بشرية برؤوس طيور، وكائنات هجينة نصفها إنسان ونصفها كنغر. تذكّرنا هذه الصور بأهة مصر والمتحولين شكلياً في كهوف لاسكو وألباين. إن ملامسة هذه الصور تمكّنك من امتصاص قوتها عبر الجلد - وهي قوة قد تكون فوق احتمال من ليسوا من أهل الخبرة - وتجعلك تتواصل مباشرة مع طاقات زمن الحلم.

لنكن واضحين: هناك عالم الحلم أو زمن الحلم، وهو للعالم الروحي والأسلاف، وهناك الحلم اليومي العادي. الاثنان يتداخلان لكنهما ليسا متماثلين. يستخدم شعب الكوكتاجا، شأنهم في ذلك شأن قبائل أخرى كثيرة من صحراء غرب أستراليا، كلمة «تجوكوربا» للدلالة على الحلم المتعلق بالأسلاف، ولكنهم يستخدمون مصطلحاً مختلفاً - «كابوكوري» - للإشارة إلى تجارب الأحلام الشخصية.

زمن الحلم هو زمن الخلق، وحكايات الحلم غالباً ما تحكي لنا عن نشأة الأشياء. لكن زمن الحلم ليس شيئاً حدث منذ زمن بعيد؛ ففي زمن الحلم، كل شيء يحدث الآن. يسمي السكان الأصليون زمن الحلم «الكل في آن واحد». إنه الخاضعة الكبرى للحياة، أصل كل ما يتجلى في العالم. إنه ليس منفصلاً عن العالم المادي؛ بل هو النبض الداخلي للأرض.

قد تساعدنا علوم القرن الحادي والعشرين على فهم علم العصر الحجري القديم المرتبط بأقدم تقاليد الأرض المستمرة. قد يحتوي زمن الحلم على الأبعاد الستة (أو السبعة) الخفية للكون المادي التي تفترضها نظرية الأوتار الفائقة. زمن الحلم هو الشبكة متعددة الأبعاد التي تطفو فيها الحقيقة الثلاثية الأبعاد. ومن خلال دخول عالم الحلم، قد نصبح قادرين على الوصول إلى البحر الخضم من الاحتمالات الذي تنبثق منه أحداث عالمنا ثلاثي الأبعاد.

قد تفتح أزمة مَرَضِيَّة بوابات عالم الحلم. لقد تعلمت شيئاً عن هذا وأنا طفل. في سن التاسعة، في مستشفى بمدينة ملبورن، حيث خضعتُ لعملية استئصال طارئة للزائدة الدودية، خرجت من جسدي ووجدت نفسي منجذباً نحو عالم داخل العالم. هناك، استقبلتني كائنات طويلة شاحبة، ربّتي كواحدٍ منها. بدا أنني قضيت حياة كاملة معها، حتى أصبحت أباً وجداً، إلى أن دفنت جسدي - ثم وجدتُ نفسي وقد عدت فجأة إلى جسد الطفل البالغ من العمر تسع سنوات في المستشفى، وعلمت أن مؤشراي الحيوية قد توقفت لعدة دقائق، وكان الجميع قلقين من أن أكون قد مِتُّ.

بعد سنوات عديدة، التقيت بفنان من السكان الأصليين في أرض أرنبيم، أخبرني أنه حين يمرض، يختار أن يعيش فترة مع ما يُطلق عليه «مخلوقات الميمي». تُصوّر هذه الكائنات في الرسوم والنحت على أنها طويلة ونحيلة للغاية. ويُقال إنها أقدم من أفعى قوس قزح، وتعيش داخل الصخور، وتتنقل عبر ما يشبه ما كان يسميه أسلافي السلتيون «الأماكن الرقيقة»؛ وهي نقاط خاصة تُفتح فيها بوابات إلى عوالم خفية، عندما تُنفخ على شقوق الصخور.

على الرغم من أنني عشت معظم حياتي البالغة خارج موطني الأصلي أستراليا، إلا أن شيئاً من عالم الحلم لا يزال حياً في داخلي، وكائنات زمن الحلم تعبر أحياناً المحيط لتناديني لكي أعود. في محطات حاسمة من حياتي وحياة أفراد أسرتي، كان نسر البحر الذي أتذكره من طفولتي في كوينزلاند يدخل فضاء أحلامي ويطير بي عائداً إلى أستراليا. في إحدى المرات، قادني نسر البحر في رحلة أوصلتني إلى مكان مقدس لشعب

المونونجالي في جنوب كوينزلاند. وعندما سمع «رجل روحاني» من شعب المونونجالي حلمي نتيجة لقاء جرى «مصادفةً» في بلدة بيوديزرت، قادني إلى مكان القوة بالضبط على منعطف نهر موحل، وهو نفس المكان الذي كان قد سبق أن رأيته في حلمي.

قد تقودنا أحلامنا إلى داخل عالم الحلم وإلى طرق في الرؤية والمعرفة كانت مشتركة بين جميع أسلافنا. وبهذه الطريقة، قد تفتح لنا الأحلام الطريق نحو استعادة الروح الثقافية والتّثام العلاقة بين نوعنا البشري والعالم الطبيعي.

الحلم على الطريقة المصرية

كان المصريون القدماء يفهمون أنه، في الأحلام، تفتح أعيننا. فكلمة حلم لديهم، «رسوت» rswt، مشتقة من جذر يعني «يستيقظ». وكانت الرموز الهيروغليفية التي تُكتب بها الكلمة تتبعها علامة نحوية تُعرف بـ «المحدّد النحوي»، مُصَوِّرة كعين مفتوحة على اتساعها.

آمن المصريون القدماء بأن الآلهة تخاطبنا في الأحلام. وكما تروي قصة النبي يوسف وفرعون في الكتاب المقدس، كانوا يولون عناية فائقة برسائل الأحلام المتعلقة بالمستقبل المحتمل. كما مارسوا استحضر الأحلام طلباً للإرشاد والشفاء في المعابد والأماكن المقدسة. وكانوا يدركون أن استرجاع الأحلام والعمل بها يُنمّي فن الذاكرة، ويعيدنا إلى معارف سابقة لرحلتنا الحالية في الحياة، ويوقظ صلتنا بتجارب حياتية أخرى.

وطوّر المصريون أيضاً ممارسةً متقدمةً للسفر الواعي عبر الأحلام. فقد عمل الحالمون المدربون كعرّافين، ومشاهدين عن بُعد، وممارسين للتخاطر عن بُعد، وكانوا يقدّمون المشورة في شؤون الدولة والإستراتيجيات العسكرية، ويؤمّنون شبكة تواصل عقلية بين المعابد والمراكز الإدارية البعيدة.

مارسوا تحويل الشكل (التحول إلى هيئة كائنات أخرى)، وعبروا الزمن والمكان بأجسادهم الحُلُمية التي على هيئة طيور وحيوانات. نراهم في تصورات كاهن السيم

(أو الستيم)، المتخصص في توجيه السفر النجمي وخاصة الرحلة إلى العالم الآخر، الذي يرتدي جلد فهد، وفي تنورة جلد الثور التي كان يرتديها الفرعون في طقوس لتوحيد العوالم، وكذلك في التعاويذ الخاصة بالتحول إلى طائر، المسجلة في بردية آني، المشهورة باسم «كتاب الموتى» المصري. ويُعتقد أن الآلهة الحيوانية الشكل في مصر - برؤوس الكباش أو الصقور أو الأبقار أو التماسيح - قد وُلدت من مستوى بدائي من التجربة الشامانية الأفريقية.

من خلال السفر الواعي عبر الأحلام، استكشف «الرحالة الدائمون» في مصر القديمة طرق العالم الآخر والكون المتعدد الأبعاد. وكان مفهومًا أن التحول الحقيقي والتنشئة الروحية يحدثان في واقع أعمق، يمكن الوصول إليه عبر رحلة الحلم خارج الجسد.

ويبدو أنه في عصور الأسرات الأولى، كان يُتَوَقَّع من الملك الحقيقي لمصر، والذي كان من ألقابه الشرفية «سيد العالمين»، أن يكون قادرًا على السفر بين العوالم. في أقدم نسخة من احتفال الـ «حِب سِد»، الذي كان يُقام في السنة الثلاثين من حكم الفرعون، كان يُطلب من الملك أن يرتحل خارج الجسد، وخارج حدود الموت، ليثبت جدارته بالاستمرار على العرش. وبقيادة شخصية أنوبيس، الذي اعتبره المصريون القدماء رمزًا للحراسة والعبور إلى العوالم الأخرى، كان يُصوَّر الفرعون في النصوص الجنائزية وهو يهبط إلى العالم السفلي في طقس رمزي. كان يُطلب منه - حسب المعتقد الفرعوني - أن يمرّ بتجربة الموت الرمزي، وأن «يلمس أركان الأرض الأربعة»، ثم يتقمص هيئة أوزوريس (الذي ارتبط بفكرة البعث)، ليعود بصورة جديدة تعبر عن التحول والتجدد الروحي. وتُظهر نصوص الأهرام والمقابر الملكية أن هذه الطقوس كانت ذات بعد رمزي عميق، يتجاوز مجرد الاستعداد للموت. وتشير دراسات حديثة إلى أن بعض هذه الطقوس قد مثلت محاولة للاتصال بالعالم الآخر أثناء الحياة، بهدف اكتساب معرفة رمزية بالوجود الغيبي، وتعزيز السلطة الروحية لدى الحاكم، كما في مفهوم "اتحاد القوى" أو "توحيد العوالم"، وفقًا لتصورات ذلك الزمن.⁽³¹⁾

(31) Jeremy Naydler, *Shamanic Wisdom in the Pyramid Texts* (Rochester, VT: Inner Traditions,

كان مرشدو الأحلام في مصر القديمة يؤمنون بأن رحلة الحلم قد تأخذ المسافر إلى النجوم، وبالتحديد إلى نجم الشعرى اليمانية، الذي كان يعتقد الخبراء المطلعون من المصريين أنه مصدر الوعي الأعلى، ووجهة الأرواح المرتقية بعد الموت، وموطن الكائنات العليا التي كانت تتابع شؤون الأرض عن كثب.⁽³²⁾

عندما نبحث عن مصادر قديمة لكل هذا، نجد أنفسنا أمام تحدي فك رموز نصوص متفرقة، بعضها جُمع على مدى قرون عديدة بأيدي كُتّاب ورعين جمعوا مزيجًا مختلطًا لمواد من تقاليد مختلفة ومجموعات آلهة متنافسة. وقد اشتكى واليس بودج قائلاً: «يبدو أن المصري لم يتخلَّ قط عن أي معتقد كان قد آمن به سابقًا.»⁽³³⁾ عندما نتأمل بانبهار الكتب المصورة المصرية التي تعرض رحلات الروح ومحنها بعد الموت – والعديد من جوانب طاقة الروح التي تبقى بعد الفناء – سرعان ما ندرك أنه لكي نفهم مصدر تلك الرؤى ودقة تلك الخرائط، يجب علينا أن ننفذ إلى حيز أعمق.

في العصر الهلنستي – زمن كليوباترا – ازدهرت مدارس الأحلام في معابد سيرابيس، الإله التوفيقي الذي جمع بين خصائص هاديس، وأوزوريس، وأبيس، الثور المقدس. ومن القرن الثاني قبل الميلاد، لدينا برديات تسجل يوميات أحلام بطليموس، الذي عاش سنوات طويلة في «كاتوخي»، أي العزلة المقدسة، في معبد سيرابيس بمدينة ممفيس. كان بطليموس ابن مستعمرين مقدونيين، لكنه، على غرار المصريين القدماء، رأى في حلم دعوةً لدخول المعبد، ظهرت له فيها شخصية رمزية مقدسة بحسب معتقدات ذلك العصر. ويبدو أنه قضى سنوات عديدة من حياته متفرغًا للأحلام، التي كان يعتبرها مصدر إلهام في ممارساته الروحية، وفي تدبير شؤون أسرته وأعماله التجارية خارج جدران المعبد.⁽³⁴⁾

2005).

(32) Robert Moss, *Dreamgates: An Explorer's Guide to the Worlds of Soul, Imagination, and Life beyond Death* (New York: Three Rivers Press, 1998), pp. 284–290.

(33) E. A. Wallis Budge, *Osiris: The Egyptian Religion of Resurrection* (New Hyde Park, NY: University Books, 1961).

(34) Michel Chauveau, *Egypt in the Age of Cleopatra*, trans. David Lorton (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000), pp. 123–126.

ولدينا أيضًا قصة حلم من نفس الفترة وفرت معلومات استخباراتية عسكرية. ففي عام 168 قبل الميلاد، في خضم حرب بين خلفاء الإسكندر الأكبر، طلب كاهن يُدعى حور مقابلة قائد فرسان الفرعون. أخبر الكاهنُ القائدَ بأنه رأى في حلمه إيزيس - بحسب المعتقدات المصرية القديمة - تمشي فوق سطح البحر، برفقة تحوت، الذي كان يُعتبر إلهًا للكتابة والقمر في تلك الميثولوجيا. وعندما وصلا - كما في الحلم - إلى ميناء الإسكندرية، نُسب لإيزيس قولها: «الإسكندرية آمنة من العدو». ومع ذلك، ظلَّ القائد متشككًا تجاه هذه الرؤيا وما تحمله من رموز دينية مأخوذة من تصورات ذلك العصر. وبحسب علمه، كانت الإسكندرية في خطر محقق من جيش أنطيوخس الرابع أو «أبيفانيس». ولكن قبل نهاية الشهر، انسحب أنطيوخس من مصر، تاركًا الإسكندرية سالمة. فأرسل القائد الكاهن حور، مصحوبًا برسالة تزيكية، ليرفع تقريره بنفسه إلى الملك فيلوميتور؛ إذ بدا بوضوح أن حور حالم جدير بالثقة.⁽³⁵⁾

في هذه الفترة المتأخرة، كان يُطلق على الكاهن المصري المتخصص في فنون الأحلام لقب «العلامة في مكتبة السحر».

يتسم علماء المصريات بحذر مهني شديد عند تناول موضوع ممارسة الأحلام في مصر القديمة، وهو موقف مفهوم نظرًا للتفسيرات المبالغ فيها التي روّجت لها بعض الجماعات الغامضة، التي تزعم أنها الورثة الشرعيون لتقاليد قديمة سرية، تركز طقوسها ومبادئها على لوحات جدارية في المعابد تصوّر اثنين وعشرين مشهّدًا من رموز الأركان الرئيسية في بطاقات التاروت. في هذا السياق، سنتبع هنا مسارًا وسطًا، يوازن بين الحذر العلمي لعلماء المصريات وبين الخيال الطقسي لتلك الجماعات، لنقدم فهمًا متزنًا وموضوعيًا.

أولئك الذين يكتبون من وحي خيال حقيقي يمكنهم أن يأخذونا إلى حيث لا تستطيع البيانات التاريخية أن تصل؛ إلى مكتبة السحر. ومن وجهة نظري، فإن أكثر المصادر المنشورة إثارة - والمفارقة أنها من بين الأكثر موثوقية - حول طريقة الأحلام

(35) John Ray, *Reflections of Osiris: Lives from Ancient Egypt* (Oxford: Oxford University Press, 2002), pp. 148–152.

المصرية، تتمثل في ثلاثة كتب صُنِّفَت على أنها أعمال خيالية. اثنان منها من الأعمال القديمة، والثالث رواية كانت رائجة في ثلاثينيات القرن العشرين لكنها تنتظر أن يعيد جيل جديد اكتشافها. اختار أبوليوس (الذي كان، على الأرجح، من ذوي المعرفة بأسرار إليوسيس) قناع الرواية الكوميدية لعمله «الحمار الذهبي»، أو «تحولات لوشبوس»، الذي تتحدث فيه إيزيس مباشرة إلى البشر في الأحلام، ويتلاقى المسافرون في فضاء الأحلام، ويؤجَّه الحالمون للاستعداد لأحداث مستقبلية قبل وقوعها. وفي حكاية قديمة أخرى، هي «قصة الإسكندر الأكبر»، يصف المؤلف المعروف بين الباحثين باسم «كاليستينيس الزائف» ممارسات ملك-ساحر من العصر المتأخر من مصر القديمة، هو نختنبو الأول، الذي يخوض المعارك عن بُعد ويزور الآخرين في أحلامهم (وإن لم يكن ذلك، مع الأسف، لأغراض سامية دائمة).

أما كتاب جوان جرانت «الفرعون المجنح» (الذي نُشِر لأول مرة عام 1938)، فيأخذنا إلى واقع محتمل لعصر الأسرة الأولى، وإلى تدريب الأحلام الذي تلقته ابنة ملك ستصبح لاحقاً شريكة في حكم مصر. وكما تشرح جرانت في مذكراتها، فإن هذا الكتاب جاءها عبر ما وصفته بـ «الذاكرة البعيدة» لحياة سابقة محتملة. فبعد زيارة قصيرة إلى مصر، عُرِضَتْ عليها مجموعة من الجعارين المصرية في لندن. وعندما أمسكت بأقدمها، رأت مشاهد حية من الزمان والمكان اللذين جاءت منهما، ثم بدأت تتحدث بصوت سكييتا، الأميرة الحاملة بطله قصتها.⁽³⁶⁾

نحن هنا أمام سرد رؤيوي يتجاوز التصنيفات التقليدية للأعمال الخيالية وغير الخيالية. وأفضل مصطلح لوصفه هو «ميثيستوريا»، العنوان اليوناني لمجموعة قصائد لجورج سيفيريس. ويمكن ترجمة المصطلح إلى «تاريخ أسطوري»، لكنني، مثل سيفيريس، أفضل استخدام كلمة واحدة، «الميثيستوريا»، لسرد لتاريخ حقيقي لشيء ربما يكون قد حدث أو لم يحدث، لكنه يظل قائماً.⁽³⁷⁾

(36) Joan Grant, *Far Memory* (Columbus, OH: Ariel Press, 1988).

(37) George Seferis, *Collected Poems*, trans. Edmund Keeley and Philip Sherrard (London: Anvil Press Poetry, 1982).

أما أكثر العناصر إثارة للاهتمام في ميثستوريا جوان جرانت فهو وصفها لمدرسة الأحلام التي كانت تُدار داخل معبد أنوبيس. عندما كانت سكييتا طفلة صغيرة، أهدتها والدتها تمثالاً صغيراً لأنوبيس - مجسداً على هيئة كلب صيد أسود - مع بيت مصغر مطلي ليعيش فيه، وأخبرتها أن أنوبيس هو جالب الأحلام للأطفال الصغار. وعندما كبرت قليلاً، التقت سكييتا بمعلم الأحلام الخاص بها، وهو كاهن لأنوبيس. بدأت تدريباتها في فضاء الأحلام حين عرض عليها معلمها زهرة لوتس متفتحة، وقال لها إنها، تمامًا كما تفتح زهرة اللوتس لأشعة الشمس، عليها أن تتعلم كيف تفتح بوابة ذاكرة الروح لتعكس النور. وعندما تكرر المشهد في حياة يقظتها في اليوم التالي، تذكرت حلمها، ما كان بمثابة تأكيد لهما معاً على أنها جاهزة لبدء تدريباتها.

تتعلم سكييتا أن تستكشف الأحلام للعثور على الأشياء المفقودة، واستشراف المستقبل، ومراقبة ما يحدث عن بُعد، واكتشاف ما يجري خلف الكواليس. وبسبب شكوكها تجاه حاكم أجنبي يزور البلاط الملكي، تشرع في رحلة حلمية إلى بلاده - محلقةً نحو هدفها مثل طائر - وتعود بتقرير مفصل ومزعج تُطلع الفرعون، والدها، عليه.

وفي سن الثانية عشرة، تصبح طالبةً بدوام كامل في مدرسة الأحلام، وتنتقل للإقامة في معبد أنوبيس. كانت تنام على سرير محفور على رأسه وقدمه رؤوس أنوبيس. بجانب السرير، كانت تحتفظ بلوح شمعي، وكانت أولى مهامها كل صباح أن تسجل عليه أحلامها. وفي كل صباح، تذهب إلى كاهن أنوبيس وتروي له ما سجلته. وأحياناً كانت تتلقى مهمات يكلفها بها الكاهن داخل الأحلام؛ كأن تحضر له زهرة معينة، أو ريشة طائر، أو خرزة ملونة. ومن خلال هذه الممارسة، كانت ذاكرتها تتدرب وتزداد حدة.

وبعد ثلاث سنوات، خضعت لتدريب متقدم. ففي كل ليلة من ليالي اكتمال القمر، كانت تنام في ظلام دامس داخل غرفة محمية من الطاقات النفسية أو الروحية أو التأثيرات الخارجية. كانت تتولى مهام كثيرة، وتزور أماكن بعيدة، وتجلب الإرشاد والشفاء للأحياء والأموات على حد سواء. كانت تسرد رحلاتها الحلمية على سمع معلمها، الذي كان يؤكد لها تجاربها، ويضيف أحياناً تفاصيل إضافية، أو يقترح عليها

مهمات متتابعة. كثيرًا ما كانت تلتقي أثناء أسفارها الحُلُمِيَّة بأناس ماتوا لكنهم لا يزالون في حالة من الحيرة بشأن وضعهم. التقت برجل قُتل في حانة للنبيذ في كريت، وكان يفرض تصديق أنه ميت. شجعها معلمها على أن تعود إليه مرة أخرى، وتساعد بلطف على الانتباه إلى حقيقته، وإرشاده نحو الطريق الصحيح في دروب الحياة الأخرى.

في هذه اللحظة، ندرك بوضوح العلاقة الحميمة بين الحلم والميتة الجيدة، ولماذا يُعتبر أنوبيس راعيًا ملائمًا جدًا لرحلات الأحلام. وكما يعرف كل طفل في المدرسة، فإن أنوبيس، الذي يُصوَّر غالبًا كإنسان برأس ابن آوى أو كلب أسود، هو حارس العالم الآخر، الذي يراقب القبور والمومياءات، ويرشد أرواح الراحلين إلى قاعة أوزوريس. ولكن أهمية أنوبيس أعمق بكثير. بصفته «سايكوبومبوس»، أو مرشد الأرواح، فهو راعي الرحلات خارج الجسد، ولذلك يُستدعى لحماية الذين يخرجون من أجسادهم تحت تأثير الصدمة أو التخدير، وكل إنسان يقوم برحلة ما وراء الجسد سواء في الموت أو أثناء الأحلام، سواء أكان مُدربًا أم لا.

مع تعمق تدريب سكييتا في مدرسة الأحلام، تتزايد مهامها كمرشدة أرواح. ومن أكثر المشاهد تأثيرًا في الرواية مشهد تساعد فيه أرملة غارقة في الحزن إثر غرق زوجها وابنها. نصحتها سكييتا بأن بإمكانها لقاء أحبائها عبر الأحلام. أجابت المرأة بأنها لا تحلم. فأكدت لها سكييتا، بلطف، أنه رغم ذلك، ينبغي أن تكون منفتحة على احتمال لقاء أحبائها في حلم. وفي تلك الليلة، خرجت سكييتا - كمسافرة واعية عبر الأحلام - لتعيد تقديم المرأة المكلمة إلى زوجها وابنها. دخلت مجال أحلام المرأة، فوجدتها تبكي وهي جاثمة فوق جثتي حبيبها، متخشبةً في مشهد صدمة من الماضي. بقوة إرادتها المركزة، غمرت سكييتا الأرملة بنور ساطع، ورفعت عنها «عباءة الرمادية» التي كانت تحجب عنها رؤية زوجها وابنها في حالتها الحاضرة. دار اجتماع دافئ مليء بالمحبة، وقادتهم سكييتا ببراعة إلى مكان يشبه الحديقة الغناء، حيث أمكنهم أن يقضوا أوقاتًا سعيدة معًا. (38)

تقدم لنا هذه الحادثة لمحةً رائعةً عما يعنيه العمل الرحيم كـ «مرشد أرواح» (سايكوبومبوس). ومع أن هذه الفكرة من غير المرجح أن تحظى بتأييد واسع في الحقل الأكاديمي لعلم المصريات، فمن المعقول تمامًا تصور أن الحالمين المهرة في مصر القديمة كانوا يمارسون مثل هذه الأعمال.

أحلام الرغبات السرية للروح

قبل وصول الأوروبيين الأوائل بزمان طويل، كان سكان الغابات من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية يُعلّمون أبناءهم أن الأحلام هي المصدر الأهم، للإرشاد العملي وكذلك الروحي.

لدينا مصدر مذهل يوثق ممارسات الأحلام لدى الإيروكواس وحلفائهم عند أول اتصال مع الأوروبيين، وهو ما نجده في تقارير المبشرين اليسوعيين التي جُمِعت وترُجمت في ثلاثة وسبعين مجلدًا من سجلات «علاقات اليسوعيين». ورغم أن بعض هذه التقارير كانت مشوشة بتعصب ديني وخوف من الشياطين أو السحر، كان اليسوعيون مراقبين ذوي ذكاء حاد. ومن بينهم الأب جوزيف-فرانسوا لافيتو، رئيس بعثة قرب مونتريال، والذي يُعده البعض أبا للأنثروبولوجيا الحديثة. كان استخراج أدلة على ممارسات الأحلام عند شعوب أمريكا الشمالية الأصلية من تقارير اليسوعيين نشاطًا خصبًا في علم «أركيولوجيا الأحلام»، وكان شغفًا عندي لعدة سنوات. وبما أنني تناولت تقاليد الإيروكواس في الأحلام في كتيبي السابقة، فسأكتفي هنا بملخص مختصر. (39)

كان أول شأن يشغل أهل قرى الإيروكواس كل صباح هو تشارك الأحلام؛ إذ كانت تُعتبر رسائل من الأرواح ومن الذات العميقة، وقد تحمل إرشادًا للمجتمع بأسره إلى جانب الأفراد. كان الإيروكواس الأوائل يؤمنون أن الإنسان، أثناء الحلم،

(39) Robert Moss, *Dreamways of the Iroquois: Honoring the Secret Wishes of the Soul* (Rochester, VT: Destiny Books, 2005), and "Missionaries and Magicians," in *Wonders of the Invisible World: 1600–1900*, ed. Peter Benes (Boston: Boston University Press, 1995).

يسافر بانتظام خارج الجسد، متجاوزًا حدود الزمان والمكان، فيزور المستقبل أو الماضي، وقد يدخل عوالم الأرواح والمعلمين الروحيين في مستويات أعلى.

كانت الأحلام أداة للبقاء. ففي أعماق الشتاء، كانت الجماعة تعتمد على الحالمين الأقوياء لاستكشاف مواقع الطرائد، والتفاوض مع أرواح الحيوانات لتوفير الغذاء للناس. أما عند الإيروكواس، فالحلم أيضًا «دواءٌ جيد». فكلمة «أَتِشْتَس» بلغة الموهوك، والتي تعني حرفيًا «الذي يحلم»، كانت أيضًا تُستخدم للإشارة إلى الطبيب أو الشaman.

لم يكن الإيروكواس الأوائل قَدَرِين تجاه الأحداث المستقبلية التي تُرى في الأحلام؛ فقد طوروا طقوسًا وممارسات تهدف إلى تغيير مسار - أو تعزيز - الأحداث المستقبلية التي كُشِف عنها في الأحلام. ومن خلال تمثيل جزء من الحلم في ظروف مضبوطة، كان بإمكانهم أحيانًا منع تحقق الحلم بالكامل في المستقبل.

الحلم بكارثة أو مأساة وشيكة، تبدو قريبة من التحقق في الواقع المادي، قد يُلهم تنفيذًا جذريًا؛ فعلى سبيل المثال، عندما حلّم محاربٌ من قبيلة الموهوك بأنه أُسر وعُذّب حتى الموت بالنار على يد أعدائه، نظّم مشهدًا تمثيليًا سمح فيه لأهل قريته بتقييده وحرقه بسكاكين وفؤوس محمّاة حتى الاحمرار، ولكن دون أن يُقتل.⁽⁴⁰⁾

وكان الإيروكواس يدركون أن الأرواح تُرسل أحيانًا لبعض الأفراد «أحلامًا عظيمة» تتضمن مكاشفات كبرى عن غاية الروح وواقع البيئة. وبينما قد تحتوي هذه الأحلام القوية على معلومات بالغة الأهمية لصحة الحالم أو لبقائه الجسدي، فإن الكثير منها كان يبدو موجّهًا أساسًا لفائدة المجتمع ككل. ولهذا السبب، كان أول ما يقوم به مجتمع الإيروكواس التقليديين كل صباح هو مشاركة الأحلام الهامة والعناية بها.

كتب الأب بول راجينو عام 1648 قائلاً: «يؤمن الهورون بأن للروح رغبات غير

(40) Reuben Gold Thwaites, ed., *Jesuit Relations and Allied Documents: Travels and Explorations of the Jesuit Missionaries in New France, 1610–1791* (Cleveland, OH: Burrows Brothers, 1896–1901), 23:121–123.

تلك التي نعيمها بوعينا، رغبات طبيعية وخفية في آنٍ معاً، تُفصح عنها لنا عبر الأحلام، التي هي لغتها الخاصة. وعندما تُلبّي هذه الرغبات، تشعر الروح بالرضا. أما إذا أُهملت، فإن الروح تغضب، ولا تكتفي بحرمان الجسد من الصحة والعافية التي كان يمكن أن تهبه إياها، بل كثيراً ما تتمرد عليه مسببةً أمراضاً متنوعة، بل وحتى الموت. لذلك نجد معظم الهورون يولون أحلامهم عنايةً فائقة! فإذا رأى أحدهم ربحاً في حلمه، يسعى للحصول عليه؛ وإذا حلم بأنه أقام مأدبةً، سارع إلى إقامة واحدة عند استيقاظه. ويطلقون على هذه الرغبة السرية للروح، التي يُعبر عنها عبر الحلم، اسم «أوندينوك». (41)

كانت مساعدة الحالمين على قراءة لغة الروح كما تتجلى في أحلامهم، واتخاذ التدابير الملائمة بناءً عليها، واجباً اجتماعياً. وإذا اختبر أحدهم حلماً مضطرباً أو غامضاً جداً، فقد يستشير حالماً قوياً يدعى «أتشنتس» لتفسير معناه. وأحياناً، إذا بدا أن الحلم يحمل تحذيراً من مرض أو موت وشيك، كان المجتمع بأسره يشارك في استكشاف الحلم وتجسيده.

وبعد مرور قرنين على التقارير التبشيرية التي جُمعت في سجلات «علاقات اليسوعيين»، أخبر شيوخ الإيروكواس عالمة الأعراق هاريت كونفيرس أن الإنسان قد يفقد روحه إذا لم يُصغح لما تقوله له روحه عبر الأحلام. والعقاب لعدم الامتثال للتحذيرات المتكررة للأحلام، أن «الروح الحرة» قد تهجر الحالم، ليواصل حياته على الأرض كأحد الموتى الأحياء، «محروماً من روحه الخالدة». (42)

كان الإيروكواس الأوائل يعتبرون من لا يتواصل مع أحلامه شخصاً قد عانى فقداناً خطيراً للروح. وعندئذ، قد يُستدعى مختص لاستعادة الأحلام الضائعة – والطاقة الحيوية المفقودة – إلى الشخص المنكوب.

كان الاحتفاء بالأحلام، في تقليد الإيروكواس القديم، يتطلب الفعل. وقد أوضح

(41) Ibid., 33:191.

(42) Harriet Maxwell Converse, *Myths and Legends of the New York State Iroquois* (Albany, NY: New York State Museum, 1908), p. 94.

راجينو، قائلاً: «يقولون إنهم يقيمون هذه الولائم لإلزام الروح بالوفاء بوعدھا. وهم يعتقدون أن الروح تبتھج حين ترى أننا نتخذ خطوات عملية للاحتفال بحلم مُبَشِّر، فتسارع لمساعدتنا في تحقيقه. وإذا فشلنا في الاحتفاء بحلم مُبَشِّر، يعتقدون أن هذا قد يمنع تحقيقه، وكأن الروح الغاضبة تنقض وعدھا.»⁽⁴³⁾

الحالم بوصفه صائد أرواح

لكي نكرّم الروح ونعتني بها، قد يكون من الضروري العثور عليها وإعادتها إلى موطنها. ففي الثقافات الأصلية، يُعزى كثير من أعراض المرض والاكْتئاب والحُمول وسوء الحظ إلى فقدان الروح. ومن أهم وظائف الرّحالة الحالم البارع – الشامان – أن يسافر إلى العوالم التي تقبع فيها الأرواح المفقودة أو الأسيرة، ليمسك بها ويعيدها إلى جسد الضحية الذي عانى فقدان الروح. وتُعد قصة شامان نیشان إحدى أعظم الحكايات عن الحالم الرّحال بوصفه صائد أرواح ومُستعيد لها.

تنبع هذه القصة من التقاليد الشفهية والروحية لشعب الداور المغولي والشعوب المجاورة له في منشوريا. وإلى جانب التقاليد الشفهية، هناك نسخة مكتوبة جُمعت على يد باحثين إثنوغرافيين روس قبل الثورة البلشفية. تُعد «حكاية شامان نیشان» النص العظيم الوحيد الذي بقي محفوظاً من أدب المانشو. ومن خلال تناغم الأصوات المختلفة، يمكننا استعادة التجربة الاستثنائية لشامان هي امرأة وحاملة، تستخدم موهبتها لإنقاذ الأرواح، حتى من العالم السفلي. تبدأ القصة على النحو التالي:

خرج فتى ثري يُدعى سيرغوداي للصيد. كان يقتل الحيوانات دون أي توفير، بدافع المتعة الخالصة. وأحياناً لا يكلف نفسه حتى عناء إرسال خدمه لجمع الجلود واللحوم. وجد متعةً في مطاردة أنثى رتّة بالغة، كانت قرونها أكبر حجماً من قرون الذكور. قتلها بسهمه وضحك ملء شديقه.

اشتكت أرواح الحيوانات إلى إيرمو خان، سيد الموت، بأن النظام الكوني قد اختل.

(43) Thwaites, *Jesuit Relations*, 33:195.

فأرسل سيد الموت ظله ليُردي الصياد الشاب ويسوق روحه إلى معقله الداخلي في مملكته التي لا تشرق فيها الشمس.

أما والد الفتى، وهو زعيم ثري يُدعى بالدو بايان، فقد غرق في الحزن. وذات يوم، جاءه غريب وأخبره أن هناك شامانًا قوية تعيش قرب نهر نيشان، بوسعها أن تعيد ابنه إليه. كان بيان متشككًا؛ فقد اعتاد أن يكون الشامانات المحليون دجالين طماعين، كما أن الغريب لم يكن سوى أحذب يرتدي أسماً بالية. ولكن حين اختفى الغريب فوق غمامة بألوان الطيف، أدرك بايان - سواء كان يحلم أم لا - أن الرسالة جاءت من مصدر غير عادي.

هكذا شرع الأب في رحلة بحث عن الشامان. وصف له الناس منزلها، الواقع على الضفة الشرقية للنهر. وعندما بلغ الضفة الغربية، رأى شابةً جميلةً تغسل الملابس. كانت ترتدي ثوبًا بسيطاً أزرق داكنًا بلا حزام، وهو لباس يومي مألوف لأي امرأة عادية. لكنه مع ذلك، لما سبح بحصانه عبر النهر، خاطبها باحترام: «أختي الكبرى، هل أنتِ الشامان؟»

فأجابته: «لست أنا.» وأرشدته إلى منزل آخر عبر النهر. وعندما عاد بايان إلى الضفة الأخرى، قال له الناس إنه قد خُدِع؛ فالشامانات ماكرون.

عبر بايان النهر مرةً ثالثة، ليواجه الشابة التي أدرك الآن أنها هي شامان نيشان. قال لها: «أنتِ شامان قوية. هل يمكنكِ استعادة ابني؟» أجابته بأنها تحتاج إلى استشارة أرواحها الحارسة، المعروفة بالأونغور. وهذه الأرواح قد تتخذ أشكالاً متعددة. ووعدتها الأرواح بمساعدتها. لكنها كانت مضطرة أيضًا لطلب الإذن من حماها، لأنها تعيش مع عشيرة زوجها، حتى وإن كانت شامانًا. كانت أرملة منذ مدة، وربما كانت أكبر سنًا مما توحى به ملامحها. وافقت الحماة على ذهابها.

اسمها الشخصي، كما ورد في النسخة المانشوية من القصة، هو تيتيكي. غير أن معظم الذين يروون قصتها يكتفون بمناداتها «شامان نيشان»، وكأنهم بذلك يحزرونها من القيود الشخصية والعائلية.

أَتَفَقَ على أجر الشامان. جمعت شامان نيشان أدواتها الاحترافية - طبلتها، ورداءها، وتاجها الطقسي - وتبعت بايان إلى منزله، حيث كان جسد الابن مسجى. كانت تعرف أن مهمتها ستتطلب رحلة طويلة إلى مكان لا يجرؤ إنسان عادي على الذهاب إليه. ولأجل سلامتها، كانت بحاجة إلى معاون يتمتع بقوة في الضرب على الطبل والغناء، وقادر على دفعها عبر طرق العالم السفلي؛ وقبل كل شيء، إعادتها إلى عالم الأحياء. فذكرت اسم الرجل الذي لا غنى لها عنه، صاني أنغو. كان ذكر اسمه يبعث في الجسد رعشة إثارة؛ ونستشعر أن أحدهما يعرف الآخر بالجسد والروح.

حين وصل صاني، استعدت شامان نيشان للرحيل. لم تعد تُشبه الفتاة التي كانت تغسل الملابس؛ فقد غدت مهيبّة في معطفها الطويل المهدب المصنوع من الجلود، المزين بالأجراس وذيول الخيل، وتدلّت على صدرها مرآة برونزية تُعرف بلغتها الأم باسم «وعاء الروح»، المكان الذي تُحتجز فيه الروح وتُحمَل. بدأت تدق طبلتها المصنوعة من الجلد، فيما كان صاني يردد إيقاعها. كانت تعدو وتجمع وتدور نحو اليسار، تكاد قدماها لا تصدران صوتاً في حذاءها عالي الرقبة المصنوع من جلد الرنة. كانت هدب جلد الغزال يتراقص فوق وجهها، يحجب عينيها، بينما كانت قرون غطاء رأسها الطقسي، المنبتقة من ريشٍ متطاير، تتمايل يمنة ويسرة.

ظلت ترقص حتى غطى الزبد شفّتيها، ثم انهارت في غيبوبة عميقة أشبه بالموت، وطبلتها تغطي وجهها. قيل: «لقد ماتت.»

لكن إيقاع الطبلّة لم يهدأ ولم يفتّر. اعتلى معاونها طبلته، مرسلًا إليها القوة. وساعدها الإيقاع الثابت على تلمس طريق وسط فوضى الضباب والظلال عديمة المصدر. قادها الطريق إلى نهر، وعلى الضفة الأخرى كان هناك قائد قارب أعرج. كان مفاوضاً صعب المراس؛ اضطرت أن تعدّه بما يثقل كاهلها قبل أن يرضى بنقلها في قاربه المجوف.

تلت ذلك معابر أخرى، ومفاوضات أخرى، واختبارات عديدة لشجاعتها، قبل أن تهبط أخيراً إلى القلعة الداخلية لإيرمو خان. رأت روح الصيد الصغير تلعب مع طفل تعرفه جيداً؛ طفل الموت نفسه. لم يعد بإمكان أي من أرواح أسلافها أن تساعدوا الآن؛

كان عليها أن تطلق صرخةً من قلبها وأحشائها، صرخةً تحترق أعماق العالم السفلي حتى تصل إلى عش طائر السماء - حليفها الأقوى. في بعض الأراضي، يسمونه الغارودا. ارتفعت صرخة الشامان من الأغوار السحيقة، وفي العالم الأوسط كان معاونها يرددها. تسلقت الصرخة شجرة العالم، وأيقظت الغارودا من عشه. مطَّ الطائر العظيم جسده الطويل، ثم اندفع نحو الأسفل. وبحسب توجيهات الشامان، انكمش الغارودا على نفسه كأنه قذيفة، واخترق حصن إيرمو خان، وخطف روح الصياد الصغير، وسلَّمه إلى الشامان، التي وضعت روحه داخل مرآتها.

والآن ها هي تهرع عائدةً عبر الطرق الملتبسة المعتمدة من أعماق العالم السفلي، يلاحقها خُدام الموت. هنا، جاء دور أرواحها الحارسة؛ راحت تموه أثرها، وتقود مطارديها في مسارات خاطئة.

كان أعظم اختبار ينتظرها أمامها مباشرةً. من بين حشد من الأرواح الجائعة التي تغرد كالخفافيش، انفصل شكل رجل وأصبح مألوفاً لها بطريقة مروعة. إنه زوجها السابق. كثيراً ما كان يسيء معاملتها حين كان حيًّا، يضربها إذا فسد الحليب أو تأخر طعامه، ويركض وراء نساء أخريات. لكنه الآن يريدُها بشدة. توسل إليها، متنقلاً بين التوسل والتهديد: «خذيني معك.» وحين شرحت له أنه لم يعد هناك ما يمكن فعله له - إذ إن جسده قد تعفن منذ زمن بعيد - حاول أن يبقّيها معه في العالم السفلي، أولاً بمحاولته أن يُشعِرَها بالذنب، ثم باستخدام القوة الغاشمة. اضطرت إلى مقاتلته وإسكاته. «داست بقدمها على وجهه وفمه» كي توقف الكلمات التي كانت تستنزف قوتها وعزمها.

توقفت لاحقاً أمام ما يشبه مكتب تسجيل الأرواح، وخاضت مفاوضات شاقة لضمان عمر طويل وموفق لسيرغوداي، الروح المحفوظة في مرآتها. وهناك، خاضت لقاءً مؤثراً مع «أوموسي-ماما»، «الجلدة الإلهية» التي «تجعل الأوراق تتفتح والجذور تمتد كما ينبغي»، وهي مانحة الأرواح وحامية الأطفال. وتتعلم أن أوموسي ذاتها هي من قدّرت أن تتيكي ستصبح شاماناً عظيمة.

فقدت شامان نيشان من طاقتها الكثير خلال هذه الرحلة حتى كادت ألا تعود أبدًا، لولا النداء القوي لطبلتها. كان صاني يضرب الطبل بقوة وسرعة متزايدة، يناديها لتعود. وها هي الآن تركب إيقاعه عائدةً إلى جسدها المسجى. وعندما نهضت أخيرًا في جسدها، أكملت مهمتها بأن أخرجت روح الصياد الشاب من «وعاء الروح» - أي المرأة البرونزية - وأعادتها إلى جسده. لقد حلمت شامان نيشان بقوة كافية لإنقاذ روح حتى من معقل الموت. (44)

لكن لا يمر إنجاز عظيم كهذا دون عقاب. لم يُسمح لشامان نيشان أن تنعم بانتصارها طويلًا. ففي إحدى الروايات للقصة، انتشر صيتها حتى بلغ الإمبراطور نفسه، الذي استدعاها لعلاج زوجته. إلا أن الشامان كانت لا تزال منغمسة في رحلتها تلك، فأمر الإمبراطور، سخطًا، بأن تُدفن مكبلت بالسلاسل. وفي رواية أخرى، شكا سيد الموت إلى الأعلى من غطرسة هذه الدخيلة على مملكته، فتحالف الاثنان لمعاقبتهما بشدة. أما في النص المانشوي، فرفعت حماة زوجها الراحل دعوى قضائية ضدها - بمثابة شكوى رسمية - بتهمة إخفاقها في استعادة الزوج المتوفى. وأُجبرت الشامان على التخلي عن أدوات مهنتها: القرون، والمرأة، والرداء، والطبل، بل واضطرت إلى التخلي عن حبیبها - قارع الطبل الذي لا يكل. لتتحول إلى واحدة من «النساء العاملات» الكادحات في قريتها، أسيرة الرتبة والمحرمات التي تفرضها تقاليد عشيرة زوجها. في هذه الرواية الأخيرة للقصة، نواجه مجددًا موضوعًا متكررًا في تاريخ النساء.

ليست شامان نيشان شخصيةً فريدة في تاريخ الشامانية، خاصةً في هذه المنطقة من آسيا الوسطى. إذ يقول التشوكشي: «المرأة بطبيعتها شامان.» (45) وبين المانشو، كانت

(44) This narrative interweaves (1) the Manchu version translated in Margaret Nowak and Stephen W. Durrant, *The Tale of the Nishan Shamaness: A Manchu Folk Epic* (Seattle: University of Washington Press, 1977), with (2) oral traditions, especially a Daur Mongol version transcribed in Caroline Humphrey and Urgunge Onon, *Shamans and Elders: Experience, Knowledge, and Power among the Daur Mongols* (Oxford: Clarendon Press, 1996).

(45) M. A. Czaplica, *Aboriginal Siberia, a Study in Social Anthropology* (Oxford: Clarendon Press, 1914), p. 243.

الغالبية العظمى من الشامانات نساء. وهناك أدلة قوية على أن الشامانات في عهد سلالة شانغ الصينية (1766-1122 ق.م.) أيضًا كُنَّ في الغالب من النساء. لقد أسهم كتاب باربرا تيدلوك الرائع «المرأة في جسد الشامان» في استعادة هذا التاريخ المُغَيَّب إلى الواجهة.⁽⁴⁶⁾ في حالة شامان نيشان، كما هو الحال مع النساء القويات في ثقافات أخرى، كان السبيل الوحيد نيل السلطة المعترف بها أن تحلم بقوة تفوق الآخرين، وأن تألف العجائب والغرائب، وأن تخاطر بنفسها في رحلات روحية مُحْجَم عنها أغلب الرجال. امرأة تملك مواهب كهذه تُطلَب وقت الأزمات، لكن حراس النظام التقليدي لا يترددون في إسقاطها متى انقضت الغمّة.⁽⁴⁷⁾

سيدة بريطانيا في دروب الحلم

لم يترك حالمو بريطانيا القدماء سجلات مكتوبة لممارساتهم. فقد كان الكهنة الدرويد يعرفون اليونانية، لكنهم لم يدونوا شيئًا. وكانت قوتهم مخيفة إلى درجة أن الرومان، في عام 60 ميلادية، عبروا بفرقهم إلى «مونا»، جزيرة الحالمين، عبر ضباب الدرويد وشرعوا في تدمير البساتين المقدسة. وقد كتب المؤرخ تاسيتوس: «وقف حشد كثيف من الرجال المسلحين، وكانت النساء تتنقل بين صفوفهم. ارتدين أردية سوداء قائمة تشبه ملابس الفوريات (كائنات أسطورية)، وكان شعرهن أشعث، يلوحن بالمشاعل. وفي الوقت ذاته، وقف الدرويد في دائرة، رافعين أيديهم نحو السماء، يطلقون التعاويذ، ما أثار رعب الجنود حتى تجمدت أطرافهم وكأنها سُلت، فكشفوا أجسادهم للطعن دون أن يحركوا ساكنًا..⁽⁴⁸⁾»

وبجهد جهيد، تمكّن الحاكم الروماني، سويتونيوس بولينوس، من حشد رجاله لمهاجمة «زمرة النساء والمتعصبين»، وأخيرًا شقوا طريقهم عبرهم. «الخطوة التالية...

(46) Barbara Tedlock, *The Woman in the Shaman's Body* (New York: Bantam, 2005).

(47) Stephen W. Durrant, "The Nišan Shaman Caught in Cultural Contradiction," *Signs* 5, no. 2 (Winter 1979): 338-347.

(48) Cornelius Tacitus, *Annals*, trans. J. Jackson (Cambridge, MA: Loeb Classical Library, 1937), bk. 14, chap. 30.

كانت تدمير البساتين المكرسة لعبادتهم الهمجية.» إلا أن بولينوس اضطر إلى ترك مهمته دون إتمام بسبب الحملة التي أطلقتها الملكة المحاربة بوديكا، وتمكن أخيرًا من هزيمتها ودفعها إلى الانتحار في أراضي وسط إنجلترا. عاد الرومان لغزو «مونا» بعد ثمانية عشر عامًا، وهذه المرة استعانوا بـ «قوات محلية» من السباحين المهرة للقيام بهجوم مفاجئ، وأكملوا تدمير جزيرة الحالمين.⁽⁴⁹⁾

تشهد الحملة الرومانية ضد الدرويد وبساتينهم على خوف عميق؛ فقد كان الرومان عادةً متسامحين مع ديانات الشعوب التي غزوها أو حالفوها. وفي الخاتمة، سنستكشف كيف أسهمت الكاتبة الأسكتلندية الموهوبة والمعلمة الشامانية ماندا سكوت في إحياء عالم أحلام زمن بوديكا لقراء العصر الحديث. أما هنا، فسنجري تمرينًا أكثر تواضعًا في علم آثار الأحلام، نكتشف من خلاله أن بين الآلهة القدييات في بريطانيا راعية للأحلام، وأن إحدى قصص المابينوغيون تكشف عن فهم وممارسة لأساليب إعادة دخول الأحلام وتعقبها.

في بريطانيا العتيقة، كانت «إلين» راعية للطرق والأسفار، ولا سيما الرحلات الحلمية. وفي لوحة جميلة رسمتها تشيسكا بوتتر، تُصوّر السيدة وهي ترتدي ثوبًا أخضر، وتعلو رأسها قرون عظيمة، فيما تقف شاحخة أمام بوابات العالم الآخر، ومن خلال حجر مقوس فوق مقبرة من العصر الحجري، يترأى قوس قزح.⁽⁵⁰⁾ في الدورة العظيمة للقصاصد الملحمية الويلزية المعروفة باسم المابينوغيون، تستدعي إلين ملكًا إليها في أحلامه، فيجد تجسدها في العالم المادي حين يتعلم استخدام أحلامه كخريطة، ويسلك دروبها. وهذه قصة طريق الملك الحلمي نحو إلين:

كان ملك عظيم في رحلة صيد مع رجاله، تحت وهج شمس قائظة، حين باغته شعور مفاجئ بالرغبة في النوم. فصنع له رجاله خيمةً من دروعهم المثبتة على رماح، على منحدر قرب النهر، وغفا الملك على الفور، ليندفع في حلمه، لا يركب بل يطفو،

(49) Ibid.

(50) Chesca Potter's image of Elen is in John Matthews, *The Celtic Shaman's Pack* (Shaftesbury, England: Element, 1995).

متجهاً نحو جبل يلوح في الأفق، يكاد يلامس السماء.

بعد الجبل، يصل إلى سهلٍ فسيح، ومن بعده إلى ميناءٍ عظيم، حيث يعبر جسراً من العاج ليركب سفينةً تنقله بسرعة إلى جزيرةٍ جميلةٍ في بحرٍ غربي. يجول ببصره عبر الأرض كلها، ويدخل قلعةً يجد فيها شابين وسيمين يلعبان لعبةً شبيهةً بالشطرنج، لكنها تختلف في حركاتها وما تنطوي عليه من مخاطر أكبر. وخلفهما، كان رجل أبيض الشعر، يعلوه وقار الملوك، جالساً على عرش مزخرف بصور لتوأمي نسر، ينحت قطعاً جديدة للعبة.

على عرشٍ مقابل لصانع اللعبة الملكي، جلست امرأةٌ وضاحَةٌ كالشمس، فاتنةٌ في ردائها الأبيض الفضفاض، ومشابكها الذهبية الحمراء، وأساورها وقلائدها المتلألئة بالجواهر. وقفت لتحيي المسافرين، واحتضنته احتضاناً استحوذ على قلبه الملكي. التحما ككائن واحد فوق عرشها.

حين انتزعه ضجيج العالم من حلمه، ظلت طاقة حياته في الحلم. لقد أُسر قلبه، وأصبحت رغبته الوحيدة أن يعود إلى حلمه ليعيش مع محبوبته. أصبح رجاله قلقين حين لاحظوا أنه لم يعد يشاركهم متعهم ولا يحضر مجالسهم. وحين واجهوه، مخدرين من أن البعض بات يشكك في أهليته للحكم، قَصَّ الملك عليهم حلمه. فاجتمع حكماء المملكة وتداولوا الأمر، ثم نصحوه بأن يرسل رجاله للبحث في العالم بأسره لمدة ثلاث سنوات كاملة عن المرأة التي ظهرت له في الحلم. لعل الأمل في العثور عليها يُبقي ما يكفي من طاقة في جسده ليؤدي مهامه الملكية. لم يشكك أحد في وجود المرأة الخُلمية؛ إذ كان الملك يلتقيها في كل مرة يغفو فيها.

انطلق الباحثون، لكنهم أخفقوا في مهمتهم. عندها خطرت للحكماء فكرة أفضل؛ إذا عاد الملك إلى موضع حلمه، وسار في الطريق الذي سلكه في حلمه، فقد يتعرف على معالم حلمه فتقوده إلى السيدة الوضاحه كالشمس. أوفد الملك ثلاثة عشر رسولاً لينفذوا هذه المهمة نيابةً عنه. فوجدوا الجبل الذي يلامس السماء، والجسر العاجي المؤدي إلى السفينة التي حملته إلى الجزيرة الغربية، ثم القلعة حيث يلعب شبان لعبةً تحت

إشراف الرجل الملكي الذي يصنع قطعاً جديدة.... وأخيراً، وجدوا المرأة الواضحة كالشمس. لكنها لم تُبد أي إعجاب بمقامهم أو سلطتهم. ورفضت مرافقتهم، قائلة إن كان ملكهم يريدّها، فعليه أن يأتي بنفسه ويخطب ودّها.

فانطلق الملك على درب رؤياه، حتى بلغ المرأة التي ظهرت له في الحلم جالسةً إلى جوار والدها ذي المكانة الملكية، وهو يصنع قطعاً من لعبة رمزية. وفي تلك الليلة، اقترن بها وتزوجها، وشاركها سلطانه وممتلكاته، كما وجّهه حلمه. وكما فتحت له الطريق إليها في رؤياه، أصبحت تُعرف بلقب «سيدة الدروب»، وصار يُنسب إليها الفضل في شق المسالك الجديدة في أنحاء البلاد.

هذه رواية مبسطة للجزء المحوري من قصة عجائية ضمن مجموعة قصص ويلزية.⁽⁵¹⁾ ففي المابينوغيون، تُعرف هذه الحكاية باسم «حلم ماكسن». الملك ماكسن هو إمبراطور روما، والمرأة التي في الحلم التي أصبحت ملكته هي إلين البريطانية.

يناقش العلماء التاريخ الذي جرى تحويله وتحويره في هذه الحكاية. ويتفق معظمهم على أن ماجنوس مكسيموس، الجنرال الإسباني في جيوش روما، الذي تركز في بريطانيا ورفعه جنوده إلى مقام الأباطرة عام 383 ميلادية، هو الشخصية الأقرب إلى «ماكسن»، رغم الفوارق الشاسعة بين مسيرتيهما. فبينما ينتصر ماكسن في جميع معاركه ويُتوّج إمبراطوراً للعالم بمساعدة إخوة إلين الذين لا يُهزمون، فإن ماجنوس مكسيموس هُزم وقُتل على يد رفيقه في السلاح، الإمبراطور ثيودوسيوس، بعد أن اغتصب الإمبراطورية الغربية لفترة وجيزة.

ما يُدار هنا ليس التاريخ الحرفي، بل هو «التاريخ الأسطوري»، أو الميثستوريا. تساعدنا كايثيلين ماثيوز على الغوص في أعماقه في كتابها البديع «الملك آرثر وإلهة الأرض».⁽⁵²⁾ وعندما نفعل ذلك، قد نكتشف، كما فعل الملك، طريقاً لإعادة الروح إلى الجسد وتوحيد العوالم.

(51) *The Mabinogion*, trans. Jeffrey Gantz (London: Penguin Books, 1976), pp. 118–127.

(52) Caitlin Matthews, *King Arthur and the Goddess of the Land: The Divine Feminine in the Mabinogion* (Rochester, VT: Inner Traditions, 2002), pp. 57–82.

الخريطة موجودة داخل الحلم. والطريق يجلب الحب والشفاء والقوة في العالم المادي، ولكن لكي تسلكه، يجب أن تصبح مسافرًا في عالمين.

حين عاد المتعقبون، ومن بعدهم الملك نفسه، إلى موقع الحلم، كانوا يسافرون داخل مشهد من حلم. فالجبل الذي يعلو حتى السماء ليس جبلًا أرضيًا عاديًا، والجسر العاجي ليس ممرًا عابرًا مألوفًا، ومع ذلك فهما حقيقتان بطريقتهما الخاصة. الجزء الأهم في الرحلة إلى حبيبة الروح - التي تمثل أيضًا إلهة الأرض، وفي هذه الرواية تجسد سيادة بريطانيا - هو رحلة في حلم.

اللعبة اللوحية التي ظهرت في القصة ذات دلالة عميقة. تُسمى «جويدبويل» gwyddbwyll بالويلزية، و«فيدخل» fidhchell بالأيرلندية. في عالم اليقظة، كانت تُلعب باستخدام مجموعة صغيرة من القطع تمثل ملكًا وحراسه الشخصيين، الذين كان عليهم الفرار عبر الرقعة - يقاتلون لتأمين انسحابهم - بينما تطاردهم قوة غازية أكبر تحت قيادة ملك آخر. ويفوز اللاعب الأضعف إذا تمكن من إيصال ملكه إلى بر الأمان عبر الرقعة.

غير أنه يبدو أن اللعبة التي تُلعب في الحلم لا تقتصر على هذه القواعد. إنها بوضوح «لعبة العالم». وقد حلم آخرون بشيء يشبه ذلك؛ يتأمل المرء مجموعة من الشخصيات المصغرة، دمي صغيرة أو جنود ألعاب، وفجأة تدب الحياة فيها. ثم يمكنه أن تختار تحريكها كيفما يشاء، أو أن يُصغّر نفسه إلى حجمها ويلج أحداثها الدرامية الداخلية. ربما، هكذا يرى الكائنات القاطنة في واقع متعدد الأبعاد صراعات البشر ومآسيهم. وربما أيضًا هكذا تبدأ الأحداث التي ستتجلى لاحقًا في العالم المادي.

تشير أحلام المابينوغيون إلى أن الأوروبيين الأوائل، مثلهم مثل ثقافات الشعوب الأصلية الأخرى، كانوا يرون الحلم رحلة، وأن أفضل وسيلة لاقتناص هبة الحلم هي بإعادة دخول الإقليم الذي يكشفه. وهذا يختلف جذريًا عن أنماط تفسير الأحلام التي تقوم بتقطيع الحلم وتشريحه إلى شذرات رمزية وتحاول تحليل كل جزء منها على حدة. ومع ذلك، ونظرًا لما تتسم به الأحلام غالبًا من غموض، وللصعوبة التي يجدها الكثير من الحالمين في التنقل عبر ضبابها، قد كان هناك دومًا طلب على وجود مفسرين للأحلام.

الفصل الثاني

مفسّرون وعرّافون

أظن أنه من المفيد أن نتذكر بين الحين والآخر أن الناس اعتادوا أن يحلموا قبل أن يوجد شيء اسمه التحليل النفسي.

مكتبة
سيجموند فرويد
t.me/soramnqraa

إن وقوع الأحداث الهامة في أي مدينة أو بلد غالبًا ما يسبقه إشارات أو نُذُر، أو رجال يتنبؤون بها.

نقولاً مكيا فيلي، كتاب «نقاشات حول ليفي» 1: 56

العِرافة هي ممارسة قديمة تهدف إلى استشراف المستقبل أو تأويل ما يُعتقد أنه مشيئة قوى غيبية، وقد ظلّت حاضرة في مختلف الثقافات دون أن تفقد شعبيّتها.

إن أقدم وأكثر أشكال العرافة فعالية هي تلك التي تتطلب التمعّن الشديد فيما يقوله لنا العالم. أن يكون لديك سؤال يدور في ذهنك، فلتلقط حجرًا، أو تتفحص لحاء شجرة، لترى ما تقترحه أنماطه من إجابات محتملة. كانت العرّافات من القبائل الجرمانية، اللواتي أزعجن القادة الرومان كثيرًا، يجدن صورًا ويسمعن أصواتًا في المياه الجارية. كتب بلوتارخ: «كانت نساؤهم المقدسات يتنبأن بالمستقبل من خلال مراقبة

الدوامات في الأنهار، والعلامات التي تظهر في دوران المياه وضجيجها.»⁽⁵³⁾ وحينما كان الرومان أنفسهم يرغبون في استقصاء إن كانت القوى الغيبية مؤاتية لمساعهم، كانوا يرسلون كهنة العِرافة إلى هضبة كاييتولين لمراقبة سلوك الطيور، بوصفه دلالة رمزية على ما قد يحدث.

ومنذ أقدم العصور، أنشأ البشر أدوات عِرافة تساعدهم على تقليص عدد الإجابات الممكنة التي قد يقدمها لهم العالم، بحيث تُفهم تلك الإجابات وفق طرق ممنهجة ومتفق عليها. يحمل العِرافون في أفريقيا أكياسًا تحتوي على أحجار وقطع من العظام وأشياء أخرى تمثل مواضيع أو نتائج محددة. ويمكن إلقاؤها كالقرعة، تمامًا كالأحرف الرونية، لتشكيل قصة.

أما أنظمة العِرافة الكبرى في العالم، مثل آي جِنغ في الصين، وإفا في غرب أفريقيا، والتاروت في أوروبا، فهي أكثر من مجرد أدوات لقراءة البخت. ففي تصميمها، تجمع الرموز - كالخطوط السداسية، والأودو (أنماط أو «كتب» عِرافة إفا)، وبطاقات التاروت - بين كل القوى والعمليات التي تعمل في العالم، بما فيها تلك التي تصدر عن عالم أعمق. ويمكننا أن نستشف عظمة هذا التصميم في أقدم نصوص آي جِنغ من موقع ماوانغدوي الأثري في الصين، حيث ورد أن الحكماء القدماء «قرعوا» أنماط السماء والأرض في شكل خطوط سداسية. مثل هذه الأنماط تمنح شكلًا للديناميكية المستمرة للتجلي. العالم بأكمله يتبدى أمامك، بجميع عناصره مجتمعة في عدد محدود من الرموز المصممة لتناسب الفهم المحدود للبشر: 64 شكلًا من الخطوط السداسية في آي جِنغ، و16 أودو رئيسيًا و240 نمطًا فرعيًا في إفا، و78 بطاقة في التاروت.

يُفترض بالقراءة أن تُظهر لك ما هي القوى والعوامل الفاعلة في لحظة معينة، وما الذي يغيب عنها. وبالنسبة للقارئ المتفاني لإحدى هذه الأنظمة، فإن غياب عنصر معين قد يكون بنفس أهمية حضوره. فإذا قمت بقراءة يومية للبطاقات، ووجدت أن بطاقة أو فئة معينة لا تظهر مطلقًا، ستبدأ بالتساؤل، لماذا يغيب هذا العنصر أو هذه

(53) Plutarch, "Caesar," in *Fall of the Roman Republic: Six Lives*, trans. Rex Warner (London: Penguin Books, 1962), p. 233.

القوة عن حياتك؟ وقد يكون تكرار هذا الغياب مشابهاً لتحليل طبي يكشف، على سبيل المثال، أن جسدك يفتقر إلى الحديد.

يعتمد القراء العظام، الذين يستخدمون أي من هذه الأنظمة، على الذاكرة، والحدس، وهبة التعرف على أوجه التشابه. يتطلب الامر ذاكرةً استثنائية لتعلم وحفظ التلاوات الشفوية الشعرية التي تحمل المعاني المحتملة للأودو في نظام إفا. قد يحمل «البابالاو» العظيم (أي «أبو الأسرار»، وهو لقب كاهن العِرافة في إفا) في ذهنه مائة قصة شعرية عن كل من الأودو، ويفتش في ذاكرته أثناء القراءة ليرى أي من هذه القصص، وبأي تركيبات، تتعلق بعمله في تلك اللحظة. وسيتذكر قارئ أي جنغ العظيم، عندما تكشف العملات أو أعواد اليارو عن خطوط سداسية، ليس فقط تعليقات الأساتذة السابقين التي حفظها، بل أيضًا الحوادث التي أعقبت ظهور خطوط سداسية معينة. وفي حضور بطاقة الرجل المشنوق، أو ملكة الكؤوس، أو السيوف السبعة، قد يتجول قارئ التاروت العظيم في أرجاء قصر ذاكرة شخصي تحتوي كل غرفة فيه على تاريخ حي لكل بطاقة - تحولاتها، وعواقبها - وحيث توجد غرفة كبيرة تتحرك فيها البطاقات معًا وتتفاعل، كما في موكب من العصور الوسطى بمسرحياته الغامضة.

قد يتضمن الحدس التودد، أو على الأقل الاستعداد لتلقي، إرشادات الأساتذة السابقين. في الصين، لعدة أجيال، كانت أعواد اليارو المفضلة لإلقاء أي جنغ تُقطف من مواقع قبور الأساتذة السابقين، بما في ذلك كونفوشيوس. ويعترف البابالاو بأن بعض الأودو لا تتضمن فقط الأسلاف أو الأوريشا (أرواح الآلهة وأنصاف الآلهة في عند شعب اليوروبا) بل قد تعلن أيضًا عن ظهورهم في المكان. عندما يُكشف عن نمط أوجون، إله الحديد المختص بالعدالة والانتقام، يتوقف كل شيء بينما تُنشد أسماؤه التمجيدية. أولئك الذين يعملون بتعمق مع متغيرات التاروت المبنية على القبالة أو أعمال النظم الباطنية الغربية قد يشعرون بأنهم على اتصال بعقول بعض من ساروا قبلهم في هذه الطرق.

في جميع الثقافات، تتراوح المواقف من العِرافة من التصديق بالخرافات إلى التشكك المتعجل. قد يكون النهج الأكثر براجماتية هو الذي نسبته رجل الدولة الروماني العظيم والمحامي شيشرون إلى أخيه كوينتوس في رسالة مشهورة يناقش فيها كلاً من الحجج المؤيدة والمعارضة للعِرافة: انتبه إلى «النتائج، لا الأسباب». إذا نجح الأمر، استخدمه.⁽⁵⁴⁾

المصدر المعترف به عمومًا للعِرافة هو الأحلام. فمن غير المرجح أن يفكر مفسر الأحلام إلى العمل - حتى في مجتمع يستخف بالأحلام - لأن الناس يعلمون أن أحلامهم مهمة، لكنهم يحتاجون إلى المساعدة بثلاث طرق مهمة؛ فهم معنى الأحلام، وتحديد الإجراء المناسب الذي يجب اتخاذه، وتبديد أو درء الطاقات السلبية التي قد تعمل أثناء الليل.

رأى أرسطو أن «صور الأحلام، مثل الصور على الماء، تتشوه بالحركة». ⁽⁵⁵⁾ لذا نحتاج إلى المساعدة في فهم معنى الأحلام لأن أشكالها مشوهة. وثمة وجهة نظر أقدم وأكثر شعبية وهي أننا نحتاج إلى المساعدة في تمييز أصل الأحلام وطبيعتها لأن ليست جميعها تنطق بالحقيقة. قد تكون بعض الأحلام رسائل خادعة ترسلها أرواح شريرة أو سحرة متلاعبون أطلق عليهم الإغريق اسم «مرسلي الأحلام» *oneiropompoi*.

مجددًا، قد نحتاج إلى مساعدة في تفسير الأحلام لأن، كما قال أرتيميدوروس، «الآلهة - بحسب المعتقدات آنذاك - تميل إلى مخاطبة الناس بالألغاز والرموز في الأحلام»، أحيانًا لاختبارنا وتحفيزنا على توسيع مداركنا. اتفق أرسطو وأرتيميدوروس على أن المتطلب الأساسي لمفسر الأحلام هو القدرة على ملاحظة أوجه التشابه. كتب أرتيميدوروس: «تفسير الأحلام ليس سوى تجاوز أوجه التشابه». ⁽⁵⁶⁾ وتأتي أقدم سجلاتنا عن عمل مفسر الأحلام من بلاد ما بين النهرين القديمة. هنا، كان الشخص

(54) Cicero, *De divinatione* 1.12. For discussion see Malcolm Schofield, "Cicero for and against Divination," *Journal of Roman Studies* 76 (1986): 47-65.

(55) Aristotle, "On Prophesying by Dreams."

(56) Artemidorus, *Oneirocritica: The Interpretation of Dreams*, trans. Robert J. White (Torrance, CA: Original Books, 1990), pp. 224, 117.

الذي تطلب مساعدته في حلمك يُدعى «السائل». على ألواح الطين في آشور ونيوى، يكون «السائل» عادةً امرأة. (57) يشير اللقب إلى أنها تطرح أسئلة على الحالم، ولكن أيضًا، بشكل أكثر جوهرية، على الحلم نفسه. من كان يتحدث في الحلم؟ هل ما يتذكره الحالم موثوق به؟ أين وقعت تجربة الحلم؟ أي جزء من الحالم - جزء أعلى من الروح أم أدنى - كان نشطًا في الحلم؟ هل الكيان الأنثوي - الذي كان «عاليًا كالسماء واسعًا كالأرض» - الذي ظهر لذلك الشاب في كيش هو حقًا الإلهة العظيمة؟ (58) ما هي الظروف المحيطة بالحلم؟ على سبيل المثال، هل كان الحالم نائمًا في كوخ خاص مبني من البوص يُستخدم لتحفيز الأحلام بعد التطهير الطقسي؟ أم كان نائمًا بعد الإفراط في معاقرة الخمر؟

المصطلح الذي يُستخدم في حضارات بلاد ما بين النهرين القديمة لوصف الحلم الغامض هو «سلة أرشيف مغلقة من قِبَل القوى العليا». تخيل سلة منسوجة تُستخدم لحمل مجموعة من ألواح الطين. دور السائلة هو رفع الغطاء والمساعدة في قراءة ما بداخلها. إحدى التقنيات التي قد تستخدمها في ذلك، كما يقترح مفكك الرموز المسماة سكوت نوغيل، هي تسجيل الحلم والبحث عن التلاعبات البصرية وكذلك السمعية في الأنماط التي تظهر أثناء نقش السائلة للطين بقلم من البوص أو الخشب. (59) تلك الصورة، التي تعود إلى خمسة آلاف سنة مضت، تبدو معاصرة بشكل غريب؛ كأن الحلم نص، وقارئ الحلم يبحث عن التلاعبات اللفظية ويستمع إليها.

لكننا في عالم مختلف عن عالم محلي العصر الحديث. القراءة والكتابة لا تزال مهارة

(57) The oldest "questioners" (*ensi* in Sumerian, *sha "du* in Akkadian) are goddesses, embodied by priestesses. Gilgamesh takes his dreams to his mother, the goddess Nin-sun, Lady Wild Cow, "she who knows all." Dumuzi takes his terrifying dream to his sister Geshtin-anna, goddess of dreams and wine (see chapter 5).

(58) The "woman as tall as the sky" is Inanna in the dream of Sargon. See Jerrold S. Cooper and Wolfgang Heimpel, "The Sumerian Sargon Legend" *Journal of the American Oriental Society* 103 (1983): 67-82.

(59) Scott B. Noegel, "Dreams and Dream Interpreters in Mesopotamia and in the Hebrew Bible," in *Dreams*, ed. Kelly Bulkeley (New York: Palgrave Macmillan, 2001), pp. 45-72.

نادرة، والسائلة تستخدم سحر الكتابة. لكنها تجلب أيضًا أدوات أخرى. قد تطلب رأيًا ثانيًا من خلال أحد أنظمة العرافة العديدة، التي تتراوح ما بين قراءة النجوم، إلى فحص أحشاء حيوان مُقدَّم كقربان، إلى ملاحظة ما يتجلى في لحظة معينة؛ صحيحة المراكبي، أو الريح التي تشني البوص. في بلاد ما بين النهرين، كما في معظم الثقافات البشرية، كان يُفهم أن الحلم ذو صلة لا تنفصم عن العرافة. كان كتاب الأحلام الآشوري الشهير في مكتبة الملك آشوربانيبال – الذي جُلِبَ إلى نينوى في عام 647 قبل الميلاد من منزل طارد الأرواح الشريرة في مدينة نيبور – مُحَرَّرًا مع ألواح النُّدُر، وهي الفئة الأكبر في المجموعة الملكية.⁽⁶⁰⁾ بين الناس العاديين وكذلك في القصور الملكية، عبر معظم التاريخ، لم يُفصل عمل الأحلام أبدًا عن الطرق الأخرى لقراءة لغة الإشارات في الحياة.

في الوركاء أو أوروك، قد تقرر السائلة الذهاب إلى ما هو أبعد من تذكر الحالم غير الكامل لحلم إلى تجربة الحلم الكاملة عن طريق الانتقال بنفسها إلى المكان الذي تكشف فيه عمل الحلم وطرح أسئلة داخل ذلك الحيز. ماذا يعني ذلك؟ هناك دليل في لوح يصف السائلة بأنها «التي تستلقي عند رأس الشخص». يقترح باحث من أكسفورد أن «الطريقة كانت تقوم على الاستلقاء بجانب النائم على أمل اعتراض الحلم أو مشاركة الحالم فيه أثناء دخوله رأسه».⁽⁶¹⁾

قد تقترح الأحلام أو تتطلب اتخاذ إجراء، لذا فإن أحد الأدوار الحاسمة لمفسر الأحلام هو تقديم المشورة بشأن ما يجب فعله بالحلم. عندما طُلب من يوسف في الكتاب المقدس تفسير حلم فرعون، لم يكتفِ بإخباره بأن رمزيات الحلم من بقرات سمان وعجاف، وسنبلات ناضجة ويابسة، تنبأت بسبع سنوات من الوفرة تليها سبع سنوات من المجاعة. بل قدم لفرعون خطة عمل.

(60) Lionel Casson, *Libraries in the Ancient World* (New Haven, CT: Yale University Press, 2001), pp. 11–12.

(61) O.R. Gurney, "Babylonians and Hittites," in *Oracles and Divination*, ed. Michael Loewe and Carmen Blacker (Boulder: Shambhala, 1981), p. 158.

اقترح النبي يوسف أن يعين فرعون نائبًا حكيمًا ويفرض ضريبة جديدة خلال سنوات الوفرة السبع لملء المخازن استعدادًا لفترة المجاعة القادمة. قرر فرعون أن يوسف نفسه هو الرجل المناسب للمهمة. ومُنِحَ اسمًا مصريًا معناه «القوي يقول إنه حي»،⁽⁶²⁾ وتزوج من ابنة كاهن رع، أعلى طبقات النبلاء في مصر.

قد يشمل دور عَرَّاف الحلم أيضًا اقتراح ممارسات وقائية لطرد الأحلام السيئة وتبديد أي بقايا سلبية من حلم غير مرغوب فيه. يحتوي كتاب أحلام المملكة الحديثة (بردية تشيستر بيتي، المكتوبة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) على طقس مثير للاهتمام للغاية لتحويل الطاقة السلبية للأحلام «السيئة» والقوى النفسية المتفاعلة فيها. الجزء الأول من الطقس يتضمن تطهير الحالم بفرك وجهه بخبز مغموس في الجعة والأعشاب والمر. الجزء الثاني يتطلب من الحالم أن يروي حلمه لإيزيس، التي يُخاطبها بـ «الأم». يُعتقد أن فعل رواية الحلم للأُم العظيمة يبدد شره. في ترجمة غاردينر للبردية، تقول إيزيس: «أفصح بما رأيته، لكي تختفي المصائب التي رأيته في أحلامك». ينتهي الطقس بصيغة انتصار من الحالم بأنه قد بدد حلمًا شريرًا أرسل ضده وهو الآن مستعد لتلقي أحلام سعيدة. «سلام عليك، أيها الحلم الجيد الذي يُرى ليلاً أو نهارًا!»⁽⁶³⁾

في بلاد ما بين النهرين، كان الحلم الشرير يُنقل إلى قطعة من الطين توضع في نهر وتُترك لتذوب في قوة تدفق الماء.⁽⁶⁴⁾ في الهند القديمة، عندما أزعج حلم سيء الملك أشوكا (القرن الثالث قبل الميلاد)، ساعده الكهنة في أداء طقوس تحية للجهات الأربع والتضرع إلى الآلهة للمساعدة في درء أي آثار شريرة للحلم.⁽⁶⁵⁾ وتصف مخطوطة من مدينة دونهوانغ، الواقعة في آسيا الوسطى، على طريق الحرير العظيم (حوالي عام 800

(62) *The New Jerusalem Bible* (New York: Doubleday, 1990), p. 67, note e.

(63) Kasia Maria Szpakowska, "The Perception of Dreams and Nightmares in Ancient Egypt: Old Kingdom to Third Intermediate Period" (PhD diss., University of California, Los Angeles, 2000), p. 273.

(64) A. Leo Oppenheim, *The Interpretation of Dreams in the Ancient Near East* (Philadelphia: American Philosophical Society, 1956), pp. 302–303.

(65) John L. Strong, *The Legend of King Asoka* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), pp. 274–275.

ميلادية)، ممارسات لنقل طاقة الأحلام السيئة إلى أشياء مادية مثل قطع من الخشب أو التراب، التي يتم بعد ذلك تدميرها أو تشتيتها.⁽⁶⁶⁾ تعكس هذه الممارسات إيماناً - شائعاً عبر التاريخ البشري - بقوة الأحلام على التجلي. فالحلم قد يكون أشبه بسحابة عاصفة توشك على الاندلاع. وعندما تكون طاقته قريبة إلى هذا الحد من التفرغ، لا يمكنك ببساطة أن تمنى زوال تأثيره أو تتحدث عنه فحسب؛ بل لا بد من توفير قناة آمنة تتيح له تصريف طاقته بعيداً.

في أوديسة هوميروس، نتعلم لأول مرة، مع بينيلوبي، عن بوابتين للأحلام، بوابة العاج وبوابة القرن. الأحلام التي تأتي عبر بوابة العاج «خطيرة» وقد لا تتحقق، والأحلام التي تأتي عبر بوابة القرن أوضح وقد تتجسد في أحداث واقعية. يبدو أن الفرق مسألة وضوح وليس خداع. العاج المنحوت معتم تماماً؛ أما القرن المصقول فشفاف.

تظهر البوابات من جديد في الإنيادة، لكن فرجيل يُغيّر وصفها في روايته لنزول إنياس إلى العالم السفلي لزيارة والده المتوفى، أنكيسيس. الآن، تُصنّف الأحلام التي تأتي من بوابة العاج على أنها باطلة، بينما تُعتبر تلك التي تأتي من بوابة القرن حقيقية. أصبح هذا التمييز شائعاً لقرون في أذهان الغربيين الذين نشأوا على قراءة الكلاسيكيات.

ولكن هناك فخّ ذهني في قصة فرجيل. يُعيد أنكيسيس ابنه من العالم السفلي عبر بوابة العاج. هل يُلمّح الشاعر إلى أن تجربتنا الواقعية العادية هي حلم كاذب؟

دعونا نستكشف نهج اليوناني الذي ارتبط اسمه بتفسير الأحلام لفترة طويلة بعد كتابته كتاب «أونيروكريتيكا» (أو «تفسير الأحلام»)، في القرن الثاني، في عهد الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس، الذي شكر أحلامه على الهداية الإلهية، والطبيب العظيم جالينوس، الذي استخدم الأحلام في التشخيص.

(66) Antonella Crescenzi and Fabrizio Torricelli, "A Tun-huang Text on Dreams: MsPelliot tibetan 55-IX," *Tibet Journal* 2.0, no. 2 (Summer 1995): 3-17.

حين نتقل إلى الصين، نجد أن العِرافة لم تكن مركزيةً في حياة شخصيات عظيمة وحسب، بل كانت أيضًا جوهرًا في صياغة سياسات الدولة على مدى آلاف السنين. فعلى مدى قرون طويلة، كان «كتاب التغيرات»، أو «آي جِنغ»، أداةً أساسيةً في الحكم. تغلف الأساطير والغموض نشأة «آي جِنغ». وبحسب التقليد، فإن الإمبراطور التين القديم، فو تسي، هو من لاحظ أنماطًا في تشققات أصداف السلاحف، وميّز هذه الأنماط كثمانية ثلاثيات (تريغرامات) تُشكّل الأساس الذي قام عليه «آي جِنغ». وفيما بعد، قام «ملك الكتابة»، وو وين، بتوسيع النظام ليمنحه أربعة وستين شكلًا سداسيًا، بينما ربّبه كونفوشيوس وأعطاه أرقامًا محددة.

تشير الأدلة الأثرية إلى أن «آي جِنغ» تطوّر على مدى نحو أربعة آلاف عام. ففي عهد أسرة شانغ، كان الشامانات يقرؤون الطالع في الشقوق التي تظهر على عظام الحيوانات المستخدمة في القرابين المحترقة. وكان يُعتَقَد أن نداءات البشر تصعد في الدخان، بينما تهبط رسائل وتحذيرات من القوى العليا. وقد لوحظت العلاقة بين أنماط التشققات والأحداث التالية، واحتُفِظت بالعظام المشققة في «أرشيفات» ما قبل الكتابة. وفيما بعد، استُبدلت العظام بقواقع السلاحف، إذ كانت توفر سطحًا أكبر، وكان يُعتَقَد أن شكلها يُشبه قبة السماء من الأعلى والحقول المربعة للأرض من الأسفل. ومع مجيء العصر البرونزي، بدأت تشققات القواقع تُجرى بواسطة أعواد برونزية ساخنة. وبدأت الأنماط المرتبطة بالأحداث تُعلّم برموزٍ بسيطة تُشير إلى حريق أو طوفان. ومن تلك الرموز، نشأت الكتابة الصينية. وفي عهد أسرة تشو – قبل أن تنضب أصداف السلاحف – بدأ العِرافون والشامانات بتسجيل شيفرة «آي جِنغ» على شرائط من الخيزران تربطها معًا شرائطٌ من الحرير. وهكذا ظهرت أولى الكتب في الصين.

تتكون أشكال «آي جِنغ» السداسية من ستة خطوط، إما متصلة أو منقطعة، وهي تنويعات على نظام ثنائي. الخطوط المتصلة تُعرف بـ «يانغ»، والمنقطعة بـ «يِن». وعندما تقرأ الـ «آي جِنغ»، تتعامل في الوقت ذاته مع ثلاثة أنواع من الصور: أنماط الأشكال

السداسية، والرموز الصينية (الأيديوغرامات) التي تُسميها، والأسطر الشعرية في الشروحات. أحياناً تتجلى الصورة المرئية في شكل الشكل السداسي ذاته. فعلى سبيل المثال، الشكل السداسي رقم 20، المسمى «غوان» والذي يعني «المراقبة»، يتخذ شكل برج مراقبة واضح المعالم.

يوضح «الشرح العظيم» - أحد أقدم الشروحات التفصيلية على كتاب «آي جينغ» - أن «كتاب التغيرات» يمثل «مقياس السماء والأرض». وعندما نضع أنفسنا في الموضوع الصحيح ضمن دوراته، نتحرك بتناغم مع قوانين الطبيعة، ونستطيع أن نؤثر في تشكيل الأحداث على مختلف المستويات من خلال وعينا ومشاركتنا الواعية. ويشير «الشرح العظيم» إلى أننا لا نتعلم فقط كيفية التعامل مع كل حدث بالطريقة الملائمة، بل قد نمنح أيضاً فرصة المساهمة في تحقيق التوازن والنظام في العالم.⁽⁶⁷⁾

أقدم نسخة معروفة لدينا من كتاب «آي جينغ» هي أحد كتابين دُفنا مع مركز تاي في موقع ماوانغدوي نحو عام 175 قبل الميلاد، وقد وُضعا ليكونا رفيقيه في الرحلة إلى العالم الآخر؛ أما الكتاب الثاني فكان العمل الطاوي الكبير «تاو تي تشينغ». يشير نص ماوانغدوي إلى جذور شامانية لهذا النظام في العرافة، حيث يُقال إن الحكيم «يحدد إيقاع حركات كل ما تحت السماء» ضمن الأشكال السداسية، «يرتبها ويجعلها تنسجم كأنها ترقص»..⁽⁶⁸⁾ فال «آي جينغ» «يعرف أسباب النور والظلام».⁽⁶⁹⁾ وهنا لمحة عن أثر المُراقب كما يتجلى على المستوى الإنساني. فقراءة «كتاب التغيرات» «تقوّي الكائنات وتثبت المصير».⁽⁷⁰⁾

من أقدم الحالات المسجلة لاستخدام الـ «آي جينغ» لتوجيه شؤون الدولة ما ارتبط بصعود وسقوط السلالات الإمبراطورية. ففي أواخر عهد أسرة شانغ، كانت قسوة

(67) Richard Wilhelm and Cary F. Baynes, trans., *The I Ching, or Book of Changes* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990), p. 294.

(68) *I Ching: The Classic of Changes* [Mawangdui text], trans. Edward L. Shaughnessy (New York: Ballantine Books, 1997), pp. 203, 201.

(69) Ibid., p. 191.

(70) Ibid., p. 199.

الطاغية الحاكم وتقلباته، والتي زادها فجور إحدى محظياته، قد أصبحت لا تُطاق: فقد أجبر نساء شريفات على المشاركة في حفلات منحرفة أو مخلة، وقطع ضحاياه إلى لحم مفروم أو شواهم أحياء. ومن بين قادة المقاومة برز دوق تشو، المعروف في التاريخ باسم الملك وو. وفي عام 1048 قبل الميلاد، جمع جيشًا وسار به إلى معبر نهر مينغ، حيث التقى بقوات يقودها ثمانمائة أمير. وركب زورقًا لعبور النهر، لكنه أوقف تقدم الجيش عندما قفزت سمكة بيضاء ضخمة وقوية إلى قاربه، ثم قفزت خارجه مرة أخرى. أراد الأمراء الاستمرار في الحملة. فقال لهم الملك وو: «أنتم لا تفقهون شيئًا من أمر السماء.»⁽⁷¹⁾ كان الملك وو يعرف أن السمكة البيضاء ترمز إلى أسرة شانغ؛ فاعتبر ظهور السمكة البيضاء القوية وفرارها في النهر إشارة على أن طاغية أسرة شانغ كان لا يزال قويًا جدًا بحيث لم يكن يمكن هزيمته في معركة مفتوحة في ذلك الوقت.

استمر الملك وو في جمع قواته، وشكّل جيشًا أكبر في الموقع نفسه بعد عامين. وهناك استعرض الجموع، وأعلن أنه تلقى تأكيدًا مزدوجًا - عبر العِرافة بمساعدة الـ «آي جِنغ»، ومن خلال أحلامه - على أن النصر سيكون حليفهم. قال: «يبدو أن السماء، من خلالي، تنوي أن تحكم الشعب. إن أحلامي تتطابق مع عِرافتي؛ والبشارة الطيبة مزدوجة. لا بد أن ينجح هجومي على أسرة شانغ.»⁽⁷²⁾

وكان على حق. فقد هُزم جيش أسرة شانغ شرّ هزيمة، وهرب الطاغية إلى قصره الذي كان يُعرف بـ «برج الأيل» - مسرح العديد من حفلات المجون - وارتدى أروع ثيابه وجواهره، ثم أحرق نفسه حتى الموت. أما المنتصر، فقد أسّس سلالة تشو (أو زو) الحاكمة.

لقرون عديدة بعد سقوط سلالة شانغ، اعتمد حكام الصين على قراءة شقوق أصداف السلاحف وعيدان نبات اليارو، إلى جانب المراقبة الدقيقة للظواهر الطبيعية

(71) *Suma Ch'ien's Historical Records*, trans. Herbert J. Allen (London: Journal of the Royal Asiatic Society, 1895), chap. 3.

(72) *Shu Jing*, trans. James Legge (Hong Kong: Hong Kong University Press, 1960), 3:281-283.

والتزام العفوي، لتوجيه قراراتهم في الشؤون الهامة. وتحتوي سجلات «زُو زوان» على أوصاف تفصيلية للعديد من عمليات إلقاء أشكال الـ «آي جِنغ» لتوجيه الحروب والزيجات في بيت تشين خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

دعونا نتقل نقلةً سريعةً بالزمن إلى عهد سلالة المانشو. كان الإمبراطور كانغ شي من سلالة تشينغ (أو المانشو) حاكمًا باحثًا تولّى حكم الصين لأكثر من ستين عامًا، من 1661 حتى 1722، نجا خلالها من عدد لا يحصى من الحروب وأعمال التمرد والمؤامرات. كان رجل علم وعقل، تولّى شخصيًا العديد من تفاصيل الحكم دون أن يفرق فيها. ولعدم رضاه عن مستوى خريجي امتحانات الخدمة المدنية – والتي كانت بالغة الأهمية – راح يُصحّح مئات الأوراق الامتحانية بنفسه، حتى وهو في خيمته العسكرية خلال الحملات.

ولأن كانغ شي لم يكن راضيًا عن أداء جنرالاته في مواجهة قراصنة الأنهار، أصدر توجيهات دقيقة وذكية بشأن تجنيد العملاء، ونشر القوات الخاصة، وأكد على ضرورة أن يتعرف الحاكم شخصيًا على طبيعة العدو ودوافعه. قال: «لا يكفي الاطلاع على التقارير الرسمية لفهم القراصنة؛ بل يجب استجواب زعمائهم شخصيًا، كما فعلتُ أنا. يمكنكُ توظيف القراصنة الأسرى كمستشارين، أو استخدامهم لنقل رسائل إلى رفاقهم لإقناعهم بالاستسلام... كما يلزم دراسة طبيعة الشخص الذي يتحول إلى قرصان.»⁽⁷³⁾

ومن خلال كتابات الإمبراطور، يمكننا تتبّع دراسته لـ «كتاب التغيرات» والقرارات التي اتخذها استنادًا إلى قراءات محدّدة. ففي عام 1680، بدأ كانغ شي «قراءة تمهيدية» لـ «كتاب التغيرات» مع ثلاثة مستشارين. خصصوا ثلاثة أيام لدراسة كل شكل سداسي. وبعد أربع سنوات، أعادوا قراءة الأشكال مجددًا. ولاحظ الإمبراطور أن العرّافين كانوا يصنّفون بعض المسائل ضمن «ما لا داعي لمناقشته» خشية إغضاب سيدهم؛ مثل السطر السادس في الشكل السداسي الأول «تشان»: «التنين المتغطرس

(73) Jonathan D. Spence, *Emperor of China: Self-Portrait of K'ang-hsi* (New York: Vintage Books, 1975), pp. 47–48.

سيندم». فأمر كانغ شي بعدم استثناء أي شيء من النقاش في أي قراءة. وكان التحذير من الغطرسة ذا أهمية خاصة، لأنه «يعني أن الشخص يعرف كيف يتقدم، لكنه لا يعرف كيف يتراجع.... يعرف شيئًا عن الانتصار، لكن لا يعرف شيئًا عن الهزيمة.»⁽⁷⁴⁾

وفي عام 1683، بعد السيطرة على تايوان، ناقش الإمبراطور الشكل السداسي رقم 56، «لو» - «النار على الجبل» - مع عرّافيه، قائلاً: «سكون الجبل يدل على الحذر الذي يجب أن يُراعى عند فرض العقوبات؛ أما النار فتتحرك بسرعة، وتحرق العشب، مثل القضايا القانونية التي ينبغي حسمها بسرعة. تفسيري لهذا الشكل كانت أن على الحاكم أن يجمع بين الوضوح والحرص في العقاب؛ فنيته يجب أن تكون العقاب لتجنب الحاجة إلى مزيد من العقاب.»⁽⁷⁵⁾ هنا يستند تفسير الإمبراطور إلى الخصائص الطبيعية للعنصرين المكوّنين للشكل السداسي، وهما «الجبل» و«النار»: كن هادئًا مثل الجبل، وانظر إلى الأمور من منظور أعلى؛ وكن سريعًا وحاسمًا في التطهير، مثل النار.

يمنحنا الإمبراطور إرشادًا بالغ الأهمية بشأن ضرورة أن يكون الحاكم منفتحًا لتلقي رسائل غير مرغوب فيها: «لقد راود عرّافي كثيرًا ميلٌ إلى تجاهل الفأل السيئ، لكنني تحققت من حساباتهم بنفسي، ونبهتهم إلى ألا يشوّهوا الحقيقة؛ ففي مرة، أفاد مكتب الفلك بأن ريمًا جنوبية شرقية مباركة تهب، غير أنني حسبت اتجاه الرياح باستخدام أدوات القصر، ووجدت أنها في الواقع ريح شمالية شرقية مشؤومة؛ وأمرت المكتب ألا ينسى أننا لسنا سلالة تتجاهل النذر السيئة.»⁽⁷⁶⁾

ويؤكد على أننا نصنع مصيرنا، ويجب علينا «أن نحث السماء على أداء عملها»: «قد تبدو الأمور مقدرة في حياتنا، لكن هناك طرقًا يستطيع بها الإنسان أن يُعين السماء في أداء عملها... علينا أن نحفر السماء، لا أن نعتمد عليها فحسب. ففي حياتنا الخاصة، رغم أن مسار أحداثها حدده القدر مسبقًا، فإن ذلك القدر نابع من عقولنا... وإذا لم

(74) Ibid., p. 45.

(75) Spence, *Emperor of China*, p. 29

(76) Ibid., p. 58.

تقم بدورك الإنساني، فلن تتمكن من فهم طريقة السماء.»⁽⁷⁷⁾

وفي أواخر عهده، احتفى الإمبراطور بـ «كتاب التغيرات» بهذه الكلمات: «لم أشعر بالملل من كتاب التغيرات قط، وقد استخدمته في التنجيم، وفي استنباط المبادئ الأخلاقية؛ والشئ الوحيد الذي أوصيت به محاضري في البلاط هو ألا يجعلوا هذا الكتاب يبدو بسيطاً، لأن فيه معاني تتجاوز حدود الكلمات.»⁽⁷⁸⁾

وبالنظر إلى الاحترام العميق الذي يكنّه الصينيون للأسلاف، فلا عجب في أن يُعتبر العمل بالـ «آي جينغ» تقليدياً نوعاً من استدعاء الأرواح والتفاعل معها. وكما أُشير سابقاً، فإن أعواد اليارو الأكثر قيمة في العرافة القديمة كانت تُجمع من على قبور المعلمين والأساتذة السابقين لـ «كتاب التغيرات»، بما في ذلك كونفوشيوس. وفي القرن السابع عشر، اعتبر أميرٌ أن عرافة حديثة قد تأكدت حين عثر مرافقوه على نبتة يارو بها خمسون عوداً - وهو العدد المستخدم في العرافة - تنمو فوق قبر كونفوشيوس. وقد ذكّر المترجم القديم جيمس لينغ أنه هو نفسه شاهد نبتة يارو تنمو على قبر كونفوشيوس. وكان يُعتقد على نطاق واسع أن العراف الجيد، حين يكون في الحالة الذهنية المناسبة، يتواصل مع أرواح الأسلاف الذين يرشدونه في القراءة والتفسير.

ينص «الشرح العظيم» على أن الهدف من استخدام الـ «آي جينغ» هو إدراك الأرواح: «إن هروب الروح يجلب التغير. ومن خلال هذا نصل إلى فهم حالات الأرواح الخارجة [شِن] والراجعة [كوي].»⁽⁷⁹⁾ وعندما يواجه الصينيون أحداثاً يعجز العقل عن تفسيرها، فإنهم غالباً ما يُرجعونها إلى تدخل نوعين مختلفين تماماً من الأرواح. الـ «شِن» هو الجانب الروحي الأسمى من النفس. كما يُستخدم المصطلح أيضاً للإشارة إلى البشر المؤهلين. وعلى الأقمشة المرسومة والمطرزة التي وُجدت مُعلّقة في قبر مركيز تاي، حيث عُثر على أقدم نسخة من «كتاب التغيرات»، تُصوّر روح «شِن» على هيئة طائرٍ رائع برأس بشري. أما في الحياة - ووفقاً للكتاب الطبي المنسوب

(77) Ibid.

(78) Ibid., p. 59.

(79) Wilhelm and Baynes, *The I Ching, or Book of Changes*, p. 294.

للإمبراطور الأصفر - فإن أهم جوانب روح «شِن» تقيم في القلب. وبعد الموت، تصعد روح «شِن» إلى عالم الأرواح، وقد تنضم إلى صفوف الأسلاف الحكماء الذين يرشدون الأحياء ويحمونهم.⁽⁸⁰⁾

في الثقافة الصينية التقليدية، يُعرف «الكُوي» (kuei) بأنه روح جائعة ومضطربة تتجول في العالم، مسببة الشقاء والمرض والموت. تُعتبر هذه الأرواح أرواحًا لأشخاص لم يُدفنوا بشكلٍ لائق أو عالقين بين العوالم بسبب طبيعتهم الشريرة وأفعالهم السيئة. يمكن للسحرة الأشرار التلاعب بهم، وهم يشبهون مصاصي الدماء في سعيهم لامتنصاص طاقة الأحياء. في الصين التقليدية، ابتكر العديد من الطقوس الوقائية والتعاويز لإبعاد «الكُوي» عن البيت.

أحد الأدوار التقليدية لكتاب «آي جِنغ» كان تشخيص حالة الأرواح في البيئة النفسية. كانت قراءة «كتاب التغيرات» أمرًا أساسيًا للصحة والشفاء في الطريقة الصينية القديمة، لأنه يعكس القوى العاطفية والروحية والنفسية ويوجه نحو التوازن الصحيح وإصلاح فقدان الروح. كان يُعتقد أن «كتاب التغيرات» يمكنه تقديم دفاع في مواجهة تدخلات الأشباح والمهاجمين النفسانيين. يروي جي ويلوي-ميد قصةً يستخدم فيها العالم وو نسخةً من «كتاب التغيرات» لصد السحرة الأعداء، وعندما يضرهم بها، يتحولون إلى دمي ورقية يضعها داخل الكتاب.⁽⁸¹⁾

منذ أن قدم ريتشارد فيلهلم الترجمة الأولى المتاحة التي توفر تعليمات عملية للقراءة، أصبح الـ «آي جِنغ» ملكًا للعالم. كما تلاحظ بيفرلي زابريسكي: «على الرغم من تجميعه في أوقات غريبة وبعيدة، فإن الرموز السداسية تقدم صورًا وتشبيهات للمصائب الخارجية الشائعة وحالات الانفصال الداخلية: إحباط بسبب إطار مثقوب، أو... البحث عن الروح.»⁽⁸²⁾ هناك ما هو أكثر: هناك فرصة، في التغير المستمر لـ «كتاب

(80) Kristofer Schipper, *The Taoist Body* (Berkeley: University of California Press, 1993), p. 37.

(81) G. Willoughby-Meade, *Chinese Ghosts and Goblins* (London: Constable, 1928).

(82) Beverley Zabriskie, "Synchronicity and the *I Ching*: Jung, Pauli, and the Chinese Woman," *Journal of Analytical Psychology* 50 (2005): 224.

التغيرات»، لالتقاط الحركة المحتملة بين مسارات الأحداث البديلة، وحتى العوالم المتوازية. شكل الرمز السداسي 61، «تشونغ فو» (الصدق الداخلي)، يشبه القلب المفتوح، مما يتيح إمكانية رؤية جوهر الأشياء. عندما تتلقى جوليانا هذا الرمز السداسي في رواية فيليب كيه ديك «الرجل الذي في القلعة العالية»، يبدأ واقع الشخصية الرئيسة في التغير، ويرى عالمًا جذابًا أكثر، عالمًا لم ينتصر فيه هتلر. قد يدرك قراء «آي جينغ» المخلصون، مثل الطلاب الذين يبحثون بحرص في مسألة التزامن، أن رؤية شيء على حقيقته يمكن أن تغير «كل شيء».

تشخيص الأحلام الذي فات الدكتور فرويد

للأحلام معنى ويمكن تفسيرها. يتكشف في الأحلام نفس نوع الإبداع والوعي الشعري الموجود في الفن والأدب. وقد تكون الأحلام هي العناصر الأثرية للغة عالمية من العلامات والمراسلات التي كان البشر قادرين على التحدث بها قبل أن تظلم عقولهم.

تأتي هذه الأفكار جميعها من فرويد، من إصدار عام 1900 من كتابه «تفسير الأحلام» ومن فصل عن الرموز أضافه في عام 1914.⁽⁸³⁾ هذه الأفكار قديمة، لكنها في نهاية القرن التاسع عشر كانت نَسمة جديدة في غرف الاستشارة الراكدة للأطباء النفسيين الذين كانوا يعتقدون، مثل بعض علماء الأعصاب اللاحقين، أن الأحلام ظواهر ثانوية لا معنى لها للعمليات الجسدية.

على الرغم من أن فرويد قدّم بعض الأفكار المهمة حول الأحلام، فقد رَوّج للأسف لجوانب أخرى من نظريته حتى أصبحت عقيدة جامدة تسعى إلى حصر معاني الأحلام ضمن نطاق ضيق جدًا من الفهم. فعلى الرغم من أنه بدا وكأنه يحترم الشخصية الفردية للحالمين عبر سؤاله عن ارتباطاتهم الشخصية بمشاهد الأحلام، فإنه في الواقع كان

(83) The chapter added to the 1914 edition is titled "Representation by Symbols in Dreams – Some Further Typical Dreams," in *The Interpretation of Dreams*, trans. John Strachey (New York: Avon, 1965), pp. 385–439.

يدفع التفسير في اتجاه محدد مسبقاً. فقد أصر، إلى حدّ التشدد، بتفسير رموز الأحلام من زاوية محدودة، حيث اعتبروا أن معظم هذه الرموز ترتبط بمعاني حسية وجسدية. فمثلاً، فُسر فتح المظلة بأنه يدلّ على حالة معينة، واعتُبرت بعض الأدوات والملابس رموزاً ذات دلالات محددة.

لكن، هل يقتصر تفسير الأحلام على هذه الدلالات فقط؟ ماذا عن معاني الصعود والهبوط في الأحلام، التي يمكن أن تعبّر عن مراحل مختلفة في الحياة من حيث التطور الشخصي أو المكانة الاجتماعية؟ وماذا عن استكشاف أماكن جديدة في الحلم، والتي قد تعكس رغبة في التغيير أو التجديد؟

وفي هذا السياق، يُذكر أن المحتوى الظاهر في الأحلام قد لا يكون هو المعنى الحقيقي، بل قد يكون تعبيراً رمزياً يخفي وراءه معاني عميقة ترتبط بالتجارب والذكريات الشخصية.

كما انشق فرويد انشقاقاً جذرياً عن مفسري الأحلام القدماء حين رفض فكرة أن الأحلام تكشف عن المستقبل. بل أصرّ على أن الأحلام تنبع من ماضي الحالم، بدءاً من «بقايا اليوم» ومروراً بالمكبوتات المتراكمة منذ الطفولة المبكرة. فالأحلام ليست تنبؤات، بل هي سير ذاتية نفس-جسدية.

وقد برزت عيوب منهج فرويد من خلال حادثتين كاشفتين. الأولى شهيرة جداً، وقد أدت إلى قطع صلته بتلميذه الموهوب كارل يونغ. أما الثانية، والتي يبدو أنها غابت عن معظم طلاب فرويد وكُتِّب سيرته الذاتية، فهي مأساوية، وتشير إلى أن فرويد ربما دفع ثمناً باهظاً لتجاهله الجوانب التنبؤية والجسدية للأحلام.

إحدى الأحلام الكبرى التي راودت يونغ - والتي عَجَزَ فرويد تماماً عن تحليلها عن طريق نظامه - كانت سبباً في انفصالهما وصعود يونغ كقائد لمدرسة جديدة. في الحلم، وجد يونغ نفسه في منزل متعدد الطوابق، حيث أدرك أن هناك طابقاً يقع تحت المستوى البرجوازي الاعتيادي الذي يعيش فيه. وعندما بدأ استكشافه، وجد طابقاً معتملاً بديكورات من العصور الوسطى، وتحتة قبو روماني مزخرف، ثم كهف بدائي يضم

عظامًا متناثرة وقطعًا فخارية وجمجمتين.

قَصَّ يونغ حلمه على فرويد أثناء سفرهما معًا. والطريقة الوحيدة التي استطاع فرويد أن يتعامل بها مع الحلم كانت إقناع يونغ بتحويله حتى يتوافق مع نظريته القائلة بأن ما يكمن تحت المحتوى الظاهري للأحلام هو رغبة مكبوتة، والتي، في هذه الحالة (بسبب الجحاحم)، يجب أن تكون رغبةً في الموت. مَنْ الذي كان يونغ يتمنى موته؟ المسكين يونغ، الذي كان لا يزال يشعر برهبة من معلمه، اضطر إلى تحديد زوجته الجديدة (التي لم تكن بينها وبينه أية مشاكل) وأخته غير الشقيقة كشخصين يحمل تجاههما رغبةً دفينَةً في موتها. وقد اعترف بذلك رغم علمه بأنه يكذب، لأنه أدرك أن فرويد يشعر بالعجز والتهديد أمام كل ما يتجاوز مصائد الذهن الضيقة.

قاد الكذب يونغ إلى إدراك خطأ نهج معلمه وحاجته إلى القطيعة معه. فالأحلام، بعكس ما يُقال عنها، ليست أدوات للقمع، بل إنها تفتح فضاءً يتحرر من القمع والإنكار الواعيين. كتب يونغ: «أرى أن الأحلام جزء من الطبيعة، لا تضمر نيةً للخداع، بل تعبر عن نفسها بأفضل ما تستطيع، تمامًا كما تنمو النبتة أو يبحث الحيوان عن طعامه بأفضل ما يستطيع». وقد كان حلمه عن المنزل متعدد الطوابق على درجة عظيمة من الأهمية، إذ إنه، بحسب قوله، قاده لأول مرة إلى مفهوم «اللاوعي الجمعي». لقد أثار بداخله إدراكًا عميقًا للطبقات العميقة والرمزية للعقل البشري التي ترجع إلى الأسلاف ولبنيتها النفسية الموروثة - «المخطط البنيوي للنفس البشرية» - الذي يصبح متاحًا من خلال الحلم.⁽⁸⁴⁾

لكن كان على يونغ أن يقطع علاقته بفرويد قبل أن يتمكن من تحقيق انطلاقة الحاسمة. فبعد حلم المنزل، جاءه حلم آخر يدفعه نحو هذه القطيعة، رأى فيه فرويد شبّاحًا متدمرًا لموظف جمارك نمساوي يتلاشى تدريجيًا، بينما يظهر له مرشد آخر - فارس من فرسان الكأس المقدسة يرتدي درعًا متلألئًا - ليقوده في الحلم.

(84) C. G. Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, ed. Aniela Jaffé (New York: Vintage, 1965), pp. 161-162.

أما الحلم الأشهر الذي حلله فرويد، فكان أحد أحلامه الخاصة، وهو «حلم إرما». ففي كتابه «تفسير الأحلام»، يورد وصفًا مطوّلًا لهذا الحلم الذي راوده عام 1895 وتحليله له. رأى فيه أنه يفحص فم مريضة تُدعى إرما ويتناقش بخصوص حالتها مع عدة أطباء.⁽⁸⁵⁾

وقد أدى تحليل فرويد لهذا الحلم، حسب روايته هو، إلى ابتكاره لعلم التحليل النفسي. وقد أراد أن يُنقش على لوح من الرخام النص التالي ويوضع على المنزل الذي حلل فيه حلم إرما:

في هذا المنزل، في 24 يوليو 1895،

انكشف سر الأحلام

للدكتور سيجموند فرويد.⁽⁸⁶⁾

والمفارقة المأساوية أن فرويد، رغم كل عمله على هذا الحلم، ربما يكون قد أغفل تحذيرًا صحيًا كان من الممكن أن ينقذ حياته. فقد استنتج الدكتور خوزيه شافيلزون، جراح السرطان والمحلل النفسي، بعد مراجعة دقيقة للسجلات الطبية الشخصية لفرويد، أن حلم إرما قدّم وصفًا دقيقًا ومذهلًا لأعراض السرطان الفموي الذي سيودي بحياته بعد ثمانية وعشرين عامًا.

في الليلة التي سبقت الحلم، زاره زميل شاب يُدعى «أوتو»، وكان معتادًا على السهر معه للعب لعبة «تاروك» (لعبة ورق مرتبطة بالتاروت) وتدخين السيجار. تحدثا عن حالة «إرما»، التي كان فرويد يعالجها من الهستيريا. وقد أزعجه تعليق أوتو: «لقد تحسنت، ولكنها لم تُشف تمامًا.»⁽⁸⁷⁾ أمضى فرويد جزءًا من ليلته في كتابة تقرير عن تاريخ حالة إرما.

(85) Freud, *Interpretation*, pp. 138–151.

(86) Freud described the inscription he wanted in a 1900 letter to Wilhelm Fliess (who implored him to give up smoking). See Louis Breger, *Freud: Darkness in the Midst of Vision* (New York: John Wiley & Sons, 2000), p. 143.

(87) Freud, *Interpretation*, p. 139.

ثم رأى في حلمه أن إرما تدخل إلى قاعة كبيرة كان يستقبل فيها ضيوفه. تنحى بها جانبًا وقال لها: «إذا كنتِ لا تزالين تشعرين بالألم، فالمسؤولية تقع عليكِ.» كانت شاحبة ومتورمة، وأخبرته أنها تعاني من آلام فظيعة، خصوصًا في حلقها: «إنه يخنقني.» ارتعب فرويد وبدأ يخشى من أن يكون قد أغفل «مشكلة عضوية ما» في نهجه العلاجي. أخذ إرما إلى نافذة وتفحص فمها، وكان فتحه صعبًا، إذ «أبدت مقاومة، كما تفعل النساء اللواتي يضعن أطقم أسنان صناعية». وحين تمكّن أخيرًا من رؤية الداخل، وجد أعراضًا مزعجة جدًا؛ «بقعة بيضاء كبيرة» في الجانب الأيمن من الفم و«قشورًا رمادية بيضاء واسعة الانتشار». وقد وصف فرويد هذه القشور بطريقة لافتة للغاية؛ إذ شبهها بـ «عظام المحارة الأنفية».

في الحلم، طلب فرويد رأيًا ثانيًا بشأن مريضته. فظهر زميله الكبير الدكتور «إم»، وكان شاحبًا حليق الذقن، وكرّر فحص فرويد. قدّم تشخيصًا مؤكدًا: هناك بالفعل «عدوى»، لكن «سيتم التخلص من السّم». كان زميل طبي آخر، هو ليوبولد، أقل تفاؤلًا؛ إذ اكتشف أن العدوى قد انتشرت إلى كتف المريضة الأيسر، وأن هناك «منطقة معتمة في الجزء السفلي من الجانب الأيسر».

تحول مشهد الحلم إلى لقاء طبي. وكان أوتو، مساعد فرويد، حاضرًا أيضًا. وكان الأطباء الأربعة — بما في ذلك فرويد نفسه — متفقين على مصدر مرض المريضة. فقد أعطاه أوتو حقنة من «مركّب من بروبييل، بروبيلس... حمض البروبونيك... ثلاثي ميثيل أمين». ورأى فرويد الصيغة الكيميائية للمركّب الأخير مطبوعة بخط ثقيل، تأكيدًا على أهميته. واختتم فرويد تقريره في الحلم بقوله: «لا ينبغي أبدًا إعطاء مثل هذه الحقن بهذه اللامبالاة... ومن المحتمل أن الحقنة لم تكن معقمة.»⁽⁸⁸⁾

وعند تعليقه على حلمه، بدأ فرويد بالإشارة إلى أنه كان يفكر ويكتب عن مريضته في الليلة السابقة. لكن هذا لم يساعده في فهم محتوى الحلم، الذي بدا له غامضًا تمامًا، لأن مريضته الحقيقية لم تكن تُعاني من الأعراض التي أرقته في الحلم. قال: «ضيق الحلق

(88) The descriptions of Freud's dream in the preceding three paragraphs, *ibid.*, pp. 139–140.

لم يكن له دور يُذكر في مرضها. تساءلت لماذا اخترت هذه الأعراض في الحلم، لكنني لم أجد تفسيرًا في حينه. (89)

تساءل فرويد إن كانت إرما، في الحلم، تمثل مريضة أخرى كانت تعاني من نوبات اختناق. ثم انطلقت تحليلاته إلى روابط أخرى كثيرة. وعندما تأمل أسماء المواد الكيميائية التي ظهرت في الحلم، تذكر محادثة مع زميل له اقترح فيها أن ثلاثي ميثيل أمين قد يكون عنصرًا مرتبطًا بالإثارة العاطفية. وقد حمل هذا إلى أفكار «فرويدية» عن المصدر المحتمل للهستيريا في الكبت العاطفي.

اختتم فرويد تفسيره لحلم إرما بإعلانه أنه مثال نموذجي على «تحقيق الأمنيات» في الأحلام. فقد أثارته ملاحظة أوتو في الليلة السابقة بأن مريضته لم تُشفَ تمامًا. وفي حلمه، نال «ثأره» من أوتو بإثبات أن آلام المريضة كانت خطأ أوتو، لا خطأه هو.

وفي كل حديثه عن «الاستبدال» - أي كيف يمكن لشخصية في الحلم أن تمثل شخصًا آخر أو عدة أشخاص - لم يتوقف سوى للحظة عابرة للتفكير في احتمال أن يكون المريض الحقيقي هو الحالم نفسه. وقد خطر له أن تكون «القشور» التي تشبه تراكيب الأنف تحذيرًا له بشأن آثار محتملة لإفراطه في استخدام الكوكايين، لكنه تجاوز هذه الفكرة بسرعة، دون أن يتأمل في مواد أخرى وتأثيراتها المحتملة.

بعد ثمانية وعشرين عامًا من حلم إرما، كان جرّاحو الفم الذين يعالجون فرويد ينظرون إلى الأعراض الدقيقة التي حلم بها؛ ولكن هذه المرة، داخل فم فرويد نفسه. ففي أوائل عام 1923، أجرى أحد الجراحين استئصالًا لنمو سرطاني يشبه «البقعة البيضاء الكبيرة» التي ظهرت على الجانب الأيمن من فم إرما، «عند الحنك الأمامي الأيمن». (90)

في سلسلة من العمليات الجراحية والعلاجات استمرت على مدى السنوات الخمس عشرة التالية، حاول أطباء فرويد استئصال ما يُعرف بـ «الطلوان الورمي الحليمي» من

(89) Ibid., p. 141.

(90) Ibid., p. 144.

داخل فمه، وهو آفة تشبه «القشور» غير المألوفة التي ظهرت في حلم عام 1895. وقد خلّفت العمليات الجراحية المتكررة التي أُجريت لفرويد قشورًا إضافية.⁽⁹¹⁾

في حلم إرما، كانت المريضة تواجه صعوبة في فتح فمها. وبعد أن أجرى الدكتور بيتشler عمليات جذرية لفرويد أواخر عام 1923، اضطر فرويد - مثل مريضته في الحلم - إلى ارتداء «طقم أسنان»، هو في الحقيقة طقم صناعي قابل للإزالة. وبسبب إصابته بتشنّج الفك خلال عملياته المتعددة، كان من الصعب أحيانًا إدخال الطقم. وفي أواخر حياته، مرّ بفترات لم يكن قادرًا فيها على «فتح فمه».

يشير الدكتور شافيلزون إلى أن الإشارة في حلم عام 1895 إلى تراكيب الأنف قد تكون عرض مسبق لحالة فرويد بعد الجراحة، والتي جعلت تجويف الأنف مرئيًا من الفم.

وماذا عن كل الأطباء الذين ظهروا في حلم إرما؟ عند إزالة الأسماء المستعارة، نجد أنهم زملاء من الأطباء قدّموا لفرويد نصائح متباعدة بشأن عادة التدخين لديه. كان «الدكتور إم»، الذي أعطى تشخيصًا متفائلًا ولكنه خاطئ، في الحقيقة الدكتور جوزيف بروير، وهو صديق ومرشد أقنعه فرويد - رغم تردده - بالتخلي عن معارضته القوية لتدخين السيجار.

أما «ليوبولد»، فكان طبيبًا معروفًا بالبطء ولكن بالدقة، وكان قد حذّر من أن التدخين قد يؤدي إلى أمراض خطيرة.

أما «أوتو»، فكان أوسكار ري، وهو صديق كان يشاركه ولعه بالسيجار، وربما جلب له هدية من السيجار في الليلة السابقة للحلم.

(91) The prime source on the symptoms and treatment of Freud's cancer are the medical notes of his oral surgeon, H. Pichler (Case History of Prof. Sigmund Freud), trans. L. Levy, in the Max Schur Papers (3-85R-13), in the Library of Congress. So far as I am aware, the first person to detail the connection between the Irma Dream and Freud's mouth cancer was the Argentine cancer surgeon and psychoanalyst José Schavelzon, in his monograph *Freud, un paciente con cancer* (Buenos Aires: Editorial Paidós, 1983).

سواء مثل أطباء الحلم جوانب من ذات فرويد نفسه، أو كانوا بشخصياتهم الفعلية، فإن دورهم في الحلم كان أشبه بمرآة تعكس سلوك الحالم وموقفه. لكن، للأسف، لم يستطع رؤية صورته في تلك المرآة إلا غامضة ومشوّهة.

اعتبر فرويد أن الحقنة (وهي كلمة ألمانية تعني أيضًا "الراشة") كانت رمزًا يستخدمه في تفسير بعض الظواهر النفسية، ورأى أن علاج بعض أعراض المرضى يرتبط بتحرير الطاقات النفسية المكبوتة. لكن «حقنة قذرة» قد تمثل أيضًا وسيلة إيصال النيكوتين؛ أي سيجار من الذي كان فرويد، على الأرجح، يدخنه في الليلة السابقة. فجميع المواد الكيميائية التي ذُكرت في حلم إرما موجودة في دخان السيجار. ورغم أن ثلاثي ميثيل أمين لا يُعتبر مادة مسرطنة في حد ذاته، إلا أنه، حين يمتزج بالنترات في بيئة حمضية (مثل فم المدخن)، يمكن أن يتحول إلى مادة مسرطنة شديدة السُمية تُدعى ثنائي ميثيل نيتروزامين DMNA.

تشير الأدلة إلى أن حلم فرويد قدّم له صورةً دقيقةً للغاية عن أصل سرطان الفم وتشريحه النسيجي، وهو السرطان الذي أدى به إلى موت مؤلم بعد معاناة طويلة. (92) ورغم أن فرويد أبدى اهتمامًا بفكرة أن الأحلام قد تنطوي على رسائل من الجسد، فقد فاتته هذه الرسالة، بخلاف يونغ، الذي أفلح عن التدخين بسبب حلم.

والسؤال المهم لفهمنا لطبيعة الأحلام التشخيصية هو ما إذا كان حلم إرما قد احتوى رسالة تحذيرية صادرة من داخل النظام الخلوي لجسم فرويد، كما كان عليه وقت الحلم. بعبارة أخرى، هل يمكن اعتبار حلم إرما «مؤشرًا للورم»؟ من المحتمل أن تكون خلية واحدة متأثرة قد أطلقت حلمًا، وأرسلت إشارة استغاثة عبر الخلايا المجاورة، أو عبر جهاز الغدد الصماء، وتشكلت هذه الإشارة على هيئة حلم داخل «داخل مركز إنتاج الأحلام» في الدماغ. (93)

(92) Ibid.

(93) For a thorough and helpful discussion of the tumor marker hypothesis, see Thomas R. Hersh, "How Might We Explain the Parallels between Freud's 1985 Irma Dream and His 1923 Cancer?" *Dreaming* 5, no. 4 (December 1995): 267–287.

قد يكون فرويد قد دفع ثمنًا باهظًا لإجباره أحلامه على السير في سكك تفسير ضيقة المسار. وبما أن القصة الكبرى لحلم إرما تحظى بأهمية كبيرة في مجال تفسير الأحلام، يبدو من المناسب أن الاسم المستعار الذي اختاره فرويد لمريضته يعني «شاملة» أو «عالمية».

الحلم في زيت الزيتون

معظم الناس، في معظم فترات التاريخ، نشأوا على معتقدات تقليدية حول معاني الإشارات والرموز في الأحلام. ورغم أن هذه المعتقدات قد تبدو سخيفة تمامًا للغرباء، فإنها قد تعمل بفعالية - في توجيه الانتباه وحصد الإلهام العملي - إذا كان الإيمان بها تامًا.

لدي أصدقاء في مجال الأعمال يعيشون في جزيرة باينبريدج بولاية واشنطن، أخبرتهم مدبرة منزلهم التايوانية بأن من علامات الحظ الجيد أن يتغوّط طائرٌ على سطح منزلك. كان الرجل متشككًا، كونه مهندسًا تلقى تعليمًا علميًا. وفي صباح اليوم الذي كان يأمل فيه إطلاق مشروع جديد كبير، لاحظ طائرًا يتغوّط على سطح منزله. وبالفعل، نجحت الصفقة نجاحًا مذهلًا، وفي المساء، اعترف لمدبرته بأن نظامها على ما يبدو ناجح.

فأجابته بجدية: «الحظ يكون أفضل إذا تغوّط الطائر على رأسك.»

وفي المرة التالية التي كان يعمل فيها على صفقة كبيرة، ضبطته زوجته في الخارج، يلوّح بذراعيه نحو الطيور، ويحثّها على أن «تقدّمي وتغوّطي على رأسي.»

من الأماكن المفضلة لديّ في مدينة تروي - تلك المدينة المتداعية في شمال ولاية نيويورك، حيث عشتُ في تسعينيات القرن الماضي - متجر بقالة إيطالي مملوك لعائلة تُدعى «دي فازيو». كان الملاك قد هاجروا من صقلية قبل عقود طويلة. ومن خلال باب مطبخهم المفتوح، كنت كثيرًا ما أراهم يصنعون الصلصة والنقانق يدويًا. كانت جوزفين دي فازيو ذات شعر أبيض كالثلج، وقلب يغرد كعصفور.

كانت السيدة دي فازيو تعشق الحديث عن الأحلام. وكان لديها أسلوب في تفسيرها نقلته الأمهات إلى بناتهن عبر أجيال في صقلية. الكلاب في الأحلام فأل حسن (حسب سلوكها)، والدجاج الميت دائمًا نذير شؤم، والخيول «شياطين».

قالت: «حلمت أنني أكنس التراب. كنت أنظف، وأنظف، وأنظف، طوال الليل. هذا جيد. التراب في الأحلام جيد، ما دمت أنت من تزييله.»

وفي إحدى المرات دخلت المتجر، فأمسكت جوزفين بورقة نقدية مكرمشة من فئة خمسة دولارات معلقة على اللوح خلف العداد. وقالت: «هيا، خذها. عرفت أنها لك، لأن لا أحد غيرك يحتفظ بنقوده بهذه الفوضوية.»

كم عدد البقالين الذين صادفتهم يفعلون شيئًا كهذا؟

عدت إلى متجر دي فازيو في اليوم التالي لأشتري طماطم وثمرًا، فهم دائمًا لديهم الأفضل. فنادت جوزفين بصوتها المرح: «شكرًا! نعلم أنك فعلتها.»

«فعلتُ ماذا؟»

«بعد أن أعطيتك الخمسة دولارات وغادرت، خرجتُ إلى الرصيف، فوجدتُ ورقةً جديدةً من فئة مئة دولار.»

ثم ألقت عليّ واحدة من قوانين التجلي: «ما تزرعه تحصده. هذه حقيقة إلهية.»

الفصل الثالث

الحلم المقدس

الغالبية العظمى من البشر تتلقى معرفتها بالكيان المقدس من خلال الأحلام.
-- ترتليان (حوالي عام 210 ميلادي)، «رسالة عن النفس»

إن إلهنا ينذرنا بطرق شتى، من خلال العلامات السماوية، ومن خلال تحذيرات الأنبياء، وهو يريدنا أن نفهم حتى من خلال رؤى الخطاة.

— الأسقف أمبروسيوس، أسقف ميلان، مخاطبًا الإمبراطور ثيودوسيوس (390 م)

إن الأحلام تقبع في أعماق الأساطير والأديان التي وجهت مسار البشرية. فهي تمثل جوهر نشأة وتطور الأديان التاريخية — تلك التي تُعلم إلهامًا استثنائيًا لا يتكرر، يتبعه تقدمٌ لا رجعة فيه وفقًا لخطة إلهية — وكذلك سائر الأديان الأخرى.

المجهول في رؤى البشر، والبشر في رؤى المجهول

عند كثير من الشعوب، يُعتبر وجودنا بحد ذاته على هذا الكوكب ثمرة حلم لكيان خالق. ففي العقلية الهندية⁽⁹⁴⁾، الكيان الأعلى فيشنو (الكيان المقدس الأعلى في

(94) هذه المعتقدات جزء من التراث الديني الهندوسي، وتُعرض هنا بوصفها مادة دراسية ضمن سياق تاريخ الأديان والثقافات، ولا تعبر عن العقيدة الإسلامية التي تنفي وجود أي شريك أو مشابهة بين الله وخلقهِ، وترى أن الخلق تم بأمر إلهي مباشر، لا عن طريق حلم أو نوم، إذ يقول الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ

الهندوسية) مستغرق في حلم عن هذا العالم، وسيظل العالم قائماً إلى أن ينهي حلمه ويبدد شخوصه الخُلمية؛ بما في ذلك نحن أنفسنا. الكيان الأعلى فيشنو نائم على أفعى عظيمة تُدعى «اللانهاية». هذه الأفعى تطفو فوق «المحيط اللبني» العظيم.

وأثناء نوم فيشنو، يُنتج عقله أحلاماً، وهي المادة التي صُنِعنا منها نحن وعالمنا. «إن مبدأ فيشنو النقي هو المصدر، والخطة، للحياة... تخطيط العالم هو عمل فيشنو.»⁽⁹⁵⁾

وترد رواية أخرى عن إله يحلم بعالم، في معتقدات قبيلة الجواجيرو⁽⁹⁶⁾، وهم قوم يعيشون في غابات أمريكا الجنوبية. بالنسبة للجواجيرو، وُلِدَ الكون عندما أدرك الخالق، ماليوا، أنه يحلم. ولم يتوصل إلى هذا الإدراك من تلقاء نفسه، بل ساعده كائن غامض يُدعى أبوساناي، تتمثل وظيفته في إعداد الإطار الذي تحدث فيه التجارب الخُلمية. لا يؤدي أبوساناي هذه المهمة من أجل الخالق فحسب؛ بل يؤديها لكل إنسان. لذا، في كل مرة نحلم فيها، من الممكن - حسب مقياسنا - أن ندخل في قوة التجلي التي مصدرها أول حالمٍ واعٍ؛ الخالق.⁽⁹⁷⁾

ومن منظور قوم الماكيريتاري⁽⁹⁸⁾، وهم شعب في فنزويلا يمارس الممارسات الشامانية، فيما يتعلق بنشأة الكون، خلق الكيان المقدس في أسطورتهم الأعلى وانادي والدته من خلال الحلم. فقد أسقط أولاً نسخةً منه دخلت العالم المادي. وهذا المستنسخ «جلس هناك في صمت، يفكر، ويحلم، ويحلم. وحلم بأن امرأة وُلِدَت... لقد صنع

وَلَا نَوْمٌ [البقرة: 255].

(95) Alain Daniélou, *Hindu Polytheism* (London: Routledge & Kegan Paul, 1964), p. 150.

(96) الجواجيرو (Wayuu أو Guajiro) قبيلة من السكان الأصليين تعيش في شمال شرقي كولومبيا وشمال غربي فنزويلا. تمتلك هذه القبيلة نظاماً معتقدياً تقليدياً يتضمن أساطير عن الخلق والأحلام والروح، وتُروى من خلال التراث الشفهي. وتُعد الأحلام عنصراً مركزياً في فهمهم للعالم والوجود، حيث تُنسب إليها دلالات كونية وروحي.

(97) Lawrence C. Watson, "Dreaming as World View and Action in Guajiro Culture," *Journal of Latin American Lore* 7, no. 2 (1981): 239-254.

(98) الماكيريتاري (Makiritare) هم من الشعوب الأصلية في منطقة الأمازون، ويُعرفون أيضاً باسم يكوانا (Yekuana). يعيشون في أجزاء من جنوب فنزويلا وشمال البرازيل، ويتميزون بثقافة روحية غنية تتضمن أساطير عن أصل الكون، تُروى شفهيًا. في معتقداتهم التقليدية، تُنسب بداية الخلق إلى كائن علوي يُعيد تشكيل العالم من خلال الحلم أو الفعل الرمزي، وهو ما يعكس رؤيتهم الخاصة للعلاقة بين العالم المرئي واللامرئي.

والدته بنفسه». ثم دخل وانادي جسدها بالهيئة الذي كان قد حلم بها.⁽⁹⁹⁾

قد تدفعنا تلك القصة إلى التفكير بعمق أكبر فيما يحدث فعلاً في الأحلام التي تتجلى فيها تصورات إلهية، مثل حلم الملكة مايا الشهير، الذي بشر بمولد ابنها سيدهارتا، الذي أصبح لاحقاً بوذا. عند تناولنا لقصة مايا، لا ينبغي أن نغفل عن أن اسمها في السنسكريتية يعني «الوهم»، ليس فقط بالمعنى السلبي، بل بمعنى التلاعب بالصور الذي يجلب الأشياء - بل وحتى العوالم - إلى حيز الوجود. حلمت مايا بفيل ذي ستة أنياب، «أبيض كجبال مغطاة بالثلوج»، يدخل جسدها من جنبها. استدعي الكهنة لتفسير الحلم، وتنبأوا بأنها ستلد كائنًا روحياً سيغيّر العالم. ووفقاً لبعض النصوص القديمة، فقد نامت في ليلة الحمل بعيداً عن زوجها. وعلى الرغم من أن الملكة لم تكن عذراء، فإنها حتى تلك اللحظة لم تكن قد أنجبت أطفالاً، وكان ميلاد سيدهارتا حدثاً استثنائياً دون شك. ويُقال أحياناً إنه خرج من جسد أمه من جنبها، من غير جراحة، ومن دون أن يلحق بها أي أذى. وتشير بعض الروايات إلى أن الفيل ذو الأنياب الستة لا يُمثل فقط القوة الروحية لبوذا، بل يُعدّ أيضاً المولّد الروحي له.⁽¹⁰⁰⁾

أحلام الإنسان وأثرها في تكوين المعتقدات

في العصور القديمة، كانت الأحلام تُعتبر بمثابة «عرض ليلي للكائنات الخارقة»، التي قد تظهر بأشكال مختلفة ومتنوعة. كان اليونانيون القدماء، الذين نشأوا على ملحمتي هوميروس، يعرفون أن الكائنات الخارقة قد تدخل مجال الحالم متقمصةً هيئة صديق، كما ظهر زيوس لأجاممنون، أو كما ظهرت أثينا لناوسيكيا وبينيلوبي. وكان من المفهوم على نطاق واسع في حوض البحر المتوسط القديم، أن الكائنات الخارقة حين ترغب في أن تكشف عن نفسها دون مواربة، فإنها غالباً ما تتجلى بالأشكال التي

(99) Marc de Civrieux, *Watunna: An Orinoco Creation Cycle*, trans. David M. Guss (San Francisco: North Point Press, 1980), p. 23.

(100) On the sexual issue in rival versions of the Buddha's conception, see Serinity Young, *Courtesans and Tantric Escorts: Sexualities in Buddhist Narrative, Iconography, and Ritual* (London: Routledge, 2004), pp. 67–72.

صنعتها لها أيدي البشر وخيالاتهم. ففي تقارير الأحلام المصرية واليونانية-الرومانية، كثيرًا ما تظهر الكائنات الخارقة على هيئة تماثيل معابدها. وتنبض هذه التماثيل بالحياة في الأحلام، كما كان يُعتقد أحيانًا أنها تفعل ذلك في المواكب الطقسية. وهذه الفكرة ليست «بدائية» كما قد نفهم للوهلة الأولى. فكما كتب تي. إس. إليوت: «البشرية لا تستطيع تحمّل الكثير من الحقيقة»، ومن الأصعب على البشر أن يتحملوا حقيقة كيان يتجاوز الإنسان إذا ما أظهر نفسه دون تخفيف. تذكّر الرعب الذي اجتاحت أرجونا، في كتاب البهاجافاد جيتا حين استجاب كريشنا لطلبه وأظهر له ذاته في شكلها الكوني، كخالق ومُفني العوالم وفقًا للمعتقدات الهندوسية.

وفي طقوس تدشين المعابد الهندوسية في العصر الحاضر، تُدعى الكائنات الخارقة، عبر الصلوات وشعائر الـ «بوجا»، لتتجلى وتسكن التماثيل التي أُعدّت لتحتوي طاقاتها. وبالنسبة للحالمين في العصور القديمة، كانت «التماثيل التي تتنفس» هي الأشكال المفضلة لملاقاة الكائنات الخارقة. وأحيانًا يحالفنا الحظ في العثور بين النصوص الباقية على إشارات إلى ولادة شكل إلهي في عقل الإنسان القديم. كان سيرايس، الذي حظي بشعبية واسعة في القرون الأولى للمسيحية وكان المعبود الشخصي لأباطرة السلالة الأنطونية، يُعتقد أنه وُلد من حلم لأمير مقدوني أثناء وجوده في مصر.

ورث القائد المقدوني بطليموس سوتر مُلك مصر عن الإسكندر الأكبر، وأسس سلالة كان أشهر أفرادها كليوباترا. وقد نقل المؤرخ تاسيتوس الرواية التالية التي قدمها الكهنة المصريون عن حلم بطليموس: حينما كان بطليموس منشغلًا ببناء أسوار ومعابد مدينة الإسكندرية التي كانت حديثة العهد آنذاك، «رأى في المنام شابًا ذا جمال فائق وقامة تفوق البشرية، وأمره ذلك الشاب بأن يرسل أكثر رسله وفاءً إلى منطقة بنطس لي جلبوا تمثالًا له. وقال له إن هذا التمثال سي جلب الازدهار للمملكة... ثم رأى الشاب نفسه يصعد إلى السماء وسط لهب من النار».

ناقش بطليموس حلمه مع تيموثيوس، كاهن الطقوس الإليوسينية، الذي بدوره

تحدث مع مسافرين على دراية بمنطقة بنطس الواقعة على البحر الأسود. لقد ظنوا أن التمثال الذي رآه بطليموس في حلمه قد يكون تمثالاً ضخماً لـ «جوبيتر ديس» – المعروف عند اليونانيين القدماء باسم هاديس أو بلوتو، سيد الموت والعالم السفلي – كان قد أقيم في مستعمرة يونانية على البحر الأسود تُدعى سينوب.

لكن «مثل ملك حقيقي»، لم يسارع بطليموس إلى اتخاذ قرار، إذ كان «أكثر ميلاً إلى الملذات من الدين». وما لبث أن رأى رؤيا مخيفة في المنام، ظهر فيها الكائن المتوهج مرةً أخرى، لكن هذه المرة بغضب، متوعداً ومهدداً بأن بطليموس ومملكته سيلقيان الهلاك إن لم ينفذ أمر الحلم الأول. عندها أرسل بطليموس مبعوثين محملين بالهدايا إلى حاكم سينوب، الذي رفض في البداية التخلي عن التمثال. لكن بعد ثلاث سنوات، وبعد أن رأى بنفسه أحلاماً مرعبة عززتها أوبئة وكوارث أخرى، قرر أخيراً أن يرسل تمثال الكيان المقدس إلى الإسكندرية. (101)

أطلق على اسم «سيرابيس» – وهو اسم يستحضر كلاً من الثور المقدس أيس في مصر، وأوزوريس، الكيان المقدس الذي يموت ويبعث. (102) وقد أصبح تمثال سيرابيس مركزاً للمجمع معابد ضخمة يُعرف باسم السيرابييوم، حيث جُمعت واحدة من أعظم مكتبات العالم القديم، وكان الناس يتوافدون إليه خصيصاً ليحلموا. وكما في معابد أسكليبيوس، كانت تُمارس طقوس الحلم المقصود في السيرابييوم بغرض الشفاء. لكن تلميذ المعبد، أو الـ «كاثودوس»، قد يتدرب أيضاً على فن الحلم كعلم مستقل بذاته. (103)

ومن أحلام بطليموس، نشأت ديانة توفيقية جذبت الإغريق والمصريين وسكان شرق البحر الأبيض المتوسط الآخرين. وقد لاقت هذه العبادة الجديدة نجاحاً باهراً،

(101) Tacitus, *Histories*, trans. Alfred John Church and William Jackson Brodribb, bk. 4, pp. 83–84, online at <http://classics.mit.edu/Tacitus/histories.html>.

(102) The name Serapis is derived from the Egyptian Asar-Hapi, which combines the names of Osiris and the Apis bull.

(103) Michel Chauveau, *Egypt in the Age of Cleopatra*, trans. David Lorton (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000), pp. 123–126.

فعندما زار الإمبراطور فسباسيان مدينة الإسكندرية، رمى رجلٌ أعمى بنفسه عند قدميه، صائحاً بأن سيرابيس قد ظهر له في المنام وأخبره أنه سيُشفى إذا تفل الإمبراطور في عينيه. وطلب متضرع ثان، مسترشداً بحلم آخر، أن يطأ الإمبراطور على يده الذابلة حتى تُشفى. ضحك فسباسيان ورفض الطلبين، حتى أبلغه أطباؤه بأن «اللمسة الملكية» قد تجدي نفعاً؛ فمنحها الإمبراطور البصاق الإمبراطوري، والدوسة الإمبراطورية، وشفى الرجلان.⁽¹⁰⁴⁾ وإذا فتته تلك الأحداث، قرر فسباسيان أن يتفقد السيرابيوم بنفسه. وهناك، بينما كان بمفرده داخل الحرم الداخلي، التقى برجل مصري يدعى باسيليديس، على الرغم من أنه كان يعلم بأن باسيليديس موجود في منزله على بُعد ثمانين ميلاً - وهو ما تأكد منه الإمبراطور لاحقاً بإرسال فرسان للتحقق. وقد قبل الإمبراطور ظهور باسيليديس في مكانين في آن واحد بوصفه «رؤية مقدسة»، ودليلاً على قدرته على «نقل البشر حيث يشاء».⁽¹⁰⁵⁾ وهكذا، كان سيرابيس في طريقه ليصبح الكائن المقدس الشخصي لأباطرة روما. أما الإمبراطور اللاحق، كركلا، فقد سرح شعره وفقاً للنمط المميز لـ «سيرابيس»، ولقب نفسه بـ «عاشق سيرابيس».

تَقَمَّص سيرابيس سريعاً صفات المقدس الكوني؛ قوي لكنه غير بعيد المنال، يمكن الوصول إليه من قبل الجميع عبر الأحلام. وقد علّق إيلوس أرسطيدس قائلاً: «الجميع ينادونك معيناً لهم في كل مناسبة، يا سيرابيس».⁽¹⁰⁶⁾ وفي خطبته الأولى، أعلن أرسطيدس: «إن أعمال سيرابيس هي تلك التي يُحفظ بها البشر وتُدار بها الحياة». امتلك سيرابيس قوى جميع الكائنات الخارقة، حيث يعبدّه بعض الناس كبديل عن جميع الكائنات الخارقة، بينما يؤمن آخرون به ككيان كوني خاص للعالم بأسره، إلى جانب الكائنات الخارقة الأخرى التي يؤمنون بها حسب معتقداتهم وظروفهم.⁽¹⁰⁷⁾

(104) Tacitus, Histories, bk. 4, p. 81.

(105) Ibid., bk. 4, p. 82.

(106) Aelius Aristides, Oration 45, in Complete Works, trans. Charles A. Behr (Leiden, Netherlands: E. J. Brill, 1981), 2:264.

(107) Ibid., 2:266.

إن أقدم الإشارات الهندية إلى الأحلام، الواردة في نصوص الريجفيدا (حوالي 1200 ق. م.)، لا تحمل طابعاً مفرحاً. بل ترتبط بأمور مفرعة — مثل التعرض للسرقة، أو لهجوم من ذئب، أو للاغتصاب — يمكن أن تتسرب إلى واقع اليقظة. وتحتوي الآيات على صيغ للحماية تهدف إلى صدّ الشر الذي يظهر في الحلم: «إن كان من صادفته، أيها الملك، أو صديق لي، قد نطق بخطر في حلم ليخيفني، أو إن كان لصّ يتربص بنا، أو ذئب؛ فاحمنا من ذلك، يا فارونا». (108)

يتناول كتاب الأوبانيشاد في الفلسفة الهندية أربع حالات من الوعي: اليقظة، والحلم، والنوم بلا أحلام — وهي حالات طبيعية يمر بها الإنسان — بالإضافة إلى حالة رابعة تُعتبر حالة روحانية خاصة مرتبطة بالتنوير الذاتي في إطار معتقداتهم. وفي هذا السياق، يُنظر إلى الحلم على أنه وسيلة رمزية للتقرب إلى الخالق، حيث يُتصور أن الوجود ينبثق من هذا الحلم في الفكر الهندوسي. (109)

وفي «كتاب الغابة العظيمة»، وهو من أقدم نصوص الأوبانيشاد، ويعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، يُنظر إلى حالة الحلم بوصفها حالة «انبعاث» srj، وهي كلمة يمكن أن تعني أيضاً قذف المنى. فالحلم «يَبْعَثُ» أو يُسْقِط من ذاته «أفراحاً، وسعادات، ولذات،... بركاً، وبحاراً من زهور اللوتس، وجداول متدفقة، لأنه هو الصانع». (110)

في الكتاب نفسه، يتحرك الحالم بين العوالم مثل «البجعة الوحيدة» التي تطير داخل وخارج جسدها. ويُشبّه الحالم بكيان له القدرة على الخلق ضمن نطاق الأحلام، حيث يُقال إنه في حالة الحلم، يصنع أشكالاً متعددة لنفسه، قد تكون مرافقة بالفرح أو الحزن

(108) The Rig Veda: An Anthology, trans. Wendy Doniger O'Flaherty (New York: Penguin Books, 1986), p. 228.

(109) Wendy Doniger O'Flaherty, Dreams, Illusion, and Other Realities (Chicago: University of Chicago Press, 1984), p. 15.

(110) Brhadaranyaka Upanishad, 4.3, 9–10, in S. Radhakrishnan, trans., The Principal Upanishads (New Delhi: Indus, 1995), p. 257.

ومن الأسماء السنسكريتية للمسافرين في الأحلام، كاماشرين، أي «من ينقلون أنفسهم بإرادتهم». إن الأدب والنصوص المقدسة في الهند زاخرة بحكايات عن أسفار الأحلام، تنبثق بوضوح من تجارب حقيقية. ومن أغنى هذه الكنوز كتاب اليوجا فاشيشتا، وهو مؤلف ضخمة من كشمير. في هذه الحكايات، يكتشف الحالمون أن الزمن مرن؛ فقد تعيش مائة عام في عالم أحلام ثم تعود لتجد أن يومًا واحدًا فقط قد مر في زمن اليقظة.

وما يُعاش في عوالم الأحلام حقيقي وله عواقب حقيقية في عالم يقظة المسافر. ويمكن أن تتم من خلاله عملية التلمذة الروحية والتنشئة. فقد أعمل ملك يُدعى لافانا ذهنه في تقديم التضحيات المعقدة المطلوبة في تنويع ملكي، داخل حلم. وقد أشرف على ثلاثة براهمانيين يؤدون الطقوس المطلوبة، بينما قام رابع بدور الشاهد الذي يتحقق من صحة الطقوس. وبهذه الطريقة، أنجز لافانا عمل «التكريس الملكي» الذي يتطلب عادةً اثني عشر عامًا من الجهد والمعاونة والتضحية. ومع ذلك، عُوقب لياوجه معاناة أخرى؛ ليكتسب من خلالها فهمًا أعمق لطبيعة الوجود الإنساني، وليرى كيف ترتبط تجارب الحياة لشخصيات مختلفة في ظروف متنوعة.

كان لافانا جالسًا في أبهة على عرشه، يحتمي كوبًا دافئًا من النبيذ المُتَبَّل، حين ظهر ناسكٌ جَوَّال، يقود حصانًا رائع الجمال. وما إن وجّه الملك انتباهه إلى الحصان، حتى وجد نفسه ممتطيًا إياه، ويعدو به منطلقًا عبر السهول والصحراء. لم يكن بوسعه كبح جماح الحصان، حتى تعثرت قدمه بكرمة متدلية، فسقط من على الركاب. وكان مصابًا بكسور في جسده، وأوشك على الهلاك من الجوع والعطش، حين وجدته امرأة داكنة البشرة، من المنبوذين، أدنى طبقة في نظام الطبقات الهندي. ولما توسل إليها من أجل الماء والطعام، وافقت على إنقاذه بشرط أن يصحبها إلى قريتها ويتزوجها. فقبل الملك بذلك. وقضى عمرًا بين المنبوذين، يربي الأطفال ويعمل في المقابر، بين الجثث وأشباح

الموتى. وعندما مات، أُلقي جسده على المحرقة الجنائزية. وفي تلك اللحظة، انتزع الملك من حلمه فجأة، بينما رأسه منحني إلى صدره. وكان النبيذ المتبّل في كأسه لا يزال دافئًا. (112)

وهناك نسخ أكثر تعقيدًا من هذه القصة. ففي إحدى الروايات، يحلم ناسك براهماني بأنه منبوذ يحلم بأنه ملك. وقف الناسك في نهر يتأمل، والماء يصل إلى صدره، فينزلق وعيه إلى حياة منبوذ يدخل مدينة، فيُستقبل بترحاب بوصفه الملك الجديد. وبعد عدة سنوات، يتعرف عليه رفاقه القدامى، ويُخلع من العرش باعتباره دخيلاً نجسًا. وفي نهاية حياته، يُلقى بجسده على المحرقة الجنائزية. وبينما جسده يحترق، يجد نفسه وقد عاد إلى جسد البراهماني الواقف في النهر. (113)

في قصة هندوسية أخرى، كان ماركانديا إنسانًا يسعى بجد لمعرفة الحقيقة. وذات يوم، دون قصد، وقع من فم فيشنو، الكيان الحالم، ليكتشف أنه أمضى حياته كلها داخل جسد هذا الكيان. وبعد خروجه، رأى رؤيا كونية عن بنية الكون، حيث أدرك أن كل ما عرفه سابقًا كان جزءًا من وجود ذلك الكيان الحالم.

كانت هذه الرؤيا شديدة التأثير عليه، ملأته بهيبة ورهبة تحولت إلى خوف، رغم كونه روحًا متقدمة وممارسًا روحياً متمرسًا. وعاد بعدها إلى فم فيشنو، ليعود إلى العالم الذي يحتويه ذلك الكيان، ومع عودته إلى حياته هناك، بدأ ينسى ما رآه خارج ذلك الوجود..

ويؤكد الأطباء في الطب الأيورفيدي (النظام الطبّي التقليدي في الهند) أننا نخدعون إن اعتقدنا أننا يقظون تمامًا وواعون في حياتنا اليومية. ففي الحقيقة، نحن في حالة حلم دائمة. ويصبح التنوير والشفاء ممكنين عندما نستيقظ على حقيقة أننا نحلم باستمرار. (114)

(112) O'Flaherty, *Dreams, Illusion*, pp. 141–143.

(113) *Ibid.*, pp. 143–146.

(114) Sudhir Kakar, *Shamans, Mystics, and Doctors: A Psychological Inquiry into India and Its Healing Traditions* (Boston: Beacon Press, 1983), p. 246.

حلولى من أجل تارا

«لولا الأحلام، لما كان هناك بوذا، ولا بوذية»، هذا هو الاستنتاج الذي خلصت إليه دراسة أكاديمية حديثة تضم مجموعة ثرية من النصوص التي تُرجمت حديثاً.⁽¹¹⁵⁾ لقد رأينا بالفعل أن البوذية تبدأ بحلم ملكة، والحلم لا يزال مستمراً.

يرى البوذيون، كما يرى غيرهم من المؤمنين بتناسخ الأرواح، أن الترحال الواعي إلى تجارب الحيات السابقة قد يكون وسيلة لـ «حرق الكارما». والمثل الأعلى هو الـ «ثايجاتا» (ويعني حرفياً: «الآتي في الحقيقة»)، وهو من يستطيع أن يتذكر جميع تجسّداته السابقة دون أن ينغمس في العواطف التي قد تثيرها، ودون أن يستخلص نتائج ميتافيزيقية منها.⁽¹¹⁶⁾ ومن بين التقنيات المستخدمة لتذويب الكارما والارتقاء فوق الزمن، ممارسة السفر رجوعاً «في الاتجاه العكسي»: الرجوع من خلال الرحم، إلى الحيات السابقة – وحتى إلى الفجوات ما بين الحيات – وربما إلى أبعد من ذلك، إلى أول انبثاق للحياة في العالم، إلى الحدّ الفاصل بين الزمن واللازم.

وفي التقاليد البوذية التبتية، تُعرف ممارسة تُسمى «يوجا الأحلام» بوصفها تدريباً يساعد على تنمية الوعي وتركيز الذهن، كما تُعدّ تمهيداً للاستعداد لتجربة الموت وما بعدها وفقاً لتصوراتهم. وتذكر أحد المخطوطات التبتية من القرن التاسع أن الشخص الذي يرغب في رؤية حلم واضح كان يُنصح بتقديم عناصر رمزية مثل السكر والعسل واللبس، ضمن طقوس مخصصة، وبتريد نصوص مخصوصة قبل النوم يُعتقد أنها تساعد على الصفاء الذهني والروحي. وينبغي الاستلقاء على الجانب الأيمن، في «وضعية الأسد النائم»، لأنها تترك القلب منفتحاً وغير مضغوط. «ومن السماء، ستنشر تارا شعاعاً بارداً من الضوء ينبعث من قلبها... يداها قويتان كخرطوم فيل... تصبّان أنهاراً من الرحيق تملأ القلب». (117)

(115) Serinity Young, *Dreaming in the Lotus: Buddhist Dream Narrative, Imagery, and Practice* (Boston: Wisdom Publications, 1999), p. xi.

(116) Mircea Eliade, *Yoga: Immortality and Freedom*, trans. Willard R. Trask (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1973), p. 181

(117) Serinity Young, "Dream Practices in Medieval Tibet," *Dreaming* 9, no. 1 (March 1999):

أما في وقتنا الحاضر، فيوصي الدالاي لاما بممارسة ذهنية روحية خاصة يُعتقد أنها تُعين على استحضار أحلام ذات دلالات عميقة، ضمن إطار تدريبات التأمل والصفاء الذهني المتوارثة في تعاليمه. ففي طقس «كالانشاكر»، يُوزَّع عُشبة كوشا، موضحاً أن الغرض منها هو تشجيع الأحلام «الواضحة وغير الملتبسة». تُوضَّع هذه العُشبة تحت كل من حشية سرير ووسادة النائم، وهي تعمل أيضاً على «تنقية الذهن من الملوثات، ليصبح صافياً». ويوصي هذا الطقس أيضاً بالاستلقاء على الجانب الأيمن، في وضعية الأسد، مع الانتباه فقط للأحلام التي تحدث عند الفجر. (118)

وقد أوصى ميلاريا (1040-1123) تلاميذه بأن يُخبروه بأحلامهم: «تذكروا أحلامكم الليلة، وحدثوني بها غداً، وسأفسرها لكم». (119) كما نبّه أتباعه إلى ضرورة تطهير أذهانهم من «الأفكار العادية» التي قد تتسلل إلى نطاق الحلم، وتحبسهم في تجارب خادعة ووهمية. وقد فسر حلماً غنياً ومعقداً لوريثه المختار، غامبوبا، موضحاً أنه كان نبوءة بدوره المستقبلي كمعلم عظيم. ورغم تحذير ميلاريا لأتباعه من المبالغة في تقدير الأحلام، لكونها جزءاً من «الطبيعة الوهمية لجميع الكائنات»، فقد هُنا غامبوبا على حلمه الصادق: «كانت أحلامك رائعة، نُذراً عجيبة تنبئ بما هو آت». (120) وكان ميلاريا يفرح بسرد أحلامه المقدسة، التي تنبأت بازدهار نسله الروحي: «في الليلة الماضية، حلمت بأن نسرًا طار من هنا إلى وِيو واستقر على قمة جوهرة ثمينة. ثم احتشد حوله العديد من الإوز.... وتفرَّقوا في اتجاهات مختلفة، وكل إوزة كانت تجمع حولها نحو خمسمائة رقيق». (121)

في قلب البوذية التبتية (وكذلك في الفايشنافا، أو المذهب المرتكز على فيشنو في الهندوسية)، تقع ممارسة الكشف عن النصوص المقدسة بوسائل نابعة من الرؤى.

34, 38n41.

(118) Ibid., p. 35.

(119) Garma C. C. Chang, trans., *The Hundred Thousand Songs of Milarepa* (Boston: Shambhala, 1989), p. 489.

(120) Ibid., p. 484.

(121) Ibid., p. 496.

تُعرف هذه الكتب المقدسة باسم «تيرما»؛ وهي «كنوز أرضية» أو «كنوز ذهنية» مخبأة في أماكن غير متوقعة في هذا العالم وما بعده، داخل حجر أو شجرة، أو في قاع بحيرة، أو في عوالم السحاب، أو في عالم أفاعي الناجا السفلي، حيث كان على المعلم ناجار جونا، وهو شخصية محورية في البوذية الماهايانية، أن يسافر. يُنسب الكثير من الـ «تيرما» إلى أساتذة التنترا الذين يُقال إنهم أخفوا تعاليمهم الأساسية في عوالم الفكر والخيال، بحيث لا يمكن إدراكها إلا من قِبَل شخص متمكن - «تيرتون» - وسّع وعيه إلى المستوى المطلوب.⁽¹²²⁾ وأشهر تلك الـ «تيرما» هو «كتاب الموتى» التبتى، الذي يصف مراحل العبور خلال مناطق الباردو في حياة ما بعد الموت. أما نص الـ «تيرما» المعروف بـ «الرسائل الأربع»، الذي يُقال إنه كُتِبَ بالسنسكريتية حوالي عام 400، ويُنسب إلى «بوذا الطب»، فقد استُعيد بوسائل روحية في القرن الحادي عشر، ويحتوي على قائمة بتفسيرات أحلام ذات صلة بالممارسة الطبية.

الرؤى الحُلُمية التي جعلت المسيحية دين الغرب

بعد ثلاثة قرون، كانت رؤيا حُلُمية لإمبراطور روماني هي ما جعل المسيحية ديانة الغرب. وقد وصف أحد كبار المؤرخين هذه الحادثة بأنها «صخرة شاذة حَوَلَتْ مجرى التاريخ البشرى».⁽¹²³⁾

العام هو 312 ميلادية، والإمبراطورية الرومانية مقسّمة بين أربعة «أباطرة شركاء»؛ إمبراطورين كبيرين وصغيرين للشرق والغرب. قاد قسطنطين جيشاً عبر جبال الألب، وكان يضم فرقاً من بريطانيا كان والده، قسطنطيوس، قد قادها في السابق. وقد أعلن جنود قسطنطين ولاءهم له كـ «أوغسطس» (الإمبراطور الأكبر) في الغرب. وعلى امتداد طريقه، استُقبل بالتكريمات الوثنية. كان يزحف بجيشه نحو روما، التي كانت حينها تحت حكم المغتصب مكسينتيوس، والذي كان قد هزم اثنين من خصومه في

(122) Francesca Fremantle, *Luminous Emptiness: Understanding the Tibetan Book of the Dead* (Boston: Shambhala, 2001).

(123) N. H. Baynes, *Constantine the Great and the Christian Church* (Oxford: Oxford University Press, 1972), p. 3.

السنوات الخمس السابقة. وكانت المدينة تُعد شبه منيعة خلف أسوارها القوية.

كان قسطنطين، في طريقه جنوبًا من ميلانو عبر طريق «فلامينيا» ليخوض معركة السيطرة على روما، حينما رأى رؤيا وحلمًا. وتوجد روايتان لهذه التجربة قدمهما اثنان من المدافعين عن المسيحية هما لاكتانتيوس ويوسابيوس.

بعد الحدث بأربع سنوات، كتب لاكتانتيوس، الذي أصبح لاحقًا المربي الخاص لابن قسطنطين، أن الإمبراطور رأى حلمًا «في ليلة المعركة»، وتلقى فيه أمرًا بأن ينقش «العلامة السماوية للرب» على دروع جنوده. ويذهب المؤرخ روبن لين فوكس إلى أن هذه العلامة كانت «ستاوورغرام» - صليبيًا قائمًا مع حلقة في أعلاه - وقد ظهرت هذه العلامة في بعض المخطوطات المسيحية بدءًا من عام 200 ميلادية.⁽¹²⁴⁾

أما يوسابيوس، القائد الكنسي والمؤرخ، فكتب عن الحادثة بعد وفاة قسطنطين (بعد خمسة وعشرين عامًا من الرؤيا)، وزعم أنه سمع الإمبراطور يروي القصة بنفسه «تحت القسم». وبحسب هذه الرواية، شعر قسطنطين بالحاجة إلى دعم إلهي بعدما لجأ عدوه إلى التعاويذ والقرايين الوثنية في روما. فصلّى إلى الخالق العظيم راجيًا أن يكشف عن ذاته ويمنحه الفهم والاقتراب الروحي.⁽¹²⁵⁾

وفي أثناء المسير، رأى قسطنطين و«كل الجنود» «علامة الصليب» في كبد السماء وقت الظهيرة، وكانت مصحوبة بكلمات منقوشة: «بهذا، انتصر». الترجمة اللاتينية الشهيرة لهذه العبارة هي *in hoc signo vinces*، والتي أصبحت فيما بعد شعارًا شائعًا لدى بعض الأخويات، لكنها في الأصل كانت مكتوبة باليونانية: *en touto nika*. ذهب قسطنطين إلى فراشه وهو يتساءل عن معنى تلك العلامة. وفي تلك الليلة، زاره في المنام شاب مضيء يحمل الرمز نفسه، وأمره بأن «يستخدم شكله في معاركه مع العدو».⁽¹²⁶⁾

(124) Robin Lane Fox, *Pagans and Christians* (New York: Albert A. Knopf, 1989), pp. 613–614.

(125) Eusebius' *Life of Constantine*, trans. and ed. Averil Cameron and Stuart G. Hall (Oxford: Clarendon Press, 1999).

(126) Ibid.

شجّعه أحد مستشاريه، وهو أسقف إسباني يُدعى أوسوس، على اعتبار هذا الكيان مقدسًا ومركزًا روحيًا هامًا في معتقداتهم.

أمر قسطنطين الصانع بأن يصنع راية حربية تقليدية تحمل الصليب الذي رآه. لم يكن هذا صليب الجلجثة ولا صليبيًا متساوي الأذرع، بل كان رمز الـ «خي-رو»؛ المكوّن من الحرفين اليونانيين المتقاطعين X و P، بحيث يظهر كـ X يتوسطه P. وقد اعتُبر لاحقًا أنه يمثل أول حروف كلمة «المسيح» باليونانية، غير أن هذا الرمز كان معروفًا في زمن قسطنطين بوصفه اختصارًا لكلمة chreston، أي «الطيب» أو «الصالح»، وكان الكتاب يستخدمونه للدلالة على الفقرات ذات الأهمية الخاصة في النصوص.⁽¹²⁷⁾

عرض قسطنطين هذه الراية على يوسابيوس في جلسة خاصة؛ وكانت مزخرفة بالذهب والجواهر، وتحمل لافتة تُظهر صورته مع أبنائه؛ ما يدل على أن النسخة النهائية صُنعت بعد مدة طويلة من الحلم. أما النسخة الأولى فكانت على الأرجح مجرد صليب خشبي.⁽¹²⁸⁾

أما مكسينتيوس، الذي كان قد صمد أمام محاولتين سابقتين للإطاحة به محتميًا بأسوار روما الضخمة، فقد خرج هذه المرة في خطوة غير مبررة - إلا إذا أمنت بالتدخل الروحي - من خلف الحصون وقاد جيشه لعبور نهر التير لمواجهة قسطنطين في أرض مفتوحة. وبعد هزيمته، غرق في النهر قرب جسر ميلفيان، إمّا بسبب سقوطه في الماء وهو يرتدي درعه الثقيل، أو لأنه اندفع إلى النهر عمدًا طلبًا للموت.

في تصوّر قسطنطين ومعاصريه، كانت الحماية والرعاية التي نُسبت لإلههم تُعدّ مظهرًا من مظاهر قوّته.⁽¹²⁹⁾ فقد سارع إلى إعفاء رجال الدين المسيحيين من أعباء المناصب المدنية، وهو امتياز ضخم كان يُمنح سابقًا فقط لأفراد استثنائيين وبعض الكهنة في مصر. وبرر هذا القرار بقوله إن صلوات المسيحيين كانت مرتبطة ارتباطًا

(127) George Pitt-Rivers, *The Riddle of the "Labarum," and the Origin of Christian Symbols* (London: George Allen & Unwin, 1966), pp. 28-29.

(128) Eusebius' *Life of Constantine*.

(129) Lane Fox, *Pagans and Christians*, p. 618.

لا يزال موقف الإمبراطور قسطنطين الديني محل نقاش بين المؤرخين؛ إذ يرى بعضهم أنه لم يكن يفرّق بوضوح بين التصوّرات الدينية المختلفة السائدة في عصره. ففي عام 324 م، صُكّت نقود في أنطاكية احتفالًا بانتصاره على ليسينيوس، وصُوّر عليها وهو يتلقّى القوة من هيئة رمزية للشمس، وُصفت بأنها 'رفيقة' لروحه أو عبقريته. وبعد أن ضرب البرق مبنى الكولوسيوم عام 320 م، أُقيمت طقوس تقليدية للتكهّن، وأمر قسطنطين بإعادة مثل هذه المراسم إن تكرّر الحدث في مبنى عام. كما حافظ على لقب (رئيس الكهنة)، وهو أعلى منصب ديني في الممارسات الدينية الرسمية للإمبراطورية الرومانية، ولم يُقدّم على أداء طقوس التحوّل الديني التي اعتنقها إلا في أيامه الأخيرة.

يقارن روبن لين فوكس بين تلك النقود وخطبة تُعرف بـ «عظة إلى القديسين»، ألحقت بسيرة قسطنطين التي كتبها يوسابيوس، وفيها يُدمج بين مصادر أدبية وثنية واقتباسات من الكتاب المقدس في دفاع عن المسيحية. ويذهب لين فوكس إلى أن الخطبة صيغت على يد قسطنطين نفسه، مستندًا إلى قرائن ظرفية، ويرجح أنها أُلقيت يوم الجمعة العظيمة من عام 324 خلال مجمع كنسي في أنطاكية.⁽¹³⁰⁾

ومهما كان عمق إيمان قسطنطين الشخصي بالمسيحية ومدى معرفته بالكتاب المقدس، فإن دعمه السخي للكنيسة ليس محل شك، وكذلك تأييده للأساقفة الكاثوليك في صراعهم مع الهرطقات، وسعيه لجعل الكنيسة الكاثوليكية هي السائدة بين ديانات الإمبراطورية. لم يُحظّر الأديان القديمة – إذ كانت أغلب فرق الجيش لا تزال وثنية – لكنه، بعد سنوات قليلة من اضطهادات دقلديانوس، كان قد رفع من شأن الكنيسة إلى الحد الذي أصبحت فيه المسيحية الدين السائد للإمبراطورية، ومؤهلة للاستحواذ على الحضور الديني الرسمي.

لديك إمكانية الوصول المباشر إلى المعرفة المقدسة، من خلال أحلامك. إن أحلامك بمثابة وسيط وحي شخصي يكشف لك المستقبل ويعينك على الاستعداد له. لا تدع أحدًا يخبرك بما تعنيه أحلامك؛ تخلص من قواميس تفسير الأحلام. راقب الإشارات من العالم من حولك؛ واعلم أن كل شيء في الكون مترابط ومتداخل على الدوام. استخدم خيالك. فما تزرعه هناك سينطبع على عالمك وعلى روحك؛ على جسدك الطافي الذي ستسافر به إلى حياة أخرى بعد الموت. (131)

من المذهل أن هذه النظرات المتعمقة تعود إلى أسقف في القرن الخامس الميلادي. اسمه سينييسيوس القوريني، وقد ألف رسالة بعنوان «في الأحلام» حوالي عام 405 ميلادية، وتُعد من أعمق وأحكم ما كُتب عن الأحلام، والتزامن، والخيال. كان سينييسيوس أسقفًا استثنائيًا بحق، إذ نجد في حياته وعمله - وإن كان، للأسف، لفترة وجيزة - تلاقياً نادراً بين أفضل ما في «الممارسة» للقديمة الفلسفة والدين الجديد الذي اعتنقته الإمبراطورية الرومانية.

كان سينييسيوس أرسقراطياً يونانياً-رومانياً يعود نسبه إلى مؤسسي إسبرطة، أي قبل حوالي ألف وسبعمئة عام من زمنه. عاش في ضيعة شاسعة في قورينا، الواقعة اليوم ضمن حدود ليبيا، واستمتع بملذات الصيد والدراسة، وكان يضحك في سرّه لأن أهل الريف في منطقته كانوا لا يزالون يحسبون أن «ملك العالم» هو أجاممنون. (132)

تلقى سينييسيوس أرقى تعليم متاح في عصره، في الإسكندرية، في مدرسة هيباتيا، العالمة والفيلسوفة وعالمة الرياضيات الفذة، التي كانت تجوب شوارع المدينة العالمية مرتدية عباءة الفلاسفة، تحيط بها حشود من الطلبة المتعطشين للمعرفة. وهناك، في الإسكندرية، خاض سينييسيوس أولى وأعظم تجاربه التحولية، حين انفتحت داخله «عين الروح» ليرى العمق المقدس للكون. تمدد وعيه ليكشف له الرؤية الصافية

(131) Jay Bregman, Synesius of Cyrene, Philosopher-Bishop (Berkeley: University of California Press, 1982), p. 148.

(132) Ibid., p. 76.

للوحة الأساسية وراء التنوع الواضح في العالم. أبصر الحقيقة الكامنة خلف مظاهر الأديان. وفي لحظات تأملاته الهادئة، كرس نفسه لـ «أسرار بلا طقوس» هدفها إيقاظ الألوهية في داخل الإنسان، تلك الألوهية التي تتوافق وتتحد مع الألوهية الكامنة في الكون وخارجه.⁽¹³³⁾ لقد اعتنق الفلسفة، بمعناها في العالم اليوناني-الروماني: محبة الحكمة وممارستها.

وفي الإسكندرية أيضًا، حوالي عام 405 ميلادية، كتب سينيقيوس رسالته «في الأحلام»،⁽¹³⁴⁾ وكان حينها حديث العهد بالزواج. ويوضح في الرسالة أن حديثه عن الأحلام يستند إلى تجربة شخصية. فقد أرشدته الأحلام في رحلات الصيد، وأظهرت له كيف وأين يعثر على الفريسة. وقادته الأحلام إلى «أسراب من وحوش برية سقطت برماحنا».

كما وجهته الأحلام حين أرسلته مدينته إلى القسطنطينية لطلب امتيازات من الإمبراطور. وفي بيئة سياسية مشحونة بالمؤامرات، ساعدته الأحلام على تمييز الصديق من العدو، ونبّهته إلى المكائد التي دبرها خصومه، مستعينين فيها بـ «سحرة يستحضرون الأشباح» لمهاجمته بالسحر الأسود. وكان وحي الأحلام «عونًا لي في إدارة المناصب العامة بما فيه الخير للمدن، وأوصلني في النهاية إلى علاقة متوطدة مع الإمبراطور».

ساهمت أحلامه أيضًا في نجاحه ككاتب وخطيب، فقد كان مصدر الحلم «يعينني كثيرًا في كتابة الكتب»، حيث يصحح أسلوبه ويساعده على تهذيب التعبيرات القديمة الأتيكية التي كان يعشقها بسبب حبه للكتب القديمة، مما أثر إيجابيًا على مقالاته وقصائده.

ويشرح سينيقيوس في رسالته أن الأحلام هي «وسائط وحي شخصية». ويجب أن

(133) Synesius, Letter 137 in Augustine FitzGerald, ed. and trans., *The Essays and Hymns of Synesius of Cyrene* (Oxford: Oxford University Press, 1930); Bregman, Synesius, pp. 26, 32–33.

(134) Bregman, Synesius, pp. 60–61.

نتمسك بحقنا في تفسير أحلامنا، ونرفض أي سلطة أو شخص يحاول التدخل بيننا وبين مصدر الحلم. «ينبغي أن نطلب هذا الفرع من المعرفة قبل أي شيء آخر؛ فهو ينبع من داخلنا، ويسكن فينا، وهو ملكية خاصة لنفس كل واحد منا.» ووسيط وحي الحلم يكلمنا حيثما ذهبنا. «لا يمكننا التخلي عن وسيط الوحي هذا حتى إن حاولنا. فهو معنا في المنزل وفي السفر، وفي ميدان المعركة، وفي المدينة، وفي السوق.»

الأحلام هي حق مشترك لنا جميعًا منذ الولادة. إنها ملكٌ للغني والفقير، للملوك والعيبد. لا يرفض وسيط وحي الأحلام أحدًا بسبب العرق أو السن، أو المكانة أو الصنعة. حتى أسوأ الطغاة عاجز عن أن يفصلنا عن أحلامنا - التي قد تحمل المفتاح لسقوطه - «ما لم يستطع أن يطرد النوم من مملكته.»

يشرح سينيوس قائلًا: «عِرافة الأحلام متاحة للجميع، والروح الحارسة الداخلية الطيبة ملكٌ لكل إنسان». وليس غريبًا أن تكشف لنا الأحلام عن المستقبل، فالأحلام تجارب روحية، و«الروح تحمل صور الأشياء التي ستأتي إلى الوجود».

وبنبرة حاسمة وممتازة يرفض سينيوس قواميس تفسير الأحلام، التي كانت شائعة في زمنه، كما في زمننا. «أضحك من كل تلك الكتب، وأراها ضئيلة الفائدة.» فالتعريفات العامة لا تجدي نفعًا، لأن كل حالم هو مرآة مختلفة لصور الحلم؛ بعضها مرايا ملتوية، وبعضها مصنوع من مواد متنوعة. الأحلام «الكبرى» لا تحتاج إلى تفسير؛ فمعناها موجود في تجربة الحلم ذاتها. أما الأحلام «الأكثر إلهية»، فهي «واضحة تمامًا، أو شبه واضحة»، لكنها لا تُمنح إلا لمن «يعيش وفقًا للفضيلة».

وبما أنه متشرب بأشعار هوميروس، لا يسعه إلا أن يذكر مشهد «بوابات القرون والعاج» في الأوديسة. وفي رأي سينيوس، فإن بينيلوبي، إلى جانب جحافل من المفسرين والمقتبسين، قد فشلوا في إدراك أن الأحلام، في ذاتها، لا تكون كاذبة أبدًا. تفترض بينيلوبي أن هناك أحلامًا صادقة وأخرى خادعة «لأنها لم تكن متعلّمة في هذا الشأن». فالتضليل ينشأ من التفسيرات الخاطئة، وليس من أحلام كاذبة. ولو فهمت بينيلوبي طبيعة الحلم فهما أفضل، «لكانت جعلت جميع الأحلام تمر عبر بوابة القرن....

لا ينبغي لنا أن نخلط بين ضعف المفسّر وطبيعة الرؤى نفسها.»

ويحثّ على وضع نية لليلة. «سنصلي من أجل أن نرى حلماً، كما صلى هوميروس. وإن كنتَ أهلاً لذلك، فإن البعيد سيكون حاضراً معك.... إنه يأتي إلى جانبك حين تنام، وهذه هي منظومة الاستنارة بأكملها.»

كما يؤكد سينيقيوس على قيمة تسجيل الأحلام والكتابة والإبداع انطلاقاً منها. «ليس إنجازاً هيناً أن تنقل للآخرين شيئاً غريباً قد حرك روحك من الداخل.»

ويدعوننا إلى الاحتفاظ بـ «دفتر نهاري» لملاحظة العلامات والتزامات، و«دفتر ليلي» للأحلام. «كل الأشياء علامات تتجلى من خلال كل الأشياء.... إنهم إخوة في كائن حي واحد: هو الكون.... وهي مكتوبة بكل صنوف الرموز.» أما أعمق أنواع العلم، فهو قراءة لغة الإشارات في هذا العالم؛ والحكيم الحقيقي هو «ذاك الذي يفهم علاقة أجزاء الكون بعضها ببعض.»⁽¹³⁵⁾

وبعد خمس سنوات من تأليفه رسالته «في الأحلام»، اقتنع سينيقيوس - على يد ثيوفيلوس، بطريك الإسكندرية - بقبول منصب أسقف بطلميس. ويبدو أنه عمّد في الوقت ذاته، في خطوة متأخرة نسبياً وفقاً لما هو شائع عن شروط تنصيب الأساقفة في الكنيسة.

كان دخول سينيقيوس إلى الأسقفية حدثاً سياسياً أكثر منه روحياً. وربما لعب تأثير زوجته - التي كان يحبها حباً جماً - دوراً مهماً في ذلك؛ ومن المرجح أنها كانت مسيحية، إذ إن ثيوفيلوس حضر زواجهما في عام 403 ميلادية. كان كسب فيلسوف أرستقراطي لصالح الكنيسة إنجازاً كبيراً للبطريك؛ فبالرغم من أن المسيحية أصبحت ديانة الإمبراطورية الرسمية، إلا أن العائلات العريقة ظلت بعيدة عن الكنيسة. بالنسبة لسينيقيوس، كان توليه لمنصب الأسقف مزيحاً من «واجب النبلاء» واستجابة لتحولات التاريخ. ففي عام 399، دُمّر السيرايوم - المجمع المهيب ل سيرايس في

(135) All quotations from Synesius's treatise on dreams are from FitzGerald, Essays and Hymns of Synesius.

الإسكندرية – وأصبحت قوة الإمبراطورية الرومانية تُستخدم الآن للقضاء على الممارسات الوثنية.

بلغته الخاصة، انضم سينيقيوس إلى المسيحية عبر «الالتحام» مع المعتقدات، وليس من خلال تجربة تحوّل روحي شامل.⁽¹³⁶⁾ ومع ذلك، يمكننا أن نرصد بعض خطوط الالتقاء بين فلسفته والرسالة المسيحية. فقد آمن بوجود إله واحد وراء تنوع أشكال الألوهية. وكتب عن «سقوط» النفس من حالة المعرفة والحق. وكان يؤمن أنه في أوقات الظلمة قد تُرسل قوة مخلصّة لإنقاذ البشرية من نفسها ومَن يضلّونها. وفي رسالته «في العناية الروحية» يَصوّر عالمًا تهيم عليه قوى ظلامية هدفها جرّ البشر نحو الهلاك إن هم سعوا نحو النور. فخلف أحداث التاريخ الظاهرة، تدور معركة بين غرائز الإنسان السامية والظلام الذي يسكن داخله ويحيط به. وطاقة النور في الإنسان تضعف في نهاية الدورات الكبرى للتاريخ، ويجب تجديدها دوريًا. ولكن أحيانًا، حين تبلغ البشرية أقصى حالات الخطر، قد يتدخل قبل نهاية دورة، لإبقاء اللعبة قائمة.⁽¹³⁷⁾

ولو عاش سينيقيوس ليشهد مصير معلمته هيباتيا، لما ساوره أدنى شك أن الظلام أخذ في الصعود. فعلى الرغم من أن طلاب هيباتيا كان منهم مسيحيون، رآها كيرلس المتعصب، والذي أصبح أسقف الإسكندرية عام 412 بؤرة جذب للوثنيين. وساهمت خطبه النارية ضدها في تأجيج ثورة حشود غاضبة، قادها قارئ في الكنيسة، فاعترضوا عربتها ذات مساء. وسحبوها إلى كنيسة تُعرف باسم القيصرية، وهناك، وفي نوبة من الجنون الجماعي، جرّوها من ملابسها، وجلدوا جسدها بالأصداغ الحادة وهي حيّة. ثم مرّقوا جثتها وأحرقوا بقاياها حتى صارت رمادًا.⁽¹³⁸⁾

في عالم كهذا، قدّم سينيقيوس وسيلة للتواصل مع عالم أسمى، وجلب هبات منه إلى الحياة اليومية. علّم أن عالم الخيال هو «الهوة المجرّفة للكون» حيث تجد الروح

(136) A. A. Nock, *Conversion* (Oxford: Oxford University Press, 1933).

(137) Synesius, *On Providence*; Bregman, Synesius, pp. 66–72.

(138) Socrates Scholasticus, "The Murder of Hypatia," in *A Treasury of Early Christianity*, ed. Anne Fremantle (New York: Viking, 1953), pp. 379–380.

موطنها. فالخيال هو «المحطة الوسطى بين الروح والمادة، والتي تجعل التواصل بينهما ممكنًا»⁽¹³⁹⁾ وتسافر الروح في هذا العالم من خلال الأحلام.

بالنسبة للأسقف سينيوس، كان الحلم بمثابة الكنيسة اليومية. وكان أيضًا طريقًا لدخول العالم الحقيقي. ووفقًا له، فإن الحالم لا يعود إلى الواقع عندما يستيقظ؛ بل هو في الحقيقة «هناك» بينما يحلم.

تحدي الحالمين للكنيسة في بداياتها

لقد شاع الاعتقاد بأن الكنيسة، في زمن كتابة سينيوس – أي في أواخر القرن الرابع – كانت في طور دفع تجربة الحلم إلى الهامش. فالأشخاص الذين يزعمون أن لديهم صلة مباشرة بما هو مقدس يشكلون تحديًا للسلطة الدينية، وفي القرون الأولى للمسيحية، كان قادة الحركات الانشقاقية – مثل المونتانيين، والغنوصيين، والدوناتيين – يزعمون أن تفويضهم جاء من خلال الأحلام والرؤى. وبحسب إي آر دودز، فإن عمل الروح القدس لم يعد مرحّبًا به؛ إذ اقترح أن «من منظور التسلسل الهرمي الكنسي، فإن الشخص الثالث في الثالوث قد استنفد وظيفته البدائية»⁽¹⁴⁰⁾. ومع ذلك، فإن سينيوس، حين أشار إلى أن الناس من جميع طبقات المجتمع يمكنهم أن يحفظوا بأحلام إلهية، وأنه يجب الاستماع إليها، لم يكن صوتًا منفردًا داخل الكنيسة. فتقريبًا في نفس الفترة التي كتب فيها رسالته عن الأحلام، كان أسقف أرثوذكسي آخر، أمبروسيو أسقف ميلان، يخاطب الإمبراطور ثيودوسيوس قائلًا: «إن إلهنا ينذرنا بطرق شتى، بالعلامات السماوية، بتحذيرات الأنبياء، ويريد لنا أن نفهم حتى من رؤى الخُطاة»⁽¹⁴¹⁾.

(139) Bregman, Synesius, p. 148.

(140) E. R. Dodds, Pagan and Christian in an Age of Anxiety: Some Aspects of Religious Experience from Marcus Aurelius to Constantine (Cambridge: Cambridge University Press, 1965), p. 67.

(141) Ambrose, Epistle 51; quoted in Isabel Moreira, Dreams, Visions, and Spiritual Authority, p. 16.

وفي دراسة بارزة أجرتها إيزابيل موريرا عن العلاقة بين الحلم والسلطة الدينية في فرنسا القديمة، أوضحت أن الأحلام والرؤى ظلت مركزية في حياة المجتمعات المسيحية، وكان يُصغى إليها أمراء الكنيسة (وغيرهم من الأمراء). ورغم اقتراح بيتر براون بأن مصدر السلطة النابعة من الرؤى انتقل في تلك الفترة إلى «الرجل المقدس» (الذي كان بمثابة المحترف الوحيد في عصر من الهواة)،⁽¹⁴²⁾ فإن هناك أدلة وافرة على أن الجميع كانوا يغرقون في عالم الأحلام، وأن أحلام الخطاة، مثل أحلام القديسين، كانت تُسمع. وقد أشار غريغوريوس التوري إلى أن «السكاري» في منطقته كانوا حالمين غزيري الإنتاج، يشهدون مناظر باهرة في رؤاهم.⁽¹⁴³⁾

لم تتمكن الكنيسة مطلقًا من وضع معايير فعالة لتحديد ما إذا كان الحلم أو الرؤيا جديرة بالثقة. فمحاولات ربط صدق الحلم بفضيلة الحالم لم تنجح؛ أولاً لأن الهراطقة قد يكونوا أشخاصًا في غاية الورع، وثانيًا لأن «السكاري» و«الخطاة» كانوا باستمرار يروون أحلامًا ذات مغزى عظيم. وقد ظن القديس مارتن التوري أنه قادر على تمييز شيطان تنكّر في هيئة قديس في حلم، لأن القديس الذي ظهر كان يرتدي عباءة أرجوانية وتاجًا. وبحسب مارتن، لا يمكن أن يكون هذا هو القديس الحقيقي، لأن الحقيقي سيظهر «بلباس وآثار آلامه»، حاملًا آثار التعذيب.⁽¹⁴⁴⁾ وربما نجحت هذه القاعدة مع مارتن، لكن قديسين آخرين في أوائل العصور الوسطى (مثل راديغوند) رأوا القديس في هيئة ملكية فخمة، وصدّقوا رؤاهم عن «القديس الملك».

وهكذا ظل التوتر مستمرًا بين الكنيسة والحالمين. لم تستطع الكنيسة أن تحظر نمطًا من التجربة المباشرة لما هو مقدس ساهم بشكل هائل في نشأتها الأولى، وأقره الكتاب المقدس، وباركه كبار شخصيات الكنيسة؛ ليس فقط الشخصيات غير الأرثوذكسية

(142) Moreira, *Dreams, Visions, and Spiritual Authority*; Peter Brown, *The Making of Late Antiquity* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978).

(143) Gregory related a drunkard's vision in his *Historia Francorum*; see Moreira, *Dreams, Visions, and Spiritual Authority*, p. 16.

(144) Sulpicius Severus, *Vita Martini*, quoted in Moreira, *Dreams, Visions, and Spiritual Authority*, p. 58.

مثل ترتليان وسينيسيوس، بل أيضًا شخصيات كبرى مثل البابا غريغوريوس الكبير. لكن ظل الخطر قائمًا: فالأحلام الروحية قد تكون مصدر إلهام لهرطقة جديدة أو تُقوّض السلطة القائمة، سواء كانت دينية أو دنيوية.

شيئًا فشيئًا، بدأ يُعاد توجيه الحلم المعترف به كنسياً نحو تبجيل القديسين. فقد اعتُقد أن أولئك الذين يتواصلون مع القديسين في أحلامهم يتصلون بمصادر هائلة من القوة والشفاء.

وأصبحت رؤيا أنسلم مثالاً شهيراً لقدرة الحالم على استجلاب قوة من عالم أسمى لتصحيح أمور الأرض. كان وليام الثاني، ثاني ملوك النورمان في إنجلترا، والمعروف أيضًا باسم وليام روفوس، رجلاً شرهًا، مشاكساً، ضخّم البطن، وذا سمعة سيئة، واجه الكثير من المعارضة، بما في ذلك من العالم الجليل أنسلم، رئيس أساقفة كانتربري. وقد أجبر أنسلم على الخروج إلى المنفى.

في عام 1100م، روى أنسلم رؤيا تحيّل فيها ما يُعرف بـ(قديسي إنجلترا) وهم يتوجّهون بالدعاء إلى كيان مقدس علوي للتدخل ضد الحاكم النورماني الذي رآه متعطرًا. ووفق ما ورد في هذه الرؤيا، فقد طُلب من شخصية تُدعى ألبان، يُشار إليها في الأدبيات الدينية الغربية على أنها أول من لقي حتفه في سبيل عقيدته في إنجلترا، أن تتسلّم سهمًا مشتعلًا يُستخدم للانتقام من الخطايا. وبحسب وصف الرؤيا، أطلق ألبان السهم، فانطلق في السماء كأنه مذنب ناري.

وفي نفس الفترة تقريبًا، أصيب وليام روفوس بسهم أثناء الصيد في غابة نيو فورست، فسقط من على حصانه جريحًا بجراح مميتة، وتوفي في الليلة ذاتها. وقبل أن يصل الخبر إلى أنسلم، كان رئيس الأساقفة قد أقام قداس شكر، وحزم أمتعته، وبدأ رحلته عائداً إلى كاتدرائيته، واثقًا من أن السهم الذي أُطلق في رؤياه قد أصاب هدفه فعليًا، طائرًا من عالم «الأيفوم» (البعد الفاصل بين عالم الزمن وعالم الأبدية) إلى نطاق الملك. وعندما دخل أنسلم إلى كانتربري، وصله خبر أن الملك قد قُتل بسهم. وسرعان ما انتشرت القصة في أنحاء أوروبا بأن الكاهن أنسلم يمتلك قوة القضاء على الملوك

من خلال صلواته ورؤاه؛ وهي سمعة ربما كانت مرغوبة لرجل دين بارز في زمن مليء بالصراعات المستمرة بين الكنيسة والدولة.

وقد نقل هذه القصة بطريقة مزخرفة ومؤثرة المؤرخ المعروف باسم ماثيو الوستمنستري. لكن الدراسات الحديثة تشير إلى أن هذا المؤرخ قد يكون بالغ مبالغة ليست بالقليلة في عرض الحقائق. يبدو أن أنسلّم، وقت وفاة الملك، كان لا يزال في فرنسا، ولم يعد إلى كرسيه إلا بعد خمس سنوات من التفاوض والمساومات مع خليفة وليام الثاني، هنري الأول.

ووفقًا لسجلات أخرى، كان لوليام روفوس نفسه أحلام استباقية، وفي أكثرها رعبًا، رأى الدم يتفجّر من جسده حتى جعل السماء مظلمة.

وفي صباح يوم وفاته، تلقى الملك تحذيرًا من شخص آخر ادّعى أنه رأى رؤيا مقلقة، فأولاهها الملك اهتمامًا. جاءه روبرت فيتز هامون برسالة مفادها أن راهبًا رأى في منامه الملك وهو يحاول عصّ قلمي تمثال ديني مصلوب. ووفقًا لما نُقل عن الحلم، فقد تحرك التمثال، ووجه للملك ضربة أسقطته أرضًا، حيث بدا مستلقيًا تحت قلمي التمثال، وهو ينث نازًا ودخانًا من فمه حتى اسودّ الهواء من حوله.

ألقت هذه الصور المروّعة بظلالها الثقيلة على نفس الملك، وأثارت فيه شعورًا بالخوف والاضطراب. وربما التقط، بطريقة غامضة، رسالة رمزية ذات طابع شخصي في المشهد الذي يظهر فيه محترقًا تحت قلمي ذلك التمثال الغاضب. ويُذكر أن ظاهرة الاحتراق الذاتي معروفة منذ القدم، خصوصًا بين من يفرطون في تناول الكحول، وهو ما اشتهر به وليام الثاني، الذي كان يُسرف في الشرب بشكل مفرط.

ويكشف رد فعل الملك النورماني على حلم الراهب عن القوة المنسوبة للحلم في ذلك الزمن. فقد أصدر وليام روفوس أمره إلى فيتز هامون بأن يمنح الراهب مائة شلن، وأضاف: «قُلْ له أن يحلم لنا بحظ أفضل»، وكأنه يحاول تغيير المستقبل عبر تغيير طريقة حلم الآخرين به.

وربما شعر أن عَرَضَه جاء متأخرًا. إذ يذكر المؤرخ هوليشيد أن الملك لم يستطع

التخلص من الإحساس بالكآبة الذي خَلَفَهُ حديث الحلم. وبدلاً من أن يخرج للصيد عند الفجر كما كانت عاداته، بقي في قصره، ولم يذهب إلى مواعده مع سهم القديس ألبان إلا بعد غداء تخلله الكثير من الشراب. (145)

ويلاحظ المؤرخ الفرنسي في العصور الوسطى، جان-كلود شמידت، أن الأحلام في القرون الوسطى كانت تُعتبر «لجوءاً مباشراً إلى مصدر شرعي خارق للطبيعة». (146) ولذلك كانت الأحلام ذات أهمية سياسية قصوى، وكان هناك توتر دائم بشأن تفسيراتها المتضاربة وتجاربها المتباينة.

لم يكن من السهل على عامة الناس أو حتى الحالمين التعبير عن غضبهم من الحكّام، لكن بعضهم تمكّن من توظيف الأحلام وسيلة رمزية لانتقاد السلطة. ففي العصور الوسطى، سمحت الثقافة السائدة – بدرجات متفاوتة – بنشر رؤى تحمل رسائل غير مُحبّدة تجاه الملوك. ومن الأمثلة على ذلك، ما فعله الراهب فيتّي من رايشناو، الذي نشر رؤيا مثيرة للجدل يظهر فيها شارلمان وهو يتعرض لعقاب رمزي يتوافق مع سمعته في التفلّت السلوكي. (147)

الأحلام في الإسلام

تتجلى الأهمية الاستثنائية للأحلام وتفسيرها في التاريخ الإسلامي من خلال كتابين عربيين من القرون الوسطى. الأول هو معجم سير ضخم أعده الخلال في القرن الرابع

(145) The vision of Anselm in Matthew's Flowers of History is cited in Frank Seafeld, *The Literature and Curiosities of Dreams* (London: Lockwood, 1869), pp. 108–109. The monk's dream is in Raphael Holinshed's *Chronicles of England, Scotland, and Ireland*, ed. Henry Ellis (1577; reprint, New York: AMS Press, 1965), 3:44. See Frank Barlow, *William Rufus* (Berkeley: University of California Press, 1983); and C. Warren Hollister, "The Strange Death of William Rufus," *Speculum: A Journal of Medieval Studies* 48, no. 4 (October 1973).

(146) Jean-Claude Schmitt, "The Liminality and Centrality of Dreams in the Medieval West," in *Dream Cultures: Explorations in the Comparative History of Dreaming*, ed. David Shulman and Guy G. Stroumsa (New York: Oxford University Press, 1999), p. 275.

(147) Paul Edward Dutton, *The Politics of Dreaming in the Carolingian Era* (Lincoln: University of Nebraska Press, 1994), p. 63.

الهجري، بعنوان «طبقات المعبرين». احتوى هذا الكتاب على سير ذاتية لعدد لا يقل عن 7500 شخص اشتهروا بتفسير الأحلام، وهو ما يعكس، ليس فقط وفرة مفسري الأحلام في العالم الإسلامي، بل أيضًا وعيًا عميقًا بالتقاليد الأخرى، لا سيما اليونانية، واليهودية، والهندية. (148)

أما الكتاب الثاني، فهو «المقدمة» لابن خلدون، المدخل إلى كتابه في التاريخ العام الذي ألفه عام 1377 ميلادية. كان ابن خلدون فيلسوفًا فذًا في مجال التاريخ، ذا عقلية متعمقة وواسع الأفق. فقد طرح، قبل داروين بخمسة قرون، نظريةً في التطور، مقترحًا بجرأة أن الكائنات الحية تتطور على مر الزمن من صور أدنى إلى صور أعلى. «ومعنى الاتصال في هذه المراتب أن آخر أفق منها مهيبًا بطبيعته لأن يكون مدخلًا إلى الأفق الأعلى الذي يليه... وقد اتسع عالم الحيوان وتنوّعت أنواعه، حتى بلغ ذروته في الكائن الذي أوتي الفكر والتدبير. وبهذا التدرج في مراتب التكوين، تميّز الإنسان بعقله وإدراكه، ضمن سلسلة من الكائنات يتفاوت فيها الاستعداد والقدرة.» (149) وكان يرى أن الإنسان قادر، من حيث الاستعداد والسمو الروحي، على أن يبلغ مراتب رفيعة في الكمال، قد تشبه ما يُنسب للملائكة من صفاء ونقاء. غير أن هذه المرتبة، وفق تصوره، لم يبلغها سوى من بلغ أعلى درجات الصفاء، كالعظماء وأولي الحكمة.

تبدأ «المقدمة» بست مقالات طويلة تحدد المسرح الذي تُؤدى عليه أحداث التاريخ، وتتناول، على سبيل المثال، تأثير المناخ والخصائص الجغرافية في شؤون البشر، واحتياج الإنسان إلى الاجتماع، وطبيعة الوعي الجمعي.

مقالته السادسة هي الأكثر إبهامًا وإثارة. ويكرّسها لعنوان «في أصناف المدركين من

(148) Al-Khallal's massive *Tabaqat al-mu'abbir* (The Classes of the Dream Interpreters) has not survived, but we have a reliable guide to its content in a later enormous work on dream interpretation by al-Dinawari. See John C. Lamoreaux, *The Early Muslim Tradition of Dream Interpretation* (Albany: State University of New York Press, 2002), pp. 17–19.

(149) Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1967), p. 75.

البشر بالفطرة أو الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا».⁽¹⁵⁰⁾ ويدلل ابن خلدون على أن التاريخ البشري يتكشف عبر التفاعل مع قوى تتجاوز البشر، وأن أحد المتطلبات الأساسية للحضارة هو وجود واجتهاد أفراد قادرين على استشعار النظام الخفي للأحداث والتوسط بين البشرية والقوى العليا. ويشمل هؤلاء الحالمين، كما يشمل الأنبياء.

«فطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبليّ لهم فتعرض النَّفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوّف إليه في عالم الحق». وقد مرّ جميع البشر ببعض من هذه التجربة. «بل كلّ واحد من الإنسانيّ رأى في نومه ما صدر له في يقظته مرارًا غير واحدة وحصل له على القطع أنّ النَّفس مدركة للغيب في النَّوم». ولا بدّ وإذا جاز ذلك في عالم النَّوم «فلا يمتنع في غيره من الأحوال... لأن جوهر الإدراك واحد، وخصائصه حاضرة دومًا. والله يهدي إلى الحق»⁽¹⁵¹⁾.

لا يمكننا أن نفهم الطبيعة الحقيقية للأحداث وأسبابها ما لم ندرس «الجانب الباطني» من التاريخ، والذي يتضمن تفاعل التوافق، وكذلك الأحلام والخيال. إن العلل الظاهرة والباطنة تعمل دومًا معًا في العالم. و«الصدفة» (البَحْث) و«التوافق» (الاتفاق) ما هما إلا أسماء نطلقها على «أسبابٍ مجهولة».⁽¹⁵²⁾

ها هنا إذن رؤيةٌ للتاريخ يكون فيها الحلم محورًا لكل شيء. فالمؤرخ الذي يسعى لفهم منطق الأحداث، في ظاهرها وباطنها، لا يكفيه أن يدرس كيف يحلم الآخرون أو يتحدثون عن الأحلام؛ بل يجب عليه أن «يمارس» الحلم بنفسه. يصف ابن خلدون كيف مارس طقس الحالومية، وذلك بإعلان نيته بما يرغب في معرفته خلال الليل، وتعزيز تلك النية بتلاوة صيغٍ معيّنة تُعرف بـ «أسماء الأحلام». وبحسب روايته، فقد كانت النتائج مُرضية للغاية: «وقد وقع لي أنا بهذه الأسماء مرأى عجيبة واطّلت بها على

(150) Ibid., p. 70.

(151) Ibid., pp. 81, 83.

(152) Ibid., pp. 75–79; see also Muhsin Mahdi, Ibn Khaldun's Philosophy of History (London: George Allen and Unwin, 1957), pp. 202, 259n.

وحتى يومنا هذا، تميزت جميع فروع الإسلام بتقدير عميق للأحلام والرؤى (التي نادراً ما تُفَرَّقُ بينهما)، وغالباً ما كانت «الرؤيا الصادقة» تُعَدُّ تفويضاً بالسلطة السياسية كما بالسلطة الروحية. وسنقتفي أثر هذا الارتباط الإسلامي العميق بالأحلام في اتجاهين: أولاً، سنتناول بعض الجوانب التي وردت في الإسلام حول الرؤى والمنامات، مع التوقف عند حادثة الإسراء والمعراج، وهي رحلة عظيمة قام بها النبي محمد ﷺ، برفقة الملك جبريل، كما ورد في النصوص الإسلامية. ثانياً، سنغوص في أرض الأحلام داخل تجربة الرؤى الإسلامية. فمن الأمور الأساسية في الإسلام أن تفهم أن هناك عالماً خفياً تقع فيه «الرؤى الصادقة». وهذه الرؤى إما أن تكون رحلات روحية تأخذ الحالم إلى العالم الغيبي، أو زياراتٍ من أدلاء حقيقيين يأتون من ذلك العالم. وأبهى وصف لهذا العالم الخفي - «برزخ الخيال» - نجده في كتابات الفلاسفة الصوفيين في العصور الوسطى: ابن عربي وشهاب الدين السهروردي.

هناك حديث نبوي مشهور يقول: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوءَةِ.» (154) قد يبدو هذا الجزء الزمني محدوداً، لكن إدراك سياقه يكشف أهميته. فقد روي في الأحاديث الصحيحة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن أوائل ما بدأ به الوحي للنبي محمد ﷺ كانت الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، واستمر ذلك نحو ستة أشهر قبل نزول الوحي في غار حراء. وبهذا، فإن القول النبوي بأن الرؤيا الصالحة 'جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة' يبرز مكانتها كمقدمة للوحي، لا كمصدر له، وهو ما يبيّن دورها التهيئي في بداية الرسالة.

يُنظر في الإسلام إلى القرآن الكريم على أنه وحي من الله تعالى، أنزله على نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل، الملك الموكل بالوحي. وقد كانت حادثة الإسراء والمعراج إحدى المعجزات العظيمة في السيرة النبوية، حيث أُسري بالنبي ليلاً من المسجد الحرام إلى

(153) Ibn Khaldun, Muqaddimah, p. 84.

(154) Bukhari, The Translations of the Meanings of Sahih al-Bukhari, trans. M. M. Khan (Lahore, Pakistan: Kazi Publications, 1979), 9:96.

المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السماوات العُلى، برفقة جبريل عليه السلام. وورد في الأحاديث أن النبي ﷺ رُكب على دابة تُسمى البراق، مخلوق من مخلوقات الله، فكانت وسيلة الانتقال في هذه الرحلة العظيمة. وخلال المعراج، التقى النبي بعدد من الأنبياء في السماوات المختلفة، وشاهد من آيات ربّه الكبرى، في رحلة جسدية وروحية تثبت بها قلبه، وتجلّت فيها عظمة الرسالة التي يحملها.

وعند سدرة المنتهى، وهي شجرة عظيمة ورد ذكرها في القرآن، بلغ النبي محمد ﷺ أقصى ما يمكن أن يبلغه مخلوق في المعراج، وهناك توقف جبريل عليه السلام، إذ لا يتجاوز ذلك الموضع إلا النبي ﷺ وحده، بإذن ربه. ويروى في بعض الآثار أن النبي ﷺ حين عاد من رحلته، لم يكن قد مرّ من الزمن سوى لحظات، حتى إن الماء الذي أسقطه البراق أثناء انطلاقه لم يكن قد جفّ بعد.

كما تبين بعض سور القرآن أهمية الرؤى في حياة الأنبياء. ففي سورة الأنفال، وردت إشارات إلى رؤى منحت النبي محمد ﷺ الطمأنينة والثقة في ميدان القتال، بينما تسرد سورة يوسف قصة النبي يوسف عليه السلام، وتُظهر ما أكرمه الله به من موهبة تأويل الرؤى، وخصوصاً ما تعلق منها بالمستقبل، بوصفها علامة من علامات الفضل عليه. وبصفته قائداً، ورد عن النبي محمد ﷺ في بعض المواقف أنه أخبر بأحداث غيبية تحققت لاحقاً بإذن الله، كما في روايته عن موعد وصول قافلة تجارية، حين قال - وقد أطلعه الله على الأمر - إنها ستصل صباحاً، فكان الأمر كما أخبر.. (155)

وكان من عادة النبي محمد ﷺ أن يبدأ يومه بسؤال أصحابه عما إذا كانت لديهم أحلام يودون منه تفسيرها. وفي الأحاديث (الأقوال والأفعال المروية عن النبي)، توجد العديد من الإشارات إلى الأحلام وتفسيرها. في صحيح البخاري، تروي عائشة أن بداية «الوحي الإلهي» كانت من خلال «الرؤيا الصادقة في النوم»، وأنه «ما كان يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». (156)

(155) Shahabuddin Suhrawardi, A Dervish Textbook [ʿAwariful-Maʿarif], trans. H. Wilberforce Clarke (London: Octagon Press, 1990), p. 53.

(156) Bukhari, Translations of the Meanings of Sahihal-Bukhari, 9:92.

ما بعد قصة النبي محمد ﷺ الشخصية، لعبت الأحلام دورًا حاسمًا في نشأة الإسلام. فقد رأى عبد الله بن زيد، أحد صحابة النبي، الأذان - وهو النداء الإسلامي للصلاة خمس مرات يوميًا - في المنام، في وقت كان فيه محمد ﷺ واصحابه يبحثون عن وسيلة تميز ديانتهم الناشئة عن نفي اليهود وناقوس النصراني.

وكان يُنسب للخلفاء - قادة الإسلام بعد النبي - قدرات على الاستبصار والتخاطر الذهني. فعندما كان الخليفة عمر بن الخطاب يتلو القرآن، دخل في حالة من التبصر (المكاشفة)، ورأى أن العدو نصب كمينًا لسارية، أحد قادته العسكريين الذي كان يقود جيشًا إلى نهاوند. فنادى عليه قائلاً: «يا سارية، الجبل!» وقد سمع سارية النداء رغم بُعد المسافة، فصعد إلى قمة الجبل، وانتصر.⁽¹⁵⁷⁾

وفي تراث تفسير الأحلام الإسلامي، تُقسَّم الأحلام إلى ثلاث فئات: الرؤيا الصادقة، وهي وحي من الله، وتمثل تجربة لجانب أعلى من الروح أو الوعي؛ وحلم كاذب أو خادع من إلهام الشيطان؛ وأخيرًا، الغالبية العظمى من الأحلام، وهي مجرد انعكاسات لتيه النفس، المحكومة بالأهواء والرغبات، ولا تحمل أهمية حقيقية.

وكان السهروردي واضحًا تمامًا فيما يتعلق بأن فهم الأحلام يتطلب معرفة أي جانب من جوانب الحالم هو النشط أثناء الحلم؛ إذ «بعض الأحلام صادقة وبعضها كاذب»، بحسب ما إذا كانت النفس السفلى أو الروح العليا هي المسيطرة خلال التجربة. الحلم سفر، لذا فإن رؤية الحالم لأحداث بعيدة في الزمان أو المكان ليس مستغربًا: «بعد انفصالها عن الجسد، تصبح الروح على دراية حتى بأصغر الأصوات والمناظر في هذا العالم.»⁽¹⁵⁸⁾

وتكون الرؤيا أكثر احتمالًا لأن تكون صادقة عندما يظهر فيها النبي محمد ﷺ وتكون رسالتها متسقة مع تعاليم القرآن والحديث. في حديث نبوي يقول الرسول: «من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي.»⁽¹⁵⁹⁾ غير أن بعض الشيوخ رأوا

(157) Suhrawardi, Dervish Textbook, p. 53.

(158) Ibid., p. 50.

(159) Bukhari, Translations of the Meanings of Sahihal-Bukhari, 9:104.

في ذلك إشكالية مشابهة لتلك التي أثارها تجليات المسيح أو القديسين في أوروبا المسيحية: فكيف يمكن التحقق يقيناً من هوية زائر الحلم؟

وفي الواقع، يُترك تفسير الحلم في معظم الحالات إلى سلطة دينية مفترضة. وفي دراسة متميزة لمجتمع مسلم معاصر في مصر يحتفظ بـ «دفتر جماعي للرؤى الصادقة»، تصف أميرة ميطرماير الدور المركزي للزعيم الديني في تحديد صدق الأحلام وتأويلها.⁽¹⁶⁰⁾ ومع ذلك، عندما يستند تفسير الحلم على السلطة - خاصة في ظل القيمة العالية الممنوحة للأحلام - يصبح الباب مفتوحاً أمام استغلال السلطة والسيطرة الذهنية.

تتضمن الأحاديث النبوية هذا القول اللافت بشأن رواية الأحلام: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وقعت.» وإذا أخذنا ذلك حرفياً، فالمعنى أن علينا أن نروي أحلامنا الطيبة، ولكن علينا أن نحذر بشدة من رواية الأحلام السيئة، لئلا يسهم البوح بها في تحقيق ما رأيناه. على أي حال، ينبغي لنا أن نختار بعناية من نفضي إليه بأحلامنا - «لَا تُقْصُ الرُّؤْيَا إِلَّا عَلَى عَالِمٍ أَوْ نَاصِحٍ» - وأن نكون على حذرٍ ممن قد يستخدمون أحلامنا ضدنا.

وتحذر الأحاديث من يكذب في الأحلام من عقوباتٍ مروّعة. فقد رُوي في الحديث بشأن من يكذب ويدّعي أنه رأى ما لم يرَ: «مَنْ تَحَلَّمَ كُفْلَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ.»⁽¹⁶¹⁾ وهذا في ثقافة تؤمن بأن الأحلام أمر بالغ الأهمية! فإذا كانت الرؤيا تمنح السلطة - حتى سلطة النبي أو الملك - فلا بد من تحذير الكاذبين.

وفي العالم الإسلامي، يُفهم الحلم على أنه باب للتواصل بين الأحياء والأموات. والصيغة الشائعة التي تبدأ بها الكثير من أخبار الأحلام - «أتاني آتٍ في المنام» - غالباً ما تشير إلى زيارة من متوفٍ. وهناك الكثير من القصص عن صديقين يتفقان على أن

(160) Amira Mittermaier, "The Book of Visions: Dreams, Poetry, and Prophecy in Contemporary Egypt," *International Journal of Middle East Studies* 39 (2007): 229-247.

(161) The dream hadiths quoted are from Marcia Hermansen, "Dreams and Dreaming in Islam," in *Dreams: A Reader in the Religious, Cultural, and Psychological Dimensions of Dreaming*, ed. Kelly Bulkeley (New York: Palgrave Macmillan, 2001), pp. 73-92.

يُرسل أول من يموت منها رسالة من العالم الآخر إلى الباقي على قيد الحياة. ويحتوي كتاب «المنامات» لابن أبي الدنيا (توفي سنة 894 ميلادية) على حوالي ثلاثمائة حلم عن الأموات. أما ابن سيرين (توفي عام 728 ميلادية)، وهو من أشهر مفسري الأحلام في التراث الإسلامي، فقد قال: «ما حدثك الميت بشيء في النوم فهو حق، لأنه في دار حق».⁽¹⁶²⁾

وفي العالم العربي الإسلامي المبكر، كان هناك تقليد يقضي بـ «الحالوميّة»، وذلك بالنوم قرب قبور الموتى طلباً لرؤيتهم في المنام.⁽¹⁶³⁾

وتذكر بعض كتب تفسير الأحلام في التراث الإسلامي أن الأرواح قد تُرى في المنام في أحوال تُشير إلى حال أصحابها في البرزخ، فيُرى بعضهم في هيئة حسنة، يلبسون اللون الأخضر، ومحاطين بالنور، وذلك إشارة إلى النعيم الذي أعدّه الله لعباده الصالحين. كما يُروى في بعض هذه الكتب أن الموتى قد يُسألون أو يُسألون عن أحوال الأحياء، وأنهم يفرحون بدعاء ذويهم وأعمالهم الصالحة. وتُصوّر الجنة في هذه الأحلام بما فيها من نعيم مقيم، كالخمر والقصور، مما يعكس تصوّرات المؤمنين عن الثواب الأخروي.⁽¹⁶⁴⁾

مكتبة

t.me/soramnqraa

برزخ الخيال

الكلمة العربية «تعبير» تعني حرفياً «العبور». والمعبر الحقيقي هو من «يَعْبُر» من صور الحلم السطحية إلى أعماق المعنى والتجربة الكاملة للحلم.⁽¹⁶⁵⁾ وإذا كان متعمقاً وحكيماً بما يكفي، فقد يسافر بخياله إلى عالم المثال الذي وُلد فيه الحلم.

(162) Leah Kinberg, "Interaction between this World and the Afterworld in Early Islamic Tradition," *Oriens* 29 (1986): 296.

(163) The practice of dream incubation at a tomb is called *tawadjudjuh*. Fritz Meier, "Quelques aspects de l'inspiration par les démons en Islam," in *Le reve et les sociétés humaines*, ed. G. E. Von Grünebaum and Roger Caillois (Paris: Editions Gallimard, 1967), pp. 418–419.

(164) Kinberg, "Interaction," pp. 300–303.

(165) William C. Chittick, *The Sufi Path of Knowledge: Ibn al-'Arabi's Metaphysics of Imagination* (Albany: State University of New York Press, 1989), p. 119.

وعندما نقرب من كبار الفلاسفة الذين يستخدمون الخيال والبصيرة الروحية في الإسلام الوسيط، نجد أنفسنا أمام عقول مذهلة كانت تعبر - بإرادتها - إلى عوالم الخيال الحقيقية. لقد منحونا جغرافيا لعوالم غير مألوفة، وبصيرة فريدة حول قوة الخيال في تشكيل العوالم وإعادة تشكيلها، وهي بصيرة لا تزال ذات قيمة عظيمة في زمننا المعاصر.

سنلقي فيما يلي نظرة موجزة على استكشافات للخيال والبصيرة الروحية قام بها اثنان من أعلام العصور الوسطى: شهاب الدين السهروردي وابن عربي. يشترك الاثنان في فهمهما أن الخيال هو «قوة سحرية خلاقية» تولد الأشكال في أكثر من عالم واحد.⁽¹⁶⁶⁾ فالكون نفسه بدأ عندما تخيله (أو حلم به). إن عالم المثال هو «مكان التجلي» للكائنات الروحية. «وهو أيضًا المكان الذي تُنجز فيه كل التواريخ المقدسة»؛ إنه مسرح الدراما الكبرى الكامنة وراء الدراما السطحية لحياتنا وعالمنا المرن.⁽¹⁶⁷⁾

وُلد سيد الخيال الفارسي، شهاب الدين يحيى السهروردي، في شمال غرب إيران بين عامي 1153 و1155 ميلادية. وقد أعدم بموجب فتوى شرعية في حلب سنة 1191، عندما كان في منتصف الثلاثينيات من عمره.

كانت فلسفته في «الإشراق» ووصفه البديع لعالم المثال مؤسسة على رحلاته الرويوية الخاصة، والتي بدأت في ليلة أنهكه فيها الصراع مع مسائل عقلية. فسقط في حالة من «الوجد الشبيه بالحلم» ووجد نفسه «ملتقًا باللطيف؛ كان هناك وميض مبهر، ثم نور شفاف جدًا على هيئة إنسان. راقبته بانتباه، فإذا به: ناصر الأرواح، إمام الحكمة، ذو هيئة أدهشتني وجمالٍ مضيء أذهلني». قال له هذا الدليل المتلألئ: «استيقظ على ذاتك، تحل مشكلتك.»⁽¹⁶⁸⁾

(166) Henry Corbin, *Creative Imagination in the Sufism of Ibn 'Arabi*, trans. Ralph Mannheim (Princeton, NJ: Bollingen, 1981), p. 179.

(167) Ibid., pp. 189–90.

(168) Henry Corbin, *Spiritual Body and Celestial Earth*, trans. Nancy Pearson (Princeton, NJ: Bollingen, 1989), pp. 118–119.

وفيما بعد، شرح السهروردي أن هذا اللقاء لم يحدث في غرفته، بل في مدينة مضيئة تدعى جابرسى، تقع في عالم المثال - عالم الخيال الحقيقي. إن «اللقاء بالواقع فائق الحس» قد يأتي عبر زيارة روحية، لكن جوهر الممارسة هو السفر النجمي. فالجسد المادي للمريد يصبح «قميصاً يخلعه أحياناً ويرتديه أحياناً أخرى». ويرتدي جسداً آخر - «رداءً من نور الفجر» - ليسافر إلى العوالم العليا، «وإن شاء، يستطيع أن يتجلى بأي شكل يختاره». (169)

وفي تصور شهاب الدين السهروردي، يُمثل "عالم المثال" مرتبة متوسطة بين العالم الحسي والعالم العقلي، ويُصور بوصفه فضاءً مملوءاً بصور نورانية وروحانية، يضم مدناً رمزية مثل "جابلقا" و"جابرسى"، لكل منهما ألف باب. ويُقال إن هذا العالم مأهول بكائنات نورانية، بعضها - ضمن التصور الإشراقي - لا يُدرك وجود الخلق البشري على الأرض، إذ لم تبلغه أنوار الإدراك المرتبطة بعالم المملك. ويُفهم هذا الوصف في إطار رمزي، يعبر عن فلسفة السهروردي في المعرفة والنور، لا كتصوير واقعي أو عقائدي.

أما ابن عربي (1165-1240)، فقد وُلد في الأندلس، وكان والده مسؤولاً في بلاط حاكم مدينة مرسية المسلم. التقى بكثير من شيوخ الصوفية في الأندلس وكتب عن ممارساتهم في أوائل أعماله. غادر الأندلس إلى تونس وهو في الثلاثين من عمره، ثم قادته رؤيا إلى أداء الحج في مكة، وتجول في أنحاء الشرق الأوسط قبل أن يستقر في دمشق. وقد جاء «الفتح الكبير» الذي وصفه بـ «طلوع بدر التمام» في شبابه بالأندلس، عندما كان لا يزال «أملس الخدين»، وانبثق منه كل ما كتبه من أعمال عظيمة لاحقاً.

عند ابن عربي، يُعد الخيال «برزخاً» بين الجسد والروح، وبين الوجود والعدم. (170) وللسفر في هذا العالم، لا بد من الانضباط والممارسة والتمييز. في التصور الإشراقي، يعمل الخيال كوسيط بين العوالم العلوية والعالم الحسي، من خلال ما يُعرف بالتجسيد أو التصوير الرمزي؛ حيث تظهر المعاني المجردة في صور محسوسة، يُمكن إدراكها والتفاعل معها. ويُستشهد في هذا السياق بما ورد في بعض الروايات أن جبريل عليه

(169) Ibid., p. 124

(170) Chittick, Sufi Path of Knowledge, p. 43.

السلام كان يتمثل للنبي محمد ﷺ في صورة بشرية، كما في حديث تمثله بهيئة دحية الكلبي. ويمثل "الخيال الفعّال" في الفلسفة الإشراقية القدرة على منح الصور لما هو مفارق للمادة، دون أن يكون ذلك تجسيدًا ماديًا حقيقيًا، بل تعبيرًا عن الإدراك الرمزي والمعنوي. (171)

ولأجل أولئك منا الذين تهمد فيهم قوة الخيال في الحياة اليومية، منحنا الله الأحلام. ووفقًا لابن عربي، «ما جعل الله النوم في العالم الحيواني إلا لمشاهدة حضرة الخيال في العموم فيعلم إن ثم علما آخر يشبه العالم الحسي». (172) وفي أنواع معينة من النوم، «تنقل النفس كما جرت العادة في الملوك إذا دخلوا خزائهم في أوقات خلواتهم ليطلعوا على ما فيها». تزور النفس خزانة الخيال، الممتلئة بالمشاهد والصور التي تُولد من ذكريات الحواس، ومن «القوة المصوّرة» في الخيال الخلاق ذاته. «و[الخيال] في النوم أتم وجودًا وأعمه لأنه للعارفين والعامة». (173) و«أوضح منفذ مشترك بين جميع البشر نحو طبيعة الوجود... هو خيالهم، وخاصة في الأحلام». (174)

إن العالم ذاته في حاجة إلى تأويل، كما هو حال الحلم. ومع تقدمنا في الفهم وتجاوزنا لحجب الجهل، ندرك أن «الوجود كله في نوم، ويقظته نوم». ما نعدّه واقعًا ليس سوى حلم دنيوي. وعندما نعبر، عبر الحلم والخيال، ستار الهلوسة الجمعية ونخرج إلى «هناك»، ندخل إلى الواقع الأعمق. إن عالم المثال أكثر واقعية، لا أقل، من وجودنا المادي. والحجاب الذي يمنعنا من رؤيته وتجربته، قد وُضع علينا، من أنفسنا. يرى ابن عربي، ضمن تصوّره الصوفي، أن الحجاب بين الإنسان وربّه ليس حجابًا مفروضًا من الله، بل هو نتيجة لانشغال القلب عن خالقه؛ فهو يقول مخاطبًا النفس: «أنتِ حجاب القلب عن سر الغيب، ولولاكِ لم يُطبع عليه ختامه». ويُفهم هذا القول في سياقه الروحي، حيث يُعبّر عن فكرة أن الصفاء الداخلي هو السبيل إلى القرب من الحق، وأن

(171) Ibid., pp. 116, 117, 396n4.

(172) Ibn 'Arabi, al-Futuhat al-makkiyya [The Meccan Openings], quoted in Chittick, Sufi Path of Knowledge, p. 119.

(173) Ibid., p. 116.

(174) Ibid., p. 113.

الغفلة هي الحاجز الحقيقي بين العبد ومعرفة ربه. وهذا التعبير يُعد من رموز الخطاب الصوفي الذي يركّز على تهذيب الباطن والسير إلى الله. (175)

أما الباحث الذي فعل أكثر ما يمكن لإيصال فكر هؤلاء الأساتذة الإسلاميين في الخيال إلى الغرب، فهو هنري كوربان. وقد دخل كوربان - بطريقة كالحلم - إلى المجال الذي سيصبح شغف حياته. كان حينها طالباً في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس، عندما عاد أستاذه لويس ماسينيون من طهران حاملاً نسخة حجرية من العمل الكبير للسهروردي: «كتاب حكمة الإشراق». لم يكن كوربان قد تعلم العربية بعد، لكن عندما ذكر أنه كان قد سمع شيئاً عن السهروردي، أعطاه أستاذه النص العربي قائلاً: «أظن أن في هذا الكتاب شيئاً يخصك». وكان ذلك الشيء، بالنسبة إلى كوربان، «رفيقاً مدى الحياة». وبعد أن أتقن العربية، ترجم كتاب السهروردي تحت عنوان *Le livre de la sagesse orientale* - أي كتاب الحكمة المشرقية. (176)

شقّ هنري كوربان طريقه، وسط أغوار اللغة وتعقيداتها، لمساعدتنا على فهم فكرة مفادها أن الخيال الخلاق، لدى الأساتذة الذين تناولهم في أبحاثه، يتمحور حول أعمال «الهمة»؛ أي القوة والبصيرة النابعة من القلب. فالهمة هي التي تصنع العجائب في التجلي، عبر إلهاب الخيال النشاط وتحفيزه. وهي تعني: «الفعل العقلي المركّز: التأمل، والتصوّر، والتخيّل، والإسقاط، والرغبة الحارقة. وتحمل في طياتها «قوة نية من الشدة بحيث تُسقط وتُحقق وجوداً خارجاً عن ذات من تصوّر النية». الهمة هي نمط الخيال الخلاق المشحون بأعمق شغف داخلي، والذي يمتلك القدرة على خلق الأشياء وإحداث التغيرات في العالم الخارجي. (177)

وكان الفلاسفة الصوفيون يحبون الاستشهاد بمثال من سورة النمل في القرآن، يوضح كيف تعمل هذه القوة. عندما سأل سليمان من حوله: «أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا»، أي عرش بلقيس ملكة سبأ، قبل أن تصل إليه، أجابه آصف بن برخيا دون تردد. فعبّر

(175) Ibid., p. 105.

(176) Corbin, *Creative Imagination*, p. 223.

(177) Ibid., pp. 238-239.

تفعيل همته، انتقل العرش من سبأ وتجلّى أمام سليمان ومجلسه، دون أن يبرح مكانه. (178)
وفي سنّ السبعين، كتب كوربان، مستلهماً روح السهروردي وابن عربي، أنه «أن
تكون فيلسوفاً هو أن تكون دائم الترحال، فلا تستقر راضياً عن أي نظرية عن
العالم.» (179)

وعندما سافر إلى إيران لأول مرة، وصفها بأنها «بلد بلون السماء». ولعل إحدى
رحمات تاريخه الشخصي أنه توفي قبل عامٍ من استيلاء آية الله الخميني ورجال الدين
الأصوليين الآخرين على السلطة.

(178) Tom Cheetham, *The World Turned Inside Out: Henry Corbin and Islamic Mysticism* (Woodstock, CT: Spring Journal Books, 2003), pp. x – xi. The Corbin translation mentioned is Shihaboddin Yahya Sohravardi, *Le livre de la sagesse orientale*, trans. Henri Corbin (Paris: Editions Verdier, 1986). There is a recent critical edition of the *Hikmat al-Ishraq*: Suhrawardi, *The Philosophy of Illumination*, trans. John Walbridge and Hossein Ziai (Provo, UT: Brigham Young University Press, 1999).

(179) Henry Corbin, *The Voyage and the Messenger: Islam and Philosophy*, trans. Joseph Rowe (Berkeley: North Atlantic Books, 1998), p. 140.

الفصل الرابع

اليد الخفية التي تُحرّك المياه (180)

كانت البركة تُحرّك أحيانًا بشكل غامض، ويُقال إن أول من ينزل إليها عند تحركها يشفى من مرضه.

إنجيل يوحنا 5: 4 (ترجمة سميث وفاندايك)

البركة الشافية في بيت حسدا مشهورة، وقد استخدم اسمها لتسمية عدد كبير من المستشفيات والمراكز الطبية. كما توجد بلدة باسم «بيثيسدا» في ولاية ماريلاند، وهي ضاحية سكنية للعاصمة واشنطن. ومن السمات البارزة في بيثيسدا، ماريلاند، وجود أحد أطول سلالم المترو الكهربائية في العالم. وعندما تخرج من شارع مضاء لتجد أمامك هذا المهبط الحاد نحو الظلمة، تشعر وكأنك تطل على فوهة العالم السفلي. بهذا المعنى، يبدو أن اسم «بيت حسدا» يعكس رمزًا للغوص في الأعماق، سواء كان ذلك في رحلة الشفاء في البركة أو في هذا النزول المدهش إلى أعماق الأرض عبر مترو الأنفاق، مما يجعل التسمية مناسبة في كلا الحالتين.

أول كتاب طبي نُشر في أمريكا حمل عنوان «ملاك بيت حسدا»، وكان من تأليف القس النيوإنجلاندي كوتون ماذر، الذي ذكر أنه رأى رؤيا لملاك «وجهه يلعب كالشمس في منتصف النهار». ويمكن مشاهدة تمثال لملاك بيت حسدا في سنترال بارك

(180) لا توجد في الإسلام قصة أو حديث يقول إن ملاكًا ينزل ويحرك الماء ليشفي الناس. الشفاء كله بيد الله، والماء قد يكون سببًا للشفاء بإذنه، مثل ماء زمزم. هذه الفكرة موجودة في قصص ديانات أخرى لكنها ليست من الإسلام.

بمدينة نيويورك، يصور الملاك بأجنحة، وهو تصوير تقليدي في الفن الغربي للملاك كما يُتخيل.

وجوده يفسّر «حشود» المرضى والعرج والعاجزين المجتمعين حول بركة بيت حسدا على أمل الشفاء، عندما يصل المسيح ويجترح واحدةً من أشهر معجزاته. فيشفي رجلاً أعرجاً بأمره له بأن يقوم ويمشي. كان ذلك الرجل قد انتظر عند البركة سنوات، آملاً في أن يتمكن ذات مرة من القفز أولاً في الماء عند اضطرابه، لكن الفرصة كانت تُنتزع منه دائماً في اللحظة الأخيرة.

في نسخ العهد الجديد الحديثة، يخفي ملاك بيت حسدا. فقد حُذِفَت كاملة الآية التي تصفه من النسخة المُنقحة الجديدة، ومن نسخة الكتاب المقدس الأمريكي الجديد، ومن نسخة الكتاب المقدس الجديد لأورشليم؛ ولن تجدها إلا في هامش بحجم خط ضئيل. التبرير «العلمي» لهذا الحذف هو أن آية يوحنا 5: 4 غير موجودة في أقدم المخطوطات اليونانية لإنجيل يوحنا، وتحتوي على تعابير لا تتماشى مع أسلوب إنجيل يوحنا.

يبقى تفسير تجمع هذا الحشد وانتظاره لاضطراب مياه بركة بيت حسدا غير واضح إلا عند فهم السياق الثقافي والديني الأوسع. فمن غير المعقول أن يكون سبب تجمعهم مجرد اعتقاد بأن مياه البركة تكتسب خصائص شافية عند اندفاعها بقوة أكبر من ينبوع المجاور. ولهم هذه الظاهرة بشكل أفضل، يجب إدراك أن بعض التفسيرات المسيحية الأولى عمدت إلى تعديل تصورات دينية قديمة تتعلق بالشفاء، والتي كانت ترتبط بأحلام ورموز روحانية.

هذه الظواهر تعكس تحولاً في التصورات الدينية والثقافية عبر الزمن، ولا يمكن فهمها إلا ضمن السياق التاريخي والديني الذي نشأت فيه.

أجرى العالم الفرنسي أنطوان دوبريه دراسة دقيقة للأدلة الأثرية الخاصة ببيت حسدا، وخلص إلى وجود ثلاث مراحل على الأقل من النشاط الديني حول بركتها. أقدم الأدلة تشير إلى مجمع من البرك والكهوف يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد. ومن المرجح أن هذا الموقع كان مكاناً للشفاء المقدس، لكن الأدلة لا تكشف لنا باسم من

كانت تُجرى هذه الطقوس. وقد دُمّرت المنشآت التي تعود إلى ذلك العصر، إلى جانب معظم مدينة القدس، في عام 70 ميلادية. وُبني مكانها معبدٌ للطبيب أسكليبيوس - سيرابيس. وفي القرن الخامس، استُبدِل هذا المعبد بكنيسة مسيحية تخليدًا لمعجزة إنجيل يوحنا، الأصحاح الخامس. أما في القرن العاشر، فقد بنى الصليبيون كنيسة أخرى فوق كل ما سبق، أُهديت للقديسة حنة.

فمن الذي كان يُعبد أولًا في هذا الموقع؟ يرى دوبريه أنه بالنظر إلى شيوع ديانة أسكليبيوس في سوريا وفلسطين ومصر خلال العصر الهلنستي، فإنه من المحتمل جدًا أن معبدًا للشفاء كان يعمل عند أبواب القدس، قرب الحاميات الرومانية. (181)

وبالعودة إلى هذا السياق، فإن التحليل النصّي لإنجيل يوحنا، الأصحاح الخامس، يوحى بأن محررًا مبدعًا قد أخذ قصة معجزة أقدم، وأعاد صوغها في بيت حِسداء، الذي كان موقع معبد وثني شهير للشفاء، في محاولة لورثة بريق الديانة القديمة لصالح الديانة الجديدة - تمامًا كما بُنيت كنائس كثيرة في مواقع وثنية ذات طاقة روحية - وفي هذا السياق تُعد آية إنجيل يوحنا، الأصحاح الخامس، الشهادة الأولى على الصراع بين المسيحية الأولى وديانة آلهة الشفاء، التي كانت تتمحور حول الأحلام في أماكن القوة، حيث كانت الصلوات تستجاب.

إن الإسناد المزدوج لمعبد بيت حِسداء القديم إلى كل من أسكليبيوس وسيرابيس يكشف الكثير. ففي شهادات أولئك الذين نالوا الشفاء في معبده، يُمتدح أسكليبيوس بوصفه إلهًا لطيفًا ورؤوفًا، منقذًا يحمل من يعانون من محيطات الألم واليأس إلى مرافئ الأمان.

أما سيرابيس، فلا شيء مريح فيه. فهو سيد العالم السفلي، إلى جانب كونه إلهًا للشفاء. وُلِدَ سيرابيس من أحلام أمير مقدوني في مصر. وأول صورة له - تلك التي بقيت ونمت - كانت على هيئة هاديس، من الحافة الشرقية العنيفة للعالم المعروف

(181) Antoine Duprez, *Jesús et les dieux guérisseurs: A propos de Jean, V* (Paris: Gabalda, 1970).

آنذاك، سيد الموت والظلمة الخصبية. تاجه عبارة عن مكيال أسطواني للحبوب، يرمز إلى أن الإنسان، كالبذرة، لا يُبعث من جديد إلا إذا مات ودُفِن في الأرض.

وفي دوامة أشكاله المركبة، يستوعب سيرابيس خصائص أوزوريس – المقدس المصري الذي يموت ويُبعث دومًا – وكذلك الثور أبيس، رمز القوة الأولى والتضحية الضرورية. ومع ذلك، يظل سيرابيس، أولاً وأخيراً، سيد العالم السفلي، كما أوضح إيلْيوس أَرستيدس في أول خطاب علني له، حين مدح سيرابيس قائلاً: «بعد النهاية الحتمية للحياة، يظل هو الحاكم للبشر... إن مصيرنا أن نذهب بجانبه، منه وإليه، من بيت إلى بيت.»⁽¹⁸²⁾ تدخل إلى محرابه رجاءً في الرحمة، لكنك لن تكون هناك ما لم تعرف الخوف. «عندما يتذكّر الإنسان سيرابيس، يغمره في آن واحد فرح وخوف. فهو أكرم المقدسين وأرهبهم، ويُلهم الإنسانية بخوفٍ مُثير.»⁽¹⁸³⁾

ذلك هو الملاك الذي يمكنه أن يُحرّك المياه.

مُشْخَصُ الأحلام

قبل أن نستعرض تجربة الشفاء من خلال الأحلام كما ظهرت في العصور القديمة، من المهم أن نتوقف عند ما كان يُمارس في معابد مخصصة لذلك، حيث اعتقد البعض أن النوم في تلك الأماكن المقدسة يؤدي إلى رؤية تحمل الشفاء، ضمن تقاليد دينية وثنية كانت تُنسب إلى ما يُعرف بآلهة الشفاء في تلك الثقافات، دعونا ننظر أولاً فيما كانت تعنيه الأحلام ضمن ممارسات أمهر الأطباء في العصرين اليوناني والروماني. سنجد أن الأشخاص الذين أصبحت أسماؤهم مرادفة للعقلانية والنهج التجريبي، كانوا مُلهمين بالأحلام، وأنهم احترمو الشفاء المباشر الذي قد يأتي من خلال الأحلام، وعملوا باستمرار مع أحلام مرضاهم لتشخيص أمراضهم وتحديد العلاج الصحيح

(182) Aelius Aristides, Oration 45 in Complete Works, trans. Charles A. Behr (Leiden, Netherlands: E. J. Brill, 1981), 2:266. (Henceforth "Aristides." All references in this chapter are to vol. 2 of Behr's translation.)

(183) Ibid.

ورغم أن أرسطو كان متشككًا في نواح كثيرة من الأحلام، فإنه احترام قيمتها التشخيصية، ولاحظ أن أنجح الأطباء كانوا يولون أحلام المرضى اهتمامًا بالغًا. وفي «مجموعة أبقرات» - وهي مجموعة ضخمة من النصوص الطبية القديمة المنسوبة إلى أبقرات، الطبيب العظيم الذي اشتقَّ من اسمه قَسَم الأطباء المعروف - تتكرر الإشارة إلى القيمة التشخيصية للأحلام مرارًا وتكرارًا.

يتبع مؤلف الأطروحة الأبقراطية «عن أسلوب المعيشة» (القرن الرابع قبل الميلاد)، الأحلام التي تسبق ظهور الأعراض الجسدية وتكشف عن تطورها. ويؤكد أنه أثناء النوم «تصبح النفس سيدة ذاتها» وتتمكن من التجوّل داخل مقرّها الجسدي دون مُشْتَتَات. وفي الصباح، تترك للحالم بعض الصور من جولاتها الليلية. ولقراءة المعنى التشخيصي لهذه التذكارات، علينا أن ندرك أنَّ داخل الجسد يوجد عالمٌ كامل. فعلى سبيل المثال، كانت بعض التأويلات الرمزية للأحلام في الثقافات القديمة تعتبر أن الأرض قد ترمز إلى الجسد بكامله، وأن النهر يُشير إلى تدفق الحياة أو الدم، بينما ترتبط الشجرة (في حلم الرجل) أو النبع (في حلم المرأة) برموز تتعلق بالوظائف الجسدية المرتبطة بالتكاثر أو الأنوثة والذكورة. وتُفهم هذه الرموز ضمن إطار التأويل الثقافي أو النفسي، لا باعتبارها دلالات قاطعة. ويرى مؤلف «عن أسلوب المعيشة»، أن أحلام الموتى قد تدل على الطعام الذي تناوله المرء، «فمن الموتى تأتي التغذية والنمو والبدور» (184).

دعونا نلقي نظرة على عمل الحلم عند اثنين من الأطباء اليونانيين الذين اشتهروا في الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني: روفوس الأفسسي وغالينوس.

اسم روفوس يعني "الأشقر المائل إلى الحمرة"، ويُحتمل أن لون شعره كان كذلك. وقد تلقى تعليمه الطبي ومارس مهنته في مدينة أفسس، وهي مدينة يونانية مزدهرة

(184) E. R. Dodds, The Greeks and the Irrational (Berkeley: University of California Press, 1951), p. 119.

آنذاك على ساحل آسيا الصغرى. كانت المدينة معروفة ببعض معابدها وتمثيلها المعبرة عن معتقدات شعوبها القديمة، ومن أشهرها تمثال للإلهة أرتميس، التي ارتبطت في تلك الثقافة بدلالات رمزية حول الخصوبة والطبيعة. كان روفوس يسعى إلى إتقان كل جانب من جوانب الطب والتشريح. ولأنه مُنِع من تشريح الجثث البشرية، قام بتشريح القردة والخنازير. وقد وصف الفرق بين ضغط الدم الانبساطي والانقباضي. وكتب نصوصاً طبية عن أمراض الكلى، وأمراض المفاصل، والبصريات، وأعراض الطاعون وعلاجه. كان عالماً تجريبياً وإنسانياً. وقيل إنه عالج جميع مرضاه - سواء من النبلاء أو العبيد - بنفس القدر من العناية.

وسيكون من الجيد أن يتبع أطباء اليوم نصيحته في كيفية إجراء مقابلات مع المرضى. قال: «لا بد من الاستفسار عن النوم؛ إن كان المريض ينام أم لا، وعن عاداته فيما يتعلق بالنوم واليقظة، وإن كان قد رأى رؤى أو أحلاماً. فمن خلال هذه الإجابات، يمكن للطبيب أن يستخلص استنتاجاته.» وقد استشهد روفوس بعدد من دراسات الحالة ليؤكد وجهة نظره بأن الطبيب يجب ألا، تحت أي ظرف، أن «يهمل هذه الأمور». (185)

كان «مايرون الأفسسي» مصارعاً يبدو مفعماً بالصحة والعافية. لكنه رأى في حلم أنه قضى الليل وهو يجاهد ويغوص في مستنقع أسود مربع. فأخبر مدربه بحلمه، لكنَّ المدرب استهان بالأمر، ودفعه إلى تمرين مكثف. وفي منتصف الحصة التدريبية، بدأ المصارع يعاني ضيقاً في التنفس وخفقان في القلب. وسرعان ما فقد السيطرة على أطرافه، ولم يعد قادراً على الكلام، وتوفي قبل أن يتمكن أحد من إسعافه. علّق روفوس قائلاً: «يبدو لي أنه ما كان ليموت، لو كان له مدرب على دراية، رتب له علاجاً طبياً مناسباً بناءً على الحلم»، الذي دلَّ على ضرورة «تفريغ كثيف للدم». (186)

وفي حالة أخرى، أخبر مريض طبيبه بأنه كان يشعر بالخوف من أحلام متكررة يظهر

(185) Rufus of Ephesus, Medical Questions, in Steven M. Oberhelman, "Galen, On Diagnosis from Dreams," Journal of the History of Medicine and Allied Sciences 38 (January 1983): 41-42.

(186) Ibid.

فيها رجلٌ أسودٌ قويٌ يحاول خنقه. حار الطبيب في تفسير هذه الأحلام، حتى بدأ المريض يعاني من «نزيف عنيف من فتحات الأنف». (187)

كان غالينوس (128-210 ميلادية) أحد أعظم علماء زمانه، ورائدًا في أساليب التجريب العلمي. وقد ألّف بغزارة في مجالات متعددة، من الطب النفسي إلى اللسانيات، ومن علم الأمراض إلى الرياضيات. كان طبيب البلاط لدى الإمبراطور ماركوس أوريليوس، وله تأثير في أقوى رجال الإمبراطورية الرومانية. كما عالج المصارعين واستمتع برفقتهم. وقد استخدم ذهنه الحاد شرطًا وأداةً لتنقيب، وكان في نواح كثيرة مثالًا للعقلانية اليونانية. وبعد أبقرط، يُعتبر غالينوس ثاني أهم شخصية في نشأة الطب الغربي.

وقد نسب غالينوس، حسب روايته، مسيرته المهنية - بل وحياته - إلى أحلام رآها لأحد الكائنات الخارقة. وُلد في برغامون، وهي مدينة يونانية متحضرة اشتهرت بمكتبتها التي ضمّت مئتي ألف مخطوطة على الرقوق، وبـ «أسكليبيون»، وهو مجمع ضخم من المعابد مكرّس لديانة الشفاء الخاصة بأسكليبيوس. كان والده، نيكون، من كبار مهندسي المدينة، وكان في البداية يعارض رغبة ابنه في دراسة الطب، حتى غيّر رأيه بعد أن رأى «أحلامًا واضحة» لهذا الكائن الخارق. (188) كتب غالينوس: «عندما كان عمري عشرين عامًا، أنقذني أسكليبيوس، من داءٍ مميت، خراج». (189) وأرشدته إلى إجراء عملية جراحية بفتح شريان في يده بين الإبهام والسبابة.

وقد كتب غالينوس بعض كتبه الطبية بإرشاد من أسكليبيوس. وفي ذروة مسيرته، حذّره هذا الكائن الخارق في حلم من الذهاب في حملة في الشرق مع ماركوس أوريليوس. وربما نال تساهل الإمبراطور، لأن ماركوس أوريليوس كان يُعير اهتمامًا كبيرًا لظهور هذه الكائنات في أحلامه؛ إذ شكرها الإمبراطور على منحه «العون في

(187) Ibid.

(188) Ibid., p. 37.

(189) Emma J. Edelstein and Ludwig Edelstein, *Asclepius: Collection and Interpretation of the Testimonies* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1998), p. 263. (Henceforth "Asclepius").

الأحلام»، وعلى وجه الخصوص، لإظهارها له «كيفية تجنب نفث الدم ونوبات الدوار».⁽¹⁹⁰⁾ وفي وقت لاحق من حياته الكتابية، وبّخه أسكليبيوس في حلم لأنه لم يكمل أطروحته عن العصب البصري؛ فدفعه ذلك إلى الإسراع في إنجاز هذا العمل.⁽¹⁹¹⁾

بينما كان غالينوس يدوّن الحالات الطبية، كان يولي اهتمامًا خاصًا للظواهر التي كان يُعتقد أنها قوى أو تأثيرات غير مادية، سواء في عمليات التشخيص أو في وصف العلاجات لأمراض مختلفة، وكذلك في الحالات التي يُعتقد أنها تسهّل الشفاء. لم يكن غالينوس من أنصار الخرافات، بل رأى من المنطقي، من وجهة نظره، الاستفادة من أي وسائل أو قوى يُعتقد أنها تساعد في تحسين الصحة، وقد لاحظ فعالية بعض هذه الوسائل مرارًا وتكرارًا..

ويُظهر النصّ الباقي من مقالة غالينوس «عن التشخيص من خلال الأحلام» مدى جديته في هذا المجال. فهو يشرح أن الأحلام يمكن أن تقدّم تشخيصًا دقيقًا لأن النفس، أثناء النوم، تتجول داخل الجسد وتفقد ما يحدث فيه. وقد شدد على ضرورة التمييز بين الحلم الجسدي من هذا النوع – والذي استخدم له مصطلح *enhyponion* – وبين أنواع أخرى، كالأحلام الناتجة عن الأفكار والأفعال في اليقظة، أو الحلم التنبؤي (*oneiros*). وكان مهتمًا على وجه الخصوص بـ «الطقس في الحلم»، إذ كان يعتقد أن فائضًا في الرطوبة أو الجفاف، أو في الحرارة أو البرودة في الحلم، يشير إلى الإجراء اللازم لتحقيق توازن في «الأمزجة» أو الطاقات الحيوية للمريض. وقد أورد مثالًا تحذيريًا لحالة أسيء فيها تفسير تحذير في حلم: رأى مريض في منامه أن إحدى ساقيه تحولت إلى حجر. «فسّر كثير من المختصين هذا الحلم على أنه رمز للعبيد الذين يملكهم الرجل. لكن، وعلى خلاف كل التوقعات، أصيب الحالم بالشلل في تلك الساق».⁽¹⁹²⁾

(190) Georg Misch, *A History of Autobiography in Antiquity* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1951), 2:499.

(191) Oberhelman, "Galen," p. 38.

(192) Ibid., p. 45.

وكان غالينوس يفخر بقدرته على استخدام الملاحظة والحدس لتشخيص المشكلات النفسية والجسدية على حد سواء. فعندما استدعي لعلاج امرأة تعاني الأرق، لاحظ أن نبضها كان يضطرب بشدة عند ذكر اسم الراقص الوسيم «بيلاديس»، بينما ظل طبيعياً عندما ذكر اسم راقص منافس. فشخص الحالة بأنها لوعة الحب.⁽¹⁹³⁾

تحدث غالينوس في كتابه «مخطط التجربة» عن حالة رجل مريض من تراقي جاء إلى معبد بيرغامون إثر حلم، حيث خاض تجربة حلمية أعمق مع أسكليبيوس، المقدس المرتبط بالشفاء في المعتقدات القديمة. في هذه الرؤية، تم توجيهه لتناول جرعة يومية من عقار مستخلص من الأفاعي، ويدهن جسده به. تحولت حالته إلى مرض الجذام، لكنه شُفي لاحقاً باستخدام وصفات طبية تقليدية، من بينها 'ترياق الأفاعي'. ويضيف غالينوس أنه بدأ يستخدم هذا العقار بثقة وبكثرة، كما ورد في الوصايا التي نُسبت إلى تلك الرؤية، مشيراً إلى أن تحضير الدواء كان يشمل استخدام ملح الترياق، الذي يصنع بحرق الأفاعي الحية مع أعشاب معينة داخل أوانٍ فخارية.⁽¹⁹⁴⁾

من الفوائد التي أشار إليها غالينوس في الأحلام التي يعتقد أنها مصدر توجيه للمرضى، أن هؤلاء يكونون أكثر استعداداً للامثال للتعليمات التي تأتي عبر تلك الرؤية مقارنةً بالتوجيهات الطبية التقليدية. ففي بيرغامون، على سبيل المثال، كان المرضى الذين يتلقون العلاج بناءً على تلك التوجيهات يميلون إلى الانصياع لأوامر الامتناع عن الشرب لمدة خمسة عشر يوماً، في حين كان من الصعب إقناعهم باتباع نفس التعليمات إذا صدرت عن طبيب عادي.⁽¹⁹⁵⁾

قد تُقدّم الرؤية أو المصادر الروحية وصفة علاجية تستهدف الشخص ككل، لا تقتصر فقط على معالجة الأعراض الظاهرة. وكان غالينوس يؤمن بأن هذا النهج هو جوهر الشفاء الحقيقي. وفي أحد أكثر المقاطع اللافتة في أعماله (التي فقد العديد منها

(193) Jody Rubin Pinault, *Hippocratic Lives and Legends* (Leiden, Netherlands: E. J. Brill, 1997), PP-67–68.

(194) Galen, *Three Treatises on the Nature of Science*, trans. Richard Walzer and Michael Frede (Indianapolis: Hackett, 1985), p. 41.

(195) Asclepius, p. 202.

في حريق معبد السلام - ويا لسخرية الاسم - في روما)، يصرّح قائلاً: «لقد جعلنا عددًا غير قليل من الناس أصحابًا من خلال تصحيح اختلال مشاعرهم». هنا، يظهر أسكليبيوس كقوة تستعيد التوازن في الحياة. فقد أمر بعض المرضى بـ «تأليف عروض هزلية وأغانٍ معينة»، وآخرين بممارسة تمارين رياضية شاقة تشمل الصيد وركوب الخيل والفنون القتالية، بهدف «إثارة الشغف حين يكون خامدًا»، واستعادة «الاعتدال» في نفس المريض.⁽¹⁹⁶⁾

ولا ينبغي أن نغفل عن مكانة مركز الشفاء في مدينة غالينوس، بيرغامون، والذي كان معروفًا أيضًا لمعاصره إيلْيوس أرسْتِيدِس. كان الـ «أسكليبيون» يقع على الحافة الجنوبية الغربية للمدينة، ويدخل إليه عبر رواق طويل بأعمدة. وكان من يطلبون الصحة الجسدية والنفسية يدخلون إلى فناء تتوسطه دعامة من الرخام الأبيض مزينة بشعابين أسكليبيوس. ومن هناك، كانوا يمرّون عبر قوس إلى الحرم المقدس. كان في الموقع معبد دائري يُكرّس لـ «تيليسفوروس»، المتّم، وهي شخصية غامضة يُعتقد أحيانًا أنه ابن أسكليبيوس. يُصوّر تيليسفوروس عادة على هيئة قزم ملثم، ويُرمز باسمه وصورته إلى قرب الموت، إذ كان يُنظر إليه كمتّم لشؤون البشر في هذه المرحلة الحاسمة. تحت هذا المعبد، في المستوى السفلي، كان المرضى يُغمّرون في حمامات تطهيرية، حيث تُجرى طقوس الحالومية التي تهدف إلى استحضار الأحلام والشفاء الروحي، مما يربط بين الطقوس الروحية والجانب المادي للمرض والشفاء.⁽¹⁹⁷⁾ وكان يمرّ يؤدي إلى البئر المقدسة، وما كان يحدث هناك قد يمنحنا مفتاحًا آخر لفهم سرّ بيت جسدًا.

يخبرنا أرسْتِيدِس بأن «هذا البئر هو اكتشاف الساحر العظيم الذي يفعل كل شيء من أجل سلامة البشرية». وللكتيرين، «كان بمثابة دواء». فمن يغتسل فيه يستعيد البصر، ومن يشرب منه يُشفى من أمراض الصدر ويستعيد «نَسْمَة الحياة». والعرج

(196) Ibid., pp. 208–209.

(197) Edward Tick, *The Practice of Dream Healing: Bringing Ancient Greek Mysteries into Modern Medicine* (Wheaton, IL: Quest Books, 2001), pp. 121–123.

ينهضون ويمشون. وبعض من يشربون منه يصبحون أنبياء. «وحتى مجرد رفع الماء منه كان وسيلة للنجاة عند البعض.» (198)

فلا عجب إذن أن غالينوس لم يكتفِ بتسجيل الأحلام كبيانات سريرية، بل كان يستحضر أسكليبيوس أيضًا عند تقديم العلاج الطبي، كما فعل بهذه الكلمات مع أحد الأباطرة: «كن رحيماً، أيها الشافي المبارك، يا من صنعت هذا الدواء؛ كن رحيماً، وأرسل برحمتك العظيمة شفاءك إلى الإمبراطور، الذي يقدم القرابين الطاهرة طالباً التحرر من الألم الذي بوسعك رفعه.» (199)

في معبد الشفاء بالأحلام

فلنذهب إلى محراب من أحد محاريب الشفاء بالحلم. أما آن الأوان؟ لقد وُجد أكثر من مئتي مجمّع من هذه المعابد حول شواطئ البحر المتوسط، من فلسطين إلى إسبانيا. تشمل المعابد العظيمة في إبيداوروس وبيروغامون، بالإضافة إلى المجمع الذي أقامه الرومان على جزيرة على شكل قارب في نهر التير، والذي كان مقرّاً لكائن مقدس يوناني كان يُنقل تقليدياً على متن قارب على هيئة تمثال يُعتبر 'حيّاً' ضمن المعتقدات القديمة، وعُرف بالاسم اللاتيني 'إسكولابيوس'. وقد ازدهرت ديانة آلهة الشفاء على مدى ألف عام، حتى نجحت الكنيسة أخيراً في القضاء عليها (بينما استولت على الكثير من رموزها) في القرن الخامس الميلادي.

تعتمد الرحلة التالية ذات الأجزاء الأربعة على شهادات أولئك الذين حلموا مع أسكليبيوس وسيرايس، وعلى أوصاف الرّحالة القدماء مثل باوسانياس، وعلى تقارير أثرية. وقد استُقيت الاقتباسات ووصف الحالات من نقوش وكتب أحلام على الرقوق تعود لقرون عدة. لكن دعونا نتخيل ببساطة أننا ننطلق في رحلة إلى معبد الشفاء في الزمن نفسه تقريباً الذي يضع فيه إنجيل يوحنا يسوع عند بركة بيت حسدا الشافية.

(198) Aristides, p. 237.

(199) Galen, "Of Antidotes," in Asclepius, p. 331, my free translation.

لقد دُعيت إلى معبد الشفاء. قد تكون أحلامك قد دعتك إليه، أو ربما دفعك اليأس: أنت تتألم جسدياً أو روحياً، وكل ما جربته لم يشفيك أو يخفف ألمك. ربما تشعر وكأن الينبوع الكامن في داخلك – ذاك الذي كان يحرّكك ويمنحك الدفعة – قد تعطل. ربما فقدت حلمك الكبير، إحساسك بأن لحياتك معنى وغاية. وهكذا، تسلك الطريق – كما فعل كثيرون قبلك – على أمل أن تجد نفسك عندما تجد إلهًا يمكنك التحدث إليه.

الطريق ليس سهلاً. سيحتاج الوصول إلى معبد الحلم إلى مثابرة وشجاعة. هناك من الناس من سيفعل كل ما بوسعه ليمنعك. سيسخرون منك، ويحاولون إيذاءك، وقد ينهبون ما تبقى لك. قد تكون هذه المخاطر بداية شفافتك. لقد خرجت عن المسارات المألوفة لحياتك. لديك الآن فرصة لتصبح بطل حكايتك، لا ضحيتها أو مجرد صاحب دور ثانوي فيها.

تبدّل التوقعات

تحذرك حجارة الحدود التي تحدد حرم الشفاء أنك على وشك دخول حيز مقدّس. فوق البوابة الخارجية، قد تجد نقشاً يحذّر: «لا يدخل هذا المعبد العطر إلا من له عقل طاهر». تتلقّى تحدياً بفتح نفسك لتجربة «الميتانويا»⁽²⁰⁰⁾ – تغيير الذهن والرؤية. قد لا تستوعب بعد أنه، ما لم تترك نمطك العقلي القديم وتاريخك الشخصي السابق، كما تنسلخ الأفعى عن جلدها، فلن تدخل الهيكل حقاً. ستتلقى المساعدة لتعلّم هذا، ولتطرح عنك الجلد القديم، من خلال فترة من التحضير تبدأ بطقس تطهيري.

تُغتسل في مياه نبع مقدس، أو تُغمر في البحر لتنقية عميقة بالماء المالح. ويُعتقد أن السعادة الحقيقية تتحقق حين يكون ما هو مقدس داخلنا طاهراً ونقياً.⁽²⁰¹⁾ ترتدي ثوباً

(200) الميتانويا (Metanoia): كلمة يونانية تعني «تغيير الذهن» أو «التحول العميق في الفكر والسلوك». في السياقات الفلسفية والدينية، تشير إلى عملية توبة أو تحول جذري في النظرة إلى الحياة والقيم، يعقبه تجديد روحي وأخلاقي. تُستخدم في الفلسفة اليونانية القديمة وكذلك في التعاليم المسيحية بمعانٍ قريبة (201) Asclepius, pp. 163–164.

جديدًا: الثوب الأبيض البسيط للمعتق الجديد – ذاك الذي لا يدّعي امتلاك الإجابات – هو الأنسب.

تُقدّم قرابينك للشافي العظيم. الطعام دائمًا موضع ترحيب، لا سيما الطعام الذي قد تحبه كلاب المنطقة المحيطة بالمعبد وثعابينها. سترى الكلاب تلهث وتدور حولك بأمل، إذا جلبت لحمًا، أو ربما دجاجة مشدودة الأرجل أو ديكًا للتضحية، تمامًا كما أرسل سقراط ديكًا إلى أسكليبيوس.

سيُمنح لك الكثير من الوقت لتتجول وتتأمل، وهذه المرحلة من التحضير ذات أهمية حيوية، لأنها ستغيّر فهمك لما هو ممكن. وأول ما يلفت نظرك أنك قد دخلت بستانًا من الأعضاء الجسدية. نماذج من العيون والكلى، والآذان والأمعاء، معلقة من الجدران والأسقف. هذه القرابين الرمزية تشهد على حالات شفاء حدثت بالفعل. وإذا كنت تحيد القراءة، يمكنك تفحص شهادات أكثر تفصيلًا: النقوش المحفورة على «الستيلات» (الأعمدة الرخامية) التي نُصبت في الفناء.

تُروى بعض هذه الشهادات الشخصية بطريقة مؤثرة، حيث يُحسّ الحضور الرحيم إلى جانب السرير، ويُشعر الشخص وكأنه يخاطب كيانًا روحيًا عميق التأثير. فقد شهد أحد الزائرين قائلاً: «دخلت في حديث مع ذلك الحضور الروحي».⁽²⁰²⁾

وفي بعض الشهادات الأقدم، تُجرى في الأحلام عمليات جراحية بواسطة كيان روحي أو قوة سامية. يفتح صدرك أو بطنك، ويغسل أعضاءك ويشفيها، ثم يخيطك من جديد، مكتملاً ومتجدداً.⁽²⁰³⁾ يشق مقلة عينك، وتستعيد إبصارك. يأمرك أن تنهض – حتى وإن كنت مشلولاً، أتيت إلى المعبد محمولاً على نقالة – فتقوم، وتمشي، وتُشفى.

يُعالج أمراضًا مزمنة كالعقم، والعمى، والعرج. يأتيه الناس بمشاكل لا علاج طبي

(202) Ibid., p. 239.

(203) Pamela Cox Miller, *Dreams in Late Antiquity: Studies in the Imagination of a Culture* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), p. 113.

لها. امرأة كانت عاقراً لمدة خمس سنوات، تنجب طفلاً ينهض على قدميه فوراً ويتجه نحو نافورة.

تُقدّم القوة العليا المعجزات، لكنها تصدر أيضاً وصفات علاجية متنوعة – بعضها غير مألوف، وبعضها معتاد – وتوجهك لما يمكنك القيام به بنفسك من خلال الحمية، والرياضة، والتعبير الإبداعي. يبدو وكأنه دوماً يريدك أن تروي قصة، ويمنحك قصة أكبر من تلك التي كنت عالماً فيها قبل مجيئك.

كل هذه الشهادات والأعضاء الرمزية معروضة أمامك لتساعدك على إدراك أنك في مكانٍ كانت فيه الصلاة فعالة. مهما كان ما تحمله من شكوك، وأياً ما كان صوتك الداخلي يكرره من عبارات انهماكية، فإن ما تراه حولك يساعدك على تغيير توقعاتك. لقد بدأت «تتوقع» الشفاء.

دعنا نعتبر أن أسكليبيوس، الأقدم من سيرابيس (وإن لم يكن أقدم من أبيه أبوللو، الذي كان يُنادى أولاً بـ «بايان»، الشافي)، هو سيّد هذا الحرم. أنت ما زلت في المعبد الخارجي، تراقب المشاهد وتتعلم منها.

تتوقف أمام تمثال ذهبي وعاجي، جسده مشدود وحجمه يفوق الحجم البشري. كان هذا الكائن في الأصل بشرياً، وُصف في الأساطير القديمة بأنه ابن أبوللو و«كورونيس»، المرأة الغراب. أنت تعرف جزءاً من القصة. حين كان صبيّاً، تعلّم أسكليبيوس الطب على يد تشيرون القنطور؛ كائن نصفه إنسان ونصفه حيوان. تشيرون هو مثال «المعالج الجريح»: ينزف من جرح أصيب به صدفة، وهو جرح لا يمكن شفاؤه أبداً.

لكي يرتقي أسكليبيوس إلى مرتبة سامية، كان عليه أن يمر بموت ثم بعث جديد. وسّع أسكليبيوس، نطاق ممارسته الطبية، ما أثار غضب زيوس الذي أوقع به صاعقة قاتلة. وبموته، تحوّل إلى كيان اسطوري يُرى للبشر في الأحلام والرؤى. لا بد أنك تعرف قصة من هذا النوع.

يشغل تمثال «الصورة الحية» للكيان المقدس، وقد جلس كلب عند قدميه. لا يُفصل

أسكليبيوس عن كلابه؛ ويُقال إن كلبًا أرضعه وهو رضيع. وإذا كنت مصابًا بجرح أو طفق جلدي، وكنت محظوظًا للغاية، فقد يقترب منك الآن أحد كلاب المعبد ويشفيك بلعابه الدال على الود. غالبًا ما يُصوّر سيرابيس أيضًا ومعه كلب، لكنه دومًا كلب أسود. على عملة محفوظة الآن في متحف الفنون الجميلة في بوسطن، يظهر عند قدمي سيرابيس كلب الجحيم «سيريروس»، الكلب الأسود الذي يحرس بوابات العالم السفلي.

يمدّ أسكليبيوس يده فوق رأس أفعى ضخمة. لقد استدعى طاقة الأفعى، لكنه قادر على احتوائها والسيطرة عليها. الحقيقة تصاحبها قسرية. هل تشعر بها الآن؟ ثعابين حية تتلوّى في العشب حولك. ستقضي الليلة في استحضر الحلم، تسمع ثعابين أسكليبيوس وهي تزحف حولك في الظلام. سمّاها الشاعر «ستاتيس» بـ «الثعابين المانحة للصحة».⁽²⁰⁴⁾ ما هو دور الأفعى في عملية شفائك؟ تستشعر رابطتها العميقة مع الأرض، ومع عطاء الظلمة الخصبة وتحدياتها. ولا يمكنك أن تخطئ الطاقة الجسدية الخام التي توحى بها. هل عرفت الآن أنك هنا لتستعيد قوة الأفعى لتسلخ من جلدك القديم؟

لم يفرغ بعد من تأملاته. على عرش ذلك الكائن العجيب نُقشت مشاهد مهيبة، أحدها يصوّر البطل بيرسيوس وهو يهّم بقطع رأس ميدوسا، المرأة ذات الأفاعي المتلوية. فالعلاج قد يكون سمًا، والسم قد يتحوّل دواءً، كما في قصة ذلك التراقي الذي عالجه غالينوس بعقار مستخلص من أفعى، ممزوج بملح الترياق.

وقد تُستدرج، أو تُقاد، إلى «ثولوس»، وهو مبنى دائري جميل من الحجر الأبيض. في طابقه العلوي المليء بالضوء والهواء، تزين الجدران لوحاتٌ توحى بالجمال، واللهم، والمتعة. لكنك تشعر هنا بغربة، بإحساس بأن شيئًا ما يحدق فيك من وراء هذه المشاهد المرسومة. كأس نبذ يُرفع، ومن خلاله ترى عيني امرأة تحدقان فيك.

وتحت الطابق العلوي المضيء من الـ «ثولوس»، توجد حجرات عميقة تحت

الأرض، وربما متاهة. على ضوء المصابيح الزيتية الخافت، ترى لوحات داكنة وصورة غامضة للقرمز المقنع المعروف بـ «المتمم». بما يتجاوز النصائح العملية وأسلوبه الرحيم، أنت في مكان يُفهم فيه أن الشفاء المقدس يسير على مقربة من الموت، ومعه ذلك الصفاء العاطفي المتقد الذي يمكن أن تُوقظه العلاقة الحميمة مع الموت.

تتصاعد مشاعرك في هذه اللحظة، حيث يتصارع الأمل مع القلق في داخلك كأفَاعٍ متلوية. قد تجد نفسك مدعواً إلى مسرح قريب، تجلس فيه على مقعد منحوت من صخرة الجبل، لتتفرّغ لتطهير مشاعرك من خلال مشاهد درامية عميقة. ومع ذلك، لن تبقى في حالة الحزن فقط، بل ستبذل المشاعر إلى خجل وضحك وفرح، حينما يظهر بعض الشخصيات الفكاهية التي تضيء جوّاً من المرح والتسلية على المشهد.

مع إشعال الشموع، يتم تهيئتك للدخول إلى الـ «أباتون» - الغرفة المحرّمة التي لا يُسمح بدخولها إلا لمن أتموا الطقوس التحضيرية.

تنضم إلى التراتيل والإنشاد التي تهدف إلى استدعاء الكيان الشافي القديم وجذب انتباهه.

يرتفع الصوت بنداء: «استيقظ، أيها الشافي الموقر!»

وتُشد عبارات تمتدح قدرته على العناية بالمرضى وإنقاذ من بلغوا حافة الهلاك. «(205)»

تعلو توقّعاتك. وتشارك الأصوات التي تستدعي قوة الشفاء: «يا شافي الجميع، تعال، أيها المبارك!»

تشعر بتحوّل في هواء الليل، حين تردد الجوقة بصوتٍ واحد: «ميغاس أو أسكليبيوس!» - «عظيم هو أسكليبيوس!»

فراشك الليلي، في هذا الفضاء المظلم الشبيه بالرحم، مصنوع من جلد حيوان. جلد الخروف مقبول دومًا ومريح، لكن ربما تحتاج إلى أن تضطجع على جلد حيوان رافق أحلامك أو رحلتك الوجودية بطريقة أعمق. قد تستلقي حتى على جلد أسد، لكن إن تجرأت على ذلك، فلا بد أن تكون مستعدًا لمواجهة اختبارات هرقل، الذي كان عليه أن يستحق جلده الأسدي.

بينما تغوص أعمق في الليل، ربما تود أن تضيف نيتك الشخصية إلى الصيغ الشعائرية. لقد خاطب أرستيدس أسكليبيوس بهذه الكلمات: «بلطفك ومحبتك للإنسان، أذهب عني مرضي وامنحني الصحة التي تمكّن الجسد من خدمة غايات الروح" يا لها من طريقة مبدعة لاستدعاء تدخل قوة شافية!

من منظور رمزي أو روحي، يبدو الإنسان الذي يسعى للعلاج بهدف تحقيق غاية أسمى أو معنى داخلي، أكثر إثارة للاهتمام من ذلك الذي يُكثر من الطلبات السطحية، مثل «اشفِ كبدي» أو «عالج صلعتي» - وهي أمثلة حقيقية لما تمناه بعض الزوّار في إبيداوروس. ومع ذلك، لم يستطع أرستيدس، بصفته رجلًا أرستقراطيًا من أواخر العصور القديمة، أن يقاوم إضافة أمنية أخرى: «وامنحني حياةً مريحة.»⁽²⁰⁶⁾ ستقضي غالبًا معظم الليل متأرجحًا بين النوم واليقظة، وجزءًا منه في تلك الحالة الوسطية الخصبية حيث يحدث اللقاء الكبير.

كتب أحد المتضرعين: «شعرت وكأنني أكاد ألمسه. بين النوم واليقظة، أحسست بوجوده حاضرًا بشخصه. أردت أن أفتح عيني، لكنني خشيت أن يرحل. أصغيتُ، وسمعت أشياء، أحيانًا كما في حلم، وأحيانًا كرؤية يقظة.»⁽²⁰⁷⁾ كان يُعتقد أن الشفاء يحدث بفعل حضور رمزي مهيب، وكأن طاقة صامتة تُبعث في النفس دون الحاجة إلى كلمات.

(206) Aristides, p. 234, freely translated.

(207) Ibid., pp. 297–298.

قد تظهر في بعض الرؤى كائنات نورانية أو رمزية تُجري عملية جراحية، تعبيراً عن شفاء داخلي يتبلور خلال الحلم. ومن اللافت أن أرسطيدس تلقى هذه التجربة من سيرابيس، لا من أسكليبيوس، حيث وصف: «رأيت سيرابيس في هيئة تماثله الجالسة، يحمل مشرطاً، ويجري شقاً حول وجهي، متوغلاً بطريقة ما تحت اللثة، في جذور الشفتين... مُزيلاً الفضلات، ومنقياً إياها، ومحوّلاً إياها إلى حالتها الصحيحة.»⁽²⁰⁸⁾

إنه يشفي أيضاً من خلال أمر المرضى بأن ينهضوا ويستعيدوا عافيتهم. يأمر رجلاً كان قد سحقه صداع مزمن بأن يقف منتصباً ويؤدي حركات جسدية تشبه حركات الرياضيين.⁽²⁰⁹⁾ ومثل ملائكة الكتاب المقدس، ومثل يسوع في بيت حسدا، يكرر قوله دائماً: «قُم!» في الأباتون بمدينة إبيداوروس، أصدر هذا الأمر لرجل يُدعى هيرموديكوس، كان «مشلول الجسد». لم يأمر المُقعد بالنهوض والمشي فحسب، بل طلب منه أيضاً أن يذهب ليُحضر شيئاً أثقل بكثير من فراش النوم. وقد فعل هيرموديكوس ما طُلب منه؛ إذ بحث في جانب التلّ عن أكبر صخرة يمكنه حملها، ووضعها أمام الأباتون كشاهد على علاجه في الحلم.⁽²¹⁰⁾

هذا الكائن الرمزي لا يقتصر على إصدار التوجيهات فحسب؛ بل يُصوّر في الروايات القديمة كمن يمكن الدخول معه في حوار داخلي أو حديث في الحلم. قد يبدأ أسكليبيوس زيارته الليلية بمناقشة أجر خدماته، كما يفعل أي طبيب في مجتمع لا يوجد فيه سلم أجور موحد. يسأل شاباً يعاني آلاماً شديدة بسبب حصوة في الكلى: «ما الذي ستدفعه لقاء شفائك؟» يقترح الشاب: «عشر قطع نرد». تُستقبل مجازفة الشاب بترحاب في السردية الرمزية لهذا الطقس. وفي الصباح، يتماثل للشفاء، ويمكننا أن نفترض أنه أضاف عشر قطع نرد إلى الوقف المُخصّص لهذا الغرض.

تُفترض تغييرات في نمط الحياة من خلال الرؤى أو الأحلام العلاجية، ويقدم

(208) Ibid., p. 316.

(209) Lynn R. LiDonnici, "Compositional Background of the Epidaurian 'Iamata,'" American Journal of Philology 113, no. 1 (Spring 1992): 33–34.

(210) Ibid., p. 31.

وصفات علاجية. بعضها بديهي للغاية: تناول المزيد من الخضروات إن كنت مصاباً بالإمساك، وتغرغر إن كان حلقك يؤلمك. يُقال لرجل يتقيأ دماً إن تناول الصنوبر بالعسل سيساعد، وقد كان. أحياناً تتضمن الأحلام وصفات طبية يمكن لأي صيدلي في ذلك الزمن تحضيرها دون أدنى استغراب. وأحياناً تتضمن الوصفات عناصر غير مألوفة، كاستخدام كمّادة من النبيذ ممزوجة برماد مأخوذ من موضع طقسي مقدّس؛ أو (تأكل طائر الحجل المحشو باللبان)، أو تتطلب منك تجسيد إيمانك بالمعجزة (كأن تلمس قاعدة تمثال المقدس ثم تلمس عينيك لعلاج العمى). وأحياناً تكون علاجاته أرضية جداً: مارس الرياضة، أدخل في الماء (أو ابتعد عنه)، غير نظامك الغذائي، تطهر.

لقد هيئتَ لثراه في صورته المعتمدة، كنسخة حية من التمثال في ساحة المعبد. لكن قد يظهر في هيئة أحد حيواناته المرافقة، كثعبان أو كلب أو ثور. وقد يُرسل أحد أفراد عائلته. قد تأتي إحدى بناته، «هيجيا» أو «باناسيا»، لتعانقك أو تعتني بك. وقد يتحرر من القوالب التي صنعها له النحاتون.

كتب أرسطيدس: «بدا التمثال وكأنه ذو ثلاثة رؤوس ويشعّ نوراً من حوله، باستثناء الرؤوس». في رؤياه، كان العابدون واقفين أمام الشكل المشعّ ذي الرؤوس الثلاثة، مستعدين لإنشاد البايان، ترنيمة المديح لقوة الشفاء. أشار التمثال الحي إليهم بالمغادرة، لكنه أوماً لأرسطيدس بالبقاء. فتأثر الحالم من فرط التكريم، وهتف قائلاً: «الواحد» في تحيةٍ للإله. وردّ عليه: «أنت هو». كتب أرسطيدس أن هذه التجربة كانت «أعظم من الحياة نفسها، وكل داء كان أهون من ذلك، وكل نعمة كانت أقل من ذلك. لقد جعلتني هذه اللحظة قادراً على أن أحيأ ومستعداً لذلك.»⁽²¹¹⁾

ثمة شيء هائل يحدث هنا. نرى ما وصفه أحد الباحثين في نقوش إبيدوروس بأنه «قيمة العبادة كعدسة تركيز للحياة الداخلية، تجعل الآمال والمشاعر تتجسد وتصبح فعلية.»⁽²¹²⁾ لكن هذه الرؤيا تتجاوز ذلك بكثير. عندما يتجاوز الكيان الرمزي الذي

(211) Aristides, p. 238.

(212) LiDonnici, "Compositional Background," p. 25.

ظهر لأرستيدس صورته النمطية، يُظهر للحالم أنه ليس مجرد وهم جماعي، بل يمثل حقيقة عميقة داخل النفس. كما يكشف للحالم أنه ليس كيانًا خارجيًا منفصلاً، بل جزء من ذاته، داخليًا وخارجيًا في آن واحد. قد يبدو هذا تناقضًا، لكن يمكن تأمله كما فعل كارل يونغ حين تعامل مع التداخل بين النفس والجسد. تلك القوى التي تتواصل معها لم تعد محصورة في قوالب ضيقة، بل تعكس تعقيدنا الإنساني ذاته.

صبيحة اليوم التالي

في الصباح الذي يلي الليلة في الأباتون، تُروى القصص وتُوضع خطط العمل. عنصر السرد القصصي جوهري. كتب أرستيدس، في الكتاب الذي ألفه انطلاقًا من يوميات أحلامه وسماه «الحكايات المقدسة»: «لكل يوم من أيامنا، كما للليالينا، قصة.»⁽²¹³⁾ وقد وصف كيف أن مرضًا ما بدأ في التراجع بينما كان يؤلف قصيدة طويلة عن زواج كورونيس وأبولو.⁽²¹⁴⁾

إذا كنت قد نلت شفاءً، فستود أن تكرمه وتُعبر عن امتنانك. قد تضيف قطعة مصغرة جديدة إلى تلك المعلقات المنتشرة في بستان الأعضاء البشرية. قد تُقيم مأدبة تُشارك فيها ومساعديه في المعبد. قد تُبدع أو تطلب تنفيذ عمل فني، أو أنشودة، أو عرضًا هزليًا إيمائيًا، أو عرضًا مسرحيًا. آلهة الشفاء يعشقون الدراما وسائر أشكال الترفيه، لذا فأَي شيء من هذا القبيل سيكون موضع ترحيب.

وقد تكون لديك وصفات حُلمية تنتظر التنفيذ أو المناقشة. وربما تشعر بالحاجة إلى مقارنة علاجات بنصائح الأطباء العاديين.

وقد لاحظ غالينوس أن أسكليبيوس كان الطبيب الذي يساعد المرضى على التحكم في «حرارتهم» إمَّا بإيصالها بأمان إلى الغليان، أو بتبريدها. وكانت طرقه أحيانًا صادمة للمفكرين التقليديين. ففي ليلة باردة من ليالي يناير، حين كان أرستيدس ضعيفًا هشًا،

(213) Aristides, p. 278.

(214) Ibid., p. 290.

منهكًا بأمراض عدة، راوده إلهامه الداخلي بأن يغطس في نهر جليدي، كما لو أن قوة غامضة تدفعه نحو التطهر أو التجدد. وقد راود الشك طبيبه في البداية، لكنه عاد ليُقرّ بأن الله هو الشافي الحق، وأن على المريض أن يتبع ما ألهمه به قلبه، ما دام لا يخالف العقل ولا الطب. فسمح أرستيدس في النهر البارد. «وعندما خرجت، اكتسى جلدي بلون وردي، وشعرت بخفة في جسدي كله». وخلال بقية اليوم والليلة، شعرب «دفء مستمر» في الجسد والعقل، و«متعة متواصلة». (215)

تبع أرستيدس حدسه، وقد خال أنه إشارة من العناية الروحية، لا للأطباء، عندما أصابه «ورم» نما بسرعة فائقة حتى أصبح انتفاخًا هائلًا يمتد من عانتته حتى سرتة. قدّم عدة أطباء نصائح متباينة. أحدهم أوصى بتناول أدوية غير محددة؛ وآخر أراد «كي» الانتفاخ، ربما بالجير الحي؛ وثالث رأى أن الحالة ميؤوس منها. لكن في حوارات أرستيدس الليلية مع أسكليبيوس، راوده شعور داخلي قوي بأن عليه الصبر، وترك المرض يأخذ مجراه الطبيعي، وكأنها رسالة من العناية العليا. وفي النهاية، أعطاه وصفة لقابض قوي، غني بالملح، ساعد في تقليص الانتفاخ. وعندما اختفى الورم تمامًا، ترك وراءه طيات مروعة من الجلد المترهل، أراد الأطباء إزالتها جراحياً. مرة أخرى، شعر الحالم أن صوتاً داخلياً يدعوه لترك الطبيعة تأخذ مجراها، وكأن حكمة خفية تهمس له بأن فرك الجلد بالبيض لن يضر. وفي نهاية المطاف، وفقاً لأرستيدس، أصبح جسده خالياً من أي تشوهات. وقد افترض بعض الأطباء المعاصرين أن «الورم» الذي أصابه كان في الواقع فتقاً شحمياً، وهي حالة قد تسبب ألماً شديداً، لكنها قد تزول تلقائياً مع مرور الوقت. (216)

واجه المبشرون الأوائل في المسيحية تحديات كبيرة من المعتقدات الدينية السائدة

(215) Ibid., pp. 295–296.

(216) Dr. John Scarborough, professor of pharmacy and classics at the University of Wisconsin-Madison, offers this diagnosis of Aristides's tumor: "Initially, one suspects an inguinal hernia, fairly common (then and now), among men (as opposed to women, although childbirth can bring this on, too), but the self-professed cure with the resultant flaps of skin suggest an omental hernia, which on occasion will fade away on its own." Personal communication.

آنذاك، لا سيما تلك المرتبطة بآلهة الشفاء التي كانت تحظى باحترام واسع. ووفقاً لما ذكره المؤرخ يوستينوس، عندما أخبر الوثنيون بأن يسوع كان يشفي المرضى ويُحيي الموتى، أشاروا إلى إله الشفاء أسكليبيوس⁽²¹⁷⁾. وكان أحد الحلول لتلك المعضلة ألا تُهاجم الأرواح القديمة مباشرةً، بل استغلال أوجه الشبه بينها وبين المسيحية الناشئة. قال يوستينوس: «نحن لا نعرض شيئاً جديداً أو مغايراً لما تؤمنون به بشأن أولئك الذين تعتبرونهم أبناء جوبيتر... أسكليبيوس، الذي كان شافياً عظيماً، ضُربَ بصاعقة، وصعد إلى السماء»⁽²¹⁸⁾.

لقد ثبت أن استحواذ المسيحية على قوى الأقدم إلى جانب أساليبها ومواقعها كان أكثر ذكاءً من الدخول في جدالات. وربما كان لهذا جذور أعمق، إذا صدقنا أطروحة مورتون سميث التي تقول إن بعض أقدم الصور ليسوع المسيح كانت في الأصل صوراً لأسكليبيوس، تم الاستيلاء عليها وإعادة تسميتها⁽²¹⁹⁾. مكتبة سُر من قرأ

تشير باتريشيا كوكس ميلر إلى أن أسكليبيوس «استمر في الوجود من خلال طقوس تبجيل القديسين»⁽²²⁰⁾. ومن بين الأمثلة البارزة على ذلك طقوس القديسة تكلا السلوقية، الواقعة على ساحل البحر المتوسط لما يُعرف اليوم بتركيا. ووفقاً للأسطورة، فقد اهتمت تكلا على يد بولس، الذي شنّ هجوماً على معابد الشفاء العظيمة في أفسس وبيرغامون. لكن في الواقع، وُلدت تكلا من خيال كاتب قصة رومانسية مسيحية من القرن الثاني، وهي قصة رفضها الأب الكنسي ترتليان واعتبرها محض خيال. ومع أن أصولها كانت مشكوكاً فيها، فقد أصبحت شديدة الشعبية بصفته القديسة الراعية لمركز استحضار الأحلام، حيث كانت تشفي بظهورها في أحلام المرضى الذين ينامون في كنيستها، وتُجري المعجزات⁽²²¹⁾.

(217) Asclepius, p. 176.

(218) Ibid., p. 177.

(219) Morton Smith, *Jesus the Magician* (New York: HarperCollins, 1981).

(220) Miller, *Dreams in Late Antiquity*, p. 117.

(221) G. Dagron, ed. and trans., *Vie et miracles de sainte Thècle* (Brussels: Société des Bollandistes, 1978).

مهما كان الملجأ الذي تلجأ إليه طلباً للشفاء، دينياً كان أو رمزياً، فإنك غالباً تعود حاملاً قصة جديدة، وكأن الألم أعاد تشكيلك من جديد. وإن أردت أن تواصل رحلة الشفاء، فستجد سُبلاً لتحمل تلك القصة معك، وتُبدع منها معانٍ جديدة تنير دربك.

في أحد أكثر مقاطعه تأثيراً، وصف أرسطيدس تجربة التهيؤ الروحي من خلال رؤيا كونية لـ «الملاك الذي يُحرِّك المياه». وعندما تجلّى سيرابيس في هيئته الكونية، كان مرعباً لأرسطيدس كما كان كريشنا مرعباً للمحارب في ميدان المعركة حين كشف له عن ذاته الحقيقية: «تخيّل الناس في تلك الأزمنة سلام تربط بين عالمين: علوي وسفلي، وكانوا يرون في ذلك تجلياً لسلطة القوي في كلا الاتجاهين، بحسب معتقداتهم، وكانت هناك أشياء أخرى تثير رهبةً مدهشة، وربما لا يمكن روايتها للجميع... سيرابيس قادر على أن يحمل البشر حيثما يشاء.» (222)

نحن نرغب في معرفة المزيد عن سر بيت جسدنا، وعن «الملاك الذي يُحرِّك المياه». ويمكننا الوصول إلى هناك كـ «منقبين أثريين عن الأحلام». إليك لمحة عما قد نجده:

أنت عند البركة في زمن يسوع، حين كانت روما تحكم هذه الأرض. تأمل هيئتك، وما ترتديه. تفوح من المكان روائح اللحم المتعفن (فالمجذومون هنا)، والبراز، والأقمشة المتسخة. قد ترغب في الاستنشاق من كيس صغير من الأعشاب العطرية، أشبه بالـ «البوتيوري» (مزيج من أوراق الزهور المجففة تحفظ في وعاء للحفاظ على شذاها). تتجنب السحرة المشبوهين المنتشرين حولك ممن يبيعون تعويذات وتفسيرات للأحلام للبسطاء. تشاهد حملاناً تُقاد عبر «باب الغنم» المجاور، لتُقدّم كقرايين في الهيكل العظيم في أورشليم. وتُميز النور الأبيض الساطع المنبعث من بين الزحام، النور الذي يحمله المعالجون الحقيقيون وسط طوفان الدجالين. أحدهم، والذي يتوهج نوره بشدة بالغة، قد يكون المسيح ذاته، أو أحد أولئك الممثلين بقوّته.

تنزل الدرجات تحت الرواق، محترساً من الأيادي اليائسة التي تمتد نحوك من كل

جانب، طمعاً في لمسة منك، في هيئتك الحالية، لعلها تجلب لهم الشفاء.

ربما تتخيل حبيباً لك يعاني مرضاً، يسير معك نحو مياه الشفاء.

هناك «شياطين أرضية» عند البركة، تزداد حجماً وقوة مع فوران الينبوع الحار الصاعد من أعماق الأرض. هذه البركة ليست مُرْحَبَةً. قد تذكرك بأحواض مياه ساخنة أو جاكوزي استخدمها الكثير من الناس، وقد تركوا فيها إفرازاتهم. المياه ملوثة، وتفوح منها رائحة الكبريت.

لكن مع اندفاع المياه، يفتح مرمر، ولا يعود هناك شك في أن هذا المكان هو فوهة للعالم السفلي. ومع هدير المياه، تشعر بهدير الثيران. فسيرايبس هو أيضاً «ثور الغرب». قد يأتيك انطباع – أهو ذكرى أم خيال؟ – عن ثيرانٍ تحمل الناس تحت المياه، إلى الحياة الأخرى. كثيرون ماتوا هنا، بعضهم ابتلعته المياه. نعم، هناك شفاء في هذا المكان، لكنه قد يكون الشفاء الذي يأتي عبر الموت الجسدي. إنه بوابة إلى «العالم السفلي العظيم». تشعر أنك قد جرى التعرف إليك وأنت مرحب بك. لقد أصبح هذا جزءاً من حكايتي. فلتجعله جزءاً من حكايتك، إن كان الأمر ذا معنى بالنسبة إليك. الأهم من كل شيء هو أن «تختار» حكايتك، وأن تضمن أنها كبيرة بما يكفي لتعيش وتموت فيها، حتى تعثر على حكاية أعظم.

يُذكرنا سرد أرسيتيدس – عن دورات مرضه المتكررة، وأحلامه، وتعافيه عبر الإبداع – بأن حادثة الشفاء الواحدة قد تكون بعيدة كل البعد عن أن تكون نهائية. قد يصعب علينا أن ننهي مع أرسيتيدس بكل غرائبه وغروره، ومع ذلك، فإننا نتعلم شيئاً من الطريقة التي دفعته بها أمراضه نحو أفعال إبداعية جديدة، وأعماق رؤيوية ومراحل تهيوّ روحي لم يكن ليلبغها لولاها.

تُجسّد هذه الفكرة الكبرى بعبقريّة في عمل ثورنتون وايلدر «الملاك الذي حرّك المياه». في هذه المسرحية القصيرة، يُقدّم لنا وايلدر طبيباً ينتظر عند البركة، آملاً أن يتحرر من مرضٍ غامض، و«عيب مخيف في قلبه». وعندما تتحرك المياه، يمنعه ملاك من دخول البركة: «من دون جرحك، أين ستكون قوتك؟ إن ندمك ذاته هو ما يجعل

صوتك المرتعش يتسلل إلى قلوب الناس. حتى الملائكة أنفسهم لا يستطيعون إقناع الأطفال التائهين البائسين في الأرض كما يستطيع إنسان واحد قد تكسّر جراء الضغوط الطاحنة للوجود الإنساني. في خدمة الحب، لا يمكن أن يخدم إلا الجنود المجروحون. تراجع.» (223)

قوة الشفاء تأتي من الجرح. فلو سُفي الطبيب، لفقد قدرته على شفاء الآخرين. كان أرسطيدس خطيبًا وكاتبًا، ومع ذلك، فقد كان التعبير الإبداعي هو وسيلته للشفاء، وقد حمل هذا التعبير هبات للآخرين، كما حدث حين أقنعت بلاغته الإمبراطور بأن يمنح مدينة سميرنا دعمًا واسع النطاق لمواجهة الزلزال، دعمًا كان من الكبّر بحيث نصّبت المدينة مؤسسًا جديدًا لها، وأقامت له تمثالًا. وسنجد العديد من النظائر لدورات أرسطيدس المتكررة من المرض والانتعاش الإبداعي في أحلام الكتّاب، وهو ما سنتقل لاستكشافه الآن.

(223) Thornton Wilder, *The Angel That Troubled the Waters*, in *The Collected Short Plays of Thornton Wilder: Volume II* (New York: Theatre Communications Group, 1998), p. 74.

الفصل الخامس

من مكتبة الأحلام

الأدب لا يعدو أن يكون حلماً موجهًا.

خورخي لويس بورخيس، من مجموعة القصص القصيرة «تقرير الدكتور برودي»

يتسم المشهد بطابع أسطوري جريء، حيث يُقدّم دموزي كرمز للخصوبة والوفرة، وإنانا كامرأة سماوية تحتضن الحياة. ويتحد الاثنان في لحظة رمزية تُجسد التقاء الذكر والأنثى كصورة من صور اكتمال الطبيعة وتجدها، بحسب التصورات الميثولوجية القديمة.

لكنها تُستدعى لتتزل إلى الأماكن المظلمة وتسلّك دربًا مرعبًا من المحنة والتهية. وعندما تعود إلى عالم السطح، بعدما تحوّلت، تكتشف أن رجُلها قد نسيها وأصبح يتصرّف كملك على كل ما يراه. تمتص لعنتها الغاضبة الضوء من نهاره. والآن، يحلم دموزي أن كل شيء ينقلب عليه. تُقتلّع الأشجار، تُطفأ نيران الموقد، يُلقى بكأس الشراب أرضًا، وتُنزّع عصا الراعي من يده. يَنْقُض طائرٌ جارحٌ على حَمَلٍ من حظيرته، ويعلم أن شيئًا خفيًا لا يرحم قادمٌ إليه.

المُخَضَّة ساكنة؛ فلا حليب يُسكّب.

الكأس محطمة؛ فدموزي لم يعد موجودًا.

حظيرة الأغنام في مهب الريح.

الموت قادم إليه، وأمله الوحيد يكمن في محبة وشجاعة شقيقته الأصغر، غشتينانا.

إنها قارئة، «نسخة عليم بالألواح»، تعرف معاني الكلمات والأحلام.

تقول له: «شياطينك قادمون من أجلك». تساعد على الاختباء، لكن في النهاية لا يستطيع الهروب من شياطينه. يتغلبون عليه ويحملونه بمخالب طائر جارح إلى عالم شبيهة إنانا الظلامية، ملكة العالم السفلي، ويدخل دائرته الخاصة من الموت والانبعاث. بحزن، تبحث عنه كل من إنانا وأخته الوفية، وهما تدقان الطبول مثل الشامانات، في العالم السفلي. وستوصلان إلى اتفاق تتبادل فيه غشتينا المكان مع شقيقها في العالم السفلي لنصف العام، مما يتيح له قضاء وقت في الأعلى مع القوي عندما يكون مزاجها أكثر إشراقاً. لكن هذه قصة أخرى لاحقة في دورة إنانا.

«حلم دموزي» هو أقدم حلم مدون معروف. كُتِبَ في سومر قبل نحو خمسة آلاف عام، ونُقش على طين مشوي بعلامات تشبه آثار طائر زقزاق رصين جداً. ومن شبه المؤكد أنه كُتِبَ بيد امرأة. لا يمكننا إغفال أن أول مفسرة أحلام في التاريخ كانت امرأة تجيد القراءة والكتابة، «النسخة العليم بالألواح».

تصبح غشتينا رمزاً لتفسير الأحلام (وللخمر). ورفيقها، الذي يُصوّر وثعابين تنبعث من كتفيه، يحمل اسماً صعباً: نينغيسيدا، وهو اسم يستحق التأمل. لقد ترجم بعض العلماء السابقين هذا المصطلح بتعفف على أنه «رب الشجرة المستقيمة»، لكنه في الواقع يشير إلى «رب القوة أو النشاط الذكوري». وكان أهل بلاد ما بين النهرين على دراية واسعة بتأثير الأحلام والإثارة النفسية، وفهموا كيف يمكن للسحر أن يتفاعل مع طاقات الإنسان الداخلية. (224)

(224) In colloquializing the story of Dumuzi's dream, I have glossed over a major element in the cycle that is not in the dream poem itself. As the price for her own return from the Underworld, Inanna has to deliver another soul. She travels from city to city, with the galla demons in tow, trying to determine which of her many consorts – the kings – deserves this fate. She picks Dumuzi because he has gone on a bender and, hungover, fails to give her the treatment she thinks she deserves.

This translation of the Dream of Dumuzi is in Diane Wolkstein and Samuel Noah Kramer, *Inanna, Queen of Heaven: Her Stories and Hymns from Sumer* (New York: Harper & Row, 1983), pp. 74–84.

In support of my rendition of the name of Geshtin-anna's consort, see Curtis Hoffman,

إنّ «حلم دموزي»، المتجرّد من جماله وتهيبه، في الترجمة الحديثة التي أنجزتها ديان وولكستين، يُعد نصّاً أدبيّاً عظيماً، يأخذنا إلى حيث لا يهاب الكتاب الكبار أن يذهبوا: إلى حجرات القلب الداخلية، إلى العقل المسكون بالشياطين، إلى أسرار الموت والانبعاث. وبفضل بقائه محفوظاً، يمكننا أن نقول دون تردد إن أحد أوائل استخدامات الكتابة – التي اخترعت في سومر – كان تدوين الأحلام، وإن أحد أعظم ما نتج عن تسجيل الأحلام – قبل ما لا يقل عن خمسة آلاف عام – كان الأدب. لقد كان الكتاب «دوماً» من الحالمين.

كان دموزي ملك أوروك، القريبة من أور، أشهر مدن السومريين، والتي منها انطلق إبراهيم لتأسيس شعب جديد. لذا، فإن بارت ستايتس كان مصيباً مرتين حين قال: «الحلم هو الشكل المبدئي لكل أشكال السرد الخيالي».⁽²²⁵⁾

يقترح ستايتس أن السرد ينبثق من نفس «المهارة» التي تتيح لنا توليد سرديات الحلم.⁽²²⁶⁾ ويقارن الحالة الذهنية للكاتب المبدع بتلك التي يمتلكها الحالم الواعي (من يحلم أحلاماً صافيةً جلية): «كما أن الحالم الواعي يكون يقظاً قليلاً، «خارج» الحلم قليلاً، رغم كونه «منغمساً» فيه في معظمه، كذلك يكون الكاتب أثناء اليقظة نائماً قليلاً، أو «منغمساً» في الخيال قليلاً، رغم كونه «خارجاً» عنه في الأساس».⁽²²⁷⁾ العديد من

“Dumuzi’s Dream: Dream Analysis in Ancient Mesopotamia,” *Dreaming* 14, no. 4 (December 2004): 249.

Dumuzi (later called Tammuz) is a Mystery god who dies and is reborn, and the cycle of his ever-recurring death and resurrection is also the cycle of the crops in what is now southern Iraq. He dies in the spring at the time that Iraqi farmers, in their hot country, harvest their wheat and barley; he is resurrected when they put seeds in the earth. In the Christian calendar, this is Easter time. The Shia ritual mourning for the martyred Imam Hussein at the site of the battle of Karbala – a rite Saddam tried to suppress – takes place at the same time. Life rhymes, and so do the life cycles of gods. See E. W. Fernea, *Guests of the Sheikh* (Garden City, NY: Doubleday, 1969).

(225) Bert O. States, *Dreaming and Storytelling* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1993), p. 3.

(226) Bert O. States, “Authorship in Dreams and Fictions,” *Dreaming* 4, no. 4 (December 1994): 239.

(227) *Ibid.*, p. 240.

الكتاب الروائيين (بمن فيهم أنا) سيشهدون على دقة هذا الوصف. وربما ينطبق أيضًا على العقول الإبداعية في مجالات كثيرة أخرى، حين تعمل في حالة تدفق تجمع بين الانتباه الهادئ والاسترخاء اليقظ. في تلك الحالة، كما كتب صامويل بيكيت عن بروس، قد يكون الكاتب أيضًا، ولو للحظة، «كائنًا خارج الزمان».⁽²²⁸⁾

وفرت الأحلام كلاً من الطاقة والإلهام للخلق الأدبي. فعندما كان إسخيلوس (المولود عام 525 ق.م.) صغيرًا أرسل لحراسة عناقيد العنب المفتحة في إحدى الكرّامات. وبينما غفا، ظهر له ديونيسوس، إله الخمر والمسرح، وأعطاه تعليمات عن نوع جديد من المسرح. قبل ذلك، كان المسرح الإغريقي القديم طقسًا جامدًا نوعًا ما، بممثل واحد على الخشبة، وجوقة لا تتفاعل معه بشكل مباشر. ألهمه حلمه إدخال ممثل ثانٍ؛ وهكذا وُلِدَ المسرح الغربي. وقد كتب إسخيلوس تسعين مسرحية، لم يبقَ منها سوى سبع.

قال شاعر شاب لستيفانيا باندولفو، أثناء رحلتها بين القرى المغربية الريفية التي تمثل الأحلام فيها والشعر أهمية بالغة ومتداخلة: «الشعر دائمًا نتيجة فيضان». القصيدة الحقيقية تنبع من عاطفة جياشة، جارفة، حتى تجد متنفسها الإبداعي.⁽²²⁹⁾ لم يكن الشاعر الذي يحظى بأكبر قدر من الاحترام في تلك المنطقة، الشيخ محمد، يعرف كيف يقرض الشعر حتى حلم بفيضان. جاءه الحلم في وقت أزمة شخصية، وكان قريبًا من اليأس. كان رجلًا عنيفًا في ماضيه، وقد فقد يده اليمنى في حادثة إطلاق نار. في حلمه، رأى نهرًا يفيض بغضب، تصادمه صخرة ضخمة تشبه الجبل، تحمل في طريقها كل ما يعترضها من أشجار وجثث وأنقاض، غير عابئة بما تحمله. بدلًا من أن يهرب، وقف في مجرى النهر الجلف، يراقب ويتنظر. ثم فتح فمه وابتلع الفيضان وكل ما جرفه معه. روى الحلم لوالدته، فقالت له إنه أصبح شاعرًا.

(228) Samuel Beckett, *Promt* (New York: Grove, 1931), p. 56.

(229) Stefania Pandolfo, *Impasse of the Angels: Scenes from a Moroccan Space of Memory* (Chicago: University of Chicago Press, 1997), p. 259.

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت تلك صناعته في الحياة. (230)

من الكاهنة-الناسخة التي كتبت قصة دموزي إلى ستيفن كينغ ونيل غايبان، وجد الكتاب دومًا أن الأحلام توفر مادةً رائعةً للقصص والروايات والنصوص المسرحية والقصائد. قد يقدم الحلم المخطط الأوّلي الخام لموضوع أو حبكة أو شخصية، مع بقاء الكثير مما يجب تطويره وصلقه - ربما بمساعدة أحلام لاحقة - على مدار فترة زمنية طويلة. قد يحمل الحلم في طياته بنية وتفاصيل قصة مكتملة أو قصيدة متكاملة، وإن لم يكن بالضرورة «مكتملاً» بالمعنى الأدبي الدقيق قبل أن تخضع مادته الخام للصقل والتنقيح. يمكن إدراج الحلم ضمن السرد الروائي، منسوبًا إلى إحدى الشخصيات، كما فعلتُ في حالة «نيكولسكي» - الفيلسوف المغربي بالخمر في جهاز الـ «كي جي بي» - في روايتي «قواعد موسكو»، أو كما فعل غراهام جرين مع شخصية «كويري» في روايته «قضية ضائعة».

أحيانًا يُقدم الحلم كقصة مستقلة بلا إطار سردي واضح، كما فعل فرانز كافكا في رواية «التحول»، حيث رغم كابوسية الحدث، أصر ضمن السرد على أن الرجل الذي تحوّل إلى حشرة عملاقة لم يكن يحلم فعلاً.

استُخدم الحلم الأدبي بصفته أداة حبكة بطرق متعددة. يمكنه أن يأخذ القارئ إلى أعماق الحياة الداخلية لشخصية ما. وقد يُنشئ توترًا سرديًا حاسمًا؛ على سبيل المثال، بين رغبات الشخصية وضميرها، وهو موضوع محوريّ في الأحلام الروائية لدى دوستويفسكي.

يمكن استخدام الحلم بوصفه أداةً بنائية لافتتاح قصة وإطارها، حتى وإن لم تكن القصة نفسها حلمًا؛ وقصيدة «رومانسية الورد» في العصور الوسطى مثال كلاسيكي، من زمن كانت فيه الأحلام محل توقير عظيم. ورواية «حلم الغرفة الحمراء» الصينية الكلاسيكية تُفتّح بإلهة تصنع جبلاً من 36501 صخرة، واحدة منها - منبوذة - هي صخرة ناطقة يسمع شكواها شخصان خالدان. تُمنح هذه الصخرة حياةً متحركة

للغاية، بأشكال مختلفة، في العالم البشري - المعروف لدى الروح والخالدين باسم «الغبار الأحمر» - وأماكن أخرى.

الكتابة والحلم مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في الممارسة اليومية. الكتّاب الذين يحتفظون بمذكرات ويسجلون أحلامهم يمنحون أنفسهم تدريباً تمهيدياً، ويشحذون العضلات الإبداعية التي ستعمل لاحقاً على المشروع الأكبر. أما الكتّاب الذين لا يسجلون أحلامهم بانتظام، فإنهم، مع ذلك، يستيقظون من نومهم ورؤوسهم ممتلئة بالكلمات - كما ذكر تشارلز ديكنز في رسالة إلى الدكتور ستون⁽²³¹⁾ - وهذه الكلمات تتدفق مُلِحَّةً لتخرج.

قد يساعد حلم الكاتب في «تفجير الطاقة الإبداعية اللاواعية الكامنة» (وهي عبارة كان مارك توين يرددتها كثيراً)، مطلقاً قوى ذكريات مدفونة منذ زمن بعيد، أو جالباً إلى الوعي أفكاراً كانت تنمو في منطقة ما قبل الوعي أو الأعماق اللاواعية لسنوات أو لعقود. بهذه الطريقة جاء أسلان إلى سي إس لويس، مانحاً إياه المفتاح إلى نارنيا. كما يتذكّر «جاك» لويس:

لقد بدأ أمر «الأسد» كله بصورة لقنطور يحمل مظلة وحزماً في غابة مكسوة بالثلج. كانت هذه الصورة في رأسي منذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري. ثم، ذات يوم، حين بلغت نحو الأربعين، قلت لنفسي: «فلنحاول أن نصنع قصة حولها».

في البداية، لم تكن لدي فكرة واضحة عن مسار القصة. لكن فجأة، اندفع أسلان إلى داخلها. أظن أنني كنت أحلم كثيراً بالأسود في تلك الفترة. بخلاف ذلك، لا أعرف من أين جاء الأسد، ولا لماذا جاء. ولكن ما إن حضر، حتى جمع خيوط القصة كلها معاً، وسرعان ما جذب معه قصص نارنيا الست الأخرى.⁽²³²⁾

أخيراً، في الأحلام وحالات التدفق، يتواصل الكتّاب مع مساعديهم الداخليين.

(231) Charles Dickens, letter to Dr. Stone, February 2, 1851; see Warrington Winters, "Dickens and the Psychology of Dreams," *PMLA* 63, no. 3 (September 1948): 984-1006.

(232) C.S. Lewis, "It All Began with a Picture," *Junior Radio Times* 68 (July 15, 1960), reprinted in *Of Other Worlds* (San Diego: Harcourt Brace, 1975), p. 42.

كان روبرت لويس ستيفنسون يتواصل مع «الجنيات البنية» المساعدة له أثناء حالات الشرود الذهني، وكان ينسب إليهن الفضل في إنجاز أكثر من نصف أعماله الأدبية. تحدث بيتس عن «اختلاط العقول» الذي يمكن أن يجلب العون،⁽²³³⁾ في المغامرة الإبداعية، من عقول تبدو وكأنها تنتمي إلى أزمئة أو أبعاد أخرى. أما ميلتون، فقد وصف مصدر إلهامه بقوله:

مكتبة

t.me/soramnqraa

راعتي السماوية، التي تتكرم
بزيارتي كل ليلة دون أن أتضرع،
وتملي عليّ وأنا نائم، أو توحى
فأكتب عفويًا نثري بسلاسة.

(«الفردوس المفقود»، الكتاب التاسع، 21-24)

وتحدث ميلتون عن «عملية الحلب» بعد ليلاليه من الإلهام، إذ كان - وقد فقد بصره بالكامل حين ألف أشهر أعماله - يُملي كتاباته على ناسخ.⁽²³⁴⁾

عندما يكون الكتاب في حالة تدفق إبداعي حقيقية، كثيرًا ما يشعرون وكأنهم دخلوا في شراكة خلاقة مع قوة أكبر، قوة كان القدماء يسمونها «العبقرية» أو «الشیطان الطيب». وسنرى كيف طوّر بعض الكتاب القدرة على دخول نوع معين من الفضاء التخيلي - دعنا نسميه «مكتبة الأحلام» - حيث تصبح هذه اللقاءات سهلة.

من الأحلام إلى القصص، ومن القصص إلى الأحلام

حلمت أنني أتحدث بالفرنسية مع روجيه كايوا قبل أن أبدأ في قراءة أعماله، فسعيت إلى البحث عن أعماله المنشورة تكريمًا لحلمي. واكتشفت أنه كان مستكشف أحلام فرنسيًا موهوبًا ومغامرًا أدبيًا، وكان صديقًا للسرياليين، ودارسًا للألعاب والأساطير، ورّحالة في عوالم الأحجار والمعادن. قام بتحرير أنطولوجيا رائعة بعنوان «مغامرة

(233) W.B. Yeats, "Per Amica Silentia Lunae," in *Mythologies* (New York: Macmillan, 1959), p. 346.

(234) Helen Darbishire, ed., *The Early Lives of Milton* (London: Constable, 1932), p. 33.

الحلم»، والتي تزرع الكثير من الأفكار الخصبة حول العلاقة بين الأحلام والسرد. تنقسم هذه الأنطولوجيا إلى ثلاثة أجزاء. في الجزء الأول يقدم كايوا مقدمة نابضة بالحياة يميز فيها بين نهجين أساسيين تجاه الأحلام؛ أولهما لمن يرغبون في تفسير الأحلام، وثانيهما لمن يرغبون في دخول واستكشاف فضاء الحلم نفسه (وهو أكثر إثارة وإبداعاً بمراحل).

ثم تأتي مختارات من تجارب الأحلام من النصوص الصينية الكلاسيكية، والتي يظهر فيها تأثير واضح لأساليب التجوال الروحي الطاوية. في إحدى الحكايات الصينية، يُصدّم رجلٌ حين يسمع، أثناء عودته إلى منزله، زوجته تحتفل مع غرباء داخل معبد. فيلتقط قرميدةً مغلخلةً ويقذفها، فيكسر الصحون ويفرق المحتفلين. وحين يصل إلى بيته، يجد زوجته تنهض من سريرها وهي تضحك على حلم طريف كانت تحتفل فيه مع غرباء في معبد، حتى قُطِعَت الحفلة فجأة حين رمى شخص ما قرميدة كسرت الصحون. وهنا يعلق باي شينغجيان (776-827): «هذا إذن، مثال على لقاء أرواح الأحلام بشخص مستيقظ.»⁽²³⁵⁾

في حكاية صينية أخرى، «الجدار المرسوم» لبو سونغ-لينغ - والتي كُتبت قبل رواية «عبر المرأة» أو فيلم «ما الأحلام التي قد تأتي» بزمن طويل - يدخل رجل يُدعى تشو إلى داخل لوحة ويتزوج من الحسنة التي كان معجباً بها داخلها. وعندما يُستدعى إلى الجانب الآخر عبر صياح رفاقه، يلتفت ويرى أن الفتاة المرسومة باتت لديها تسريحة امرأة متزوجة. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ يرد كاهن قائلاً: «الرؤى تنبع من أولئك الذين يرونها.»⁽²³⁶⁾

القسم الثالث، والرئيس، من «مغامرة الحلم» مخصص للقصص القصيرة المستوحاة من الأحلام. كما يعلم جميع الكتاب الجيدين، رغم أن العديد من الأحلام تأتي مصوغةً كقصص أو نصوص مكتملة، فتحويل الأحلام إلى قصص فعلية قد يكون تحدياً

(235) G.E. Von Grünebaum and Roger Caillois, eds., *Le rêve et les sociétés humaines* (Paris: Editions Gallimard, 1967).

(236) Ibid.

حقيقياً. فإذا بدأنا بالكشف عن أن الأحداث تدور ضمن حلم، قد نفتر القارئ ونفقد السحر الخاص بتجربة الحلم الحقيقية. لهذا، فإن بعض أكثر الأعمال الأدبية شبهاً بالأحلام قد لا تذكر كلمة «حلم» على الإطلاق. بحث كايوا بمهارة عن قصص يكون فيها الحلم جزءاً جوهرياً ومثيراً من الحكمة.

إحدى قصصي المفضلة هي حكاية فيها تحول مفاجئ (عنوانها في هذه المجموعة «المسافة») للأرجنتيني خوليو كورتاثر. في هذه القصة المخيفة، تحلم أليسيا ريس مراراً وتكراراً أحلاماً تزداد حدةً وتفصيلاً، بامرأة حزينة ترتدي حذاءً مكسوراً على جسر في برودة بودابست؛ والناس يضربونها، وهي بائسة ووحيدة. وحين تتزوج، تقنع أليسيا زوجها بأخذها إلى بودابست، التي لم تزرها من قبل. وعندما تخرج لتتجول، تجد نفسها منجذبةً إلى الجسر الذي رأته في حلمها. وفي منتصف الجسر، تجد المرأة الحزينة ذات الحذاء المكسور. تعانقتا، وغمر أليسيا شعور قوي بالفرح. ولكن عند افتراقهما، بدأت تصرخ، إذ رأت أليسيا ريس تمشي مبتعدة بثقة، وقد بدا عليها بعض التغير... لقد تبدلت حالتها.

قصة أخرى مفضلة لدي هي «ولد الخطب» لروديارد كيبينغ، الذي ليست إمكانات الحلم بغريبة عليه. في هذه القصة، يبدأ صبي وفتاة، لم يكن قد سبق لهما أن التقيا في حياة اليقظة، بالالتقاء في الأحلام، ويخوضان مغامرات رائعة تبدأ غالباً من كومة حطب قرب محيط. ومع مرور السنوات، يواصلان لقاءاتهما ومغامراتهما في عالمهما المشترك، الذي يتحدى قوانين الواقع العادي. وبعد عقود من بداية تلك الأحلام، يلتقيان في اليقظة، ويتعارفان، ويصبحان زوجين.

لا أعلم ما الذي أوحى لكيبينغ بكتابة هذه القصة، رغم أنه ربما ينبغي لي أن أعلم، إذ إنني عشت ذات مرة في منزل في شرق ساسكس كان كيبينغ يزوره، وكان المنزل يقع خلف التلة التي استلهم منها مجموعته القصصية «باك من تلة بوك». لكني أعلم أن فرضية ولد الخطب – بأننا قد نحيا حيوات مستمرة ومشتركة مع آخرين في الأحلام – صحيحة تماماً، ولو فهمت على نحو أعمق، لتحولت تصوراتنا التوافقية عن الواقع.

أعلم هذا، لأنني وإحدى أعز صديقاتي، التي اعتبرها أختي الروحية، بدأنا نلتقي في فضاء الأحلام منذ أن كنا في التاسعة من عمرنا، قبل أكثر من ثلاثة عقود من لقائنا في حياة اليقظة، وما زلنا نخوض مغامرات معًا في عوالم موازية منذ ذلك الحين.

الحلم في «جرين لاند»

عندما سافرت لأول مرة إلى باريس كمراسل أجنبي، في أوائل سبعينيات القرن الماضي، أجرت سكرتيرة المكتب حجزًا لي في فندق سان جيمس أند ألباني، الذي تبين أنه في الحقيقة فندقان توأمان - منازل فخمة على الضفة اليمنى - يفصل بينهما فناء هادئ يضم نافورة وألواح حجرية وأحواض زهور وأشجار ظليلة. لفت انتباهي أن الفناء بين الفندقين كان مساحة حدية، مثالية للمؤامرات والاختراقات بمختلف أنواعها، لألعاب تتعلق بالعشاق أو الجواسيس، وحتى اللاعبين من عوالم مختلفة.

ما اكتشفته لاحقًا، وكان باعثًا على سروري البالغ، أن غراهام جرين كانت لديه مشاعر مشابهة، وقد جعل هذا المكان جزءًا من «جرينلاند»، العالم الخيالي لرواياته.

عاش غراهام جرين حيوات كثيرة، لكنه أولاً وأخيرًا كان كاتبًا، بانضباط الكاتب المحترف. ورغم مؤامراته الشخصية والسياسية العديدة، كان يحافظ على عادة الجلوس كل يوم تقريبًا من الساعة السابعة حتى التاسعة صباحًا - سواء على شرفة منزل في تاهيتي أو كوخ في برايتون - ليكتب حصته اليومية من خمسمائة كلمة، وقد واطب على هذا التقليد لسبعين عامًا، منتجًا تدفقًا مستمرًا من الروايات والمقالات الشعبية. جزء أساسي من ممارسة جرين كان تدوين أحلامه. فقد بدأ بالاحتفاظ بمذكرات أحلامه منذ كان في السادسة عشرة من عمره. كثيرًا ما كان يبلغ عشاقه وأصدقائه بأحلامه في رسائله. وخلال الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة من حياته، كان يسجل أحلامه بأمانة كبيرة - وإن كان بخط يد تصعب قراءته للغاية - في دفاتر موجودة الآن في أرشيف بتكساس. وكان مشروعه الأدبي الأخير هو تحرير مجموعة مختارة من أحلامه لتُنشر بعد وفاته تحت عنوان «عالمي الخاص».

يشكل التشابك بين حياة جرين الحُلُمية وحياته الأخرى دراسةً شيقةً للغاية، خاصة مع توفر مصادر أولية نادرة. نرى كيف أن رجلاً اختار أن يعيش على الحواف الخطرة للعالم، استطاع أن يبتدع - براء واستمرارية - أعمالاً أدبية بالاستعانة بتلك المساحة الغامضة بين الحلم واليقظة. يمكننا تتبع أنماط متعددة يبدع فيها الكاتب من الأحلام، من تلقي الفكرة الأولية لقصة، إلى حل مشكلة أثناء النوم، إلى سد فجوة سردية، إلى الغوص بعمقٍ في حياة شخصية روائية.

عندما كان جرين صبيّاً صغيراً، كانت تراوده أحلامٌ نفسية، غالباً ما تتعلق بالموت غرقاً، وهو احتمال كان يرعبه. وفي الليلة التي غرقت فيها سفينة تيتانيك، وكان عمره سبع سنوات فقط، حلّم بحطام سفينة ورجل يرتدي معطفاً زيتياً، منحنيّاً على درج السلم، الذي يؤدي من سطح السفينة إلى الكبائن، تحت وطأة ضربة موجة عاتية. (237)

كان جرين مثيراً للشفقة في المدرسة - وهو أمر غير مستغرب في حياة شخص مبدع وحساس - وقد هرب منها عندما كان في السادسة عشرة من عمره. كان هذا محرّجاً للغاية لعائلته، حيث كان والد غراهام مدير مدرسة. قرروا إرساله إلى لندن للخضوع للتحليل النفسي، وهو أمر كان لا يزال فكرة جديدة نسبياً في عام 1920، لا سيما لصبي مراهق. لم يكن المحلل المختار، كينيث ريتشموند، قد تلقى أي تدريب رسمي؛ فقد كان كاتباً ذو ميول روحانية ويتبع نهجاً انتقائياً. وخلال إقامة جرين معه في لانكاستر غيت، كلّفه ريتشموند بأن يدوّن أحلامه. في جلسات منتصف الصباح، كان يُتوقع من جرين أن يروي حلمًا ثم يعطي تداعي أفكاره مع الصور الأساسية بينما يكتفي المحلل بالاستماع. وعندما لم يكن يتذكر حلمًا، كان يخترع شيئاً من خياله. أرست هذه التجربة - التي وصفها لاحقاً بأنها أسعد ستة أشهر في حياته (238) - الأساس لمسيرته الأدبية، إذ درّبه على الكتابة من الأحلام وعلى اختراع القصص. كما أن الحضور المتكرر لكتاب معروفين (من بينهم والتر دي لا مير، وهو أيضاً دارسٍ لهم للأحلام) في منزل

(237) Graham Greene, *A Sort of Life* (New York: Simon and Schuster, 1971), p. 32. In his memoir, Greene says he was five at the time.

(238) Ibid., p. 98.

لأنكاستر جيت شجّع جرين على التفكير في أن يصبح كاتبًا.

كانت زوجة كينيث الجميلة، زوي - التي حلم جرين بها أحلامًا ذات طابع عاطفي قليلًا - ترى أن غراهام يمتلك قدرات استبصار، واصفة إياه بأنه «وسيط طبيعي». وأثناء إقامته في لأنكاستر غيت، حلم جرين بسفينة تغرق في البحر الأيرلندي. وفي تلك الليلة نفسها، بعد منتصف الليل بقليل، غرقت السفينة «روان» في البحر الأيرلندي.⁽²³⁹⁾

في بعض أحلامه الاستباقية أو الاستبصارية، وجد جرين نفسه يعيش وضع إحدى الضحايا. فعندما كان في الحادية والعشرين من عمره، حلم بكارثة بحرية أخرى، طُلب منه فيها أن يقفز من السطح العلوي للسفينة. وفيما بعد، قرأ في الأخبار عن غرق سفينة قبالة سواحل يوركشاير خلال عاصفة، وإن القبطان أمر رجاله بالقفز في البحر الهائج، وغرقوا جميعهم عدا اثنين.⁽²⁴⁰⁾ تخنّن جرين أنه «في حادثة كهذه، لا بد أن تتولد موجات ذهنية رهيبية من الرعب، ويبدو أن ذهني متوافق بالتحديد مع موجة رعب الغرق.»

تتشابه قدرته النفسية المبكرة على الحلم بالدخول إلى تجربة الآخر مع قدرته الناضجة كروائي على الحلم بحيوات شخصياته. وقد لاحظ لاحقًا أنه «أحيانًا، يتعمق الاندماج مع شخصية ما إلى درجة أن المرء قد يحلم حلمها، لا حلمه هو.»⁽²⁴¹⁾

في أحد أحلامه المخيفة خلال فترة «لأنكاستر غيت»، كان مطارداً من قبل عملاء صينيين شرسين. لجأ إلى كوخ برفقة محقق مسلح، وبدا له أن الأمان قد بدأ يحلّ. لكنه ارتعد عندما نظر إلى اليد التي تمسك بالمسدس، فإذا بها تحمل أظافرًا طويلة على غرار أظافر الصينيين، مما بثّ في نفسه شعورًا عميقًا بالقلق وعدم الاطمئنان.⁽²⁴²⁾ ربما ذلك الحلم كان بروفة حياتية تنبأت بالألعاب المخابراتية التي سيخوضها لاحقًا كضابط في

(239) Ibid., pp. 32–33.

(240) Letter from Greene to his fiancé, Vivien Dayrell-Browning, December 11, 1925, quoted in Norman Sherry, *The Life of Graham Greene: Volume 1, 1904–1939* (New York: Viking, 1989), p. 106.

(241) Graham Greene, *Ways of Escape* (London: Penguin Books, 1982), p. 210.

(242) Greene, *Sort of Life*, p. 101.

جهاز الاستخبارات السرية البريطانية، وكصديق مدى الحياة للجاسوس الشهير كيم فيلبي.

لاحقاً، بدأت أحلام أخرى تُعده لمواجهة المرض وانزلاق عشيقته الطويلة الأمد كاثرين والتون في هوة الإدمان على الكحول. كتب إلى كاثرين عام 1957 عن حلم غريب رآها فيه في منزل بائس للنزلاء، «مريضة جدًّا في عظامك». وبدأ هذا الحلم يتحقق لاحقاً في حياة كاثرين وجسدها بعد سبع سنوات.⁽²⁴³⁾

ولكن هنا سنركّز على كيفية تأثير أحلام جرين في كتابته. قال إن روايتين من رواياته، وهما «إنها ساحة معركة» و«القنصل الفخري»، بدأت كلتاهما من حلم. كما حلم جرين بحبكات وشخصيات قصص قصيرة كاملة. إحدى هذه القصص المستوحاة من الأحلام تناول وضعاً سريالياً يتوسل فيه مصاب بالجذام إلى الطبيب الذي حكم عليه بالدخول إلى مستشفى عام، أن يوفر له علاجاً خاصاً أكثر تكتماً، ليجد أن منزل الطبيب قد تحوّل إلى كازينو في تلك الليلة. وفي الحلم، بدا أن جرين هو الطبيب.⁽²⁴⁴⁾

عندما كان يكتب «قضية ضائعة» - التي استندت كثيراً إلى مذكراته أثناء رحلته إلى الكونغو - وصل إلى نقطة في الحبكة لم يستطع تجاوزها. ثم حلم بنفسه في دور شخصيته «كويري»، ووجد أنه يستطيع إدخال حلمه «دون تغيير» في الرواية، «حيث سد فجوة سردية عجزت عن تجاوزها لأيام».⁽²⁴⁵⁾

جعل جرين من حل مشكلات الكتابة أثناء النوم عادةً منتظمة، ولاحظ أنه ليس ضرورياً أن يتذكر محتوى الحلم للحصول على حل مستوحى منه. كتب: «عندما يبدو أن هناك عقبة لا يمكن تجاوزها، أقرأ عمل اليوم قبل النوم... وعندما أستيقظ، دائماً ما أجد أن العقبة قد زالت تقريباً؛ فالحل موجود وواضح، وربما جاء عبر حلم قد

(243) Norman Sherry, *The Life of Graham Greene: Volume 3, 1955–1991* (New York: Viking, 2004), p. 477.

(244) Greene, *Ways of Escape*, p. 210; the story was published in the collection *A Sense of Reality*.

(245) *Ibid.*, p. 211.

كان يستلهم بعضًا من أحلامه الخاصة في بناء شخصيات رواياته. فعندما كان على خلاف مع كاثرين، حلم بأنها ارتبطت بأربعة رجال آخرين (إلى جانب زوجها، اللورد هاري والتون). وفي الحلم، عبّر عن مشاعره بالاقتراب من امرأة أخرى أمامها. وبعد مشادة، تصالحا. وقد استوحى جرين هذا الحلم لاحقًا في مشهد من روايته «المهرجون». (247)

في حلم آخر، يعكس انشغاله العميق بالقضايا الوجودية، ألقى جرين محاضرةً تحليلية تناول فيها فكرة تطوّر المفاهيم الروحية كما يتطوّر الإنسان، واقترح أن ثنائية الخير والشر قد تعود إلى أصل واحد. وقد وظّف هذه الفكرة لاحقًا في أحد مشاهد روايته «القفص الفخري»، حيث تُعبّر إحدى الشخصيات عن أن للمطلق بُعدين متقابلين: أحدهما مضيء وآخر مظلم، وأن هذا الجانب المظلم قد يتلاشى مع نضج الوعي الإنساني وتقدّمه. (248)

كان غراهام جرين رجلًا غامضًا، يخفي الكثير عن حياته الخاصة وعن انخراطه في عوالم السلطة والجاسوسية. وفي نهاية حياته، كان الكاتب الرسمي لسيرته الذاتية لا يزال يتوسل للحصول على إيضاح بشأن علاقته بكيم فيلبي. وحين كان الصحفيون يحاولون سبر هويته، كان جرين يجيب ببساطة: «أنا كتي». (249) وغالبًا ما كان يشير إلى نفسه بضمير الغائب «المرء»، وليس بضمير المتكلم «أنا».

أصبح غراهام جرين مشهورًا بدعّمه للقضايا اليسارية، ومع ذلك كان يحذّر قائلًا: «على الكاتب أن يكون مستعدًا لتغيير تحيزاته في لمح البصر. إنه يدافع عن الضحايا،

(246) Ibid.

(247) Sherry, *Life of Graham Greene: Volume 3*, p. 103.

(248) Graham Greene, *A World of My Own: A Dream Diary* (London: Reinhardt Books/Penguin, 1992), pp. 59–60.

(249) Yvonne Cloetta, *In Search of a Beginning: My Life with Graham Greene*, as told to Marie-Francoise Allain., trans. Euan Cameron (London: Bloomsbury, 2004), p. 45.

كان جرّين يرى أن اللغز الأعظم - في نهاية المطاف - هو ما يلي الموت. لقد فكّر في هذا، وحلم به، طوال حياته. وقد أثّرت فيه بشدة سلسلة من اللقاءات في الأحلام مع والده بعد وفاته. كان تشارلز جرّين، الذي شغل منصب المدير المتجهم للمدرسة التي كرهها غراهام، قد توفي خلال الحرب العالمية الثانية بينما كان غراهام في سيراليون «يدير بلا جدوى مكتب استخبارات سرية مكوّنًا من رجل واحد». وفي واحدة من الأخطاء المألوفة في عالم جرّين «جرّين لاند»، تلقى برقية تخبره ب وفاة والده قبل أن تصله البرقية السابقة التي تعلمه بأن والده مريض جدًّا. على مدى سنوات عديدة بعد ذلك، كان جرّين يحلم بأن والده محتجز في مستشفى، مقطوع الصلة بزوجه وأطفاله. ولم تكن هذه حال تشارلز في حياته الجسدية؛ إذ بقي في منزله حتى وفاته، وكانت زوجته تحقنه بالأنسولين لمعالجة داء السكري. تغيرت قصة الحلم - وأصبح معناها أوضح - عندما حلم جرّين بأن والده ظهر عند منعطف في الطريق بينما كان يقود سيارته برفقة والدته، ولوّح له بالتوقف. قفز والده إلى المقعد الخلفي بابتسامة فرحة، وأعلن بسعادة أنه أُخرج من المستشفى ذلك اليوم. كتب جرّين إلى والدته يقول: «ربما هناك شيء من الحقيقة في فكرة المَطْهَر، ولعل هذه كانت لحظة الانعتاق» (251).

لاحقًا، راود جرّين حلم مزعج يوحي بأنه قد يتلاشى بعد الموت بسبب فقدانه للإيمان. قال: «كنت أشعر بوجود أشخاص أحببتهم يدعونني للانضمام إليهم. لكنني اخترت الفناء، عبر فقداني للإيمان. كان مخروط أسود ضخّم، مثل طفاية الشموع، على وشك أن يسقط فوق رأسي.» (252) ولكن لم يكن هذا هو مآله النهائي. لقد رحل وهو واثق من استمرار الحياة، ومستعد لرحلات جديدة، ولم يندم إلا على فراق آخر امرأة تشاركه حياته، إيفون كليتا. قبل أسبوع من وفاته، وكان مدرّكًا لدنوّ الأجل، قال لإيفون في المستشفى في فيفيه: «قد تكون تجربة مثيرة للاهتمام؛ سأعرف أخيرًا ماذا

(250) Greene's Shakespeare Prize acceptance speech, "The Virtue of Disloyalty," delivered in Hamburg in 1969; cited in Cloetta, *In Search of a Beginning*, p. 101.

(251) *Sort of Life*, p. 27.

(252) *World of My Own*, pp. 115-116.

يوجد على الجانب الآخر من السور». (253)

وفي أواخر أيامه، دَوّن هذه العبارة في «الكتاب الأحمر» الذي كان يسجل فيه حواراته مع إيفون: «ربما في الفردوس تُمنَح لنا القدرة على مساعدة الأحياء. أتصور الفردوس مكانًا يعج بالنشاط. أحيانًا لا أصلي من أجل الأصدقاء الأموات، بل أصلي إلى الأصدقاء الأموات، طالبًا مساعدتهم.» (254)

وتذكر إيفون أن «جرين ظل يكتب كل صباح، كما اعتاد دائمًا، حتى اللحظة الأخيرة، في كتابه عن الأحلام». (255) ويبدو أنه أدرك أنه عبر الأحلام (كما قالت إحدى شخصياته في رواية «العميل السري») «كان ثمة شيء ما في هذا العالم المتقلب الملثوي يستطيع أن يثق به إلى جانب ثقته بنفسه.» (256)

أشياء تحدث في روسيا ولا تحدث على الأرض

في روسيا، تحدث أشياء كثيرة لم ولن تحدث على الأرض.

شخصية في حلم من كتاب «مارتين زاديكا»، تأليف أليكسي ريمزوف

نظرًا لتاريخهم الجامح، لا عجب أن الروس حاملون جامحون أيضًا. فقد أظهرت دراسة متعددة الثقافات تتسم بالدقة عن محتوى الأحلام، استنادًا إلى 1666 تقريرًا من ست دول، أن الروس يرون أحلامًا «غريبة» – تحتوي على عناصر عجيبة أو خيالية، أو سمات توحى بتجارب خارقة للطبيعة – بمعدل أعلى بكثير من غيرهم في العينة. من بين الروس، صُنِّف 12.7٪ من الأحلام على أنها «غريبة»؛ بينما بلغت النسبة لدى الأمريكيين 5.7٪ فقط. (257)

(253) Cloetta, *In Search of a Beginning*, p. 185.

(254) Ibid., p. 186n.

(255) Ibid., p. 204.

(256) Graham Greene, *The Confidential Agent* (London: Heineman, 1954).

(257) Stanley Krippner and Laura Faith, "Exotic Dreams: A Cross-Cultural Study," *Dreaming* 11, no. 2 (June 2001): 73–82.

في الأدب الروسي - على حد تعبير صديق روسي - الأحلام «ثمار دانية»، على الأقل كانت كذلك قبل جهود ستالين لتسطيح وسحق الخيال. وحيوات الكتّاب الروس غالبًا ما كانت جاعحة بقدر جموح أحلامهم.

كان ألكسندر غريبويدوف (1795-1829) شخصية تفوق روعتها ودراميتها أي شخصية ابتدعها. قد لا يخطر ذلك ببالك من صورته، بعدسته الصغيرة المستديرة وتعابيره الدالة على أنه مولع بالقراءة والتي تمنحه مظهر مثقف من القرن التاسع عشر، أو من لقبه العائلي الذي يبدو وكأنه نكتة؛ ف «غريبويدوف» يعني «أكل الفطر». ألهمه حُلْمٌ بكتابة الملهاة الشعرية المحبوبة «مأساة الكثير من العقل»، التي لا تزال تُعرض باستمرار في روسيا إلى اليوم. وتستحق القصة أن تُروى كما نقلها صديقه فادي بولغارين:

هكذا أتت هذه الملهاة للوجود. بينما كان غريبويدوف في بلاد فارس، في عام 1821، كان يتوق إلى بطرسبورغ، وموسكو، وأصدقائه... وإلى المسرح الذي كان يعشقه بجنون. فاضطجع لينام في جناح بحديقة، ورأى في المنام وطنه الحبيب... في حلمه، وصف لمجموعة من الأصدقاء ملامح ملهاة كان قد ألفها، بل وقرأ لهم مقاطع منها.

عند استيقاظه، أخذ قلمًا، وركض إلى الحديقة، وخلال الليلة نفسها، وضع الخطوط العريضة لـ «مأساة الكثير من العقل»، وكتب عدة مشاهد من الفصل الأول. واستحوذت عليه الكوميديا في كل لحظات فراغه، وأتمّها في مدينة تَبْلِيْسِي عام 1822. (258)

بولغارين ليس مصدرًا موثوقًا للغاية. فقد كان شخصية مُراوغة، يعمل مخبرًا بوليسيًا ومحرّضًا تحت ألوية متعددة، بل وتحت رايات مزيفة. لكنه كان أيضًا حكّاءً بارعًا؛ فهو مؤلف أول رواية روسية تحقق رواجًا جماهيريًا واسعًا. ومع ذلك، ثمة ما

(258) Faddey Venediktovich Bulgarin, *Memoirs of the Unforgettable Alexander Sergeyevich Griboyedov* (1830; reprint, Moscow: Sovremennik, 1990).

يؤكد على الأقل جزءًا من روايته، من خلال مسودة رسالة كتبها غريبيدوف إلى صديق - كان على ما يبدو زميلًا مسرحيًا - يخبره فيها بأنه حلم وهو في بلاد فارس بأنه وعده بإنهاء مسرحية جديدة خلال عام واحد. (259)

وفي المسرحية الكوميدية نفسها، تروي البطلة لوالدها حلمًا معقدًا يوحى - بطريقة كانت جديدة آنذاك في الأدب الروسي - بأنها ليست مجرد شابة تُحب الحياة الاجتماعية والانفتاح، ممهدة الطريق لتطورات لاحقة في مثلث حب يتنافس فيه حُطّاب متنافسون. (260)

كان غريبيدوف أيضًا ضابطًا في سلاح الفرسان (الهوسار)، ولغويًا، ودبلوماسيًا. وبعد وقت قصير من زواجه من فتاة جميلة في السادسة عشرة من عمرها (سرعان ما حملت منه)، أُرسِل إلى بلاد فارس سفيرًا للقيصر. كانت المشاعر المعادية لروسيا تتصاعد في طهران، وانفجرت حين لجأ خَصِيُّ أرمنيٍّ مع فتاتين أرمنيتين من حريم الشاه إلى السفارة الروسية. اقتحم حشدٌ إيرانيٌّ غاضب السفارة الروسية، تمامًا كما اقتحم حشدٌ آخر السفارة الأمريكية بعد ذلك بقرن ونصف من الزمن. قاتل غريبيدوف الغوغاء بسيفه، على رأس حرسه من القوزاق، لكن طوفان العنف اجتاحتهم. وقُطِعَ رأس الكاتب المسرحي، وشُحِقَتْ جثته في الشارع تحت ركلات الغاضبين. وعندما وصل نبأ مقتله إلى زوجته المراهقة، أجهض حملها. (261)

من الشخصيات الروسية التاريخية غير المتوقعة، ولكن الراسخة في الوعي الشعبي بارتباطها بالأحلام، ستيفان رازن، زعيم قوزاقي من القرن السابع عشر ولص عالمي الطراز. بعد إعدامه بوقت قصير، بدأت تنتشر أغنية شعبية تتحدث عن حلم تنبئي

(259) The draft letter in French is available online at

http://febweb.ru/feb/griboed/TEXTS/FOM88/PS88_29.htm.

(260) Michael R. Katz, *Dreams and the Unconscious in Nineteenth-Century Russian Fiction* (Hanover, NH: University Press of New England, 1984), pp. 28–35, 157–158.

(261) Peter Hopkirk, *The Great Game: The Struggle for Empire in Central Asia* (New York: Kodansha Globe, 1997), pp. 113, 122. See also Laurence Kelly, *Diplomacy and Murder in Tehran: Alexander Griboyedov and the Tsar's Mission to the Shah of Persia* (London: I. B. Tauris, 2002).

للقوزاق. في الأغنية، يروي رازن حلمًا يرى فيه حصانه يقفز بعصبية، و«رياح شريرة من الشرق» تقتلع قبعته، وأسلحته تسقط على الأرض. يسأل رازن إن كان هناك أي أحد يمكنه أن يفسر له حلمه. فيتقدم «يساول ذكي» (اليساول: ضابط قوزاقي) ويخبره بالأسوأ: الحلم ينبئ بهلاك رازن وفرقة.

قصة رازن وأغنيته الحلمية ألهمت خيال العديد من الكتّاب والموسيقين الروس، بما في ذلك بوشكين. وكتبت مارينا تسفيتايفا سلسلة من القصائد عن رازن وحلمه. وفي أواخر السبعينيات، أعادت المغنية جانا بيتشفسكايا إحياء الأغنية بنسختها الخاصة.

الشمار الدانية

ظهرت لي تاتيانا الصغيرة،

ومعها أونيجين،

في حلم غامض.

— بوشكين، الرواية الشعرية «يفغيني/أونيجين»

كان ألكسندر بوشكين (1799-1837) يعلم أن بعض الأحلام تتحقق. ففي رسائله ويوميّاته، أشار إلى عدد من الأحلام التنبؤية، بما في ذلك تقرير صديق له أن مربية الإمبراطورة كاترين العظيمة، في يوم وفاتها، حلمت بأنها تحتضن «كاترين الصغيرة» في حجرها كما كانت تفعل قبل ستين عامًا. وبعد بضعة أشهر من سماعه لهذه القصة، اختبر بوشكين بنفسه قدرته على رؤية ما وراء الزمن والمكان عبر حلم. فقد كتب إلى زوجته أنه حلم بأن الأميرة الشابة بولينا فيازيمسكايا قد تُوفيت، واستيقظ مرعوبًا. وبعد أيام قليلة، تلقى نبأ وفاة الأميرة بمرض السل في روما.⁽²⁶²⁾ ومن المفارقات أنه ربما يكون قد غفل عن رسالة تحذيرية تنبؤية بشأن ملابس موته هو

(262) Katz, Dreams and the Unconscious, p. 38.

تلعب الأحلام دورًا محوريًا في البنية السردية وتطور الشخصيات في جميع أعمال بوشكين، وكانت أحيانًا مصدر إلهام مباشر له. ففي مسرحية «بوريس غودونوف»، ميّز بوشكين تمييزًا جوهريًا بين نوعين من الأحلام: الـ «سون»، الحلم العفوي أثناء النوم، والـ «ميشتا»، حلم اليقظة أو التخيل. في سيكولوجية قصصه وقصائده الروائية، يكون الحلم الليلي العفوي عادةً موثوقًا، مقدّمًا رؤى مستقبلية وتصحيحًا للنزعات البشرية نحو الانغماس في الأوهام أو الأفكار المضلّة. أما الحقيقة التي يكشفها الـ «سون» مقابل الوقوع المحتمل في حبال الـ «ميشتا»، فتصبح المصدر الرئيس للتوتر السردى في أعظم أعمال بوشكين. يكمن التحدي في أن الناس كثيرًا ما يسيئون فهم ما يحدث في أحلامهم، أو ينسونها بالكامل، وهكذا يحكمون على أنفسهم بأن يعيشوا الأحداث المؤلمة التي كان بإمكان الأحلام أن تُحذّرهم منها، أو أن يتفادوا تلك الأحداث ولكن مقابل دروس صعبة في مدرسة الحياة القاسية.

يفصح بوشكين، في المقطع قبل الأخير من رائعته الروائية الشعرية «يفغيني أونيجين»، أن هذا العمل الضخم قد تم تصوّره في «حلم غامض». يشكّل حلم مثير تعيشه البطلة تاتيانا محور القصة. يضم الحلم دبًا ضخمًا وطيفًا من مشاهد الرعب التي تُذكّر بليلة الهالوين.

قبل أن تذهب إلى فراشها، تخلع تاتيانا وشاحها الحريري. تحمل الصورة ملامح رومانسية خفيفة لفتاة جميلة في لحظة هادئة وخاصة، ولكن هناك ما هو أعمق وأكثر إثارة للرعب. يبدو أن الأحداث تدور ليلة 5-6 يناير، وقت مهرجان وثنى قديم. كان هذا - ولا يزال - زمنًا شائعًا أن تمارس فيه الشابات طقوس العرافة واستدعاء قوى الظلام، أو ما يُعرف بالنِشِستَايا سيلا («القوى النجسة»)، وغالبًا ما يُشار إليها اختصارًا بـ «النِشِست». كان من الطقوس المتعارف عليها خلع الفتيات لصليب المعمودية والأحزمة قبل بدء العرافة، في إشارة إلى الاستعداد لاستقبال قوى عادةً ما يتحاشينها. عندما نسمع أن تاتيانا تخلع وشاحها قبل النوم، نلمح تلميحًا بأنها تستعد لشيء مختلف

تجد تاتيانا نفسها الآن داخل حلمها، تسير عبر غابة مظلمة مغطاة بالثلوج. وتقرب من جدول ماء غامض لا يغطيه الجليد، وفوقه لوحان هشان. تملكها رهبة من العبور على مثل هذا الجسر الضعيف. فجأة، يظهر دب ضخم أشعث من تحت الثلج، ويمد لها كفه ليساعدها على العبور. تشق طريقها بصعوبة عبر الثلوج العميقة، والدب يتبعها. وعندما تنهار من التعب، يمسكها الدب ويحملها إلى كوخ صغير حيث يقيم أقرباؤه. ويتركها الدب في الغرفة الأمامية ويختفي.

من خلف الباب، تسمع تاتيانا أصواتًا صاخبة ورنين كؤوس، كما لو كانت في «جنازة عظيمة». يتغلب فضولها على خوفها، فتطل عبر شق في الباب. فترى في الغرفة الرئيسة مشهداً فوضوياً؛ حشداً جامحاً من الوحوش، والأقزام، والساحرات، والهاكل العظمية، جميعهم جالسون حول مائدة، يرأسهم أونيغين نفسه. تريد تاتيانا أن تهرب، لكن أونيغين يلاحظها ويفضح وجودها للوحوش. يبدؤون في العواء: «إنها لي! إنها لي!» لكن أونيغين يطالب بها لنفسه، وعندها تختفي الوحوش فجأة. ثم يضع أونيغين تاتيانا على مقعد ويخفض رأسه نحو كتفها، وعندها تظهر أولغا - أخت تاتيانا - وخطيبها لينسكي. وينشب شجار عنيف. يستل أونيغين خنجرًا طويلاً ويقتل لينسكي. تتجمع الظلال القائمة، وتتحرقها صرخة رهيبة، وتستيقظ تاتيانا.

تحاول تاتيانا تفسير حلمها بالاستعانة بكتاب أحلام شعبي، لكنها لا تجد فيه ضالتها. وربما لأنها غارقة في الرمزية والخرافات، تركز على العناصر المسرحية للحلم وتغفل عن تحذيره الحرفي. تختار ألا تشارك حلمها مع أختها أولغا. ولو كانت الأختان قادرتين على إدراك أن الشجار والقتل قد يتحققان فعلاً، لربما تمكنتا من تفادي الحادثة التي ستقود لاحقاً إلى المبارزة الدامية حيث يقتل أونيغين لينسكي حقاً.

من المريب أن بوشكين لقي حتفه في ظروف مشابهة للغاية، مدافعاً عن شرف زوجته الشابة في مواجهة نبيل شاع أنه كان عشيقها. ويبدو أيضاً أنه من المحتمل أن يكون بوشكين، في فضاء الأحلام الذي استخرج منه إبداعاته الأدبية، قد ملح - مثل تاتيانا -

مشهد موته القادم، لكنه عجز عن تطبيق التحذير في حياته الواقعية.

إن التوتر بين الأحلام وحياة اليقظة هو الخيط المشترك في كل أعمال نيكولاي غوغول (1809-1852)، وهو بدوره ثمرة من ثمار بلاد القوزاق، إذ أن أعماله المبكرة زخرت بمناظر وأساطير أوكرانيا. عاش غوغول حياةً هامشيةً غريبة؛ فمن المشكوك فيه أنه أقام يوماً أي علاقة عاطفية مع إنسان آخر، وإحدى قصصه تتمحور حول أحلام مروعة لبطل يرى نفسه معذباً بجوقات من إوز شيطاني، ثم مجبراً على قبول «زوجة» هي في الحقيقة سجادة لا تصلح لشيء.

وقد نصح غوغول الشاب والدته ذات مرة ألا تصدق الأحلام، لأنها مجرد «سلطة مختلطة» من أحداث وهموم اليقظة.⁽²⁶³⁾ غير أن قصصه تكشف عن فهم أعمق وأكثر تعقيداً للأحلام. في قصة «انتقام رهيب»، إحدى حكايات غوغول الأوكرانية، يقول دانيلو لزوجته: «أنت لا تعرفين حتى عُشر ما تعرفه روحك». ⁽²⁶⁴⁾ ومع ذلك، يعجزان عن استخدام تحذيرات حلمها التنبؤي لتفادي سلسلة المآسي التي ينذر بها.

في قصة لاحقة، تحمل عنوان «الصورة الشخصية»، يحاول طبيب أن يستخدم أحلام مريضه من أجل الشفاء. يحاول أن يكشف عن «العلاقة السرية بين الأشباح التي يراها المريض في حلمه وبين أحداث حياته»،⁽²⁶⁵⁾ مما يعكس إدراكاً بأن الأحلام قد تكون دواءً موهباً في القدم ومفرط الحداثة أيضاً. ومع ذلك، مرة أخرى، يفشل الجسر بين الإرشادات الليلية وحياة اليقظة في الصمود.

في بعض قصص غوغول، تصبح الحدود بين الحلم واليقظة شبه معدومة. تستيقظ إحدى الشخصيات وفي يدها رسالة جاءت بها من الحلم ولم تكن موجودة من قبل.

تفوق غوغول على من سبقوه من الكتّاب الروس في التعبير عن سلاسة وقوة

(263) Ibid., p. 67.

(264) Nikolai Gogol, "A Terrible Vengeance," in *The Complete Tales of Nikolai Gogol*, vol. 1, ed. Leonard J. Kent (Chicago: University of Chicago Press, 1985), p. 151.

(265) Nikolai Gogol, "The Portrait," in *The Complete Tales of Nikolai Gogol*, trans. Richard Pevear and Larissa Volokhonsky (New York: Vintage, 1999), p. 354.

الإبداع في المنطقة الفاصلة بين النوم واليقظة. كان يتلمس مفردات لوصف هذه الحالة، متلاعباً بتعابير مثل «شبه حلم».

لقد غذت الأحلام الأدبية لغوغول الخيال الروسي، وأسهمت في إنتاج بعض من أفضل أعمال دوستوفسكي وبولغاكوف وكُتِّب ما بعد الحقبة السوفيتية. وللأسف، ما نجح في كتابات غوغول لم ينجح في حياته. فقد طارده الأحلام المظلمة وشياطينه الداخلية، حتى وقع تحت تأثير رجل دين مسنّ متعصب، أقنعه بحرق الجزء الثاني من رواية «النفوس الميتة»، وانخرط في ممارسات نُسُكِيَّة قاسية ساهمت في موته المبكر والمؤلم. وقد جُسِّدت معاناته في تمثال رمزي نحتته نيكولاي أندرييف، كان قائماً في ساحة أرباب بموسكو، حتى أمر ستالين، الذي كان يكره التمثال بشدة، بهدمه؛ ومع ذلك، نجا التمثال، وهو الآن قائم أمام بيت غوغول السابق.

في اليوم الذي تقدم فيه دوستوفسكي لخطبة أنا غريغوريفنا، لاحظت أنه يبدو مبتهجاً على نحو استثنائي. فسألته: «هل حدث شيء معين؟» فأجاب: «بالأكيد! رأيت الليلة الماضية حلمًا رائعًا». وعندما بدأت أنا تضحك، قال لها بجدية: «رجاء، لا تضحكي. أنا أعلق أهمية عظيمة على الأحلام. أحلامي دائماً تنبؤية.»⁽²⁶⁶⁾

قبل زمن طويل من فرويد ويونغ، طور فيودور دوستوفسكي (1821-1881) سيكولوجية عميقة للأحلام في رواياته وقصصه. وأحد أعظم دروس رواية «الجريمة والعقاب» - وهي رواية متجذرة بلا شك في الحياة الحلمية الشخصية لدوستوفسكي - هو أن صوت الضمير يتحدث بوضوح في الأحلام. لو أن راسكولنيكوف كان قد أنصت إلى أحلامه بدلاً من ذلك المعتوه النرجسي الذي في رأسه والذي كان يهمس له بأنه يملك الحق في ارتكاب جريمة مروعة، لما استطاع قط تنفيذ جريمة قتل العجوز المُرَابِيَةِ. أثناء تخطيطه للجريمة، يحلم راسكولنيكوف بأنه عاد صبيًا صغيرًا، واقف على جسر، يبكي محتجًا بينما سائق وحشي يجلد فرسه حتى الموت، مصممًا على أن له الحق في معاملة الحيوان كيفما يشاء. يهز الحلم مشاعر راسكولنيكوف، ويجعله يتعاطف مع

الضحية لا مع الجلال. ومع ذلك، يعود إلى خطته المروعة.

بعد ارتكابه لجريمتة والاعتراف بها، وبينما كان يرقد مريضاً على سرير السجن، يحلم راسكولنيكوف أن العالم قد وقع ضحية طاعون مريع تسببه سلالة جديدة من الديدان الشعرية المُعدية، التي هي في الحقيقة أرواح لها وعيها الخاص. يصبح المصابون بالطاعون مجانين، ومع ذلك يعتقدون أنهم اكتشفوا أسرار العلم والحياة ذاتها. وفي عالم مجنون، يبدأ البشر يلتهمون بعضهم بعضاً. وفي نهاية المطاف، سيموت الجميع، ما عدا قلة احتفظت بعقلها وستبدأ من جديد تجربة الإنسانية.

هنا يرتجل دوستويفسكي على واحد من موضوعاته المفضلة؛ أن الأفكار والخيالات، بمجرد أن تتجسد كأشكال فكرية أو كائنات خيالية، تكتسب حياةً مستقلة، وقد تنقلب على خالقها وعلى الآخرين. هذه الفكرة تظل شديدة الصلة بحالتنا المعاصرة.

إزالة الأطر

كان ألكسي ريميزوف (1877-1957)، الكاتب الحداثي الروسي غزير الإنتاج، مدفوعاً بالأحلام. كانت أحلامه محركه الإبداعي، وموطنه العقلي الرئيس، ووسيلته الأدبية الأساسية. لا يمكنني أن أجد سوى قلة من الكتّاب - حتى ضمن التاريخ الأدبي الروسي المغمور بالأحلام - ممن اندمجوا مع عالم الأحلام بشغف كما فعل ريميزوف.

أسرَ الفولكلور وأساطير العصور الوسطى خيال ريميزوف الشاب، وأخذ يهيم في كتاباته الأقل جودة وسط غابات عجيبة من الأشكال الخيالية. شارك حينها كان شاباً رومانسياً في مؤامرة ثورية، فاعتقلته الشرطة السرية القيصريّة، ونُفِيَ إلى سيبيريا لمدة سبع سنوات. لكن تجاربه خلال الثورة البلشفية عاجلته من أوهام الثورة، لينتقل إلى باريس عام 1921 ويقضي بقية حياته هناك.

كثيراً ما يُقَارَن ريميزوف بالسراليين الذين تعرف عليهم في باريس، بل وظهر

بعضهم في أحلامه. لكنه احتقر ممارستهم للكتابة التلقائية، مؤكداً: «يجب أن نأخذ من تيار الكلمات وفق إرادتنا، لا وفق ما يأتي تلقائياً». كان يستقيج تأثير كل من فرويد وماركس في تفكير أندريه بريتون، واستاء بشدة من تبني الحركة السريالية للشيوعية السوفيتية، لا سيما حين نشرت مجلة السرياليين تأييداً متزلفاً لزعيم الشرطة السرية السوفيتية ديزيرجينسكي، افتتحته بهذه العبارة: «واَحْسرَّناه، في سماء بعيدة، انطفأ إلى الأبد بريق نجم.»⁽²⁶⁷⁾ والأهم من كل ذلك، سبق ريميزوف السرياليين في استخدام الأحلام كنصوص أدبية، وأخذ الأحلام بجدية أعمق بكثير.

كان غوغول الكاتب الذي أثر فيه أكثر من غيره. كرّس نصف كتابه «نار الأشياء»، الذي يتناول الكتابة الحلمية الروسية، لغوغول، الذي اعتبره المنبع الأول. ألهمه مثال تورغينيف أن يطور تقنيته الأكثر تميزاً؛ تحويل كتاباته عن أحلامه إلى قصص أو قصائد نثرية مع الحد الأدنى من التحرير. عندما كان تورغينيف يفعل ذلك، كان غالباً ما يحتفظ بالإطار، مبتدئاً القصة بعبارة «حُلُمْتُ» ومنهياً إياها بـ «استيقظت».

أما ريميزوف، فقد انتزع الأحلام من إطارها، وقدمها كقصص عن تجارب حقيقية. استخدم 340 حلماً من أحلامه الشخصية في كتبه. وضم مئة منها في كتاب عن الأحلام بعنوان «مارتين زاديك»، مستعيراً عنوانه من مفسر الأحلام في الرواية الشعرية «يفغيني أونيجين». نهج ريميزوف في التعامل مع الأحلام لا يشبه التحليل النفسي، الذي يسعى دوماً وراء المعاني «الكامنة» متجاهلاً المحتوى «الظاهر». عند ريميزوف، كانت الكتابة المستندة إلى الأحلام تدور حول استحضار التجربة الغنية المتعددة الحواس لعالم الحلم؛ الرائحة والطعم والملمس والموسيقى. العمل على الحلم لم يكن يتعلق بكشف معنى خفي، بل بإعطاء صوت دقيق ومتناغم لما هو موجود أمامك. «إنه لفن عظيم أن تعطي الحلم صوتاً.»⁽²⁶⁸⁾

كان ريميزوف غالباً ما يحلم بالمستقبل. وزعم أن أحلامه كانت تعطيه تقارير موثوقة تماماً عن حالة الطقس. فعلى سبيل المثال، كلما حُلُمَ بأستاذ يحمل اسمه تشابهاً لفظياً مع

(267) La Révolution Surréaliste 8 (1925): 15.

(268) Natalia Kodrianskaya, Aleksei Remizov (Paris, n.p., 1959), p. 41.

الفعل الروسي موتشيت (الذي يعني أن يبلل أو يغمر)، كان يعرف أن المطر قادم. كما لاحظ أن لمحات المستقبل التي يراها في أحلامه غالبًا ما كانت تتعلق بأمور تافهة، مثل رؤيته لتوأمتين جميلتين ظهرتا في مترو باريس في اليوم التالي.

لم يؤمن ريميزوف فحسب بأن اللقاءات الخُلُمِيَّة مع الأموات حقيقية، بل ذهب إلى أن الأحياء يمكنهم، من خلال الحديث مع الأموات، أن «يؤثروا في مصيرهم» أيضًا.⁽²⁶⁹⁾ ومع أنه لا يصرح بذلك صراحةً، يبدو وكأنه يقترب هنا من تأكيد ييتس على أن للأحياء القدرة على «مساعدة خيال الأموات». ⁽²⁷⁰⁾ تصور ريميزوف لعالم ما بعد الموت، كما بناه عبر أحلامه، بالغ الإثارة. فهو يصوّر الحياة بعد الموت على أنها حلم متواصل، يتوافق محتواه مع الأفكار التي كان يحملها الحلم قبل رحيله. وما يحدث بعد زوال هذه الأفكار المسبقة سيعتمد على التطور الشخصي والشجاعة والخيال. فالروح قد «تطير كشرارة نحو محيط» الاتحاد الصوفي مع الواحد الذي يتجاوز الأشكال. أو قد ينجرف الميت عائداً إلى دورة باهتة من الأنشطة المألوفة، مثل «ترقيع الجوارب» أو مجرد «مواصلة الأعمال القديمة».

عندما كان ريميزوف يعيش في سانت بطرسبرغ، كان لديه أريكة للأحلام. وادعى أنه، ما إن يتمدد عليها، يرى أحلامًا واضحةً مذهشة. وخلال حياته، اعتاد أن يحتفظ بقلم وورقة بجانبه ليدوّن أحلامه كلما استيقظ من النوم. وقد صرح قائلاً: «ليلة بلا حلم أشبه عندي بيوم مهدور». ⁽²⁷¹⁾

لم يرَ ريميزوف الأحلام كهروب ليلي إلى عالم الخيال أو كخليط مسموم من اللاوعي الفرويدي، بل كحيز حقيقي للتجربة يمتد إلى مناطق لا يصل إليها الذهن العادي. ويقول: «الحياة لا تقتصر على أحداث اليوم أو الواقع ثلاثي الأبعاد، بل تتواصل عبر تعددية أبعاد الأحلام، التي لها وجود وقيمة بنفس قدر وجود وقيمة عالم اليقظة». ⁽²⁷²⁾

(269) Ibid.

(270) W. B. Yeats, *A Vision* (London: Macmillan, 1937), p. 221.

(271) Aleksei Remizov, Martyn Zadeka: Sonnik (Paris: Oplshnik, 1954), p. 3. Quoted in Adrian Wanner, "Aleksei Remizov's Dreams," *Russian Review* 58 (October 1999): 599–614.

(272) Ibid., p. 98, quoted in Wanner, "Aleksei Remizov's Dreams."

بالنسبة له، لم تكن الكتابة انطلاقاً من الأحلام - كما أصبحت عند السرياليين - مجرد نزوة عابرة، بل كانت نداءً حيويًا طويل الأمد، وشغفًا دائمًا.

انتقام الخيال

أجبرت الثورة البلشفية وصعود الدولة الشمولية الأحلام على أن تتوارى. باتت الملاذات الآمنة للكتابة عن الأحلام - أو انطلاقاً منها - محصورة في دراسات الفولكلور والفن الشعبي المدعومة من الدولة، أو في أدب الخيال العلمي الذي يستطيع أن يضع القارئ داخل حلم دون أن يحتاج إلى إطار واضح.

ماذا يحدث عندما يتوارى الخيال؟

تصف الكاتبة الروسية الأمريكية أولغا غروشين ببراعة في روايتها «الحياة الحلمية لسوخانوف» ثورة الخيال. البطل، وهو رسام سريالي واعد، يجمع فنه من أجل راتب كبير، وشقة ضخمة، وسائق خاص في أثناء عمله موظفًا بيروقراطيًا في الفن. لكن خياله المدفون ينتقم منه، فيخلق حالات شذوذ شبيهة بالأحلام في عالمه اليومي، حتى ينهار ذلك العالم، وتنهار معه القيم الزائفة التي غرسها فيه.

مطبخ الأحلام ومكتبة السحر

من منظور المبدعين، يتمحور الحلم حول بناء حيز تخيلي، أستوديو ذهني تتشكل فيه الأفكار بسهولة. قصة الأختين برونتي تقدم مثالاً رائعاً عن الكيفية التي يعمل بها هذا في حياة الكتاب المبدعين. قبل أن تتمكن حتى من التهجئة أو الكتابة السليمة، كانت شارلوت وإميلي برونتي تروي إحداهما للأخرى القصص وتؤلفان مسرحيات صغيرة لتمثيلها سويًا. استعارتا جنوداً لعبة من شقيقهما برانويل لإنشاء مسرح دائري مصغر، حيث راقبتا تطور شخصياتهما وحركات قصصهما. مع تقدّمهما في السن، واصلتا تبادل المخطوطات المكتوبة بخط صغير متعمد، لا تستطيع أعين البالغين قراءته بسهولة. وعندما صارتا بالغتين، حافظتا على قدرة الطفل على الانزلاق بسهولة إلى حيز يتجاوز

حدود العالم العادي. وكان من حسن طالعهما أن وجدت إحداهما دعم الأخرى. (273)

في أحلامي الليلية، غالبًا ما يكون مكان الإبداع مطبخًا. أنا لا أطبخ كثيرًا، لكنني أحب صورة المطبخ - حيث نطعم ونغذى ونمزج ونخبز - كمركز للخلق والإبداع. أحب بخاصة أن أتخيل العملية الإبداعية أشبه بالخَبز: تجمع عجنتك الأولية، ثم تعجنها - تفردّها، وتفصلها، ثم تعيد جمعها، ثم تتركها تحتمر، إن كانت ستختمر، ثم تعرضها للنار، وأخيرًا، يأتي الاختبار: كيف هو طعمها؟ أعرف من حالة مطبخي الخُلّمي مدى تقدم مشروعي الإبداعي أو تعثره.

في الأحلام وحالات الشرود، كثيرًا ما أجد نفسي أنزلق إلى ذلك «العالم الصغير» الذي كان آل برونتي - وكثيرون منا ممن لا يزالون على صلة بطفولهم الداخلي - يعتبرونه موطنًا لهم.

كثيرًا ما أحلم بأنني أنظر إلى ديوراما (عَرَض لنماذج في وضع يُحاكي وضعها الطبيعي) حيث يُجسّد جنود لعبة، كما كنت أنشرهم لخوض «حروب صغيرة» على أرض غرفتي عندما كنت صبيًا. ثم ألاحظ أن الشخصيات الصغيرة حية، تتحرك بإرادتها الخاصة - بل ولم تعد جميعها ترتدي الزي العسكري. عند هذه النقطة، يمكنني أن أختار أن أصغّر حجمي إلى حجمهم، وأدخل عالمهم بالكامل. أو يمكنني أن أختار أن أظل مراقبًا غير مرئي، أو أن أؤدي دورًا وأصبح مشاركًا في أحداثهم الدرامية. أحتفظ بمجموعة مختارة من جنود الألعاب والتماثيل المصغرة - من فارس معركة أجينكور إلى قائد روماني وفهود صيد نظام حيدر آباد - على مكتبي، لإرضاء الجانب الطفولي من روحي وتذكير نفسي بالأماكن التي يمكنها الذهاب إليها.

لكن مكاني الخيالي المفضل للإلهام الإبداعي وتطوير الأفكار هو مكتبة الأحلام. يمكنك أن تدخل هذا المكان عبر النوع المناسب من نوبات القراءة المكثفة. على سبيل المثال، كان كولريدج يقرأ عددًا هائلًا من الكتب. لدينا الفكرة الرومانسية بأن قصائده وُلدت كاملةً على جناح حلم يغذيه الأفيون، وربما يكون هذا ما حدث مع كوبلا خان،

قبل أن يقاطعه «أناس من بورلوك»⁽²⁷⁴⁾ ولكن، رحلته إلى زانادو (أي الرحلة التحضيرية لتحفيز الإبداع والخيال) تضمنت وقتاً في المكتبات؛ إذ كان طريقه الإبداعي دوماً يتضمن «حفلات قراءة» ضخمة. بعيداً عن الاقتباسات المباشرة - كاستعارة مشهد من رواية «مُخَضَّر الأرواح»، من تأليف فريدريش شيلر، لافتتاح قصيدة «البحار العجوز» - كان لكولريدج قدرة رائعة على تحويل ما قرأه إلى مادة أولية للتحويل السحري.⁽²⁷⁵⁾

نتقلنا الأعمال التي تثير الخيال إلى حيز مختلف وحالة ذهنية تشبه الحلم الواعي. غالباً ما تُفتح أبواب مكتبة الأحلام في الأحلام ذاتها. حلمت امرأة أن بيتها يحتوي على طابق إضافي، به غرفة تحوي موسوعة خاصة بها، يمكنها أن تبحث فيها عن أي شيء تحتاج معرفته. إذا حلمت بحلم كهذا، فقد حصلت على بطاقة مكتبة ومفتاح عبور يمكنك من الدخول في أي وقت. يمكنك الولوج إلى مكتبة أحلامك بمجرد استحضار المشهد من حلمك، والتوجه بنية صافية لاكتشاف المزيد داخل هذا الحيز.

في مكتبة الأحلام، نلتقي أحياناً بمعلمين عظماء، بل ونغوص في عوالم خيالهم الساحرة. خلال زيارتي لتلك المكتبة، ظهر لي ويليام بتلر بيتس ليعلمني أسرار الرؤية الباطنية التي لم أكن أفقها من قبل. كما اطلعني وينستون تشرشل - في صورة محتملة له - على روايات الخيال العلمي التي كان يكتبها، محاولةً لإرضاء إتش جي ويلز محتمل، بعدما تخلى عن قيادة الأمم.

إذا كنت كاتباً، يمكنك ألا تجد فقط مادة عظيمة في مكتبة الأحلام، بل قد تتمكن أحياناً من قراءة الكتب أو القصص أو السيناريوهات التي لم تكتبها بعد! أعرف مؤلفة أغاني ومغنية تذهب إلى نسختها الخاصة من مكتبة الأحلام - وهي نوع من مدارس الموسيقى - لتعزف أقرصاً مدمجة لم تسجلها بعد، وتحصل على تدريب من مغنية شهيرة

(274) Samuel Taylor Coleridge, The Major Works (Oxford: Oxford University Press, 1985), p. 102.

(275) Norman Fruman, Coleridge, the Damaged Archangel (New York: George Braziller, 1971).

من الماضي. وأعرف مصمم قوارب أعاد تصميم هيكل يخت سباق بعد أن راجع كتابًا في مكتبة أحلامه، ومهندس حدائق أعاد تصميم عقار في هامبتونز بعد لقاء في مكتبة الأحلام مع معماري ادّعى أنه إننيغو جونز. أما بالنسبة إلى العالم الحائز على نوبل وولفغانغ باولي، الرائد في ميكانيكا الكم، فقد كانت مكتبة الأحلام هي «المختبر السري» الذي اكتشف فيه أفكاره الرائدة واختبرها لأول مرة.

الفصل السادس

كيف تساعدنا الأحلام على تجاوز الصعاب

في زمن بدأت فيه العواطف تسيطر على شؤون البشر وتوجهها، ينبغي أن نهتم بما يشغل خيال الحالمين أكثر من اهتمامنا بما يفكر فيه أصحاب الخبرة والحس السليم.

— أليكسي دي توكفيل، كتاب «الديمقراطية في أمريكا»

أفضل الأغاني هي تلك التي ترد على خاطرك في منتصف الليل، فتحملك على الاستيقاظ من أجل تدوينها، حتى يتسنى لك العودة إلى النوم من جديد.

— جون لينون

يستكشف هذا الفصل أحد الموضوعات الرئيسة في هذا الكتاب — وهو أن الأحلام، على مر التاريخ، ساعدت البشر على تجاوز تحديات الحياة — وذلك من خلال ست نوافذ. أولاً، قد يرغب قادتنا السياسيون المعاصرون في إيضاح أن الآباء المؤسسين كانوا حالمين من نواحٍ متعددة؛ فقد تبادل جون آدامز وبنجامين راش الأحلام، وساعد حلمٌ ما على استعادة الصداقة بين الرئيسين الثاني والثالث للولايات المتحدة بعد خلاف سياسي. وثانياً، سنكتشف أن الأحلام ذات تأثير عملي ولها القدرة على تغيير العالم؛ ومثال على ذلك أن حلماً مدعماً بتفسيرٍ صحيح، وتبعه فعلٌ صحيح، أدى مباشرةً إلى واحدةٍ من أكبر عمليات استخراج النفط في التاريخ، مُغيّراً بذلك تاريخ الشرق الأوسط والعالم. وثالثاً، سنتعلم كيف يتشارك الأفراد أحلامهم في كل منزل تقريباً في إحدى الدول الأوروبية الحديثة، وكيف يستخدمها المزارعون لمعرفة أحوال الطقس،

ويستخدمها الصيادون للعثور على الأسماك. ورابعًا، سننظر في كيفية إثراء الأحلام لخيال ملحن موسيقى الروك وفنانها. وخامسًا، سندرس كيف يؤدي الرياضيون والمدربون الرياضيون تدريبات ذهنية للتحضير لحدث ما. وأخيرًا، سنستكشف دور الأحلام – وفوق كل شيء القدرة على ولوج عالم الخيال – في تاريخ الإبداع العلمي.

الحلم مع الآباء المؤسسين

تعد الصداقة بين الدكتور بنجامين راش من فيلادلفيا وجون آدامز، الرئيس الثاني للولايات المتحدة، مثالًا رائعًا، بل ومؤثرًا في بعض الأحيان، على ما يعنيه أن يخوض المرء غمار الحياة بصحبة رفيق حقيقي للعقل والروح. كانا معًا في الكونجرس القاري؛ ووقع كلاهما إعلان الاستقلال؛ وأسهم خيالهما في صياغة نظام سياسي جديد؛ وتجاوزا العواصف السياسية والمحن المريعة. كانت هذه أيضًا صداقة رائعة عن طريق المراسلة. فقد تبادل آدامز وراش المراسلات بحميمية وحيوية استثنائية؛ وقالت زوجة الطبيب إنها كانا يتبادلان الرسائل «كطفلتين صغيرتين عن حبيبيهما».⁽²⁷⁶⁾ كان لدى آدامز «قلب مجبول على الصداقة»، وقد باح بمكنونات قلبه للطبيب دون تردد.⁽²⁷⁷⁾

بصفته طبيبًا وأخصائيًا نفسيًا رائدًا، دوّن راش أحلام مرضاه واستخدمها في التشخيص. منذ رحلاته الأولى إلى أوروبا قبل الثورة الأمريكية، كان مهتمًا بشدة بأحلام الإدراك المسبق أو الأحلام الاستبصارية. وقد اكتسب عادة تدوين أحلامه طوال حياته. وخلال زيارته لمنزل جون وأبيجيل آدامز في ماساتشوستس، علم راش أن آدامز أيضًا كان مهتمًا جدًا بالأحلام. اقترح راش أن يتبادلا الأحلام، فوافق آدامز على أن يبادل راش «حلمًا بحلم».⁽²⁷⁸⁾ وشرعا في تبادل الأحلام بطريقة كانت – ولا تزال – غير مألوفة لدى الرجال البيض ذوي النفوذ والسلطة في أمريكا.

(276) Miriam Elson, "John Adams and Benjamin Rush Exchange Dreams," *Progress in Self Psychology* 19 (2003): 272.

(277) David McCullough, *John Adams* (New York: Simon & Schuster, 2001), p. 47.

(278) Joseph J. Ellis, *Passionate Sage: The Character and Legacy of John Adams* (New York: Norton, 1993), p. 214.

شارك راش ما يبدو أنه حلم يُنذر بتضخم الأنا. رأى رجلًا على قمة برج كنيسة، يريد تغيير الطقس لكن دون جدوى. أعلن في حلمه: «هذا الرجل مجنون بالتأكيد.» ثم هبطت شخصية مجنحة مثل ميركوري، مُلوّحة بلافتة عليها نقش لاتيني يقول De te fabula narrator (وهي عبارة تعني «هذه القصة تُروى عنك»); ما يجعل من المستحيل إغفال حقيقة أن الحلم يُمثل مرآة لمواقف الحالم وسلوكه. (279)

شارك آدامز، بدوره، حلمًا سياسيًا جسّد صعوبة إنشاء نظام ديمقراطي متحضر في فرنسا. في حلمه، كان أمام قصر فرساي، يحاول شرح متطلبات الديمقراطية لحشد هائل من الوحوش البرية. أُجبر على الصياح، وواجه خطر تمزيقه إربًا.

كشف راش عن حلم أصبح فيه رئيسًا واستخدم سلطته لفرض الحظر. أدى ذلك إلى عاصفة من الاحتجاجات، وأخيرًا، زيارة من عجوز حكيم نصحه بأن «إمبراطورية العادة» أقوى من «إمبراطورية العقل» ويجب احترامها. (280)

كان هذا الحلم تصحيحًا آخر لافتراضات الطيب في يقظته. فبعد أن لاحظ آثار إدمان الكحول - ونشأ في ظل عقيدة مشيخية صارمة - كان من أوائل المؤيدين للحظر، حتى جاء هذا الحلم.

استقصى آدامز وراش أحلام أحدهما الآخر بحثًا عن دليل إرشادي بشأن العديد من القضايا الأخرى، السياسية والشخصية، بما في ذلك معارضة جهود آدامز لإنشاء أسطول بحري أمريكي. الرسالة الأكثر أهمية في مراسلات آدامز-راش كانت تلك التي وقعها بنجامين راش في السادس عشر من أكتوبر عام 1809. في هذه المرحلة، كان جون آدامز وتوماس جيفرسون، الحليفان والصديقان المقربان في السابق، قد انفصلا لمدة أحد عشر عامًا بسبب الخلافات السياسية. وصف راش حلمًا أراه فيه ابنه صفحة من تاريخ الولايات المتحدة. يقول «قرأتها بسرور كبير وأرسل إليك نسخة منها.»

(279) Benjamin Rush, Letters of Benjamin Rush, ed. L. H. Butterfield (Princeton, NJ: American Philosophical Society, 1951), 2:893-894.

(280) Ibid., 2:978-979.

هذه الصفحة من تاريخ الحلم المزعوم سلطت الضوء على «تجدد الصداقة والتواصل بين السيد جون آدامز والسيد جيفرسون، الرئيسين السابقين للولايات المتحدة». أسفر ذلك عن «مراسلات استمرت عدة سنوات استعرضا فيها على نحو متبادل مشاهد العمل التي شاركا فيها»، مما أثمر دروسًا قيّمة للأجيال القادمة. ويُقال إن هذه الرسائل تحوي العديد من الحكم والأقوال الثمينة، ثمرة الملاحظة والخبرة والتأمل العميق. وأضاف: «غرق هذان الرجلان في القبر في الوقت نفسه تقريبًا»، بعد أن ظلا على قيد الحياة بعد رحيل خصومهما.⁽²⁸¹⁾

ولعلنا نشك في أن الدكتور راش، بكتابة هذه الصفحة، كان يحاول نقل الحلم بدلًا من مجرد إرسال تقرير الحلم، مستخدمًا هذا النموذج للضغط من أجل المصالحة بين الرئيسين السابقين. في الأسبوع التالي، أرسل إليه آدامز ردًا سارًا: «حلمٌ جديد! أتمنى لو أنك تحلم طوال النهار والليل، لأن حلمًا واحدًا من أحلامك يُثير حماسي لمدة شهر». ⁽²⁸²⁾ ثم أوضح بفظاظة أنه غير مستعد للمصالحة، قائلاً (على الرغم من انقضاء أحد عشر عامًا دون تواصل): «لم يحدث قط أدنى انقطاع في الصداقة الشخصية بيني وبين السيد جيفرسون». وأضاف، بغطرسةٍ لم تكن من عاداته أن «جيفرسون لم يكن سوى صبي بالنسبة إلي»، وأنه «علّمه كل ما هو جيد ومؤثر في مسيرته السياسية بأكملها». ⁽²⁸³⁾

لم يُقرّب تدخل راش المُبهم آدامز وجيفرسون من أحدهما الآخر فورًا. فقد رفض آدامز جهود راش المستمرة للعب دور صانع السلام في يوم عيد الميلاد عام 1811، وقال: «ما فائدة تبادل الرسائل بيني وبين جيفرسون؟ ليس لديّ ما أقوله له، سوى أن أتمنى له رحلةً سهلةً إلى الجنة». ⁽²⁸⁴⁾ ولكن بعد أسبوعٍ واحدٍ فقط، في يوم رأس السنة الجديدة عام 1812، كتب جون آدامز افتتاحيةً حذرةً لجيفرسون، وسارع الرئيسان

(281) John Adams and Abigail Adams, Letters of John and Abigail Adams, ed. William J. Bennett (Rochester, NY: Westvaco [private edition], 2001), pp. 104–106.

(282) Ibid., p. 107.

(283) Ibid.

(284) Ibid., p. in.

السابقان إلى المصالحة الكاملة بامتنانٍ وسرعة. تعد المراسلات بينهما على مدى السنوات التالية هبةً استثنائيةً لفهمنا لميلاد الديمقراطية في أمريكا. بعد أربعة عشر عامًا، وارهما الثرى في اليوم نفسه، بعد أن ظلا على قيد الحياة بعد رحيل معظم أعدائهما. وأعلن توماس جيفرسون وهو على فراش موته في مونتيسيلو مساء الثالث من يوليو عام 1826 قائلاً: «هذا هو الرابع من يوليو». ولما أُبلغ بأن يوم الاحتفال لم يأت بعد، عاد إلى النوم. وعندما توفي في الواحدة من ظهر الرابع من يوليو، سُمعت أجراس الكنائس تدق في تشارلوتسفيل بولاية فرجينيا، في الوادي أسفله.

بعد ساعات قليلة، وهو مستلقٍ على فراش موته في كوينسي، ماساتشوستس، وفي أثناء هبوب عاصفة رعديّة بالخارج، همس جون آدامز قائلاً: «توماس جيفرسون على قيد الحياة.» ثم توقف قلبه. وسواء كانت صفحة التاريخ المستقبلي للدكتور راش حلمًا أم خيالًا، فقد تحققت نبوءاته تمامًا. (285)

نفت الأحلام

عاش مع زوجته الكبيرة والمهيبة، فيوليت، في منزل مدهون باللونين الأزرق والأبيض يطل على الخليج العربي، مع شرفة في الطابق العلوي للاستمتاع بنسيم البحر العليل. تحت شمس الصحراء الحارقة، كان يمارس رياضة الصيد مرتديًا جوارب طويلة وسراويل تويد ريفية، وربما بدا - بمظهره الممتلئ - نموذجًا للرجل الإنجليزي الاستعماري الذي لا يندمج مع أهل مستعمرته. لكن الكولونيل هارولد ديكسون كان بعيدًا كل البعد عن الصورة النمطية. فقد وُلد فيما يُعرف الآن بسوريا، وكان بدويًا وبريطانيًا في آن واحد - في نظر أهل الصحراء آنذاك - منذ أن رضع من ثدي مرضعة بدوية. ومع ترقيه في مناصب الخدمة المدنية الاستعمارية، ليصبح مندوبًا سياسيًا بريطانيًا في الكويت من عام 1929 إلى عام 1936، كان يصطاد مع البدو، ويقدم لهم الاستشارات في أثناء احتساء أكواب لا تُحصى من القهوة بنكهة الهيل، ويحلم مثلهم.

في مناسبتين على الأقل قبل تقاعده، أطلع ديكسون شيخ الكويت على حلمين تنبؤيين. أُنذر أحد تلك الأحلام بكارثة طبيعية ستدمر جزءاً كبيراً من العاصمة لكنها ستثمر عن خير وفير. وتحقق الحلم عندما جرفت عاصفة وفيضان آلاف المنازل المبنية من الطوب اللبن، ثم أزهرت الصحراء. وفي الحلم الثاني، تنبأ ديكسون بمحاولة اغتيال ملك عربي. وعندما وقعت محاولة الاغتيال، تأكدت براعته كحالم تنبؤي. «اندھش الشيخ العربي أكثر، وروى قصتي للعديد من أصدقائه. انتشرت القصة وارتفعت أسهمي بشكل ملحوظ عند العرب. لا تزال أحلامي تحظى بالاهتمام المناسب، لكنني حريص على عدم الإفصاح عن الكثير.»⁽²⁸⁶⁾

حُث الشيخ على البقاء بعد تقاعده من الخدمة الاستعمارية، واستمر في العيش والأحلام في منزله ذي اللونين الأزرق والأبيض كممثل محلي رئيسي لشركة نفط الكويت.

في سبتمبر عام 1937، كانت شركة نفط الكويت تحفر في منطقة نائية تُدعى بحرة، ولم يكن العمل يسير على ما يرام. لقد حفروا أعمق مما كانوا يعتزمون، ولم يجدوا أي أثر للنفط.

في ذلك الشهر، حلم ديكسون أنه وزوجته يعيشان في كوخ بمعسكر نفطي في قلب الصحراء. لم يكن هناك شيء ينمو في المشهد سوى شجرة سدر عتيقة ضخمة بالقرب من المنزل. هبت ريح عاتية بعاصفة رملية عنيفة على نحو استثنائي. هزّت المنزل، وجعلت حبيبات الرمل في الهواء التنفس صعباً. وعندما هدأت العاصفة، خرج ديكسون ورأى أن العاصفة قد أحدثت تجويفاً كبيراً تحت الشجرة. نظر إلى ما بدا أنه قبر قديم. كان هناك شخص ممدد ملفوف بقطعة قماش قطنية صفراء متعفنة وكان مستلقياً على لوح حجري. وعندما بدأ ديكسون وزوجته في نزع القماش الممزق عن رأس المومياء، فوجئا بجمال وجه الشابة الذي انكشف. كان جلدها كالرق. نادى

(286) H. R. P. Dickson, *The Arab of the Desert: A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Sau'di Arabia* (London: George Allen & Unwin, 1949), p.

ديكسون خدمه لحفر قبر جديد، لكن لدهشته، عادت المومياء إلى الحياة. أصبح جلد الرق ناعماً وأملس، وخرجت امرأة جميلة من الكفن. أخبرت آل ديكسون أنها تشعر بالبرد بعد نومها لآلاف السنين، وأنها بحاجة إلى طعام وملابس ثقيلة كي تشعر بالدفء. أعطتهم عملة نحاسية قديمة جداً. قادوها من يدها إلى المنزل، حيث غسلتها خادمتها العربية وألبستها في أثناء إعدادهم الطعام.

بعد تناول الطعام، جلست المرأة الناهضة من القبر تحت شجرة السدر. حذرت من أن «رجالاً أشراراً» سيحاولون دفنها مرة أخرى، وأن على ديكسون طلب مساعدة شيخ الكويت والحكومة البريطانية. وبينما كانت تتحدث، ظهر حشد من الرجال الغاضبين يحملون أسلحة. كان يقودهم رجل ذو لحية بيضاء «بدا كأنه فارسياً» وكان مسلحاً بسكين طويل.⁽²⁸⁷⁾ اندفع الكولونيل ديكسون للدفاع عنها، فقتل القائد بضربة وطرده الرجال الذين كانوا يحفرون قبراً جديداً، وأعاد الفتاة إلى منزله.

استيقظ ديكسون في حماس شديد، وأيقظ زوجته فيوليت، فدوّنت بعناية جميع تفاصيل حلمه. كان هذا إجراءً معتاداً في منزل ديكسون؛ فقد شعر أن هذا الحلم ينبئ بحظاً وافر.

ولكن كان من الضروري معرفة ما دار في الحلم بدقة. لذلك، استعان ديكسون بخبير محلي، امرأة بدوية تدعى أم مبارك، كانت تحظى بالاحترام كقارئة أحلام وعرافة. ربما يكون شيطان الرمال الذي فتح قبر المومياء جنياً؛ شيطاناً صحراويًا. وربما يكون أيضاً منصة حفر. غربلت أم مبارك عناصر الحلم وأعطت ديكسون رأيها. كانت المومياء التي عادت إليه الحياة وأعطته كنزاً من الأرض تُشير إلى حقل نفط رائع لم يُكتشف بعد. وكشفت الشجرة العتيقة، التي تنمو وحيدة في الصحراء، عن الموقع. رأت أم مبارك تلك الشجرة التي نجت بمفردها وسط رمال قاحلة في تلال برقان. كانت الحشود الغاضبة التي تجمعت من سكان المنطقة تعبر عن معارضتها الشديدة لعمليات استخراج النفط التي تقوم بها الشركات الغربية.⁽²⁸⁸⁾

(287) Ibid.

(288) Ibid., pp. 332–335. There is a photograph of Colonel Dickson – appearing to be half

روى ديكسون حلمه لشيخ الكويت، الذي استمع إليه باحترام كبير. ثم أخبر ديكسون مديري شركة نفط الكويت بنقل عمليات الحفر إلى برقان. اتبعت الشركة نصيحته، وفي أوائل عام 1938، عثروا على بئر نفط ضخمة. كان هذا الاكتشاف - المعروف باسم برقان رقم واحد - أحد أغنى اكتشافات النفط في التاريخ. كان بمثابة ضربة موجعة للبريطانيين في تلك الأشهر العصيبة عشية الحرب العالمية الثانية. لقد حوّل الكويت إلى دولة ثرية للغاية، ما أغرى صدام حسين، بعد أكثر من نصف قرن، بشن الغزو الذي أشعل فتيل حرب الخليج الأولى.

الحلم بزوجة؛ والسمة

ليست أيسلندا مجرد أرض جليد ونار؛ بل هي - إلى درجة تُعتبر لافتة للنظر بين المجتمعات الغربية الحديثة - بلدٌ يؤمن فيه الناس في كل مكان بالأحلام ويسترشدون بها. فقد كشف استطلاعٌ أجرته مؤسسة جالوب عام 2003، وشمل ألفًا ومائتي أيسلندي، أن 72٪ منهم وجدوا معنىً في أحلامهم ومغزىً لها، وأفاد الكثيرون أنهم يحلمون بالمستقبل ويحكون الأحلام بانتظام لعائلاتهم. وأفاد أكثر من نصف المشاركين أنهم رأوا أحلامًا واضحة. واعتقد أكثر من 70٪ أن الأحلام تحمل تبصرات فعلية بأحداث مستقبلية، وأفاد أكثر من 40٪ بتجارب شخصية مع أحلام كاشفة لأحداث مستقبلية.⁽²⁸⁹⁾ وتُميز اللغة الأيسلندية فئات حيوية من الأحلام المهمة، مثل أحلام المستقبل berdreymi ورؤى الأحلام draumspa.

يمكننا تتبع تقاليد الأحلام الأيسلندية عبر قصائد إيدا والملاحم. ففي قصص

Churchillian Brit, half Bedouin – at the sidr tree he dreamed in his later book Kuwait and Her Neighbors (London: George Allen & Unwin, 1956). The sidr is a sacred tree for Muslims because it is mentioned in the Koran four times, and it is also known for its medicinal uses. It is not related to American cedars, which are actually members of the cypress family.

(289) The 2003 Gallup survey, which posed forty questions about dreams, was designed by Dr. Björg Bjarnadóttir and her team at the Skuggsjá Dream Center in Akureyri, Iceland. Full details at <http://skuggsja.is>.

فولوسبا، حتى الكائنات الروحية العليا تلجأ إلى النساء الحكيمات طلباً للمساعدة في تفسير الأحلام. وتُعد قصة ثيري هارالدسدوتير – من الملاحم الأيسلندية – مثالاً بديعاً على الكيفية التي يُمكن أن تزيدنا بها الأحلام حكمةً وإلى أي مدى يمكن أن تُنير دروب قلوبنا. كانت ثيري (التي تكتب بالأيسلندية byri) ابنة إيرل هولشتاين. كانت حاملةً لديها تبصر عميق بطبيعة الأشياء، وكان والدها يستشيرها في جميع الأمور المهمة.

أراد جورمور، ملك الدنمارك، الزواج من ثيري فطلب يدها من والدها. قال الإيرل إنه سترك ابنته تُقرر بنفسها قائلاً: «لأنها أحكم مني بكثير». طلبت ثيري من خاطبها الملكي أن يعود إلى منزله ويبنى لنفسه منزلاً جديداً، كبيراً بما يكفي للنوم فيه، حيث لم يكن هناك منزلٌ من قبل. في هذا المكان، عليه أن ينام وحيداً لثلاث ليالٍ ويُنصت جيداً لأحلامه. ثم عليه أن يُرسل إليها رسولاً ليُخبرها بأحلامه. قالت له ثيري بحزم: «إن لم تحلم، فلا تُزعج نفسك بزيارتي مرة أخرى.» تذكر جورمور أحلامه، ويبدو أن مضمونها قد أَرْضَى ثيري، إذ وافقت على الزواج منه وأصبحت أحكم ملكات الدنمارك. ومن خلال الأحلام، ساعدت الملك على استشراف المستقبل وقراءة العوامل الحقيقية الكامنة وراء ظواهر الأحداث؛ واستندت قرارات الدولة إلى هذه الأحلام.⁽²⁹⁰⁾

يُعتبر بعض الحالمين ذوي القدرة على التنبؤ بالمستقبل من الأسماء المعروفة في أيسلندا. كان يوهانس جونسون، المزارع والراعي الذي قضى حياته في شبه جزيرة لانجانيس حتى وفاته عام 1944، يُلقب بـ «جو الحلم» لقدرته على رؤية مواقع الممتلكات المفقودة أو المسروقة أو السفن في البحر خلال أحلامه. سافر الناس مسافات طويلة للاستعانة به بوصفه عرافاً، وطرحوا عليه الأسئلة في اليقظة والنوم.⁽²⁹¹⁾

(290) The story of Thyri Haraldsdóttir is in the version of Ólafs Saga Tryggvasónar in the fourteenth-century Icelandic Flateyjarbók. While Thyri is from Holstein in Germany, her story comes to us through Icelandic tradition. I am indebted to Valgerður Hjördis Bjarnadóttir for bringing this wonderful story to my attention, and for the translation on which this summary is based.

(291) Loftur Gissurarson and William H. Swatos, Icelandic Spiritualism: Mediumship and Modernity in Iceland (New York: Transaction Publishers, 1997), pp. 197–200.

عندما فُقد لحم مدخن من علية مغلقة في مزرعة، طُلب من جو الحضور إلى المزرعة والسماح للناس بسؤاله عن السرقة أثناء نومه. قدّم جو وصفاً دقيقاً لرجل دخل إلى العلية لأن أحدهم نسي إغلاقها. وضع اللص اللحم في كيس وربطه في مؤخرة سرجه. سأل السائل: «إذن جاء اللص على ظهر حصان؟» ضحك جو قائلاً: «لو كان بإمكانك تسمية هذا حصاناً!». وعندما عُثر على اللص - بعد وصف جو - اكتُشف أن «حصانه» كان حماراً. (292)

رؤية السمكة في الحلم ليست مجرد مهارة عادية لرصد مكان الأسماك، بل هي جزء من غموض القبطان الأيسلندي، الذي يُعد شخصية بارزة، وأحياناً بطولية، في صناعة صيد الأسماك هناك. يُعرف بين طاقمه باسم «الرجل» (كالين)، ويُقدّر بقدرته الفائقة على العثور على الأسماك بوسائل فعّالة. فالقبطان، الذي يتحمل المسؤولية الكاملة عن قاربه ومساره، يجب أن يصطاد الأسماك الخفية في أعماق البحر باستخدام الخيط أو الشبكة، رغم أن البحر لا يمنحه دائماً أدلة واضحة على السطح. بعض القباطنة يصرون بصراحة أنهم يحملون بصيد وفير، بينما يحافظ آخرون على هالة من الغموض أو البراغمية الصارمة، ليعرفوا برابنة الأحلام. (293)

عزاًربان ناجحٌ كامل الرجولة - «قبطان الصيد» - مهارته في العثور على السمك، وقدرته على تحمّل أسوأ عواصف الشتاء، إلى توجيهات امرأةٍ من الجنيات أته في أحلامه وفي لقاءاتٍ ليليةٍ أخرى. وكانت مغامراته مع سيدته من الجنيات موضوع كتابٍ شهيرٍ بعنوان «المرأة عند الشلال» The Woman by the Waterfall. (294)

لم يدعِ القبطان إيجرت جيسلاسون أنه يتلقى دعماً من الجنيات، لكنه أقر بأنه مارس

(292) Águst H. Bjarnason, *Drauma-lói* (Reykjavik, n.p., 1915), pp. 113–114. I am grateful to Dr. Björg Bjarnadóttir for her generous help in locating and translating this and other accounts in Icelandic of modern dreamers cited in notes 19–23.

(293) E. Paul Durrenberger and Gísli Pýlsson, "Finding Fish: The Tactics of Icelandic Skippers," *American Ethnologist* 13, no. 2 (May 1986): 213–229.

(294) Magnus Sveinsson, *The Woman by the Waterfall: The Life of Skipper Jon Danielsson and His Relationship with an Elf Woman* [in Icelandic] (Reykjavik: Bokautgafan Þjodsaga, 1978).

القدرة على استشراق المستقبل في أحلامه منذ طفولته. وكان البحارة يتجهون إلى قاربه بفضل هذه القدرة المزعومة على العثور على السمك حين يعجز الآخرون. قال جيسلاسون: «من المؤكد أن معرفتنا المسبقة بأننا سنحظى بصيد ناجح تُسهّل كثيرًا من الحياة».

استذكر حلمًا أرشده إلى المسار الصحيح، قائلاً: «كان ذلك عندما كنت قبطانًا لأول مرة أصطاد بالخيوط. حلمت بالمسار ورأيت إبرة البوصلة تشير شرقًا إلى شمال شرق جاردسكا جي».

استيقظ وحدد المسار الذي حلم به بدقة، «وقد اصطدنا سمكًا وفيرًا. كان شعورًا رائعًا بالنسبة لي كقبطان في رحلتي الأولى أن أعود إلى الميناء بصيد كهذا».

جعل هذا القبطان من رؤية السمك في المنام تمرينًا لجميع أفراد الطاقم؛ وأولى اهتمامًا خاصًا لتقارير الأحلام من البحارة الذين أثبتوا جدارتهم في كشف الأحلام. في أحد المواسم، عندما كان معظم أسطول الصيد متجهًا غربًا، رأى أحد رجال إيجرت في حلم أن الطاقم عثر على جثة بقرة عملاقة بالقرب من قرية راوفار هوفن في الشرق. كانت البقرة مغطاة بقشور السمك، براقّة ومتألّقة بطريقة بدت جميلة. وما إن سمع القبطان إيجرت هذا الحلم حتى أبحر شرقًا على الفور، بعيدًا عن بقية أسطول الصيد. وشرع طاقمه في اصطياد سمكة هائلة بالقرب من قرية راوفار هوفن.⁽²⁹⁵⁾

قدم الكابتن إيريكور، من خفر السواحل الأيسلندي، وصفًا تفصيليًا لإرشادات الأحلام في البحر. في الليلة التي تلت إبحاره من ريكيافيك على متن زورق خفر السواحل القديم «ثور»، رأى حلمًا وجده «كثيبًا وسيئًا للغاية» حمل شعورًا بخطر وشيك. في حلمه، أعطاه رجل غريب شيئًا لم يستطع رؤيته بوضوح في البداية. وعندما دقق النظر، أدرك أنه يحمل خمسة عشر فكًا بشريًا، بدت وكأنها قد تأكلت لفترة طويلة على الشاطئ. ارتاع القبطان، فأعاد عظام الفك إلى من أعطاه، صارخًا: «لن يحدث هذا أبدًا!!»

(295) "I Am Nothing But a Sailor," Faxi (Keflavik), no. 5 (1976): 9.

ظل الحلم يطارده طيلة الرحلة. وظل يدعو الله أن يمنّ على سفينته ورجاله بالخير، بينما كان يستعد لكارثة هددت بقتل خمسة عشر شخصًا. وقبل نهاية الرحلة، تحقق الحلم جزئيًا، لكن مصيره المحتوم كان تحت السيطرة. تحطم الزورق «ثور» بفعل عاصفة عنيفة. في المحيط الهائج، تمكن خمسة عشر رجلًا من الصعود إلى قوارب النجاة، وحملوا سلام إلى الشاطئ. (296)

يشير إيريكور إلى أنه بينما ظل معنى بعض أحلامه غامضًا حتى وقعت الأحداث التي أكدتها، فإن بعضها الآخر اتضح فورًا، ولا سيما تلك التي تتعلق بصيد الأسماك. يقول: «كثيرًا ما كنتُ أحلم بالأغنام، وأشعر أنني أعرف تقريبًا مدى وفرة ما سأصطاده من أسماك في اليوم التالي. كان ذلك يعتمد على عدد الأغنام التي أشاهدها في أحلامي. كلما زاد العدد كان ذلك أفضل.» (297)

غالبًا ما يكون موضوع التواصل مع «الأشخاص المختبئين» - كما في أحلام القبطان عن المرأة القزمية - حاضرًا في الأحلام الأيسلندية. في الرواية التالية، تلقى بحارًا نصيحة صيد من «مرشد أحلام» كان يظهر بانتظام في أحلامه: «كنتُ في المضائق الشرقية مع طاقمنا وقاربنا. وصلنا قبل بدء موسم الصيد ببعض الوقت. في أحد الأيام، قبل أن يحاول أي شخص الخروج للتحقق مما إذا كانت الأسماك قد دخلت المضيق بالفعل أم لا، جددنا وحصلنا على مائة سمكة. كنا سعداء للغاية بحظنا، لذا قرر القبطان التجديف مجددًا في اليوم التالي. لطالما كان لديّ مرشد أحلام، رجل اعتاد زيارتي في أحلامي وإعطائي نصائح سديدة. في الليلة التالية، جاءني رجل أحلامي في نومي وقال: «لا فائدة من الصيد اليوم.» لم يكن لديّ خيار سوى الذهاب مع الآخرين؛ لم أشعر أنني أستطيع نقل الرسالة. اصطدنا سمكتين صغيرتين فحسب. فهمتُ أن رجل أحلامي كان لديه هذه المعرفة مُسبقًا وجاء ليُبنيهي.» (298)

لا يزال الناس الذين يعيشون بالقرب من الأرض والبحر يحلمون بضروريات

(296) G. M. Magmiss, Eiríkur Skipherra (Reykjavík, n.p., 1967).

(297) Ibid.

(298) O. Clausen, Draumspakir Íslendingar (Reykjavík: Íðunnarútgáfan, 1950), p. 96.

البقاء: الطقس، والمحاصيل، والأسماك، والثوران البركاني القادم. وفي حين أن بعض الأحلام الاستشرافية واضحة، لا تتطلب تفسيرًا، فإن بعضها الآخر يتحدث بلغة رمزية تتناسب مع أنماط الحالمين. يقدم الدكتور بيورج بيارنادوتير المثال التالي من «حالم الطقس»: حلم رجل أنه يقود خرافًا بيضاء إلى حظيرة في الوادي؛ كانت الحظيرة تتسع لأربعين خروفاً. كان يُعتقد أن هذا ينبئ بتساقط ثلوج لأكثر من شهر.⁽²⁹⁹⁾

روعة الأحلام

كتبت روزان كاش في أغنية أسمتها «العجلة»: «تتحرك الحقيقة فينا عندما نخلد إلى النوم». سيدرك العديد من الموسيقيين والملحنين ما قصدته. احتفظ بيلى جويل بدفتر ملاحظات بجانب فراشه لتدوين أفكار وكلمات الأغاني التي تخطر بباله في أحلامه. وبينما كان بول مكارتني نائمًا في غرفة علوية بلندن عام 1965، حلم أنه سمع فرقة موسيقية كلاسيكية تعزف، واستيقظ وحنًا جميلًا يدور في رأسه. عزفه على بيانو عمودي في الغرفة. يقول: «أعجبني اللحن كثيرًا، لكن لأنني حلمت به، لم أصدق أنني كتبته. فكرت: «لا، لم أكتب شيئًا كهذا من قبل». لكن اللحن كان لديّ، وكان ذلك هو الرائع في الأمر!» وعندما طمأنه زملاؤه من البيتلز بأن اللحن جديد، وجد الكلمات وسجل أغنية «بالأمس» Yesterday التي حققت رواجًا كبيرًا.⁽³⁰⁰⁾

في عالم موسيقى البوب، وصف العديد من الفنانين لقاءاتهم مع زوار أحلام – غالبًا أفراد من العائلة الراحلين أو زملاء موسيقيين – قدموا لهم النصح والإلهام. أغنية أخرى شهيرة لبول مكارتني هي أغنية «ليكن ما يكون» Let it Be، مستوحاة من زيارة والدته المتوفاة، ماري، له في المنام. كان منهكًا بسبب تعاطي المخدرات، وبدأت فرقة البيتلز تتفكك. سقط في فراشه مضطربًا، وحلم أن والدته جاءت إليه وقالت له: «لا بأس. سيكون كل شيء على ما يرام». وعندما استيقظ، دوّن هذه الكلمات لأغنية

(299) Björg Bjarnadóttir, Draumalandið (Akureyri: Skuggsjá, 2003), p. 105.

(300) Barry Miles, Paul McCartney: Many Years from Now (New York: Henry Holt, 1997).

جديدة: «الأم ماري تأتي إليّ، تنطق بكلمات الحكمة، ليكن ما يكون.»⁽³⁰¹⁾

كان جون لينون يستمد إلهامه غالبًا من الأحلام أو حالات التنويم المغناطيسي. وقد أخبر كاتب سيرته الذاتية، فريدريك سيان، أنه شعر أن أغانيه «الملهمة» عادةً ما تكون أفضل بكثير من «الأغاني التقليدية»، كما وصف العديد من الأغاني التي أنتجها هو وبول مكارتني في السنوات الأولى لفرقة البيتلز. «كتابة الأغاني التقليدية أشبه بالرسم بالأرقام.» تأتيك الأعمال الجيدة في منتصف الليل، من فضاء إبداعي، وعليك أن تستيقظ وتدونها.⁽³⁰²⁾

كيف أنقذت الأحلام جوني كاش

فقد جوني كاش شقيقه الأكبر الحبيب، جاك، في حادث مروع في منشرة عندما كانا مرافقين. وطيلة حياته، كان كاش يتلقى زيارات من أخيه الراحل في المنام؛ الذي بدا وكأنه يكبر من زيارة لأخرى، تمامًا كما كان سيفعل في الحياة العادية، والذي برز كواعظ وشيخ حكيم كما كان يطمح أن يكون. كان شقيق كاش غالبًا ما يظهر في لحظات التحدي، وكانت ابتسامته الثابتة ترشد جوني إلى التفكير في خياراته بعناية فائقة.

كتب كاش عن هذا في سيرته الذاتية قائلًا: «جاك يأتي إليّ شخصيًا. يظهر في أحلامي كل شهرين تقريبًا، وأحيانًا أكثر، منذ وفاته، وهو يسأليني في كل شيء.» كان جاك يبدو دائمًا أكبر من جوني بستين. في الأحلام، كان «واعظًا، كما أراد أن يكون»، يقدم حكمة عملية.⁽³⁰³⁾

مع أن صعود جوني كاش في عالم موسيقى الكانتري كان مذهلًا، إلا أن حياته كانت كثيفة وقاسية. فبسبب أنه كان عالقًا في زواج مبكر بلا حب، وحيدًا في المنزل وعلى الطريق، أصبح مدمنًا على الأمفيتامينات. أنقذه أمران: جون كارتر وأحلامه. كانت

(301) Ibid., p. 20. Also Bob Spitz, The Beatles (New York: Little, Brown, 2005), pp. 73–76.

(302) Frederic Seaman, The Last Days of John Lennon (New York: Random House, 1996), p. 171.

(303) Johnny Cash, Cash: The Autobiography (New York: HarperOne, 2003), p. 29.

جون كارتر مغنية وكاتبة أغاني موهوبة. كانت أيضًا امرأة ذات معتقدات دينية عميقة، ومع نمو الحب بين الزوجين أثناء جولاتها معًا، وجدت نفسها تتخبط في صراع شخصي رهيب، بين الشغف والجحيم. من عذابها، ألّفت أغنية بعنوان «حلقة النار» Ring of Fire. كانت في حيرة شديدة بشأن الأغنية لدرجة أنها سلمتها لجوني ليسجلها؛ في وقتٍ كانت مسيرته الفنية تتدهور وكان في أمس الحاجة إلى أغنية ناجحة. (304)

في الليلة التي سبقت تسجيله لأغنية «حلقة النار»، حلم جوني أنه سمع نفسه يغني الأغنية بتوزيع لم يسمعه من قبل. «أبواق مصارعة الثيران المكسيكية» (305) أكسبت الأغنية نغماً نحاسياً أضاف نطاقاً جديداً تماماً من المشاعر.

لم يُسمع شيء كهذا من قبل في موسيقى الكانتري، التي كانت لا تزال متشددة في تقليد يستبعد الأبواق والمزامير وحتى الطبول. ولكن عندما شارك جوني حلمه مع منتج الجديده، أدرك جاك كليمنت على الفور أن إدخال أبواق المارياتشي يمكن أن يمنح الألبوم الجديد طابعاً إبداعياً مثيراً للغاية. وحققت أغنية «حلقة النار»، مع جوقه البوق، نجاحاً ساحقاً وصنعت من جوني كاش نجماً.

واصل كاش تعقب أحلامه حتى نهاية حياته. حلم أنه اتصل بالملكة إليزابيث، فقالت له إنه «مثل شجرة شوك في زوبعة». طارده هذه العبارة، ودفعته للتفكير في آيات من الكتاب المقدس، وفي النهاية، أثمرت أغنيته الناجحة «ويعود الرجل». (306)

الحلم الذي ربما كان لينقذ فرقة لينرد سكاينرد

تعرضت فرقة الروك الجنوبية لينرد سكاينرد، المشهورة بأغنياتها الشهيرة «سويت هوم ألاباما»، لمأساة في أكتوبر 1977. ففي ظروف غامضة، نفذ وقود طائرة كونفير المستأجرة التي كانت تقل الفرقة، وتحطمت في مستنقع ليس بعيداً عن وجهتهم، باتون

(304) Steve Turner, The Man Called Cash (New York: Thomas Nelson, 2004), p. 99.

(305) Ibid.

(306) Larry King interview at www.cnn.com/TRANSCRIPTS/0211/26/lkl.00.html.

روح. لقي ستة أشخاص حتفهم في الحادث، بمن فيهم روني فان زانت، المغني الرئيسي، وعازف الجيتار، والمغني الاحتياطي، وأصيب عشرون آخرون بجروح بالغة.

كان أعضاء الفرقة قلقين بشأن حالة طائرتهم وطاقمها لبعض الوقت. شعر اثنان من أعضاء الفرقة بالقلق الشديد إلى درجة أنها حجزا تذاكر على رحلات تجارية، لكنهما قررا البقاء مع الفرقة. كان من المقرر أن تستخدم فرقة أخرى، تُدعى إيروسميث، طائرة كونفير نفسها خلال جولتها في وقت مبكر من ذلك العام. ولكن أثناء التفتيش، اتضح أن الطائرة غير آمنة، ورصد كشافو إيروسميث الطيارين وهم يدخلون الحشيش ويشربون الويسكي قبل الإقلاع مباشرة. كانت إيروسميث على دراية تامة بما يحدثه التسمم من تأثير في الأداء، فغيرت الفرقة خططها.

كان من الممكن تجنب مأساة لينرد سكاينرد لو رُوعي تحذير محدد للغاية جاءه من خلال حلم. كان هذا التحذير من جوجو بيلينجسلي، إحدى المغنيات الثلاث الاحتياطيات للفرقة، والمعروفة باسم «ذا هونكيتس». أثناء إقامتها في منزل والديها في ميسيسيبي قبل وقت قصير من الحادث، حلمت جوجو بسقوط طائرة الفرقة. تقول: «رأيت الطائرة ترتطم بالأرض. رأيتهم يصرخون ويبكون، ورأيت نارا». استيقظت من هذا الحلم وهي تصرخ. حاولت والدتها تهدئتها قائلةً لها إنه «مجرد حلم». لم تستطع جوجو التخلص من شعورها بالرعب. شعرت بحاجة ملحة إلى إيصال تحذير إلى الفرقة. بدأت بإجراء مكالمات هاتفية محمومة للموسيقين ومديري الفرق تتوسل إليهم ألا يستقلوا الطائرة.

أخذت الفرقة تحذيرها على محمل الجد بما يكفي لإجراء تصويت على ما يجب فعله. قررت الأغلبية «السفر إلى باتون روج والانتقال إلى طائرة أخرى». وبالطبع، لم يصلوا إلى باتون روج قط. وبسبب شعورها بالذنب لكونها ناجية، وتعرضها لاتهامات غريبة، لم تُقدم جوجو أي عزف لمدة سبع سنوات بعد الحادث. أصبحت متدينة للغاية. ووافقت على الغناء في حفل إدخال فرقة لينرد سكاينرد إلى قاعة مشاهير الروك آند

ومن المفارقات أن مساعدة الأحلام كانت شيئاً مألوفاً لدى أعضاء فرقة لينرد سكاينرد. فقد جاءت أغنيتهم الأشهر، «سويت هوم ألاباما»، إلى عازف الجيتار إد كينج في المنام، مع الأوتار وعزفين منفردين رائعين على الجيتار. بل إنهم استخدموا هذه الحقيقة لإقناع المنتجين بترك الأغنية كما سُجلت في الأصل تماماً؛ ونجحوا، كما يتذكر كينج، بفضل «التصوف الجنوبي» جزئياً. (308) غادر كينج الفرقة عام 1975 وحل محله ستيف جاينز. وهما يتشاركان في يوم الميلاد نفسه. قُتل جاينز في الحادث؛ أما كينج فحيّ يرزق.

حلم بأغنية «الفتاة الغامضة»

وصف بونو، عضو فرقة «يو تو»، كيف أن أغنية «الفتاة الغامضة» *Mystery Girl* جاءت من حلم أعقبته مصادفة عجيبة. في حالة من التوتر قبل حفل كبير في ملعب ويمبلي، لم يستطع النوم وظل مستيقظاً معظم الليل مع تسجيل لموسيقى فيلم «المحمل الأزرق» *Blue Velvet* لديفيد لينش يُعيد تشغيله مراراً وتكراراً على أنغام أغنية روي أوربيسون «في الأحلام» *In Dreams*.

أخيراً، غفا بونو، واستيقظ وأغنية تدور في رأسه. كانت تحمل شيئاً من ذوق روي أوربيسون، وكان انطباعه الأول أنها مجرد أغنية أخرى له. خطرت له فكرة أن الأغنية جديدة، أغنية لحنها أثناء نومه. كانت عن «فتاة غامضة».

عزفها للفرقة أثناء اختبار الصوت، وقد أعجبهم. وبعد الحفل الكبير مباشرة، جلس مع جيتاره، عازماً على إنهاء الأغنية الجديدة. في تلك اللحظة، سُمع طرق على الباب، وقال حارس شخصي لبونو: «روي أوربيسون وزوجته بالخارج؛ يودان

(307) Rich Everitt, *Falling Stars: Air Crashes That Filled Rock and Roll Heaven* (Boyne City, MI: Harbor House, 2004); Jojo Billingsley interviews at www.swampland.com/articles/view/swampland90 and www.downsouthjukin.com/jojo_billingsley_interview_with.htm.

(308) See www.gibson.com/en-us/Lifestyle/Features/LynyrdSkynyrdEdKing/.

مقابلتك». كان بونو وفرقته في حالة من الذهول. لم يكونوا يعلمون بوجود أوربيسون في الحفل.

سأل أوربيسون بونو إن كان لديه أغنية له. كان بونو سعيداً للغاية؛ فقد أحب صوت روي أوربيسون الملائكي. كان التوقيت مثاليًا بالطبع: فقد كانت لدى بونو الأغنية المثالية، هبة حلم برمجته جزئيًا أغنية أوربيسون «في الأحلام». ثم بعد ذلك بوقت قصير، سجل روي أوربيسون أغنية «الفتاة الغامضة»، وهي أغنية جميلة تناسب صوته تمامًا وتحمل عناصر من أسلوبه المميز، إلى جانب لمسة من روح فرقة «يو تو». صدر ألبوم أوربيسون «الفتاة الغامضة» بعد وفاته، وكاد أن يتصدر قوائم أغاني البوب. شارك بونو الفضل في الكتابة مع فرقة «ذا إيدج» (الاسم الاحترافي لعازف جيتار فرقة «يو تو»). ويتذكر بونو أن الفرقة ظنت أن «بداخلي سحراً».⁽³⁰⁹⁾

رحمانينوف يُعطي درسًا في العزف على البيانو

بعد أن تركنا عالم موسيقى الروك، دعونا نتأمل مثالاً رائعاً على إلهام الأحلام في حياة عازفة بيانو كلاسيكية معاصرة موهوبة. أولجا كيرن، عازفة بيانو روسية شابة رائعة وموهوبة، حازت على العديد من الجوائز العالمية، ولديها سجل موسيقي مميز. ألهمت جدتها أنا كيرن بوشكين لكتابة قصيدة حب. كانت جدتها الكبرى عازفة بيانو وصديقة لتشايكوفسكي. كما غنت على المسرح برفقة رحمانينوف، وكان جدها عازف أوبوا ولا يزال يعمل أستاذًا في أكاديمية جينيسين للموسيقى في موسكو، وهو في السادسة والثمانين من عمره. لذا، فإن كلا والديها عازفا بيانو.

في السابعة عشرة من عمرها، كانت أولجا كيرن أصغر مشاركة في مسابقة رحمانينوف الأولى للبيانو في موسكو. وكان لديها مرشدٌ مثيرٌ للاهتمام. قبل الجولة الثانية، حلمت أن رحمانينوف يعزف على البيانو بمفرده في قاعة ضخمة، ينتظرها. نظر إليها وقال: «أولجا، كنت أنتظركِ. يجب أن تعزفي لي شيئًا؛ لدينا درس الآن.» اندهشت أولجا،

(309) Bono interview in the 1999 TV movie *In Dreams: The Roy Orbison story*, directed by Mark Hall.

وفكرت: «يا إلهي، إنه رحمانينوف!». وبينما كانت لا تزال مذهولة، جلست وعزفت مقطوعة من برنامج مسابقتها؛ «باركارول».

أصغى رحمانينوف باهتمام. وعندما انتهت، قال: «حسنًا. والآن سأريك كيف أعزفها.» شرع في عزف «باركارول» بأسلوبه الخاص؛ «بشكل استثنائي»، كما تذكرت أولغا، «بجفافٍ طفيف، ولكن باندفاع، بلا هوادة».

استيقظت أولغا ونادت: «أمي، أمي، رأيت رحمانينوف في منامي!» انزعجت والدتها من هذا. سألت والد أولغا إن كان يعتقد أنها تتدرب بإفراط.

ويلاه من درسها الخاص مع رحمانينوف، فازت أولغا بالمسابقة التي نُظمت باسمه. وقد صفت تدفق الطاقة الذي انبعث من الحلم بأنه «إعصار» اجتاحتها خلال الجولتين الثانية والثالثة من المسابقة.

قبل الحلم، لم تكن أولغا قد سمعت قط أداء رحمانينوف لـ «باركارول». قد يبدو هذا مفاجئًا، بالنظر إلى تاريخ عائلتها الموسيقي. لكن في عام 1992، كان مجتمع ما بعد الاتحاد السوفيتي في حالة من الفوضى، وحتى الحصول على الطعام الأساسي كان على حد وصف صديق روسي كان يعيش في بطرسبرج آنذاك - «عملًا خطيرًا». لم تكن تسجيلات رحمانينوف متاحة إلا لدى تجار القطاع الخاص بأسعار باهظة للغاية.

بعد عام من فوزها بمسابقة رحمانينوف، وبينما كانت أولغا في جولة في اليابان، تمكنت من شراء مجموعة أقراص مدججة لأعماله الكاملة. وعندما شغلت «باركارول»، وجدت أن رحمانينوف عزفها تمامًا كما عزفها في حلمها.

واصلت أولغا كيرن تكريم معلم أحلامها بعزف جميع كونشيرتو البيانو الخاص به في جولة في العديد من مدن جنوب أفريقيا وحظيت بإشادة نقدية كبيرة. وانطلقت مسيرتها الدولية بقوة بعد فوزها بالميدالية الذهبية في مسابقة «فان كلايرن» عام 2001. (310)

لو كان جون لينون قادرًا على التصرف بناءً على أحلام موته

ربما كانت أحلام جون لينون بالموت لتساعد في تجنب وفاته المأساوية لو أنه كان قادرًا على التعامل بمزيد من الاهتمام مع التحذيرات الملحة والمحددة التي كانت تُوجّه إليه. في أواخر عام 1979، انزعج لينون من حلم رأى فيه أنه يتناول العشاء في الخارج مع زوجته، يوكو أونو، واقترّب منهما رجل غريب ممتلئ الجسم يرتدي نظارة. طلب لينون من الرجل أن يثبت أنه ليس «مجنونًا»، فانزعج الرجل. حضرت الشرطة وأخبرت لينون أن الرجل الممتلئ جاء إلى المطعم مسلحًا بمسدس. شعر لينون بالضيّق لأنه لم يستطع تذكر المزيد من تفاصيل هذا الحلم.

ثم، في أوائل عام 1980، رأى لينون حلمًا مرعبًا قرأ فيه نعيه. ذكر أنه اتهم بقتل نفسه، والذي وقع بالقرب من داكوتا في سنترال بارك. أصر لينون - الجاني والضحية في الحلم - على براءته.⁽³¹¹⁾

قُتل لينون بالقرب من داكوتا على يد رجل «ممتلئ الجسم يرتدي نظارة» في الثامن من ديسمبر عام 1980. يشير انزعاج لينون من عجزه عن تذكر المزيد من تفاصيل حلم المطعم إلى أن حدسه يخبره بأن الحلم ربما احتوى على معلومات بالغة الأهمية. ويوحى حلم نعي لينون إلى حاجتنا إلى دراسة أحلامنا بعناية بحثًا عن رسائل تحذيرية مبكرة. قد يتضمن هذا تعلم قراءة لغة أحلامنا. رأى لينون القاتل على أنه هو نفسه. وبالنظر إلى هذه المعلومات، ربما يميل العديد من المحللين إلى التوصل إلى تفسير نفسي للحلم، يركز، على سبيل المثال، على صراع محتمل داخل نفسية الحالم، أو على السمة النموذجية للشبيه (أو ما يُعرف باسم دوبلجنجر). لكن الذات الثانية لجون لينون - كما نراها الآن - كانت مُعجبه المضطرب الذي تمنى أن يكون جون لينون. تماهى قاتل لينون مع ضحيته لدرجة أنه تزوج امرأة يابانية، وجمع المقتنيات الفنية كما فعل لينون، وغادر العمل في الليلة التي سبقت جريمة القتل باسم «جون لينون».

(311) Geoffrey Giuliano, Lennon in America (New York: Cooper Square Press, 2000), pp. 103,205.

يمكن للأحلام أن تُعيننا على تجاوز الصعاب، لكن أحلامنا تتطلب منا تعلم لغتها ومعرفة الإجراءات اللازمة للاسترشاد بها في حياتنا الاعتيادية.

الرياضيون والأفلام الداخلية

أصبح بيل راسل نجم كرة سلة بعد أن درّب نفسه ليكون منتجًا ونجمًا سينمائيًا؛ داخل عقله. فحركاته الأصلية الرائعة على أرض الملعب ابتكرها وتدرّب عليها في أفلامه العقلية. مكتبة سُر من قرأ

حصل راسل على الميدالية الذهبية في أولمبياد عام 1956، وفاز بجائزة أفضل لاعب خمس مرات مع فريق «بوسطن سلتيكس». عزا بلوغه الروعة كلاعب رياضي إلى «وحي غامض» أتاه وهو في السادسة عشرة من عمره في أثناء سيره في ممر المدرسة. فقد تملكه «شعور دافئ» لا يعرف مصدره؛ شعورٌ بأن قوةً أعظم تنضم إليه. تبدد شعوره بالفشل والعزلة في عالم عدائي (فقد كان بلا أم منذ أن كان في الثانية عشرة). ومع تقدمه في الحياة، كان يشعر في كثير من الأحيان بشعور قوةٍ أعظم تنضم إليه، لحظاتٍ «بدا فيها وكأن مهاراتٍ جديدة تتساقط من السماء، وشعرتُ كما لو أن لديّ عينًا جديدة أو أستخدم جزءًا جديدًا من دماغي».

بحسب روايته، كان «الحظ» هو ما جعله يُختار ضمن فريق نجوم كاليفورنيا الذي جاب شمال غرب المحيط الهادي لمدة شهر. وبينما كان يستوعب ما استطاع من اللاعبين الأكثر خبرة، عاش تجربةً فارقةً وهو جالسٌ على مقاعد البدلاء. عندما أغمض عينيه، وجد أنه لا يستطيع فقط تخيل المباراة حركةً بحركة، بل أن يدمج نفسه أيضًا في أحداثها كما لو كان اللاعب الرئيسي.

في رحلات الحافلات الطويلة، شرع في ممارسة هذا النوع من التكرار الذهني، وسرعان ما وجد أنه سهل. يقول: «بدت الأفلام التي أشاهدها في ذهني وكأنها تملك جهاز عرض خاص بها، وكلما أغمضت عيني، كان يعمل». انكب على تصور الحركات الدفاعية؛ كان يتخيل نفسه كظل راقص، يتحرك مع أي لاعب يحاول مراقبته. طبق

التقنية التي تخيلها في الملعب، وسرعان ما اشتهر بحركاته الدفاعية المبتكرة.⁽³¹²⁾

استخدمت السباحة تريسبي كولكين بروفة تخيلية للفوز بميداليتها الذهبية الثالثة في أولمبياد عام 1984. كانت لوحات اللمس الإلكترونية قد طُرحت لتحل محل ساعات التوقيت. تقيس لوحة اللمس الإلكترونية الوقت بأجزاء من ألف من الثانية، ويمكنها تحديد ما إذا كنت متقدماً أو متأخراً عن سباح آخر بفاصل زمني أقصر بأربعمائة مرة من غمضة عين. في سباقات التتابع الأولمبية، يُمنح السباح مائتي جزء من الثانية بالضبط من وقت السماح لمغادرة الحائز قبل أن يلمس زميله في الفريق الذي يسبقه لوحة اللمس. ويمكن الفوز بالسباق أو خسارته بفارق زمني ضئيل لا يمكن قياسه بالحواس البشرية العادية.

في سباق التتابع للسيدات لمسافة أربعمائة متر في دورة ألعاب 1984، تقدمت تريسبي كولكين بقفزة في جزء من مائة من الثانية قبل أن تلمس زميلتها لوحة اللمس. كانت تريسبي واحدة من أعظم سباحي العالم، لكن فوزها في ذلك السباق لم يعتمد على قمة لياقتها البدنية والتدريب الشاق فحسب؛ بل كان نابعاً من حقيقة أنها كانت تتدرب على المسابقة كل ليلة في ذهنها، وتشعر بحركات جسدها في الماء، وتخوض التجربة بكل حواسها، وتعيشها ضربةً بضربة؛ بدءاً من اللحظة التي تغادر فيها منصة الغطس قبل سباحي فرق التتابع المنافسة بجزء من مائة من الثانية.⁽³¹³⁾

كيف يحدث هذا؟ لقد كان اختصاصيو علم النفس الرياضي سباقين في إثبات أن الجسم والدماغ لا يفرقان بين الفكرة والحدث المادي. أُجريت أبحاث رائدة على متزلجين وُصلوا بأجهزة مراقبة تخطيط كهربية العضلات EMG (التي تُسجل النبضات الكهربائية المُرسلة إلى العضلات) أثناء تدريبهم ذهنياً على تزلجهم على المنحدرات. واتضح أن أدمغتهم تُرسل التعليمات نفسها إلى أجسامهم سواء كانوا يُفكِّرون في القفز أو الانعطاف أو يقفزون وينعطفون بالفعل. وهذا يُفسّر قدرة المتزلجين الأولمبيين على

(312) William F. Russell, *Second Wind: The Memoirs of an Opinionated Man* (New York: Simon & Schuster, 1991).

(313) Lynne McTaggart, *The Intention Experiment* (New York: Free Press, 2007), p. 130.

التدريب ذهنيًا على المنعطفات الصعبة التي لا يُمكن رؤيتها بوضوح بالعين المجردة في ضبابية الحركة على المنحدرات، ولكن يُمكن رؤيتها والاستعداد لها ذهنيًا.⁽³¹⁴⁾

يرتكز علم النفس الرياضي الآن على فرضية مفادها أن الجسد والعقل لا يُميزان بين الحدث الفعلي والحدث المُتخيل. ويُركّز التدريب الذهني، أو «التكييف الخفي» في الرياضة، على رؤية نفسك تُنفِّذ حركاتك خطوة بخطوة بتفاصيل دقيقة. هذا يتجاوز بكثير مجرد «تفكير إيجابي» مُبهم، ودافئ، وغامض؛ فأنت تتخيل أداءً مثاليًا، لكنك تُنفِّذ الحركات مُسبقًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

العلماء وحل المشكلات

غالبًا ما يحلّ العلماء العظماء المشكلات أثناء نومهم. ومن المعروف أن ديكارت كان يحلم أحلامًا شائقة، لكن عمله ككلّ ربما استفاد أكثر من «المزاج الإبداعي» الذي كان يجد نفسه فيه غالبًا عند استرخائه في نومه. قال كارل جاوس إنه غالبًا ما تصل إليه أفضل أفكاره فور استيقاظه. ووضع جون أبولد - مخترع مضخة الطرد المركزي - الروتين التالي: عندما يواجه مشكلة، كان يُراجع عناصرها في رأسه مرارًا وتكرارًا قبل النوم، مُبرمجًا عقله لتلك الليلة. وكان يصل عادةً إلى الحل في بداية الصباح التالي. ومن المعروف أن أينشتاين استيقظ في صباح ربيعي عام 1905 وفي رأسه عناصر نظرية النسبية الخاصة. كان قد تحدث إلى صديق في الليلة السابقة عن إحساسه القوي بأنه على وشك تحقيق إنجاز هائل، لكنه لم يكن متأكدًا بعد من ماهيته؛ فتجمعت القطع معًا في المختبر السري في تلك الليلة.

إن دور الأحلام في تاريخ الإبداع العلمي مُبالغٌ فيه ومُستهانٌ به في الوقت نفسه. فقد رُوِّجَت ادعاءاتٌ مُبالغٌ فيها حول القوة المُلهمة لأحلام النوم في الاكتشافات العلمية، وعندما فُجِّرت هذه الادعاءات، سارع المُختزلون إلى الانقضااض. على سبيل المثال، كثيرًا ما اقترح مُحبو الأحلام أن أينشتاين ونيلز بور حققا اكتشافاتهما في الأحلام،

(314) R. M. Suinn, "Imagery Rehearsal Applications in Performance Enhancement," Behavioral Therapist 8 (1985): 155–159.

ولكن (على حد علمي) لا يوجد دليل على أن مصدر إلهام أي منهما كان محتوى محددًا من أحلام النوم. ولكن عندما نُجري بحثًا مُعمَّقًا في تاريخ الاكتشافات العلمية عبر الزمن، نجد دليلًا على شيء أكثر إثارة للاهتمام. كان العديد من أعظم علمائنا حاليين بمعنى أوسع. والأهم من ذلك كله أنهم عرفوا كيفية الدخول في حالة وعي مرنة - «حالة حل» - حيث يُمكن إنشاء روابط غير مُتوقعة تتفلت من العقل العملي الاعتيادي، وحيث تطفو من الأعماق أشكال لما كان سابقًا غير قابل للتعبير، كمخلوقات من قاع المحيط.

لإيجاد أمثلة على هذه العبارات، دعونا ندرس حالة أحد أشهر «الأحلام» وأكثرها إشكالية في تاريخ العلم. إنه حلم ثعبان يعض ذيله، الذي كشف شكل حلقة البنزين للكيميائي الألماني أوجست كيكولي (1829-1896). ستجده مذكورًا في أي كتاب تقريبًا يحتوي على قصص عن الأحلام والإبداع. ولكن هل كان حلمًا في النوم أم صورة ظهرت خلال حالة وعي مختلفة قليلًا؟

كتب كيكولي رواية شخصية، أعاد فيها بناء خطاب مرتجل ألقاه في مهرجان «بنزولفست» عام 1890، بعد سنوات عديدة من رواه. ادرس هذا عن كثب، وتحقق من معنى الكلمات الألمانية، وستجد أن إدراكه الحالم لـ «رقصة» العناصر الكيميائية لم يكن حدثًا منفردًا. لقد وصف تجربة مماثلة حدثت قبل سبع سنوات من حلم الثعبان الذي أدى إلى ظهور نظريته في البنى الكيميائية. ولقد أوضح أنه - خلال السنوات الفاصلة بين الرؤيتين - طوّر ممارسة الرؤية أو التفكير عبر الصور البصرية.

في منتصف العشرينيات من عمره، عندما كان يعيش بالقرب من كلافا مومون في لندن، أمضى كيكولي أمسية صيفية طويلة يتشارك أفكاره مع صديق وزميل كيميائي كان يعيش في إزلنجتون، على الجانب الآخر من المدينة. أثناء عودته إلى منزله في الحافلة الأخيرة، انغمس كيكولي في تأملات رأى فيها الذرات «تتأمل» وترقص وتشكل بنى. أدرك، عندما حلل حركتها، أنه قد حصل على رؤى واضحة في البنى الكيميائية. حتى ذلك الوقت، لم يكن قادرًا على فهم طبيعة حركتها. «لكن الآن رأيتُ كيف تتحد ذرتان

صغیرتان - في كثير من الأحيان - لتكوين زوج؛ كيف تحتضن ذرة أكبر الذرتين الصغیرین ... بينما يستمر الكل في الدوران في رقصة دوارة. رأيتُ كيف تشكل الذرات الأكبر سلسلة، تجرّ الذرات الأصغر خلفها، ولكن فقط في نهاية السلسلة.» لقد سهر تلك الليلة يرسم هذه الأشكال المستمدة من أحلامه. كان هذا أصل نظريته عن روابط الكربون في البنى الكيميائية.

نرى ثلاثة شروط للإبداع في هذه الحادثة: الانغماس في موضوع ما، ومشاركة فكرة تتطور مع الصديق المناسب، والانجراف أو الاسترخاء في حالة تدفق، والتي تنشأ منها لحظة «يوريكا» تلقائيًا.

بعد سبع سنوات، كشف حلم أو خيال أثناء قيلولة مسائية لكيكولي عن التركيب الكيميائي لحلقة البنزين. كان حينها أستاذًا في خنت في بلجيكا. وبينما كان نائمًا بجانب المدفأة في مكتبه المظلم، رأى مرة أخرى الذرات «تراقص أمام عيني»، على حد قوله. الآن، استطاعت بصيرته الداخلية، «التي ازدادت حدة بتكرار هذه الرؤى، أن تميز بني أكبر ذات تكوينات متعددة: صفوف طويلة، أحيانًا متقاربة، تتشابك وتلتوي في حركة تشبه حركة الثعبان». ثم دُهِش لرؤية أحد «الثعابين» يُمسك بذيله ويدور «بسخرية» أمامه. انتشله من حالة الكسل «كما لو ضربته صاعقة». صورة الثعبان الدوّار أعطت الكيميائي مفتاح تركيب حلقة البنزين؛ ففضى معظم الليلة التي تلت ذلك يعمل على هذا حتى صاغ نظريته.

أصبح كيكولي خبيرًا متمرسًا في استقبال وتطوير صور مفيدة بهذه الطريقة. وعندما وصف جذور إبداعه العلمي في مهرجان «بنزولفيسست» الذي أقيم تكريمًا له في عام 1890، قال كيكولي لجمهوره: «دعونا نتعلم كيف نحلم، أيها السادة، لعلنا نجد الحقيقة.» وأضاف تحذيرًا مفيدًا: «لكن لنحذر من نشر أحلامنا حتى نختبرها فهمنا اليقظ.» (315)

(315) Kekulé's written version of the 1890 speech is translated in O. T. Benfey, "August Kekulé and the Birth of the Structural Theory of Organic Chemistry," Journal of Chemical Education, no. 35 (1958): 21–23. For

كانت الصور التي وصلت إلى كيكولي بلا معنى - من الناحية الكيميائية - لشخص لا يملك عقلاً علمياً عكف طويلاً على حل المشكلات التي كشفت الصور عن حلولها. ربما كانت هذه الصور لتدفع فناناً للرسم، أو لتدفع شخصاً مهتماً بالأساطير لدراسة رمز الأوروبوروس في العالم القديم وفي الخيمياء.

عندما حثّ كيكولي جمهوره على «الحلم»، لم يكن يتحدث حصرياً، أو بالدرجة الأولى، عما يحدث أثناء النوم. بل كان يتحدث عن تطوير القدرة على الدخول في حالة من الانتباه المريح حيث تتشكل الأفكار وتتفاعل مثل الصور.

من المثير دائماً معرفة الطرق المحددة التي يدخل بها العقل المبدع إلى تلك المساحة الخيالية. في خمسينيات القرن التاسع عشر، لم يكن الناس يسافرون في حافلات ذات محركات كهربائية. كانت وسيلة النقل العامة التي تقل كيكولي إلى منزله في كلافام حافلة تجرها الخيول. شكّلت قعقة الحوافر وخشخشة اللجام وحركة عربة الصندوق المتأرجحة الموسيقى التصويرية والإيقاع الموسيقي لإنجاز كيكولي.

ومن المرجح أن عقولاً مبدعة أخرى في عصره قد استفادت من إيقاعات وسيلة النقل المعاصرة. فبالنسبة إلى عالم الرياضيات الفرنسي جول هنري بوانكاريه، كان يكفيه وضع قدمه على درجة حافلة تجرها الخيول. في مقالته الرائعة «الخلق الرياضي»، تذكر بوانكاريه أنه عجز عن صياغة مفهوم رياضي جديد، حين وافق على السفر إلى كوتانس للانضمام إلى أصدقائه في نزهة. غمره الإلهام عندما بدأ يصعد الحافلة: «في اللحظة التي وطأت فيها قدمي الدرجة، واتتني الفكرة، دون أن يبدو أن أي شيء في أفكاري السابقة قد مهد لها الطريق.» وعندما عاد إلى منزله في كان، دون بوانكاريه نظريته عن «الدوال الفوشية» مباشرةً من هذه اللحظة الثاقبة.

كما تلقى بوانكاريه توجيهاً مباشراً من أحلامه الليلية. فبعد عدة محاولات فاشلة لإتقان معادلة كان يعمل عليها، حلم أنه يُلقى محاضرة على الطلاب حول هذه المسألة،

alternative translations and the original German text, see Albert Rothenberg, "Creative Cognitive Processes in Kekulé's Discovery of the Structure of the Benzene Molecule," American Journal of Psychology 108, no. 3 (Fall 1995): 419-438.

فكتب المعادلة على السبورة لتوضيح كل شيء. وبعد استيقاظه، استطاع بوانكاريه أن يحمل صورة ما رسمه بالطباشير على السبورة، ودون المعادلة؛ ووجد أنه قد توصل إلى حلها.

وكما أن «الصدفة تُفضّل العقول المُستعدة» (كما قال لويس باستور)، فإن إلهامات العلم والإبداع تُفضّل أولئك الذين أدوا المطلوب منهم. وبناءً على دراسة استقصائية للأبحاث الحديثة في مجال الإبداع، يُمكننا وصف المراحل الأربع الرئيسية للاكتشاف على النحو التالي:

1. الانغماس: انخراط طويل ومُعمّق في موضوع ما

2. الاكتساب: جمع كم هائل من البيانات والخبرات ذات الصلة بالموضوع

3. الإلهام: لحظة الاكتشاف

4. التقييم: اختبار الاكتشاف من خلال التجريب والنشر.⁽³¹⁶⁾

ولا تأتي المرحلة الثالثة جبراً. فللوصل إليها، قد تضطر إلى الابتعاد؛ أخرج في نزهة على قدميك، اسبح، خذ قيلولة، استمتع بفترة استراحة.

لقد وجد العديد من العلماء والمخترعين الرواد - حالمهم حال غيرهم من المبدعين - أن أفضل أفكارهم تتجلى خلال نزهة. خطرت فكرة المحرك البخاري لجيمس وات أثناء نزهة في ضواحي جلاسكو. وخلال نزهة أيضاً، استوعب نيكولاي جوكوفسكي، أبو الطيران الروسي، صيغة الرفع الديناميكي الهوائي. وتوصّل ويليام روان هاميلتون، وهو عالم آخر، إلى حل مسألة الأعداد فائقة التعقيد أثناء سيره مع زوجته على طول قناة في دبلن. ونظرًا لأنه لم يُرد أن تتفلت صيغة الحل من ذهنه، أخرج هاميلتون سكين جيب ونقش تلك الصيغة - بدلاً من القلوب والأحرف الأولى - على الحاجز المعدني لأحد الجسور. وقال عالم الهندسة الروسي أليكسي بوجوريلوف إن أكثر

(316) I have borrowed from an excellent article by Stanley Krippner, "Access to Hidden Reserves of the Unconscious through Dreams in Creative Problem Solving," Journal of Creative Behavior, no. 15 (1981): 11-22.

مفاهيمه أصالةً جاءت أثناء سيره من وإلى العمل يوميًا، لذا لم يكن يبالي بأن المسافة كانت عشرة أميال.

ووصف الفيزيائي الروسي أركادي ميجدال الإبداع بأنه حالةٌ وسيطة «يختلط فيها الوعي واللاوعي، حيث يستمر التفكير الواعي في النوم، ويُجز العمل اللاوعي في اليقظة».⁽³¹⁷⁾ تكمن الحيلة في إيجاد طريقك إلى حالة من الانتباه المُسترخي أو الاسترخاء المتنبه. وفي هذه الحالة، مارس أينشتاين «لعبته التركيبية»، ناسجًا الانطباعات «البصرية» مع «العضلية»؛ كان مُفكرًا بصريًا وحسيًا حركيًا، وكانت عملياته الإبداعية الأساسية ما قبل لفظية أو غير لفظية. وقد وصف «الكيانات النفسية التي تبدو وكأنها عناصر في الفكر» بأنها «علامات وصور واضحة إلى حد ما، يمكن إعادة إنتاجها ودمجها إراديًا».⁽³¹⁸⁾

وكتب هيرمان فون هيلمهولتز يقول إن الأفكار الجيدة تأتي إليه في حالة «انتباه مشّتت». وبالنسبة إلى هنري برجسون، تتميز هذه الحالة المرغوبة بـ «التفكير بلا عناء».⁽³¹⁹⁾

بينما كنت مستلقيًا على فراشي في وقت مبكر من صباح يوم سبت ممطر، خطر ببالي أن حالة السكون بعد الاستيقاظ قد تكون - حرفيًا - في بعض الأحيان هي حالة الحل. في ذلك الصباح، لم أتمكن من تذكر الحلم بصورة سردية. وبدلاً من ذلك، وجدت أن مجالي الذهني كان أشبه بمحيط من الزيت النقي الشفاف، تطفو فيه صور وأفكار عديدة. استطعت أن أجمعها وأختار بعضها لأمزجها وأطبقها، وأصنع منها حلًا واضحًا. وبينما كنت أفعل ذلك، توصلت إلى حلول واضحة جدًا لعدد من المشكلات المحددة وتسلسلات من الصور التي يمكنني الآن تطويرها - أو السماح بتطويرها -

(317) N. V. Zhilkina, "The Extreme Component in Idea Generation" [in Russian], Analytical Culturology 2, no. 6 (2006).

(318) Jacques Hadamard, The Psychology of Invention in the Mathematical Field (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1945), p. 142.

(319) Henri Bergson, "Le rêve," Bulletin de l'Institut Psychologique International, no. 1 (1901): 103-122.

إلى أفلام أحلام ذات حبيكات.

لقد أذهلني أن هذا النوع من التجارب يحدث في نوع من مصفوفة الأحلام التي يمكن أن نطلق عليها «الحل»، بمعنى أن العديد من العناصر والإمكانيات معلقة فيها، وأن الأشخاص المبدعين لديهم القدرة في تلك الحالة من الانتباه المُسترخي (أو الاسترخاء المتنبه)، على الدخول في تلك الحالة لإيجاد الحلول.

الجزء الثاني

سادة الأشياء الثلاثة «الوحيدة»

عندما يشرع رسام بورتريه في رسم صورة، فإنه يعتمد بالدرجة الأولى على الوجه وتعابير العينين، ويولي اهتماماً أقل لأجزاء الجسم الأخرى. وبالمثل، أعتزم التركيز على تلك الأفعال التي تُنير دروب الروح.

بلوتارخ، كتاب «حياة الإسكندر»

الفصل السابع

جان دارك وعَرَافات الأشجار

لو كنتُ في غابة، لكان بإمكانني أن أسمع بسهولة الصوت الذي كان يأتيني.

جان دارك، في محاكمتها في روان، 22 فبراير 1431

لا نعرف كيف كان شكل جان دارك الحقيقي. فرغم ظهورها في عدد لا يُحصى من اللوحات والتماثيل، فإن كل هذه الصور مستمدة من الخيال والتخيل الفني. لا يوجد أي بورتريه حقيقي رسمه شخص عايشها ورآها فعلياً؛ فالصورة الوحيدة المعاصرة لها هي رسمٌ بسيطٌ أضافه كاتب لم يرها قط في هامش نص قديم.⁽³²⁰⁾ لا نعرف حتى لون شعرها. ومع أن معظم الرسامين اختاروا تصويرها بشعر أشقر أو بني فاتح، إلا أن الباحث الفرنسي جول كيشيرا، الذي كان يغربل الوثائق في أربعينيات القرن التاسع عشر، وجد شعرةً سوداءً واحدة داخل ختم شمعي مكسور على إحدى رسائلها، فاعتبرها دليلاً على أن شعرها كان داكناً، لكنها قد تعني ببساطة أن أحد الكتبة بدأ يفقد شعره أثناء تدوين ما كانت تمليه تلك الشابة الاستثنائية، التي كانت تصدر المراسيم باسم «مَلِك السماء». وقد اختفى منذ ذلك الحين كل من تلك الشعرة السوداء والشمع الآخر.⁽³²¹⁾ وكذلك اختفى بورتريه كانت جان قد سمحت لرسام إسكتلندي برسمه

(320) On May 10, 1429, Clement de Fauquemberge, clerk to the Parliament of Paris, penned a little drawing of a woman in the margin of the register where he had recorded a report of "a Maid alone bearing a banner" in the Relief of Orleans. He had never set eyes on Joan of Arc.

(321) Régine Pernoud and Marie-Véronique Clin, *Joan of Arc: Her Story*, trans. Jeremy du Quesnay Adams (New York: St. Martin's Griffin, 1999), p. 256.

خلال حملاتها، رغم أن ذلك البورتريه، ولسنوات عديدة بعد إعدامها حرقاً على خشبة، كان يُنقل عبر أوروبا ويُعرض على الفضوليين مقابل ثمن باهظ.⁽³²²⁾ أحد خدمها و«الدوق النبيل»، جان دالنسون، قال إنها كانت ذات وجه جميل.⁽³²³⁾ وأضافا أن جماها لم يكن يثير أي رغبة عاطفية. وذكر آخرون أنه عندما كانت جان حاضرة، كان الجنود «يفقدون مشاعرهم العاطفية»، بل ويتوقفون حتى عن «التحدث» بشأن الجنس.⁽³²⁴⁾ ومن بين جميع إنجازات جان، فإن هذا التأثير وحده مذهل، خصوصاً في زمن كهذا كان يتسم بالخشونة والفجور.

أرغب في أن أسميها «جيان» Jehanne. هكذا كان اسمها يُنطق ويُكتب بين معاصريها، وهكذا كانت تُوقَّع على رسائلها في أواخر حياتها، بعد أن تعلمت التوقيع بنفسها. فمن خلال استخدام اسمها الأصلي، قد نتمكن من رؤيتها من زاوية جديدة، بعيداً عن حُجُب الدعاية والتقديس.

من المحتمل أنها وُلدت عام 1412. كان والداها يزرعان خمسين فداناً بالقرب من منطقة دومريمي في إقليم لورين، وهي منطقة مستقلة التفكير ضمن أراضي كان أغلبها خاضعاً للبورغنديين، الذين كانوا المتحالفين في ذلك الوقت مع الإنجليز في حرب المئة عام في مواجهة الفرنسيين. في غضون ثلاث سنوات من ولادتها، هُزم جيش فرنسي كبير على يد جيش إنجليزي أصغر بكثير بقيادة هنري الخامس في معركة أجينكور. وقُتِل أو أُسِر أفضل القادة العسكريين الفرنسيين؛ ونُقل الدوق الشاب شارل دي أورليان إلى إنجلترا رهينةً، وظل هناك عقوداً، بينما كانت حرب جديدة تُشن باسمه.

(322) Joan of Arc told her prosecutors she had seen a portrait of herself at Arras by a "Scottish painter"; she suggested that it was a faithful likeness and said that no portrait from life had been made since. It's a good guess that the Scottish artist was Hamish Power, who lived in Tours and had gone sufficiently native in France to have a French version of his name, "Hauves Pournois." He painted Jehanne's famous standard and her pennon, a small triangular flag used to signal and deploy her archers.

(323) Alençon in Pierre Duparc, *Procès en nullité de la condamnation de Jeanne d'Arc* (Paris: Société de l'Histoire de France, 1977–89), 1:387.

(324) Gobert Thibault, the royal esquire, in *ibid.*, 1:370.

منذ وقت مبكر في حياتها، كان والد جيان تطارده أحلام يرى فيها ابنته تمتطي جوادًا مع رجال مسلحين.⁽³²⁵⁾ وقد شعر بالاشمئزاز والرعب من هذه الأحلام، لافتراضه أنها تنبئ بانحدار أخلاقي خطير لابنته في محيط المعسكر. فالفتاة المهذبة لا ترحل مع الجنود، والأدهى من ذلك أن تقودهم. حاول أن يحميها، بأن تبقى في دفء الموقد تغزل الصوف في الشتاء، وتعتني بالغنم، وتساعد إخوتها في أعمال المزرعة، وتذهب بانتظام إلى الكنيسة. وقد أخبر بعض المقرّبين منه أنه، لو كان صدّق أن تلك الأحلام ستتحقق، لفضّل أن يُغرق ابنته على أن يراها تجلب إلى نفسها العار.

كانت فتاة متواضعة ومطبعة، مواظبة على حضور الكنيسة، لكنها كانت أيضًا تتراد كنيسةً بلا جدران.

الشجرة السيدة

كان في وسعها أن ترى من الحديقة غابة البلوط العظيمة، متماوجة في انحناءاتها الخضراء الكثيفة فوق شجيرات الجوّلق الصفراء والخلنج الرمادي وحقول القمح المسطحة. وفي الليل، كانت جيان تستمع إلى الريح وهي تُصدر أصواتًا من الغابة وكأنها تعزف على قيثاره. وعندما كانت ترعى القطيع، كانت تترك الأغنام تتجه نحو غابة البلوط الواقعة على التل. وأحيانًا، حين تنهرب من الأعمال المنزلية، كانت تنضم إلى فتيات أخريات في تعقب أحد الحجاج المصابين بالحمى أو بالروماتيزم الذين يصعدون التل أملًا في الشفاء عند النبع العتيق. وكان الصغار الجريئون يتلصصون على الشبان والفتيات الذين يصنعون أعشاش حبهم في الغابة، متوسدين أكوامًا من الأوراق الجافة. أحيانًا كان الفتان يجلبون قرون الظباء ليعلقوها على الأغصان، مستدعين حماسة الغزال الحقيقي في موسمه.

وفي قلب غابة البلوط، على قمة التل، كان هناك بستان من أشجار الزان. وكانت إحداها تعلو الباقيين. كانت جذورها بارزة من التربة كأنها عروق نافرة في يد عجوز،

(325) Régine Pernoud, Joan of Arc by Herself and Her Witnesses, trans. Edward Hyams (Lanham, NH: Scarborough Press, 1982), p. 23.

ومع ذلك فقد صمدت تلك الشجرة في وجه الرياح والعواصف لأجيال لا تحصى. كان هناك من يَحْشُونَهَا، ويرون في التواءات جذورها المتعرجة أفاعي حية.

كان الجميع يعلم أن هذا المكان مكرّساً لـ«القدماء». وكانوا يتهايمسون بأن الجنيات لا زلن يرقصن حول تلك الشجرة خلال الأعياد الشمسية الكبرى في السنة، خاصة في عيد مايو وعيد جميع القديسين. وكانت مياه النبع تُعتبر هبةً من قوة قديمة متجذرة في الأرض؛ إذ كانت تُسكّن الحمى، وتزيل العيوب عن الجلد، وتهب الرؤيا والإلهام.

كانت جيان تحب أن تلمس لحاء تلك الشجرة، الناعم والفضي الملمس. بينما كانت شجرة البلوط المجاورة واضحة بذكورتها - بقسوة أغصانها المتفرقة وتجمّعها الذي يشبه ملاكماً في وضعية القتال - بدت شجرة الزان العظيمة، الممتلئة والحريرية، أنثوية بامتياز. في القرية، أطلقوا عليها اسم «شجرة السيدات»، أما جيان فكانت ترى في تلك الشجرة نفسها سيدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

تتألق الشجرة السيدة في أبهى حللها مع قدوم الربيع، حين تشرق براعمها الحمراء فتنسب منها أوراق ناعمة بلون أخضر شفاف ينبض بالحياة. تنبض أنوثتها في أغصانها المتأيلة، حيث تتدلّى «العناقيد الهدبية» المرتجفة على سيقانها الرشيقة، وتنبثق كرات الأزهار كوشوشات حريرية ترفرف بلطف في الهواء، تبحث بشغف عن اللقاح لتعانق الحياة.

وحين ينضج الربيع حتى يغدو صيفاً، تكتسي الشجرة السيدة بلون أخضر أثقل وأغمق. وتحت ظلالها، كان الجو معتدلاً ومظلاً حتى في أحرّ الأيام. ومع ذلك، كانت أشعة الضوء الباهرة تحترق الظلال فجأةً لتضرب وجهك كما لو أن نجماً انحنى ليلمسك. وعندما تمر النسائم بين الأوراق، كانت الأضواء تتراقص، والحجاب على الإدراك يرق، وتشكل أشياء هوائية في هيئة محسوسة.

قالت جيان للقاضيين اللذين كانا يحاكمانها: «لو كنتُ في غابة، لكان بإمكانني أن أسمع بسهولة الصوت الذي كان يأتيني.»⁽³²⁶⁾

(326) February 22, 1431. Unless otherwise noted, quoted testimony from Joan of Arc's trial at

لم تكن الأصوات التي أتت من تحت الشجرة السيدة، أو من بين الأشجار الأخرى، مجرد أصوات عابرة. بل كانت تصاحبها تدفقات من نورٍ متلألئ، وأشكال تتراوح بين البشرية والفوق بشرية، تفوح منها رائحة الزهور وعطر أوراق الربيع النضرة والفتية.

ومن بين جميع الصور المتخيَّلة لجيان، تبدو اللوحة التي رسمها الفنان الوطني من لورين، جول باستيان-لوباج، الأقوى في استحضار تجاربها بين الأشجار. وهي الآن معروضة في قاعة النحت في متحف المتروبوليتان للفنون بمدينة نيويورك. تُظهر اللوحة جيان في حديقة والديها، في مقبل سنوات مراهقتها، وهي تتلقى إحدى الرؤى التي دفعتها - بشكل مدهش - إلى المطالبة بحق قيادة جيوش فرنسا، وإنقاذ مدينة عظيمة، وتتويج ملك.

في رؤية الفنان، تتسع عينا الفتاة الزرقاوان الجميلتان وكأنهما تبحثان عن شيء يتجاوز المشهد الريفي المحيط بها، على الرغم من أن المشهد ينبض بالسحر. ذراعها اليسرى ممدودة، وهي تمسك بشيء ما. يقرب المرء من اللوحة ليرى ما الذي تحمله في يدها. تحمل شيئاً أخضر. ربما بعض الأوراق الغضة من الشجرة التي تقف تحتها. إنها تستند إلى جذع الشجرة، تستمد قوتها منها.

تراقص الألوان المرقشة على الشجيرات وجدار الحجر القديم خلف الفتاة الفلاحة ذات التنورة البنية الطويلة، كلوحة مطرزة بريشة فنان ماهر. هذا النسيج الدقيق يذوب المسافات، كاشفاً عن مفاجأة تأسر الأنفاس وتفاعي القلب.

لن تراه في البداية، ذاك الذي يحوم في الهواء خلف جيان مرتدياً درعاً ذهبياً. وحتى بعد أن تلاحظ وجوده، يسهل أن تفوت رفيقته. فهما شفافتان، وأجسادهما كضباب رقيق يُرى من خلاله المشهد الطبيعي بوضوح. إحداهن تبدو وكأنها تحمل رأسها بيدها. ما كنه هؤلاء الزوار؟

Rouen, which unfolded over five months, from January to May 30, 1431, is from the W.P. Barrett translation of the French and Latin documents from the Trial of Condemnation, which are available through the Yale Law School Avalon Project at www.yale.edu/lawweb/avalon/treatise/jean_darc/jeanne.htm.

اتخذوا أشكالا رمزية مألوفة في بيئتها، مستلهمة من شخصيات تُعدّ نموذجًا في ثقافتها، مثل شخصية محارب نوراني وامرأتين تُمثّلان الحكمة والشجاعة. ذكرت جيان لاحقًا هذه الأسماء ضمن ما وصفته بـ«الأصوات». ومن المحتمل أنهم لم يظهروا بهذه الهيئة منذ البداية. قالت جيان للقصة: «عندما جاء لأول مرة، كنتُ في شكٍ عظيم إن كان حقًا هو، وكنت خائفة جدًا. رأيته مرات عدة قبل أن أتقن من هويته.»

إن القوى الآتية من العوالم الأعمق معروفة بأنها تُظهر «صور تواصل»، أي صورًا تتكيف مع معتقدات وتصورات الناس في زمان معين. وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقًا، بكلمات جيان نفسها، عندما تواجه الرجال الذين اجتمعوا ليجدوا ذريعة لإعدامها حرقًا.

رائحة سمك الرنجة المملح

كانت في السادسة عشرة من عمرها عندما انطلقت لقيادة حرب كانت ستغيّر مجرى تاريخ فرنسا والعالم. كانت غايتها متوهجة فيها كشمعة صافية نقية. كانت مؤمنة بأنه قد أوكلت إليها مهمة إلهية، لتوحيد شعب محطم ومنقسم في مواجهة الإنجليز، الذين احتلوا أكثر من نصف البلاد، بما في ذلك باريس، بالتنسيق مع حلفائهم البورغنديين. أما مهماتها العاجلة، فكانت قيادة جيش لfolk الحصار الشديد المضروب على مدينة أورليان العظيمة، ومن ثم مرافقة الدوفين شارل إلى مدينة ريمس الشمالية لتتويجه ومسحه ملكًا.

كانت خطواتها الأولى أن تتوجه إلى البارون المحلي، روبير دو بودريكور. سافرت إلى قلعة بودريكور في بلدية فوكولور تحت حماية أحد أقاربها الذكور الذي كانت قد استحوذت عليه حماسها ومهمتها. لم تنجح جاذبيتها الروحية مع الجندي الحلف بودريكور. فعندما أخبرته بأنها تشعر أن لديها رسالة سامية لتحرير فرنسا، اعتبرها ملكًا من الملوك مجرد فتاة واهمة، وفكّر في معاقبتها بطريقة قاسية. لكنه بدلًا من ذلك، قرر إعادتها إلى منزلها برسالة إلى والدها يطلب فيها توبيخها بشدة.

ومع ذلك، فقد أثارت مشاعر الإعجاب، بل والرغبة، في نفوس الجنود البسطاء كما في نفوس الفلاحين. كانت تبعث القشعريرة في أبدان الناس. تطوّع فتية، وفرسان مسنون متمرسون، للقتال في خدمتها. وبدأ الناس يسترجعون نبوءات قديمة، تتحدث عن مُخلّصة تأتي من غابة بلوط، وعذراء تُنقذ البلاد من الدمار الذي تسببت به امرأة شريرة (كان يُعتقد أنها إيزابو البافارية، الملكة الأم). فهل كانت جيان هي تلك المُختارة؟ ويُحتمل أن تكون الشائعات المتحمسة التي بدأت تتناقلها الألسن قد دفعت بالبورغنديين إلى شن غارة على قريتها في صيف عام 1428، وهي غارة نجت منها عائلتها بعد أن احتمت بحصن قريب.

زارت جيان بودريكور مرةً أخرى في الثاني عشر من فبراير عام 1429. والتاريخ ذو دلالة، لما جرى في اليوم نفسه، على بعد أميال كثيرة جنوبًا. فأصحاب الرؤى يُطلّب منهم أحيانًا إثبات قُدراتهم ببراهين عملية. وفي تلك الزيارة، لم تكن العذراء تحمل مجرد رؤية عظيمة، بل جاءت أيضًا مستعدةً لتُظهر أنها من نوع العرافين القادرين على تقديم معلومات استخباراتية عسكرية.

أخبرت بودريكور عن معركة كان الإنجليز خلالها يقطعون أوصال الفرنسيين وحلفائهم الإسكتلنديين، «بينما هما يتحدثان». كانت «الأصوات» التي تأتيها تخبرها بالهزيمة. وربما كانت أيضًا تراها وتشمها. رائحتها كرائحة السمك. في اليوم نفسه، على طريق أورليان، هاجم الفرنسيون قافلة إنجليزية كانت تحمل مؤنًا لحاميات الإنجليز على امتداد نهر اللوار. وبما أن الوقت كان وقت الصوم الكبير، كانت المؤن من الأسماك لا اللحوم. شكّل الإنجليز، بقيادة السير جون فاستولف (شخصية بهيجة خلّدها شكسبير في شخصية فالستاف)، حلقةً دفاعية بعرباتهم، وأمطروا الفرنسيين بوابل من سهام أقواسهم الطويلة، ثم دحروهم تمامًا. وبسبب كمية السمك الهائلة التي تُرِكَت متناثرة في ساحة المعركة، عُرِفَت الهزيمة الفرنسية باسم «معركة الرنجة». عندما وصلت أخبار المعركة إلى فوكولور بعد بضعة أيام، أدرك بودريكور أن جيان عرّافة يُعتمد عليها، وكان ذكيًا بما يكفي لأن يرى أن هذه موهبة يمكن لفريقه أن يستفيد

منها. (327) فخصص لها مرافقةً من أربعة رجال مسلحين فقط ليأخذوها إلى الدوفين شارل في شينون. واتخذ احتياطاً بالغ الخصوصية قبل أن يتركها تمضي في طريقها؛ إذ أمر كاهناً بأن يُجري لها طقس طرد الأرواح. فموهبة مثل موهبة جيان قد تأتي من القديسين والملائكة... أو من الطرف الآخر. (328)

ومع رائحة الرنجة المملحة، بدأ يتشكل نمطٌ متكرر. فعندما كان جيان تفشل في كسب قلوب الرجال القساة بحضورها المتألق، كانت تكسبهم عبر تقديم معلومات استخباراتية عسكرية لم يكن باستطاعتهم الحصول عليها بأي وسيلة أخرى. وهذا يساعدها على فهم كيف استطاعت أن تقنع جنوداً أشداء ونبلاء فاسدين بأن يتبعوها.

جرى المشهد الرئيس التالي في حكايتها خلف أسوار قلعة شينون العالية. خاطبت جندياً أطلق سبّةً فاحشةً بحقها أثناء مرورها من البوابة قائلةً: «من العار أن تُنكر الرب وأنت قريب من الموت إلى هذا الحد.» وفي تلك الليلة ذاتها، غرق الجندي في النهر. وسرعان ما انتشر خبر أن الفتاة العذراء لا ترى المستقبل فحسب، بل يمكنها أن تصنعه. وربما لم يجعل ذلك الدوفين المزاجي المتردد أكثر رغبة في لقاء هذه الفتاة القادمة من لورين. فقد كان يُلاحقه شبح الجنون الذي أصاب والده، والخراب الذي خيم بظلاله على بلاده، وتأكيد أمه – الملكة – أنه ابن غير شرعي. ومع ذلك، كان هو أيضاً قد سمع نبوءات عن «عذراء» قد تُنقذ مملكته. وكانت هناك امرأة أخرى ترى رؤى، تُدعى ماري دافينيون، قد حملت إليه رؤيا عن امرأة غيرها ترتدي درع الحرب ستقود فرنسا إلى النصر. (329)

وقد أشار مستشارو الدوفين عليه بأن يُخضعها لاختبارات. وعندما سُمح لجيان بالدخول إلى بلاطه، اختبأ شارل بين حاشيته، بعد أن ألبس أحدهم أزهى الثياب ليلعب دوره. لكن جيان لم تُخدع. فقد تعرفت إليه فوراً. ثم، في جلسة خاصة، همست

(327) Kelly DeVries, *Joan of Arc: A Military Leader* (Stroud, England: Sutton Publishing, 2003), pp. 62–63.

(328) Pernoud, *Joan of Arc*, p. 39.

(329) Jean Barbin, lawyer, in Duparc, *Procès en nullité*, 1:375.

له برسالة سرية. تُعرَف هذه الرسالة باسم «علامة الملك». قالت له شيئاً مسّه في أعماقه لدرجة أنه آمن بها – ولو مؤقتاً – وآمن بقدره أن يصير ملكاً. لا يعرف أحد على وجه اليقين ما الذي قالته جيان لشارل في ذلك اليوم في شينون. لكن يمكننا تتبع بعض الإشارات التي سبقت وتبعت لقاءها بالرجل الذي جعلته ملكاً.

علامة الملك

سيكون هناك ملك لفرنسا

يُدعى شارل، ابن شارل،

الذي سيكون السيد الأعظم فوق جميع الملوك.

وقد سُمِّيَ في النبوءات «الغزال الطائر».

كريستين دو بيزان، «أنشودة لجان دارك»

كان الغزال، أو الأيل، الرمز الأهم للملوك فرنسا القدامى. ويظهر هذا الرمز في حادثة من حياة والد الدوفين، شارل السادس، حفظها المؤرخ جان فرويسار. فعندما كان شارل السادس ملكاً صبيّاً، زار حديقة الغزلان الملكية في سنلي. وفي الليل، حلّم بأنه قدّم له صقر صيد رائع. فأطلقه من على معصمه، وانكسر قلبه حين لم يعد الصقر بعد أن اختفى فوق غابة عظيمة. ثم ظهر له غزال مجنّح. امتطى الملك الغزال الطائر، فحمله عاليّاً فوق قمم الأشجار. شعر بفرحٍ طاعٍ، واستعاد صقره، وأُتيح له أن يرى كامل أرجاء المملكة من علٍ. (330)

قد يقول نوع معيّن من الأطباء النفسيين إن هذا الحلم – إن كان حقيقياً – يمثل «تضخم الأنا» الذي سبق انحدار شارل السادس لاحقاً في هاوية الجنون. وسواء أكان هذا صحيحاً أم لا، فإن الحلم يتّسم بأنه من نوعية «رحلة الروح الشامانية». من الممكن

(330) Anne Lombard-Jourdan, *Aux origines de Carnaval* (Paris: Odile Jacob, 2005), pp. 139–141.

أن يكون المؤرّخ الذي روى الحلم قد اخترعه، لكن حتى لو فعل، فقد أبدعه ضمن سياق إيباني يكشف الكثير بحد ذاته. إذ كان يُفترض أن يكون الملك الحقيقي لفرنسا على صلة صوفية عميقة بالغزال.⁽³³¹⁾

قد يعود ذلك إلى فجر عهد الحكم الملكي، حين كان يُنظر إلى الملك الحقيقي على أنه شخصية ذات مكانة رمزية سامية، يتحد فيها مع المقدّس عبر طقوس احتفالية تجمعها بالكاهنة المختارة. في ظلّ تلك الشجرة العظيمة ذات القرون المتفرعة، كان الملك يُجسد "زواج الأرض"، وهو ارتباط رمزي يجسد وحدة الحاكم بالأرض التي يحكمها. ومن خلال هذه الطقوس التي تعبر عن اتصال الحاكم بالمقدّس، كانت تُستمد شرعية تولية الوريث الملكي. ربما تكون هذه الحقيقة الكامنة وراء أسطورة "الدم المقدس" الذي يُقال إنه يجري في عروق ملوك فرنسا.

وقد التقت الرموز في نهاية المطاف حين أُعيد تصوير الغزال في فرنسا في العصور الوسطى بوصفه حاملاً لطاقة روحية. في بلدية «ليه هال»، يمكن رؤية برج كنيسة قديمة من الطراز القوطي، تعلوه منحوتة لغزال يتوسط قرنيه صليب، في إشارة إلى أسطورة شعبية عن تحوّل قائد روماني إلى معتقد جديد إثر رؤيا رمزية.

لاحظ النبوءة، كما استعادتها الشاعرة العظيمة كريستين دي بيزان في قصيدتها احتفاءً بجان دارك وتتويج شارل السابع. «شارل، ابن شارل» هو «الغزال الطائر» الذي سيكون سيداً على جميع الملوك.

وقد تكمن هنا إشارة إلى ما أسرّت به جيان إلى الأمير وأقنعه بأن يفعل شيئاً لا يكاد يُصدّق؛ أن يعيّن فتاةً أميّةً مراهقةً من الفلاحين «قائدةً عامةً للحرب»، أي القائد الأعلى لجيوش فرنسا. يمكننا أن نكون على يقين بأن ما قالته له أعاد تأكيد حقه بالولادة في الملك، معوّضاً إياه عن خيانة أمه وتخليها عنه. ولكي تستولي على عقله بهذه القوة، فلا

(331) In the grand hall of the Palais de la Cité in Paris (known today as the Salle des Pas Perdu), a wall painting of a great antlered stag, presiding over images of the kings of France since Faramond, recalls the giant wooden statue of a stag that dominated the space until a fire in 1618.

بد أن ما قالته كان أكثر تحديدًا من الصورة العامة لـ «ملاك ينزل بتاج»، وهي الصورة التي زعمت جيان - مرهقةً بعد أيام طويلة من الاستجواب والإذلال - لاحقًا أمام القاضيين اللذين كانا يحاكمانها أنها كانت العلامة التي قدّمتها.

تحيل هذا:

الدوفين يشعر بفضول تجاه الفتاة العذراء. يأمر حاشيته بالانسحاب، لتتركه وحيدًا مع جيان داخل لوحات النسيج المزدان بالرسوم والصور التي تُضفي الدفء واللون على الجدران الحجرية الرمادية للقلعة.

تتقدّم نحوه. وبينما تلامس الأقمشة المطرزة، تُبعث مشاهد غابة الغزلان المرسومة فيها إلى الحياة. تجلس عند قدمي الأمير المتوتر، المرتبك.

يقول عابسًا: «حاشيتي تنادينني بالملك. لماذا تنادينني فقط بالدوفين؟»

«يا دوفيني، لن تكون ملكًا إلا حين تجد المملكة في قلبك.»

«لقد تحدّثت عن علامة لا يعرفها سواي.»

«أنت تائه في غابة معتمة. لقد فررت إلى هنا لأنك شعرت بالخزي والهجر. لقد أنكرت أملك ذاتها. أنت صغير جدًا، يا دوفيني. تبكي على والدك، لكن والدك فقد منك قبل أن يغادر هذا العالم بكثير. بلدك في قبضة رجال أشرار. بلاطك يعج بالخبث والدسائس، ويتنقل مثل فرقة مهرّجين من مدينة صغيرة إلى أخرى. تخاف أن تفقد عقلك، كما فقدته والدك. أنت صغير جدًا. لقد أتيت إلى هذه الغابة بحثًا عن السلام، عن مكان تحلم فيه بأحلام أكثر إشراقًا.»

الدوفين يتحب. لقد دخل إلى الغابة، في أعماق المشهد الذي تصفه له. يسمع حفيف الرياح بين الأغصان. يرتجف من الظلال. يتحرك هنا وهناك مذعورًا، يخال أن شيئًا ما يتعقبه. أعداء كُثُر، حتى هنا.

لكن هناك أمل. هناك حصان بسرّج ينتظره. يتشبث بمقبض السرج ويشد نفسه للأعلى. لا، ليس حصانًا. إنه غزال. يشق الغزال طريقه بين الأشجار، يقفز أعلى

فأعلى... حتى يطل شارل من فوق قمم الأشجار. كيف يمكن ذلك؟

يجول صوتٌ أعمقُ من صوت الفتاة في ذهنه، قائلاً: «أنت عائد إلى قلبك.» لديه انطباع بأنه يطير فوق شينون، ثم يهبط عبر جدران من الحجر تنفرج له كما تنفرج الستائر. يرى رجلاً ضعيف البنية، سيئ الطلعة، يرتدي ملابس البلاط، ويجلس متداعياً على عرشٍ تحت خيمة من الأقمشة المطرزة.

يتكرر الصوت: «يجب أن تعود، يا شارل. حينها يمكنك أن تتلقاه. صانع الملوك.»

تتداخل المشاهد معاً. ها هو ينظر بعيني الرجل الجالس على العرش.

تقف أمامه فتاة نحيلة، تمدّ يديها نحوه، وراحتاها موجهتان إليه. من حولها، وفوقها، تظهر هيئة غزال أبيض عظيم. قرونها، مثل السنة من نار بيضاء، تمتدّ أعلى من السقف. يسطع نور من بين قرنيه، أشدّ من البرق.

ترتجف يدا الفتاة بينما تمرّ الطاقة التي تسكنها من خلالها، عبر مسارات محددة. تتحرك أصابعها باستقلالية، ومع انفتاحها وتمددّها وانحنائها، تبدو كأنها قرون الغزال. تتدفق خيوط من النار البيضاء من أطراف أصابعها نحو الدوفين.

«تلقّ نوره. إنه ينساب إليك من بين قرنيه، يا دوفيني. تلقّ نور المسيح. تلقّ الملك الحقيقي.»

ومهما كانت التعويذة التي نسجتها جيان مع الدوفين، فقد أعجب بها - وربما رُوع أيضاً - إلى درجة دفعته إلى أن يُخضعها لاستجواب دقيق استمر أحد عشر يوماً على يد كل كاهن ولاهوتي أمكن الوصول إليه. وفُحصت الأجزاء الحساسة من جسدها، على يد ملكة المجر نفسها، للتأكد من أن عذريتها لم تمس. كما خضعت لاستنطاق صارم للتثبت من خلوها من أي هرطقة. وأُجري لها مرةً أخرى طقس طرد للأرواح الشريرة. ثم، بعد أن اجتازت جميع الاختبارات، عُيّنت قائدةً عامةً على رأس جيش فرنسي مكلف بفك حصار الإنجليز عن مدينة أورليان.

قدّم لها الدوفين سيفاً، لكنها قالت إن هناك سيفاً واحداً فقط يصلح للمهمة، وكان

مُخْبَأً خَلْفَ مَذْبَحِ كَنِيسَةِ الْقَدِيسَةِ كَاتَرِينِ فِي فِيرَبُوا. وَصَفَتْ هَذَا السِّيفَ بِدَقَّةٍ لَافِتَةٍ. قَالَتْ إِنَّ عَلَى نَصْلِهِ خَمْسَةَ صُلْبَانٍ مُتَسَاوِيَةِ الْأُذْرُعِ. وَقَدْ وُجِدَ السِّيفُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي حَدَدْتَهُ بِالضَّبْطِ، بَيْنَ كَوْمَةٍ مِنْ نَذُورٍ مَنَسِيَةٍ خَلْفَ مَذْبَحِ الْكَنِيسَةِ. وَعِنْدَمَا أُزِيلَ عَنْهُ الصَّدَأُ، ظَهَرَتِ الصُّلْبَانُ. وَوَفْقًا لِلْأَسْطُورَةِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ السِّيفُ هُوَ ذَاتُهُ الَّذِي حَمَلَهُ الْبَطْلُ شَارْلُ مَارْتِيل. لَمْ تَسْتَخْدَمْ جِيَانُ هَذَا السِّيفَ سِلَاحَ قِتَالٍ، بَلْ رَفَعَتْهُ رَمْزًا لِلْقِيَادَةِ وَشِعَارًا لِفَرَنْسَا. (332)

وَأَثْنَاءَ مَسِيرَتِهَا مَعَ الْجَيْشِ إِلَى الْحَرْبِ، كَانَتْ تَحْمِلُ رَمُوزًا أُخْرَى أَيْضًا. أَشْهَرُهَا كَانَتْ رَايَتُهَا. كَانَتْ مَرْسُومَةٌ عَلَى حَرِيرٍ أَبْيَضٍ، وَتَحْمِلُ صُورَةَ مَلَائِكَيْنِ يَعْبدَانِ مَلِكَ السَّمَاءِ. وَقَالَتْ إِنَّ الْمَلَائِكَيْنِ يُمَثِّلَانِ عَدَدًا لَا يُحْصَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ. كَمَا كَانَتِ الرَّايَةُ تَحْمِلُ الْكَلِمَاتِ «Jhesu Maria» (يَسُوعُ مَرْيَمَ). وَأَوْضَحَتْ لِلْقَاضِيَيْنِ أَنَّهَا لَمْ تَحْتَرِ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ بِنَفْسِهَا، بَلْ اخْتَارَهَا «كَاتِبٌ» - أَيْ رَجُلٌ مُتَعَلِّمٌ - وَهُوَ إِسْكُتْلَنْدِي يُدْعَى بَاوَرَز. وَكَانَتْ هُنَاكَ أَيْضًا زَهْوَرُ الزَنْبَقِ «fleurs de lys» عَلَى الرَّايَةِ، رَمْزًا لِأَوْرَلِيَانِ وَلِفَرَنْسَا. لَمْ تَكْتَفِ بِرَفْعِ عِلْمِ فَرَنْسَا أَوْ أَوْرَلِيَانِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَوْمُنُ بِأَنَّ مَهْمَتَهَا أَتَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

وَمِنْ رَمُوزِهَا الْأُخْرَى - الْمُقَدَّسَاتِ الَّتِي اقْتَرَنَتْ بِجِيَانٍ - كَانَ الْخَاتَمُ. كَانَتْ تُرَى كَثِيرًا وَهِيَ تُقَبَّلُ هَذَا الْخَاتَمُ أَوْ تُمَسَّكُهُ بِالقَرَبِ مِنْ وَجْهِهَا. لَمْ يَكُنْ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، بَلْ مِنَ النِّحَاسِ الْأَصْفَرِ، يَلِيقُ بِابْنَةِ فَلَاحِينَ. وَكَانَ مَنقُوشًا عَلَيْهِ صَلِيبٌ وَكَلِمَتَا «Jhesu Maria» (يَسُوعُ مَرْيَمَ).

وخلال مسيرتها عبر إقليم لوار لفك الحصار عن أورليان، وبعدها لطرده الإنجليز من القلاع التي احتلوها على ضفتي النهر، أظهرت جيان مرارًا قدرتها الفذة على تعبئة الناس للقتال من أجل قضيتها، وعلى استنزاف الروح المعنوية والحماسة القتالية من أعدائها. قال نابليون إن أهم صفة في القائد العسكري هي الحظ، وكان حظ جيان وفيرًا في تلك الفترة، وإن كان لا بد وأنها كانت تعتبره عناية إلهية. لكنها كانت تملك أيضًا

قدرةً استثنائيةً على تغيير قلوب الرجال وعقولهم. قبل وصولها إلى ساحة القتال، كان الفرنسيون شعباً مهزوماً لا رغبة لديه في القتال. والآن كانوا يندفعون إلى الانضمام إلى جيشها. أما الإنجليز، الذين كان لديهم كل أسباب الثقة، فقد بدأوا في التراجع. حتى الطقس بدا وكأنه في صفها. ففي أثناء محاولة لعبور نهر اللوار من ضفته الجنوبية إلى شرق أورليان، حيث كان الإنجليز يحتلون معقلاً واحداً، ردّتهم عاصفة قوية. حتى ظهرت جيان، فتحوّلت الريح وصارت مواتيةً لهم.

وفي تعاملاتها مع العدو، بدت جيان أحياناً لا كمجرد عرّافة، بل كساحرة قادرة على التأثير النفسي العميق. في القتال على لي توريل، الحصن الذي يسيطر على الجسر المؤدي إلى أورليان، دخلت جيان في حوار حاد مع غلاسديل، القائد الإنجليزي، وقالت له إنها تشفق على روحه. وبعدها بقليل، سقط غلاسديل عن الجسر، وهو بكامل دروعه، وغرق في نهر اللوار.⁽³³³⁾ بين أعدائها، زاد هذا من سمعتها كساحرة، تمتلك القدرة على التلاعب بعقول خصومها ودفعهم إلى تدمير أنفسهم.

أثبتت جيان مرة أخرى موهبتها كعرّافة خلال حصار القلعة التي كان يحتلها الإنجليز في جارغو، حين أنقذت حياة ألونصون بتحذيره من أنه إن لم يغيّر موقعه فسوف يُقتل بواسطة «آلة بارود» إنجليزية أشارت إليها على الأسوار. انتقل ألونصون من مكانه، وشاهد جندياً فرنسياً آخر يُقتل بواسطة مدفع إنجليزي في الموضع ذاته.⁽³³⁴⁾

مكتبة

t.me/soramnqraa

غزال باتاي

كان إيرل سوفولك أحد القادة الإنجليز الذين أسرتهم قوات جيان عندما استولت على جارغو. بعد أسبوعين، بينما كانت جين تقود جيشها شمالاً في الطريق الطويل إلى ريمس لتنفيذ وعدها بتتويج الدوفين في تلك المدينة العتيقة، تلقى سوفولك رسالة قصيرة من أربعة أسطر. كانت تحتوي على نبوءة قديمة، مكتوبة باللاتينية ومنسوبة إلى

(333) Friar Jean Pasquerel, Jehanne's confessor, in Duparc, Procès en nullité, 1:395.

(334) Pernoud, Joan of Arc, p. 114.

مِـرلِـن. تحدّثت نبوءة مِـرلِـن هذه عن حدث فلكي – Descendit virgo dorsum – أي «العذراء ستركب ظهر الرامي» – وهو ما يمكن تفسيره أيضًا على أنه نبوءة سياسية؛ عذراء ستسيطر على الرماة.⁽³³⁵⁾ وكان الرماة الأكثر بؤًا للرعب في العالم حينها هم رماة السهام الطويلة الإنجليز. وكانوا على وشك أن يُهزموا في معركة باتاي التي وصفها مارك توين بدقة بأنها «واحدة من المعارك القليلة التي تستحق أن توصف بالعظيمة والمهيبة».⁽³³⁶⁾

كان النصر الفرنسي في باتاي، في 18 يونيو 1429، هدية من أيل. على أقل تقدير، تمثل هذه الحادثة مثالاً مذهلاً على أهمية المصادفة – أو الحظ – في التاريخ.

لا يوجد اليوم ما يشير إلى موقع المعركة. قد يشير انخفاض بسيط في حقل قمح إلى تقاطع طريق روماني قديم بين باريس وبلوا وطريق آخر بين شارتر وأورليان. ويتفق معظم المؤرخين على أن المعركة وقعت هناك.

لم تكن جيان في الميدان حين تحقق النصر، وهذا أمر مهم للغاية، إذ كان من عاداتها أن تضع نفسها في طليعة قواتها، تلوّح برايتها، وتحث رجالها على الهجوم على العدو أو تسلّق الأسوار. ولكن في ذلك اليوم، جاء الأيل بدلاً منها.

في عشية معركة باتاي، كان جيش جيان متوترًا. كانوا قد أنقذوا أورليان وطرّدوا الإنجليز من وادي اللوار. لكنهم كانوا يواجهون الآن فرقة إنجليزية جاءت للإغاثة، ورغم أن عدد الفرنسيين كان ضعف الإنجليز، فإنهم لم يكونوا قد اعتادوا النصر. كان الإنجليز يتفوقون عليهم منذ بدء حرب المئة عام. كانت الأرقام دائمًا لصالح الفرنسيين، لكنها كانت بلا جدوى أمام انضباط الإنجليز، ومعنوياتهم، وتماسك قيادتهم، ومدى سهامهم الطويلة.

شجعت جيان قواتها، ووعدتهم بنصر سيغير كل شيء. قالت لألينصون إنه عليه أن

(335) The Merlin prophecy is in MS. 7301 of the Bibliothèque Nationale in Paris. The account of the message that reached Suffolk is in the testimony of Jean, Bastard of Orleans, at the trial of nullification.

(336) Mark Twain, Personal Recollections of Joan of Arc (New York: Gramercy, 2000).

يرتدي مهاميز خيل جيدة، لأنه سيتعين عليه ملاحقة العدو ليدحره ويهزمه شر هزيمة. وقالت لفرسانها إنه، حتى لو كان الإنجليز يتدلون من الغيوم، فإن من يسير تحت رايتها سيتغلب عليهم.

كان اشتباكًا غريبًا يتكشف. فقد علم القادة الإنجليز، تالبوت وفاستولف، خلال الليل أنهم وصلوا متأخرين عن إغاثة حاميتهم في بيوغينسي، التي استسلمت للعدراء. فأمرؤا قواتهم بالانسحاب بهدوء ونظام، عبر الغابات القريبة من باتاي. أمرت جيان قواتها بمطاردتهم، ووضع الفرسان الذين يرتدون الدروع في الطليعة. لكن جنود الاستطلاع الفرنسيين فقدوا أثر الإنجليز في الظلام الكثيف للغابة المتشابكة. وكان لديهم سبب وجيه للخوف من أن يكون الإنجليز قد نصبوا فخًا كعادتهم.

بالقرب من ذلك الانخفاض في حقل القمح، كان خمسمائة من نخبة الرماة الإنجليز يثبتون أوتادًا مديبةً في الأرض. تحيط بهم شجيرات كثيفة يتخللها فرسان مترجلون، وكانت تلك الأوتاد تشكّل سورًا حصينًا أمامهم بينما تركز القسم الرئيسي من القوات الإنجليزية بقيادة فاستولف على التل خلفهم، وكانوا مستعدين لإبادة أي مهاجمين فرنسيين يحاولون اقتحام موقعهم وجهاً لوجه. كانت السهام الإنجليزية الطويلة آنذاك مثل «المدافع الرشاشة» في يومنا هذا؛ فقد أبادت جيوشًا فرنسية من قبل، ولم يكن ثمة سبب يدعو للاعتقاد بأنها ستفشل هذه المرة.

لكن لم يُسمَح لهم بإتمام فخمهم. تكفّل الأيل بذلك. المصدر الأساسي لما حدث هو رواية القبطان البورغندي جان دي وافران، الذي قاتل في صفوف الإنجليز في ذلك اليوم. وصف وافران كيف كان تالبوت ينصب كمينه، محتفياً عن الفرنسيين، حينما «خرج أيل من الغابة، واندفع يخوض وسط خط المعركة الإنجليزي، فارتفعت صيحات عظيمة، إذ لم يعلموا أن عدوهم قريب جدًا منهم».⁽³³⁷⁾

لم يدرك الإنجليز أن الفرنسيين قريبون، فانخرطوا في نوبة صيد هستيرية، يصرخون ويركضون خلف الأيل. وإذ سمع الكشافة الفرنسيون هذه الجلبة، تمكنوا من تحديد

مواقع الإنجليز، وأرسلوا عدائين إلى لا هير، أحد أكثر محاربي جيان إخلاصًا وشراسة، لتنبيهه إلى وجود فرصة سانحة. وعندما وصل الفرسان الفرنسيون، وجدوا رماة السهام الإنجليز المخيفين خارج مواقعهم، لا يزالون منشغلين بتحصين حواجزهم. فاندفع الفرسان والجنود الفرنسيون عبر السهل، يشقون صفوف الإنجليز ويطؤون عليهم على امتداد خطهم القتالي. وسرعان ما انتشر الذعر في صفوف الإنجليز. وأسر تالبوت. وفرّ فاستولف، على رأس قوة إنجليزية ثانية، هاربًا إلى باريس، حيث جُرد من وسام الرباط بأمر من نائب الملك الإنجليزي، دوق بيدفورد. وكانت أرقام الخسائر مذهلة. خسر الإنجليز ألفي رجل من أصل ثلاثة آلاف. أما الجيش الفرنسي، الذي كان عدده يقارب الستة آلاف، فقد قُتل منه ثلاثة فقط. (338)

«وكان ذلك بفضل الأيل».

كان رائعًا. كانت خيوط من المخمل تتدلى من قرونة الضخمة. هل كان يهرب من جنود الاستطلاع الفرنسيين، أم كان يجري لمساعدتهم في تحقيق مأربهم؟

بكشفه عن مواقع الإنجليز، ساعد غزال باتاي في تحقيق وعد جيان بنصر عظيم. لم يعتقد أحد آنذاك أن ظهور الأيل كان محض صدفة. فالعقلية في العصور الوسطى لم تكن تقبل بوجود مصادفات بلا مغزى. ففي وقائع هذا العالم، كان معاصرو جيان يبحثون عن «بصمات» لقوى تعمل في واقع خفي.

لم يجرؤ أي من المؤرخين المعاصرين على جمع خيوط هذه القصة. كما لم يجرؤ كتاب سير جان التقديسية على ذلك، خشية أن يؤدي التركيز المفرط على علاقتها بالغزال إلى إعادة فتح ملفات الاتهام بممارسة السحر.

لقد أرسلت جان الغزال. بعيدًا عن خطوط المواجهة، وبينما كانت غارقة في غيبوبة تأملية تحت ظل شجرة، أطلقتها بإرادة منها، كما عرف الشامان والعرافون منذ القدم كيف يفعلون ذلك. هل ذلك ممكن؟

أمام القاضيين اللذين كانا يحاكمانها، ومن باب الحياء ولتفادي تهمة ممارسة السحر، قالت: «لقد ظهر الغزال كعلامة رمزية تشير إلى مشيئة عليا». وستذكر المتدينون أن الأيل - المزدان بالصليب كما يليق - ظهر لقديسي الكنيسة، مثل القديس أسطاسيوس.

التاج والمحرقه

بعد معركة باتاي، كسرت جيان سيفها - سيف الصלבان الخمس الذي عُثر عليه خلف مذبح القديسة كاترين في فيربوا - حين استخدمت نصله المسطح لتضرب امرأة من نساء المعسكر كانت تخدم الجنود. ورأى بعض الناس أن انكسار السيف كان اللحظة التي بدأ فيها حظها بالتبدل.

رافقت الدوفين إلى ريمس، ووقفت وهي ترتدي درعها، ورايتها مرفوعة عاليًا، حين نُوج شارل السابع ملكًا، فحققت بذلك وعدًا آخر من وعودها. ومنذ تلك اللحظة، بدأ نورها وقوتها في الأفول. لم تُدعَ إلى الولائم الاحتفالية التي تلت التتويج. ولم يكن المُقرّين من الملك يملكون الجرأة على مواصلة الحرب، وراحوا يوجهونه نحو فيخاخ دبلوماسيّة خادعة نصبها دوق بورغندي.

حملت جيان رايتها إلى أسوار باريس، متحديةً رغبة الملك. وكما اعترفت لاحقًا للقاضيين اللذين كانا يحاكمانها، فإن الأصوات لم تأمرها بمهاجمة باريس، بل تحرّكت بسبب «بعض النبلاء المسلحين»، وبسبب رغبتها الشخصية «في عبور خنادق باريس». لم تعد دعوتها واضحة. ومن المعروف أن هجومها على باريس فشل. كانت المدينة هائلة، وأسوارها ضخمة، ولم يحرك وجود العذراء انتفاضةً شعبيةً على أسياها المدينة البورغنديين. اندفعت إلى طليعة الهجوم، كعادتها، فيما كان رجالها يحاولون ردم الخندق أمام بوابة سان أونوريه. أصيبت في فخذهما بسهم أطلقه أحد النبّالين، وكان قد وجه إليها إهانة قاسية، وأبعدت عن ساحة القتال بأمر من أليانسون، رغم احتجاجها الشديد.

بعد باريس، أخذت طريق جيان في الانحدار الحاد. تحرك الملك جنوبًا، بعيدًا عن

العدو، واضطرت هي إلى مرافقة البلاط. وانفصلت عن «دوقها النبيل». وبعد شتاء بائس اتسم بالوحدة والجمود، أرسلها مستشارو الملك عبر طرق موحلة مُرّية، بلا طعام كافٍ ولا سلاح لرجالها، للهجوم على حصون أحد البارونات اللصوص شرق أورليان، وتلقت أول هزيمة لها، خارج مدينة مسورة تحمل اسمًا ساخرًا هو «الرحمة على اللوار».

خاضت جيان معركتها الأخيرة دفاعًا عن مدينة كومبيين الشمالية في مواجهة البورغنديين. هذه المرة، كانت تواجه العدو من داخل الأسوار. وبسبب الإحباط من الحصار، قادت غارةً، فوقعت في مواجهة مع قوات تفوقها عددًا بكثير، ثم وجدت بوابة المدينة مغلقة في وجهها حين حاولت أن تتراجع تراجعًا ضروريًا. لا يزال المؤرخون يتجادلون حول ما إذا كانت قد تعرضت للخيانة من قائد كومبيين أم أن استراتيجيتها هي التي خانتها. أُسرت على يد جندي بورغندي. كانت قد تنبأت مؤخرًا بأنها ستؤسر، لكن يبدو أنها لم تكن تعلم أن ذلك سيحدث في ذلك اليوم. وإذا ما كانت الأصوات والرؤى التي كانت تراودها قد تلاشت، وإذا ما خذلتها قوتها، فربما كان ذلك لأنها، منذ ريمس، كانت قد انحرفت بشدة عن مهمتها.

باعها أسروها البورغنديون للإنجليز، الذين دبّروا محاكمة لها في روان، بنورماندي، بهدف تشويه سمعتها وتوفير ذريعة لإعدامها. لم يكن هناك سوى قاضيين اثنين. القاضي الرئيسي، بيير كوشون، أسقف بوفيه، كان أداة في يد الإنجليز. أما القاضي الثاني، وهو موظف رسمي في محكمة التفتيش المقدسة، فقد شعر بإحراج شديد من وحشية الإجراءات وعدم عدالتها لدرجة أنه تغيب عن معظم جلسات المحاكمة. وكان عدد كبير من «المستشارين المساعدين»، الذين جُنّدوا لاستجواب المتهم وإضفاء طابع رسمي لائق على الإجراءات، حرفيًا يتقاضون رواتبهم من الإنجليز منذ سنوات.

وعلى الرغم من أن من المفترض أن محاكمتها كانت تجري بموجب القانون الكنسي بتهمة الهرطقة، إلا أن جيان احتُجرت في سجن علماني، في عهدة رجال - جنود إنجليز

فُسَّاق وبذيثون - أو كل إليهم دور سجانيتها. في البداية، وُضِعَتْ داخل قفص حديدي، مُقَيِّدة من العنق واليدين والقدمين.

كان الرجال القائمون على المحاكمة يريدون موتها، ولم يتورعوا عن فعل أي شيء لتحقيق ذلك. ومع ذلك، فقد حرص كُتَّاب المحاضر على توثيق وقائع المحاكمة بأمانة وتفصيل. كانوا يراجعون جيان باستمرار للتأكد من موافقتها على ما دُوِّن في المحاضر. كما راجع بعضهم نسخ بعض، وحتى عندما كان المستشارون المساعدون يتسابقون لقطع حديثها، وتحريف أقوالها، ونصب الفخاخ لها، ظل الكتبة حريصين على ضمان أن تُمنَح في سجلات المحاكمة قدرًا من العدالة لن تناله في أي مكان آخر. وهكذا أصبحت سجلات المحاكمة واحدة من أكثر الوثائق استثنائية في العصور الوسطى، ويخيل إليك وأنت تقرؤها، أنك تسمع صوت عذراء أورليان ذاته.

فلنصغ إلى ذلك الصوت، وهي تُجيب على أسئلة القاضيين اللذين كانا يحاكمانيها والمستشارين الماعدين حول طبيعة رؤاها.

كان أولئك الذين أرادوا قتلها يريدون أن يعرفوا عن الشجرة. ولم يكن عليهم هذه المرة أن يلحوا في السؤال أو يكررونها. كان ذلك في اليوم الثالث من المحاكمة العلنية، في 24 فبراير 1431.

السؤال: «ما قولك بشأن شجرة معينة قريبة من قريرتك؟»

لم تتردد. لم تُخَفِ أمر الشجرة. كيف لها أن تخفيه؟

جيان: «على مسافة ليست بعيدة عن دومريمي، توجد شجرة يُطلَق عليها اسم شجرة السيِّدات. ويسمونها آخرون شجرة الجنيات. وبالقرب منها نبع ماء، يأتي إليه أناس مصابون بالحمى ليشربوا منه، كما سمعتُ، ويأخذوا ماءً لاستعادة عافيتهم.»

أبدت هنا قدرًا من الحذر. لقد رأت الحُجَّاج يأتون إلى تلك الشجرة، لكنها لا تضمن قدرتها على الشفاء. قال كبار السن إنهم رأوا جنيات عند الشجرة. كانت إحدى عرَّاباتها، وهي جيان أوبيري، قد رأتهم. أما جيان، فلم تُفصِّح عمَّا رآته. نعم، لقد

رقصت وغتّت عند الشجرة وعلقت أطواق الزهور على أغصانها. لكنها، ومنذ بدأت مهمتها لتحرير فرنسا، نأت بنفسها «قدر المستطاع عن هذه الألاعيب والملهيات». لقد كانت تتجنّب دومًا أن تعدّ بأنها ستقول للقاضيين اللذين كانا يحاكمانها «الحقيقة كاملة».

فماذا رأت عند الشجرة، إن لم يكن الجنيات؟

سألها مستجوبوها لاحقًا (في 18 مارس 1431) عمّا تعرفه عن أولئك الذين «يسافرون في الهواء مع الجنيات». فأجابت بأنها لم تفعل ذلك بنفسها، لكنها بالتأكيد سمعت به. وقد سمعت أن هذا النوع من الطيران يحدث في أيام الخميس. وكان ذلك من المعارف الشائعة لدى سكان الريف. أخبرت جيان القاضيين اللذين كانا يحاكمانها أن هذا ليس إلا «سحرًا»، تعويذة، لا أكثر.

في جلسة مغلقة (بتاريخ 15 مارس 1431)، سألوها عن زوّارها.

السؤال: «إذا تمثّل الشيطان في هيئة ملاك، كيف يمكنك التمييز إن كان ملاكًا صالحًا أم شريرًا؟»

جيان: «سأعرف تمامًا إن كان القديس ميخائيل أو كان مزيفًا. أول مرة جاني، راودني شك كبير إن كان القديس ميخائيل، وكنت خائفة جدًا. رأيته مرات عديدة قبل أن أتأكد من أنه القديس ميخائيل.»

كانت هذه إجابة جريئة على نحو مذهل أمام رجالٍ أوكّلت إليهم مهمة إرسالها إلى المحرقة. لقد قالت: «رأيته مرات عديدة قبل أن أتيقن من أنه القديس ميخائيل.» فماذا كانت تظن في البداية، قبل أن تُلقن أن تعطي أسماء قديسين كاثوليك للقوى غير المرئية التي صارت مرئية لها؟

تابع القاضيان اللذان كانا يحاكمانها هذا السؤال بشكل غير مباشر، إذ طلبا منها أن تصف القديس ميخائيل كما تراهى لها.

السؤال (بتاريخ 17 مارس 1431): «ما هي الهيئة، والحجم، والنوع، واللباس

الذي جاء في القديس ميخائيل؟»

جيان: «في هيئة رجلٍ فاضلٍ حقًا [prud'homme]؛ أما لباسه وسائر التفاصيل فلن أقول عنها شيئًا آخر.»

قالت للقاضيين اللذين كانا يحاكمانها إن ميخائيل هو من سمى الأرواح الأنثوية التي زارتها، كالقديسة مارغريت والقديسة كاترين. وهما اسمان قديستين كانت صورهما تُعرض ويُتعبَد لهما في كنيسة الرعية في دومريمي. كانت جيان ترى صورهما منذ صغرها، كما اعتادت منذ طفولتها على رؤية «شجرة الجنيات» في غابة البلوط، تلك التي كانت الفتيات يزينها بالأزهار، والرجال يعلّقون عليها القرون.

يشكك علماء كاثوليك معاصرون في وجود قديسة حقيقية باسم مارغريت أو كاترين؛ فالسير الذاتية المنسوبة إليهما هزيلة وتتداعى عند التدقيق. وفي عام 1967، أعلنت الكنيسة الكاثوليكية أن قصة استشهاد كاترين omnia fabulosa «متخيّلة» بالكامل.

وأنا لا أشك للحظة في أن زوّار جيان كانوا حقيقيين تمامًا، لكن ربما استخدموا أسماء مستعارة.

لقد أعدموها بتهمة ارتداء زيّ الرجال. وحين أنهكوها، تمكّنوا في النهاية من إقناعها بتوقيع وثيقة «تنازل» تعترف فيها بجرائمها. لم تتعدّ النسخة التي وقّعتها بضعة سطور، ووقّعت عليها بعلامة بدلًا من الاسم الذي تعلمت أن تكتبه، في إشارة إلى من يفهم أنها ليست اعترافًا حقيقيًا. لاحقًا، قدّم القاضيان اللذان كانا يحاكمانها وثيقة تنازل أطول بكثير، تعترف فيها بجرائم لم تعترف بها قط؛ ومن المرجّح أن هذه الوثيقة كانت ملفّقة.

غضب الإنجليز بشدّة من توقيعها لأي وثيقة، لأن ذلك كان من شأنه أن يؤدي إلى تخفيف الحكم من الإعدام إلى السجن مدى الحياة. لكن توقف للحظة: قال الأسقف كوشون، وهو يعدّ مع بيدفورد، سيده الإنجليزي: «سنهزمها». فقد اعترفت بارتكاب «الجريمة» المتمثلة في ارتداء ملابس الرجال. وأي عودة لهذا الفعل تُعدّ هرطقة، عقوبتها الموت. فأُعيدت إلى السجن نفسه، تحت إشراف نفس السجّانين الذكور

الهمجيين، الذين نزعوا عنها ملابس النساء التي أُعْطِيَتْ لها، فلم يَبَقَ لها خيار - عدا أن تظهر عارية أمام أولئك الوحوش - إلا أن ترتدي مجددًا ملابس الرجال التي قدموها لها. وبسبب ارتدائها لتلك الملابس، هذه المرة قسرًا، أُحْرِقَتْ على الوتد.

من تحت الرماد

أُحْرِقَتْ ثلاث مرات، لأنَّ أعضائها الداخلية قاومت النار. وبعدها، أُلْقِيَ برماها في نهر السين. ومع ذلك، في عام 1867، عُثِرَ على جزء من ضلع وعظام أخرى، بما في ذلك عظم فخذ لقطة، داخل إناء من صيدلية في باريس، يحمل ملصقًا يقول: «بقايا وُجِدَتْ تحت موقد محرقة جان دارك». اعتُبرت هذه البقايا ذخائر حقيقية وعُرضت في تور، إلى أن أثبت علم الطب الشرعي أنها كانت خدعة: كان الضلع مستعارًا من مومياء مصرية. ورغم أنه عُثِرَ عليه في صحبة مشبوهة، لاحظ المحقق الفرنسي أن عظم فخذ القطة لم يكن بالضرورة جزءًا من الاحتيال. ففي زمن جيان، كان من المألوف أن تُلقى قطة («أورمز شيطاني آخر») على محرقة ساحرة.⁽³³⁹⁾

تنبأت أثناء المحاكمة بأن «الإنجليز سيضطرون، في غضون سبع سنوات، إلى التخلي عن غنيمة أكبر من أورليان». واستعاد الفرنسيون باريس في 12 نوفمبر 1437، بعد ست سنوات وثمانية أشهر من نبوءتها.

وبعد ربع قرن من مقتلها، عُقِدَتْ محاكمة «إبطال» بأمر من البابا ألغت الأحكام الصادرة بحقها. وتدفق العديد من عرفوها للاحتفاء بشخصيتها ومواهبها الرؤيوية.

ورغم أن الكنيسة لم تعلن قداستها رسميًا إلا في عام 1920، فلا شك أن جان دارك قديسة كاثوليكية بحق. لقد كانت تسير تحت راية يسوع ومريم. وكان يرافق جيشها عددٌ كبيرٌ من الكهنة والرهبان، الذين كانوا يُقيمون الصلوات ويحرقون البخور أثناء تقدم الجنود. كانت تحضر القداس وتؤدي طقس الاعتراف بشكل شبه يومي. وتحدثت

(339) Christian Panvert, "Mystery of Joan of Arc Is Solved," The Independent, December 17, 2006, quoting Dr. Philippe Charlier.

مع ميخائيل، والقديسة كاترين، والقديسة مارغريت. وكانت كثيرًا ما تتوسل إلى القديس مارتن - «يا مارتني» - الذي يُعدّ شفيعًا لفرنسا وبيوتها الملكية منذ عهد سلالة الميروفنجيين. (340)

ومع ذلك، كانت تلك الكائنة القديمة، الـ«فويانت» - العرافة المنبثقة من تقاليد الغال والسلت، والـ«فولفا» في الأراضي النوردية - قادرة على الرؤية بمعونة الأشجار، وقد وصفها يوليوس قيصر بأنها أخطر خصومه. (341)

يتعين علينا أن نعرف جيان. نحن بحاجة إليها. يلزمنا أن نعرف ما كانت عليه، وما لا تزال عليه. في أحلك لحظات الحرب العالمية الثانية، كان تشرشل يفهم ذلك.

(340) It is ironic that Jehanne invoked Saint Martin of Tours, because he was a celebrated tree-cutter while bishop of Tours after 371. Sulpicius Severus, who wrote his first life history and knew him personally, reported that the locals did not resist when Martin pulled down ancient pagan temples, but they opposed him bitterly when he attacked the sacred groves in his efforts to root out druidic practices. Severus, *On the Life of St. Martin*, trans. Alexander Roberts (1894), available online at www.users.csbsju.edu/~eknuth/npnf2-11/sulpitii/lifemart.html.

(341) The importance of trees in early European seership and spiritual practice can hardly be overstated. Robert Graves takes us into these realms with his inspired poetic exploration of the Celtic Battle of the Trees in *The White Goddess*. There are treasures awaiting future dream archeologists in this field.

الفصل الثامن

جاسوسة الأحلام المدريدية الجميلة

المحقق: «لماذا اعتُقلت؟»

لوكريسيا دي ليون: «بسبب الأحلام المكتوبة.»

من «محكمة طليطلة»، 4 يونيو 1590

عانقها وقال لها: «جمالكِ يُوقظ القلب ولو سكنه الصمت، ويزرع الحياة في الروح ولو مسّها الخمود.»

شهادة القبطان إيبانيز ضد لوبي دي ميندوزا، قاضي في محكمة التفتيش، 4 أبريل 1591

حين تستلقي على سريرها الضيق، يزورها في الحلم طيف رجلٍ غامض. وما إن يقترب منها حتى تستغرق حواسها في ارتباك عميق، لا تفهمه تمامًا، ولا تبوح به للكاهن الذي يزورها كل صباح متذرّعًا بالاعتراف، فيما يُنصت لأحلامها كما لو كانت أسرارًا لا تخصه. يتكرر الحلم، وتعود الزيارة ذاتها ليلاً، فيصعب عليها أن تتجاهل أثرها، خاصة وأن أحلامها كثيرًا ما تبدأ بوصول هذا الزائر المجهول.

«ما اسمه؟»

«لم يخبرني به قط.»

«ما شكله؟»

«يبدو عاديًا. يشبه أي رجل قوي وبنيته جيدة.»

«ماذا عن ملابسه؟ كم من أشرطة الزينة المزخرفة يضع؟»

«لا شيء غير عادي.»

كانت كلمة «عادي» ملاذاً آمناً، باهتة بما يكفي لتهدئة التساؤلات. وكلما أكثر من استخدامها، قلّ اضطرابها لمواجهة أسئلة قد تستحضر في ذهنها ذكريات العلاقة التي جمعتها بذلك الرجل، وما صاحبها من أحاسيس مربكة ومشاعر متداخلة، كانت تغمرها حدّ فقدان التمييز بين الواقع والحلم.

«وكيف يتحدث؟ هل هو من عامة الناس، أم فارس نبيل؟»

«عادي.»

هكذا كتب الكاهن بريشته: El Hombre Ordinario، أي «الرجل العادي».⁽³⁴²⁾ كانت أحياناً تلاعب كاهن اعترفها قليلاً.

فقد تقول: «قال لي شيئاً عن الشخص القادم.»

وكان هذا دائماً ما يُثير فراي لوكاس بشدة. وكان دون ألونسو، سيده، يأتي ليسألها بتفصيل عن «القادم». هل هو ملك جديد لإسبانيا أم المخلص ذاته؟ كانت تشجعهم على التكهن، وهو ما منحها هالةً تنبؤية وجعلها ذات أهمية. لكنها لم تُخبرهم أن «القادم» الذي كانت متأكدة منه هو... نفسها. وكان يُثيرها، حتى وسط انحناءات عائلتها وتذللهم للكهنة المتربّعين في البيت كالغربان، أن تعرف أنه حين تدخل فراشها الليلة، فإن رجلها غير العادي بالمرّة سيأتيها.

يسأل دون ألونسو، الدارس المتعمّق للكتاب المقدس: «هل يمكن أن يكون يوحنا

(342) The dialogue here is paraphrased. The transcripts of Lucrecia's dreams frequently begin: "The Ordinary Man [Hombre Ordinario] appeared in my bedroom," or "I saw the Ordinary Man." The registers of Lucrecia's dreams are in the Archivo Histórico Nacional, Sección de Inquisición, in Madrid. Richard L. Kagan supplies an index of the 415 dreams in his excellent study *Lucrecia's Dreams: Politics and Prophecy in Sixteenth-Century Spain* (Berkeley: University of California Press, 1990), pp. 167–174. Kagan rightly observes that "the registers of Lucrecia's dreams represent a source without parallel in the annals of European history" (p. 56).

«لم يخبرني باسمه قط.»

«هذا يُشبه المعمدان، أن يمحو ذاته لمجد القادم الذي يُبشّر به. ألا توافقين، يا آنسة؟»

«لست بعالمية يا صاحب السمو.»

لم تكن تدري كيف بدأ الأمر، حتى أمام نفسها. لم تكن متأكدة هل تسلل عبر شقّ النافذة، أو جاء كنسمة هواء من تحت الباب ليقف فوق سريرها، أم تجسّد فجأة من العدم. وربما كانت هي نفسها من دخلت إلى عالمه. وهذا ممكن، رغم أن الغرفة بدت كما هي، في بيت والديها، بصليب معلق فوق السرير، ووعاء تحت الغرفة.

كانت ترغب في أن يأتيها عشيق أحلامها متجسّدًا، ويُفضّل أن يكون لديه من المال والمقام ما يكفي لإقناع والدها بأنه سيكون زوجًا مناسبًا لفتاة عذراء من عائلة محترمة تعرف طريقها إلى بلاط الملك. كانت لوكريسيا على وشك أن تبلغ العشرين، وهو سن يُعد متأخرًا جدًا للزواج. لم تكن تعلم، عندما بدأت الأحلام، أنها ستصبح ذات قيمة عظيمة لدى رجال نافذين لا يهتمون كثيرًا بمسألة زواجها. في صباح الأيام التي كان فيها الراهب فراي لوكاس يدون أحلامها، كان رسول مسلح ينتظر في شارع سان سالفادور ذي الرائحة الكريهة، وأنف حصانه مدفون في كيس الشوفان، مستعدًا للانطلاق سريعًا إلى المدينة المقدسة، طليطلة، ليحمل آخر أخبار الأحلام إلى دون ألونسو. وكان هناك كاتب شاب، لم تكن قد التقت به بعد، إلا في الأحلام التي لم تُخبر بها رجال الدين، يهمس لها، وهو يبتسم من طرف عينه تحت رموشه، بأن أحلامها هي أهم أخبار إسبانيا.

حين تصبح الأحلام من شؤون الدولة

في إسبانيا في عهد فيليب الثاني، كانت الأحلام تؤخذ على محمل الجد. يمكنها أن تمنحك سلطة هائلة أو توقعك في ورطة عظيمة، وأحيانًا يحدث الأمران معًا في تسلسل مذهل.

كانت لوكريسيا دي ليون شابة جميلة، شابة لم تكن تريد سوى أن تحلم بعاشق وزوج رائع، لكن أحلامها قادتها إلى دهايز الشأن الملكي والمكائد بين الأمم، فانهى بها المطاف ضيفة على محاكم التفتيش (لكن نهايتها لم تكن مثل نهاية جان دارك). وبفضل الرجال الذين دونوا أحلامها، وبفضل محاكم التفتيش التي صادرت السجل لكنها حفظته، بقي لدينا تقارير عن 415 حلمًا من أحلام لوكريسيا خلال ثلاث سنوات (1587-1590)، وهي محفوظة الآن في الأرشيف التاريخي الوطني في مدريد. تقدم هذه الوثائق نافذة مذهلة على جوانب بالغة الأهمية ولكن قليلة التوثيق من التاريخ؛ على حياة النساء وتجربة الحلم في عصر النهضة والإصلاح المضاد.

لم تكن لوكريسيا مثل جان دارك؛ فقصتها بدأت وانتهت بطريقة مختلفة تمامًا. ولم تكن كذلك مثل هيلدغارد أو تيريزا دي أفيللا، الراهبتين الصوفيتين واللتين كانت كل منهما «أم روحية» تاقت إلى زواج روحي والدخول إلى قلاع القلب الداخلية. كانت لوكريسيا شابة مفعمة بالحياة، تتوق إلى كنوز ومتاع هذه الدنيا، بدءًا من زوج وعاشق مناسب. كانت جميلة وجذابة، وكانت تعرف ذلك. وتمتعت بجاذبية وتأثير هائلين في الرجال.

كانت لوكريسيا متنبئة حقيقية، وطريقتها الأساسية في معرفة ما يجري - عبر الزمن ووراء الأبواب المغلقة - كانت عبر أن تدخل إلى الغيبيات عن طريق الحلم. وهكذا رأت في الحلم هزيمة الأرمادا الإسبانية قبل سنة من انطلاقها إلى إنجلترا عام 1588. رُجِّحَ بها إلى دور في الساحة السياسية ربما لم تكن تطمح إليه، وإن كانت قد أغرقتها السلطة والنفوذ الاجتماعي الذي منحه لها هذا الدور. في زمانها ومكانها - إلا عندما كانت تُغمض عينيها وتطير إلى أماكن أخرى - لم تكن المرأة تملك قوة إلا إن كانت قد وُلدت فيها، أو نالتها من خلال الزواج أو الجنس مع الرجل المناسب، أو كان معترفًا بها بوصفها متنبئة حقيقية.

كانت تنال تقديرًا عظيمًا من فصيل نافذ في مدريد، سعى لاستخدام العناصر التنبؤية في أحلامها لدعم أجنדתه التحديثية الرامية إلى تقييد سلطة الملك وإنهاء حربٍ مدمرة

ونهب عامة الناس؛ حالة مثيرة للاهتمام للغاية لتيار تحرري يستخدم تقنيات دعاية ووساطة من العصور الوسطى. رُسِمَت لوحات لأحلامها، واستضافت دوقة إنجليزية المولد صالوناً مسرحياً راقياً للغاية، حُوِّلَت فيه أحلام لوكريسيا إلى مسرحيات درامية يستطيع الآخرون مشاهدتها.

مثل جيان، ظهرت موهبة لوكريسيا دي ليون عندما كانت على وشك البلوغ. عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، تحدثت إلى أسرتها عن حلم بموت شخصية ملكية. كان الموقع دقيقاً تماماً؛ مدينة بطليوس، على الطريق إلى لشبونة التي كان الملك مسافراً إليها. وصفت الخيول المغطاة بالسواد والنعش الجنائزي الملكي. أصيب والدها، ألونسو فرانكو، الذي كان كاتباً قانونياً، بالرعب. فالحلم بموت الملك يمكن أن يُفسَّر كخيانة. وعلى الرغم من أن الفتاة ظنت أن الجنازة الملكية في حلمها لم تكن لفيليب، كان الخطر كان قريباً بما يكفي. فضربها والدها وأمرها بآلا تحلم مجدداً. وبعد أسبوعين، وصل نبأ وفاة شخصية ملكية في بطليوس؛ ولم يكن فيليب الثاني، بل زوجته الملكة، آنا النمساوية. عندها أدركت الأسرة أن موهبة لوكريسيا حقيقية، لكن هذا لم يُحسِّن من موقف والدها. (343)

كان والدها يعمل في نسخ الوثائق لمصلحة مصرفيين من جنوا. وكان الجنويون الوحيدين تقريباً في مدريد الذين لديهم فهم فيما يتعلق بالمال. كانوا من يجد التمويل لحروب فيليب الثاني التي لا تنتهي، وللقصر الملكي الجديد المكلف بشكل فاحش، الإسكوريال. لكنهم لم يكونوا راضين عن الملك، لأنه كان كثيراً ما يتخلف في سداد ديونه. وكان فيليب الثاني قد قرر مؤخراً فقط نقل عاصمته إلى ما كان حينها مدينة غير مهمة على هضبة قاحلة مرتفعة، لا يخترقها نهرٌ صالح للملاحة إلى البحر؛ موقعٌ معزولٌ على نحو غريب لإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس. كانت أعمال مدريد تتمحور حول البلاط، في أروقة مكتظة ومكاتب تقع ضمن حصن إسلامي مُرمَّم يُدعى ألكازار.

عاشت عائلة لوكريسيا في قلب المدينة، في رعية سان سباستيان، التي عُرِفَت لاحقاً

باسم حيّ الميوزات (رموز الإلهام)، نظرًا للفنانين والكتّاب المشهورين الذين كانوا يسكنون هناك، بما في ذلك سيرفانتس. استأجرت العائلة شقة واسعة في الطابق الأرضي - واسعة، ولكن كان يشاركون فيها أحيانًا نزلًا - في منزلٍ تملكه الأرملة دوقة فيريا. ومن بين من أقاموا في المنزل مع العائلة لعدة سنوات، امرأة مغربية ربما ورثتها شيئًا من تقاليدھا في التنبؤ بالأحلام. لم يكن في منزل الأسرة أي كتب. القصص التي كانت لوكريسيا تعرفها - قصص شخصيات الكتاب المقدس وأبطال إسبانيا وملاحھا - كانت مما سمعته، وهي ما شكّل أحلامها ولوّثها.

دعونا ننتقل إلى أوائل سبتمبر من عام 1587. لوكريسيا في التاسعة عشرة من عمرها، سن يُعدّ متأخرًا جدًّا للزواج في مجتمع مدريد آنذاك. الفتاة جميلة، والرجال يجدونها جذابة، لذا لم تكن المسألة تتعلق بالمظهر. لم يصل إلينا أيّ صورة لها، لكن من عرفوها تحدثوا عن عينيها الداكنتين اللامعتين وشعرها البني الغامق، ولدينا لمحة عن هيئة جسدها. «تقديس الحمل» للأخوين فان إيك، التي تُظهر المرأة الأولى في صورتها التقليدية. فقالت أنا بدهشة: «بحق يسوع، جسدها يشبه جسديّ تمامًا من الرقبة حتى الأسفل». وهكذا، يمكننا أن نتخيل لوكريسيا كما صورها الرسامون الهولنديون للمرأة الأولى؛ بجسد متناسق وأسلوب رسم يعكس الخصوبة والجمال الطبيعي.

كما تكشف قصتها اللاحقة، كانت لوكريسيا على دراية كبيرة بالجوانب الحياتية المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية العاطفية. لذا، لم يكن غياب الزوج بسبب مظهرها الخارجي المعتاد، ولا لأنها رغبت في أن تصبح راهبة أو واحدة من العذراوات الصوفيات - البياتاس - اللواتي كنَّ منتشرات في إسبانيا. كانت تلقي باللائمة على والدها لتقصيره في أن يوفر لها مهرًا مغريًا، وفي السعي الحثيث لجذب خطّاب مناسبين لها.

مؤخرًا، عُيِّنَت لوكريسيا خادمةً في قصر الحكم لدى مربية ولي العهد، الذي سيصبح في المستقبل الملك فيليب الثالث. ويُحتمل أن هذا التعيين جاء بتأثير من مالكة منزلهم، دوقة فيريا، التي كانت امرأة إنجليزية مميزة، تُعرَف أكثر باسم الليدي جين دورمر،

وكانت يومًا ما من المقرّبات من الملكة ماري - «ماري الدموية» - مُرعبة البروتستانت الإنجليز. أثناء عملها في ألكازار، تعلّمت لوكريسيا تفاصيل الطقوس الملكية وتخطيط الشقق الملكية وغرف النوم و«صالونات الأكاذيب» (mentidoras)، والتي أصبحت مواقع مألوفة لرحلاتها الحلمية. ومن المرجّح أنها جذبت أنظار بعض النبلاء قليلي الشأن والمتطفلين على البلاط، لكنها لم تجد خطيبًا، وكان الوقت يمضي.

من جهة والدتها، كانت عائلة لوكريسيا تتمتع بصلات مثيرة للاهتمام. فقد كان من بين أقاربها حاكم سابق لولاية يوكاتان، وكان لديه شغف علمي بالفلك والتنجيم. وكان ابن عم آخر، خوان دي تيبيس، يعمل في خدمة عشيرة ميندوزا، التي لم يكن يعلموها نفوذًا سوى آل هابسبورغ.

في بداية ذلك الشهر، زارها خوان دي تيبيس «ليحتسي كوب ماء» ويتبادل أحاديث الشائعات. كانت لوكريسيا مشهورة في العائلة بأنها حاملة، لذا لم يكن من الغريب أن يسألها إن كانت رأت أي أحلام مثيرة مؤخرًا. فهزّت كتفيها قائلة عبارة لافتة: «Unos desvaríos diabólicos»؛ أي مجرد بعض الهلوسات الشيطانية.⁽³⁴⁴⁾ هذه العبارة تحمل في طياتها معنى خفيًا قد لا يدركه القارئ المعاصر. ففي زمن لوكريسيا، كان الإيوان راسخًا لدى الغالبية بإمكانية رؤية المستقبل والتواصل مع قوى غير بشرية من خلال الأحلام العظيمة. ما كانت الكنيسة والدولة تريدان معرفته هو: هل هذه الأحلام القوية مصدرها الخير والهدى، أم هي من وساوس الضلال؟ وأصدرت محاكم التفتيش كتيبات لمساعدة مسؤوليها على الفصل في هذه الأمور.

سواء كان حلم لوكريسيا «شيطانيًا» أو مجرد «هذيان»، أصّر خوان دي تيبيس على أن ترويّه. فبدأت تسرد قصة غريبة عن رجل بري المظهر، يرتدي زيّ جندي، درعه نصف مكتمل، يلفظ الحبوب ثم الحليب من فمه. يمكننا أن نخمّن أنها استحوذت على انتباه جميع الحاضرين في صالة العائلة. الرجل الذي وصفته لوكريسيا كان شخصية شهيرة؛ إذ كان جنديًا سابقًا يُدعى بيدرولا، أمضى نصف عمره في مستشفى المجانين،

(344) "Unas desvaños diabólicos": Kagan translates this as "only some diabolical rubbish" (p. 45).

والنصف الآخر ينتقل من ميدان إلى آخر، يتفوه بأحلام ونبوءات تتنبأ بخراب إسبانيا. في بعض روايات أحلامه، كان أعداء إسبانيا - الفرنسيون والإنجليز والأتراك - يهاجمونها من جميع الجهات، ويستعيد المور سيطرتهم على قلب البلاد. وكان العام القادم، 1588، هو عام نهاية العالم. أما «خسارة إسبانيا» فستأتي بسبب سخط إلهي على حماقات الملك.

وعلى الرغم من اضطرابه الواضح ومضمون تنبؤاته الذي ينطوي على الخيانة، فإن الكورتيس (البرلمان الإسباني) كان يدرس بجدية اقتراح استحداث منصب جديد لبيدرولا بوصفه «نبي الأمة». ومهما كانت آراؤهم بشأن حالته العقلية، وجد النبلاء الإسبان، المعارضون لحرب فيليب الثاني المدمرة ماليًا في البلدان المنخفضة وسوء إدارة الاقتصاد، أنّ من الملائم تشجيع نشر تحذيرات هذا الجندي المتنبئ. ففي غياب مؤسسات تسمح بالنقاش الحر، كانت السياسات الحكومية تُعارض - وأحيانًا تُؤيّد - من خلال تداول النبوءات والأحلام ذات الدلالة.⁽³⁴⁵⁾

وها هي شابة تُقدّم بيدرولا، في حلمها، بوصفه شبيهًا بـ «رجل الغابة» أو رمزًا ذكوريًا، يسكب هبات الأرض الخصبة على من يستحقونها بكلمات نبوءته. أكمل خوان دي تيبس شرابه، وانطلق بسرعة ليُخبر سيده، ألونسو دي ميندوزا، عن الفتاة وحلمها.

كان دون ألونسو رجلًا ذا نفوذ بالغ. فأخوه، برناردينو، كان قائدًا عسكريًا ورئيسًا للمخابرات، وكان قد طُرد مؤخرًا من إنجلترا - حيث عمل سفيرًا - لتورطه في مؤامرة للإطاحة بالملكة إليزابيث، وكان يشغل حينئذ منصب سفير إسبانيا في فرنسا. أما

(345) On Miguel de Piedrola, see Vicente Beltrán de Heredia, "Un grupo de visionarios y pseudoprofetas durante los últimos años de Felipe II," *Revista Española de Teología* 7 (1947): 373-397; also Richard L. Kagan, "Politics, Prophecy and the Inquisition in Late Sixteenth-Century Spain," in *The Impact of the Inquisition in Spain and the New World*, ed. Mary Elizabeth Perry and Anne J. Cruz (Berkeley: University of California Press, 1991), pp. in- 115. On the character of prophecy in Lucrecia's era, see Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1971), pp. 389-432.

ألونسو دي ميندوزا، فكان كاهنًا في الكاتدرائية في طليطلة، أقدس مدينة في إسبانيا، وكان يُعد من كبار شخصيات الكنيسة. وكان من أصدقائه المقربين رئيس محاكم التفتيش، رئيس الأساقفة كويروغا. وكان ألونسو يحتفظ بمقر إقامة في مدريد وكان منغمسًا في دهاليز السياسة والبلاط في مدريد، ويدعم حزب «السلام» الذي يسعى لإنهاء الحرب في الأراضي المنخفضة. كان دون ألونسو لاهوتيًا وعالمًا في الكتاب المقدس، ويُلقي محاضرات عن نصوصه؛ كما كان مهتمًا بشدة بالأحلام والنبوءات المعاصرة، وأحد أبرز الداعمين للنبي المتجول بيدرولا.

استدعى دون ألونسو لوكريسيا لتزوره وتقصّ عليه قصتها. ومنذ ذلك الحين، صار يزور شقّتها في شارع سان سالفادور باستمرار. شعرت والدة لوكريسيا بالإطراء من اهتمام هذا الرجل العظيم. كان متلهفًا لسماع أحلام لوكريسيا. ولجعل جلوس رجل في الخمسين من عمره بمفرده مع شابة فاتنة أمرًا مقبولًا اجتماعيًا، جعلوا رواية الأحلام جزءًا من طقس الاعتراف الديني. لكن دون ألونسو أراد المزيد. فطلب الإذن بتسجيل أحلام لوكريسيا حتى لا يضيع شيء منها. أثار هذا قلق الأسرة. فهذه النوعية من الكتابات قد تكون خطيرة. استشارت لوكريسيا أب اعترافها المعتاد، وهو دومينيكاني، فنصحها ألا تسمح بتسجيل أي شيء ما لم تكن مستعدة لزيارة من محاكم التفتيش. وباعتباره عضوًا في الرهينة التي أسست محاكم التفتيش، يُفترض أنه كان يعلم عمّا يتحدث. وفي أحلامها، تلقت لوكريسيا إشارات متضاربة حول ما ينبغي فعله. وأصبح الخطر ملموسًا حين أُلقي القبض على بيدرولا، على الرغم من دعم دون ألونسو ونخبة من النبلاء له. ومع ذلك، وافقت لوكريسيا وأسرتها على أن يحتفظ دون ألونسو بسجلات الأحلام. ولا شك في أن الهدايا السخية التي بدأ يغدقها عليهم — من أموال وتحف — قد لعبت دورًا في التأثير على قرارهم. أما لوكريسيا، فقد كانت تعشق أن تكون محط الأنظار، وأن يتلهف الرجال لسماع كل كلمة تنطق بها.

ونظرًا لأنه كان يقضي معظم وقته في طليطلة، كلّف دون ألونسو صديقه الموثوق، الراهب لوكاس دي أليندي، بتسجيل أحلام لوكريسيا يوميًا. وكان الأخ لوكاس راهبًا نافذًا أيضًا، إذ كان رئيسًا للرهبنة الفرنسيسكانية في مدريد.

في البداية، كان حذرًا للغاية فيما يتعلق بالتسجيل، فكان ينأى بنفسه عما تقوله الفتاة بعبارات مثل: «قالت إنه قال»، وما شابه.

لكن الحال انقلب فجأة، حين هَبَّت الحاملة واندفعت خارجةً من إطار الحلم وأرعبته حقًا.

فعندما حضر، في أحد الأيام، إلى شارع سان سالفادور ليكتب ما تمليه لوكريسيا عليه، بدأت، كعادتها، بوصف المشهد من نافذتها؛ إذ كانت أحلامها غالبًا ما تبدأ هكذا. ترى من نافذتها موكبًا في الشارع، أو يظهر لها أحد زوارها الحلميين الثلاثة - وجميعهم من الذكور - ليأخذها في رحلة. أحيانًا يتجولون فحسب في المدينة، وأحيانًا يدخلون ألكازار، القصر الملكي، بل ويصلون إلى غرفة العرش أو غرفة نوم الملك. وأحيانًا يعبرون المحيط إلى أراضٍ بعيدة، وحتى إلى قصر السلطان العثماني.

في ذلك الصباح، تصف لوكريسيا رحلةً بسيطة جدًا، مجرد نزهة قصيرة على الأقدام. تحكي، خطوة بخطوة، أنها تمرّ عبر شبّاك حديدي، وتسير في ممر، ثم تدخل غرفة بها كتب ثمينة على رف، وصورة لرجل حليق الرأس يصلي بين الطيور والحيوانات. وعندما تبدأ في وصف تفاصيل الفراش في الغرفة - وبعض التفاصيل الشخصية المُحرّجة - يصرخ الأخ لوكاس فيها أن تتوقف. ويغادر المنزل مسرعًا، وهو يتمتم بأن هذا «من عمل الشيطان». وحين يعود إلى الدير، يحرق كل صفحات سجل الأحلام التي دوّنها حتى ذلك اليوم. لماذا؟ لأن لوكريسيا وصفت له بدقة مذهشة صومعته الشخصية في دير الفرنسيسكان وظروفه فيها؛ أشياء لم ترها قط بأمر عينيه. لكنه يوقن بأنها دخلت حيزه الشخصي. إنها طوّافة، وهي - أو أيّا كان ما يسافر معها - تملك من القوة ما يمكنها من اختراق جميع الحصون النفسية التي أقامها هو وإخوته حول عالمهم الروحي. (346)

وجد دون ألونسو وسيلة لتهدئة أعصاب الفرنسيسكاني، لأنه بعد بضعة أيام فقط

(346) Kagan, *Lucrecia's Dreams*, p. 51. In his terror, Allende destroyed all the dream reports in his possession.

عاد الأخير إلى قلمه، وأخذ يسجل ما يُملئ عليه بأسلوب مباشر، سواء كانت لوكريسيا تتحدث عن أحد مرشديها الحلميين («قال «الرجل العادي» إن...») أو تصف الفجّل والنفاق في السوق، أو أطوال وثنيات طوق أحد النبلاء، أو قوى أخرى عابرة للعالم تندفع كالبركان إلى المدينة.

كانت زيارة الأخ لوكاس الليلية نقطة تحول في طريقة تعامل رجال الدين مع لوكريسيا. فقد باتوا يعلمون الآن أنه، إلى جانب الرؤى الرمزية، كان بوسعها أن تُقدّم معلومات دقيقة عما يجري خلف الأبواب المغلقة. فإذا كانت قد استطاعت التسلل إلى دير الفرنسيسكان بجسدها الحلمى، فقد تكون قادرة على الترحال - دون أن تُكتشف - إلى أماكن أكثر إثارة للاهتمام. كانت تمتلك مقومات جاسوسة أحلام.

على مدى التسعة عشر شهرًا التالية، كان لوكاس دي آليندي الكاتب الرئيسى لأحلام لوكريسيا. ثم وجدت كاتبًا آخر، لم يكن شبّاحًا بين طيات الفراش.

نافذة لوكريسيا

كانت أحلام لوكريسيا عرضًا ليليًا منتظمًا. فسرت بقولها: «أستيقظ في اللحظة التي أغمض فيها عينيّ.»⁽³⁴⁷⁾ وغالبًا ما كانت سرديات أحلامها تبدأ كما تبدأ المسرحيات؛ يرتفع الستار وتُكشّف الشخصيات على الخشبة.

كانت عادةً، ما إن تغلق عينيها، حتى تجد زائرًا مألوفًا في غرفتها. ذاك هو الرجل الذي أطلق عليه كُتّاب أحلامها اسم «الرجل العادي» لأنه لا يكشف عن اسمه وليس له أي ملامح تعريفية واضحة؛ أو على الأقل ليس منها ما ترغب لوكريسيا في مشاركته. غالبًا ما يظهر «الرجل العادي» إلى جانب سريرها، ثم يأخذها إلى النافذة، التي يمكنها من خلالها، في أيام النهار، أن تشاهد الحشود المزدحمة في شارع سان سالفادور الضيق وجزء من شارع أتوشا الواسع. أما في الليل، فالمنظر مذهل.

قد تشاهد موكبًا أو عرضًا مسرحيًا غنيًا بالرموز. ففي عدة ليالٍ متتالية من أوائل

(347) This is the author's translation of a Spanish transcript.

ديسمبر 1587، رأت عربةً ضخمةً تسحق جموع الأبرياء تحت عجلاتها الدموية الهائلة. كانت العربة تُجرُّ بثيران عملاقة، تعلوها رموز مدّرة لسلالة هابسبورغ، وتتعلق بها حاشية فاسدة ومنحرفة. بعض عروض دراما الشارع التي كانت لوكريسيا تراها من نافذتها كانت تتماشى مع رموز دينية من الكتاب المقدس ومن تعاليم مسيحية مغروسة فيها على يد آباء اعترافها، وأخرى تستقي من موضوعات شائعة في النبوءات المروعة التي كانت تُسمَع في أنحاء إسبانيا. غير أن بعضها كان ينهل من مصادر أقدم، وأكثر بدائية. (348)

بالإضافة إلى «الرجل العادي»، غالبًا ما كان يرافقها رفيقان آخران يتمتعان بقوى خارقة. أحيانًا يظهران على شاطئ البحر، ومعهما شباك صيد. أحدهما يجب أن يأتي برفقة أسد مربوط بمقود، لذا تطلق عليه أحيانًا تسمية «رجل الأسد»، وتعتبره أحكم معلميهما. لم يفصح أي منهم عن اسمه أبدًا، رغم وجود الكثير من النقاش حول هذا الموضوع، داخل أحلام لوكريسيا وخارجها. (349)

تمتلك لوكريسيا موهبةً في الملاحظة والوصف التفصيلي للأشخاص والأماكن، وهي سمة من سمات سرديات أحلامها التي يبحث فيها رعاتها عن معلومات استخباراتية. وكان دون ألونسو يشجعها على التجسس على الأعداء - سواء من الداخل أو الخارج - وكان «رجلها العادي» دائم الاستعداد للمساعدة.

يطير بها «الرجل العادي» خارج النافذة إلى برج عالٍ يُطل على أمم هذا العالم. ثم ينقضّان على منزل في إنجلترا، حيث تراقب السير فرانسيس دريك - الذي كان قد شنّ هجمات على موانئ وسفن إسبانية - وهو يخطط لهجمات جديدة على إسبانيا ويكتب رسالة إلى سلطان تركيا طلبًا للدعم. كان دريك يرتدي معطفًا من قماش دمشق

(348) Juggernaut dream of December 1, 1587: translated in Roger Osborne, *The Dreamer of the Calle San Salvador: Visions of Sedition and Sacrilege in Sixteenth-Century Spain* (London: Pimlico, 2002), p. 1.

(349) A "professor" asked her in a dream, "Who has been your master?" Lucrecia responded, in the dream, "The Lion Man"; Kagan, *Lucrecia's Dreams*, p. 63.

غالبًا ما يأخذها «الرجل العادي» إلى قصر فيليب الثاني لتراقب حالة الملك (الذي كان مريضًا في الغالب ويُعتقد أنه على مشارف الموت) ولتشهد الخيانة في أعلى مراتب البلاط. في زيارة نمطية، تذهب إلى فناء الملك الخاص وتشاهد أحد رجال الحاشية – وهو مقرّب من فيليب الثاني – متورطًا في مراسلات خائنة. لا تعرف اسمه، لكنها تستطيع أن تقدم تفاصيل تعريفية؛ شعره أحمر وعينه زرقاوان، ويضع على صدره صليب فرسان كالاترافا، وهو تنظيم من العسكريين نشأ خلال الحروب مع المور. (351)

كثيرًا ما كانت أحلام لوكريسيا تكشف عن أحداث مستقبلية محتملة. بعضها تحقق (مثل تدمير الأرمادا الإسبانية)، بينما لم يتحقق البعض الآخر (ك وفاة الملك الوشيكة أو غزو المور لإسبانيا). ففي 16 يناير 1588، أخبرها «الرجل العادي» أن ماركيز سانتا كروز، القائد المعين للأسطول، سيموت في غضون أسابيع؛ وبالفعل، توفي الماركيز في 9 فبراير. وابتداءً من أواخر نوفمبر 1587، ومرةً أخرى في منتصف ديسمبر، رأت الإنجليز يهزمون الأرمادا الإسبانية. وعندما تحقق هذا في صيف 1588، بدأ كثيرون ينظرون إلى لوكريسيا على أنها نبيه، وبدأت تشكل حولها جماعة من المريدين. (352)

بعض مغامرات لوكريسيا الخُلمية تدور في واقع موازٍ يطابق العالم المادي إلى حد بعيد، لكنه مليء بالشذوذ. بعض أحلامها كان أشبه بعروض تنكيرية تُذكَر المرء بمسارح الجواله ومسرحيات الأخلاق التي كانت مصدر إلهام لصور التاروت الأولى. وبعض تقارير الأحلام في سجلها تبدو كنسيج يجمع بين ما رآته حقًا، وما اختلقته، وما «أراد» منها جمهورها أن ترويّه. لكن حين يبدو صوتها أصدق في هذه المرويات، وحين تشعر

(350) Ibid., pp. 67, 75.

(351) Osborne, *Dreamer of the Calle San Salvador*, pp. 39–40; note that this version renders the name of the Order of Calatrava as “Culutrava,” perhaps a misreading of sixteenth-century orthography. It was an order of warrior monks that took its name from a fortress captured from the Moors. Its badge was a Greek cross in gules with lilies at the ends. See “Military Order of Calatrava,” in *Catholic Encyclopedia*, online at www.newadvent.org.

(352) Kagan, *Lucrecia’s Dreams*, pp. 71, 75–76, 80, 118, 151; Osborne, *Dreamer of the Calle San Salvador*, pp. 23–25.

أن لوكريسيا تقول الحقيقة كما عايشتها، يتولد انطباع بأنها امرأة كانت ترى «القصة الخفية» للعالم من حولها؛ بأنها كانت تخطو إلى واقع ما خلف حجاب المظاهر، حيث تلعب قوى أعمق من الظواهر دورها في لعبة العالم، قوى أقدم من الحكاية المسيحية نفسها.

وعندما أغمضت عينها ليلة 6 ديسمبر 1587، كان «الرجل العادي» حاضراً كعادته إلى جانب سريرها. قدّم لها شرباً من وعاء أحمر غريب، مُشيراً إلى أنه يحتوي على ماء مأخوذ من نهر في ليلة عيد القديس يوحنا. أراد منها أن تطلّ من النافذة. فرأت موكباً يقترب من نساء كاشفات عن زينتتهن بشكل لافت، يرتدين الجواهر والحريز، وتتبعهن امرأة ضخمة مهيبّة، يلتفّ ثعبان حول جسدها، وتضع على رأسها تاجاً مصنوعاً من الأفاعي المحبوكة والمصفورة. كانت هذه المرأة الهائلة الضخامة تحمل مرجلين هائلين من الماء بذراعيها القويتين. وعندما أطلقت صرخةً إلى السماء، اندفع رجال من جميع الأمم ليشربوا، ولم تفرغ المراحل أبداً.

تابعت المرأة الأفعى سيرها، وحلّ محلّها رجل داكن البشرة، يياثلها في الحجم والهيئة. وعندما أطلق صرخة تحوّل جسده إلى نافورة حيّة، تتفجّر منها المياه من كل موضع فيه، وجاءت جميع وحوش الأرض وأفاعيها لتنهل من مياهه.⁽³⁵³⁾

لعلّ الأخ لوكاس قد احمرّ خجلاً وهو يدون هذه التفاصيل. ما الذي كان يحدث في تلك الليلة؟ الدليل الأبرز هو الماء المأخوذ من نهر في ليلة القديس يوحنا، المعروفة أكثر بليلة منتصف الصيف. تلك كانت ليلة الانطلاق والمرح العاري في نهر مانزاناريس على أطراف المدينة، وهي طقوسٌ حُظِرَت في مدريد في العام التالي. كانت تلك الليلة سحرية في عموم أوروبا. فقد كان يُعتقد أن ندى الأعشاب والنباتات المتجمّع قبل شروق شمس يوم القديس يوحنا يمتلك قدرةً شفائية، ويُحسّن الأبصار، بل وقد يمنح مستخدميه قدرة التخفي. ونصح الشيوخ بأنه، بعد شروق الشمس، لا ينبغي جمع النباتات، بل ارتدائها في مهرجانات الشوارع واستخدامها في طقوس التنبؤ بالمستقبل

(353) Dream of December 6, 1587; translation in Osborne, Dreamer of the Calle San Salvador, pp. 27–29.

تنتقل لوكريسيا من مستوى حلمي إلى آخر أعمق بعد شربها من ماء ليلة القديس يوحنا. الأفعى والرجل النافورة شخصيتان تنتميان إلى دراما أكبر؛ لا يمكن رؤيتهما بعينٍ عادية، ولا حتى ببصيرة أحلامٍ عادية.

لا تستطيع لوكريسيا وصف المرأة الحاملة للمرجلين دون أن تتجاوز خطاب الإنجيل. تخبر أب اعترافها بجرأة أن تلك المرأة ذات الحية تذكرها بـ «الماترونات الرومانيات»، وهن الإلهات الوثنيات في زمن روما القديمة. ويتجه خيالي مباشرة إلى وصف نيل غيمان الساحر في رواية «الروح الأمريكية»، حيث تواصل آلهة العصور الغابرة أداء أدوارها في كواليس هذا العالم.

لو حاول أحد علماء اللاهوت في القرون الوسطى تفسير أسفار لوكريسيا عبر الزمن واتصالها بذلك العالم الخفي، لقال: «لقد دخلت حيز الأيفوم (Aevum، أي الزمن الأبدي)». ففي لاهوت توما الأكويني، الأيفوم هو نطاق متوسط بين الأبدية (العمق الروحي المتجاوز للزمن) والعالم المنحلّ حيث يعيش البشر في تسلسل زمني. وفي الأيفوم، لا يُقاس الزمن بالتتابع، بل بحركات الوعي.

أنشأ دون ألونسو قالباً ثابتاً لتقارير الأحلام. كانت توقيتات الأحلام تُدوّن بدقة قدر الإمكان، وكان يطلب دائماً أوصافاً دقيقة للملابس والمواقع، وصولاً إلى طول كشكشة ياقة أحد رجال الحاشية. رسم بنفسه اسكتشات لأحلام لوكريسيا، وطلب منها تصحيح التفاصيل، ثم كان يوكل إلى رسامين تحويل هذه المشاهد إلى لوحات عُرضت في تجمعات خاصة، مما ساهم في تنامي شهرتها. (355) وأعد فهرساً لأحلامها، ربط فيه بين الصور والمواضع التي وردت فيها في سرديات تلك الأحلام.

(354) The old custom in Madrid was to bathe naked in the Manzanares River on Saint John's Eve (June 23). This was a time of bawdy abandon. The custom was banned by the church in 1588, not long after Lucrecia's dream of the bare-breasted snake woman and the fountaining man.

(355) Kagan, *Lucrecia's Dreams*, p. 53.

لكن الحلم ليس هو النص. تمثلت إحدى المسائل التي عجز مستجوبو لوكريسيا عن حلّها في «إلى أي مدى «حُسِّنَت» تقارير الأحلام من قِبَل الكتاب؟» وعندما سُئِلت عن ذلك أثناء التحقيق، قالت: «لا أستطيع أن أتذكر الأحلام جيّدًا لأنني أنساها بعد أن تُنسخ. أتذكر بوضوح بعض الأشياء الغريبة، لكن ليس بالترتيب الذي رأيتها فيه. لا أعرف كيف أفرّق بين ما حلمت به فعلاً وما أضافوه هم إلى الأحلام.» (356)

من موقعنا الزمني البعيد، يبدو أن اكتشاف الفرق بين الحقيقة والإضافات يصبح مستبعدًا أكثر. ومع ذلك، قد نشعر بأننا قريبون من التجربة الخام التي خاضتها لوكريسيا عندما تُسرّد الكلمات بأسلوب بسيط (estilo llano)، وتُملأ المشاهد بتفاصيل تلاحظها امرأة، وليس رجل الدين - الدجاجة موضوعة في سلة من نوع معين، وسترة دريك من القماش الدمشقي الأحمر القرمزي - وقبل كل شيء، عندما تُعرض القصة الخفية الكامنة وراء عالم الخيال الذي صاغه كُتّاب أحلامها.

لم تمر لوكريسيا ونادي معجبيها المتزايد دون ملاحظة. فبعد خمسة أشهر من بدء تسجيل أحلامها، أمر أب الاعتراف الملكي، الأخ دييغو دي تشافيز، بإجراء تحقيق في أنشطتها. واعتُقلت لفترة وجيزة ووُجِّهَت إليها تهم بالتحريض على الفتنة، لكن نفوذ دون ألفونسو أدى إلى إطلاق سراحها. وربما ساهم الخوف الذي تولد عن هذه الحادثة في المرض العصبي الذي ألَمَّ بها في ربيع عام 1588، حين أصبحت راغبة عن سرد أحلامها.

ثم، في صيف عام 1588، تحققت نبوءاتها بشأن تدمير الأرمادا الإسبانية. فقد هُزمت الأرمادا على يد الإنجليز في يوليو من ذلك العام، وتكبّدت خسائر أشد أثناء العواصف الغربية قبالة سواحل اسكتلندا وإيرلندا في طريق العودة في شهر أغسطس. وسرعان ما انتشر الخبر بأن لوكريسيا نبيّة صادقة، ربما تكون قد أُرْسِلَت لإنقاذ إسبانيا من جرائم وحماقات حكامها. وبين عشية وضحاها، أصبحت لوكريسيا محور طائفة دينية. ومع كل هذا الاهتمام الإيجابي، تجدد شغفها لسرد الأحلام.

باتت أحلامها الآن تهدد بانهايار كامل لإسبانيا، وعندما كان مستمعوها ينظرون من حولهم، كانوا يجدون الكثير من الأسباب لتصديق أن ذلك كان أمرًا محتملاً. كانت الحكومة مفلسة، وأغلب الأسطول في قاع المحيط، وعدو قديم لإسبانيا استولى على عرش فرنسا، وكان الإنجليز يبحرون دخولاً وخروجاً من الموانئ الإسبانية ويغيرون على قوافل الكنوز الإسبانية، فيحرقون وينهبون كما يشاؤون.

كان العديد من الشخصيات الرفيعة المقام، في سعيهم وراء رؤية لما يجري، يرغبون في رؤية وسماع تلك «العرافة» الجميلة. وخلال شتاء 1589-1590، أصبحت لوكرسيا نجمة صالونات أدبية. وكان مكان اللقاء المفضل لمعجبيها قصر الليدي جين دورمر، بالقرب من بلازا مايور. وتحت رعاية الليدي جين، كانت لوكرسيا تروي أحلامها لجمهور مُتَشَبِّه. وفي بعض الأحيان، كانت هذه الأحلام تُحوّل إلى عروض مسرحية. (357)

لم تكن لوكرسيا تملك مسرحها الخاص فحسب، بل بدأت أيضًا في تكوين جيشها الخاص. فقد عمد أنصارها، ومن بينهم المهندس الملكي، إلى تخزين الطعام والأسلحة في كهف يُعرف باسم «سوين» في التلال الواقعة غرب مدريد، حيث أنشؤوا مجتمعًا ضخمًا من المخابئ تحت الأرض لإيواء أولئك الذين قد ينجون من الكوارث المستقبلية التي تنبأت بها لوكرسيا. وأُسِّس تنظيمٌ سري يُدعى «صليب الاستعادة المقدس» تكرميًا لحلم لوكرسيا بجيش يحمل صلبانًا بيضاء لهزيمة أعداء إسبانيا وغزاتها المستقبلين. وكان أعضاء التنظيم يضعون صليبًا أبيض على وشاح أسود، صغير بما يكفي لأن يُخفى تحت ملابسهم العادية. في بعض أحلامها، كانت لوكرسيا تمتطي جوادًا أبيض وتنطلق لملاقاة العدو. فبعد أن كانت مجرد مراقبة سلبية، بدأت تتحول إلى شخصية فاعلة أكثر في أحلامها، على نحو يذكّر بشيء من شخصية جان دارك. ولم يكن هذا التحول ليمر دون أن يزيد من حدة الخطر المحيط بها. (358)

(357) Ibid., pp. 125-127. On the House of Feria's dramatic interests, see Anne E. Wilttrout, A Patron and Playwright in Renaissance Spain: The House of Feria and Diego Sánchez de Badajoz (Melton, England: Tamesis Books, 1987).

(358) A black scapular with a white cross, inspired by Lucrecia's dreams and worn by her

في أحلامها في ربيع عام 1590، سقطت النجوم من السماء، واندفع المور نحو القصر الملكي. وفي منتصف أبريل، رأت المرأة الأفعى العملاقة مرةً أخرى، تمتطي ثورًا، تشق طريقها في مدريد بغضب، مُلوحةً بسيف وتقطع الرؤوس. التقت بها لوكريسيا مرةً أخرى في حديقة. لكنها ظهرت هذه المرة في هيئة لطيفة حزينة. كانت تقود دبًا مربوطًا بمقود، وقد كُتِبَتْ على ظهرها بالدماء الكلمات التالية: «أنا معاناة إسبانيا.» (359)

كانت تقارير أحلام لوكريسيا تزداد طولًا، لكنها باتت الآن مليئة بالارتباك والتناقض، وكثيرًا ما ثبت خطأها أو اتضح أنها تخدم مصلحتها الشخصية. تنبأت بقدوم ملك-مُخلّص جديد يُدعى ميغيل، سيتزوجها ويقود حملة صليبية لتحرير القدس ونقل الكرسي الرسولي إلى طليطلة.

وأيًا كانت دوافع هذا المشهد الحلمي للزفاف، فقد خرجت من دائرة الكبت العاطفي؛ إذ أصبح للوكريسيا عشيق، شاب مثقف يُدعى ديبغو دي فيتوريس، أُوكِلَتْ إليه مهمة المساعدة في تسجيل أحلامها. وقد اعترف لاحقًا أمام محكمة التفتيش بأنها تبادلوا وعود الزواج، «وبعد ذلك تصرفا كزوج وزوجة، وتواصلًا جسديًا.» (360)

ومن المثير للدهشة أن روايتها للأحلام كانت لا تزال تُتَقَبَّلُ لفترة أطول مما كان متوقعًا، نظرًا لما تضمنته تلك الأحلام من تصوير فاضح ومهين للملك الإسباني. فقد وصفته وهو يشخر ويسيل لعابه وهو جالس على كرسي، والحشرات تزحف إلى داخل فمه وخارجته، بينما يمسك بلافتة كُتِبَ عليها «المُهْمِل»، في حال لم يفهم أحد الرسالة! بل بلغ بها الأمر أن روت حلمًا رأى فيه «الرجل العادي» يشق طريقه عنوةً إلى غرفة نوم

followers in the Cofradía of the Restoration under their regular clothes, is in the Archivo Histórico Nacional in Madrid. One of those who wore this scapular was Hernando de Toledo, the prior of the military order of St. John of Jerusalem and a member of Philip II's council of state, which gives some idea of how high Lucrecia's influence had reached.

(359) Kagan, *Lucrecia's Dreams*, p. 77.

(360) *Ibid.*, p. 21.

لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت هذه الأحلام قد عُرضت مسرحيًا في صالون الليدي جين، لكنها كانت تُتداول على نطاق واسع بين أوساط النخبة في مدريد، ولم تكن من النوع الذي يمكن حتى لأكثر الملوك إهمالاً أن يتجاهله إلى الأبد.

اختفاء السيدة

في بعض من آخر أحلامها المسجلة، رأت لوكريسيا نفسها تلد في مكان خطر. كانت تلك الأحلام لمحة دقيقة عن مستقبلها. فعندما أمر الملك باعتقالها، كانت العرافة العزباء، التي بلغت الحادية والعشرين من عمرها، حُبلى. واعتُقل دون ألونسو، وراهب الاعتراف الأخ لوكاس، وديغو في التوقيت نفسه. وعثرت محكمة التفتيش على ثلاثين دفترًا تحتوي على سجل أحلام لوكريسيا داخل خزانة في مقر إقامة ألونسو دي ميندوزا في طليطلة.

نُقل جميع السجناء إلى طليطلة، مقر ديوان محاكم التفتيش. وخلال الأشهر الأولى، عوملوا وكأنهم نزلاء في نُزلٍ فاخر، لا سجناء. وقد وُصفت زنانة دون ألونسو بـ «الحانة»، بسبب الحفلات المستمرة التي كان الخمر يتدفق فيها بحرية. وهذا يعكس نفوذ عائلة ميندوزا، وعلاقة دون ألونسو الشخصية بكبير محققي محاكم التفتيش. وينبغي أن يُشار هنا إلى أن من أمر بالاعتقالات لم يكن ديوان التفتيش، بل الملك وأب الاعتراف الملكي، تشافيز. فقد كان الملك، لا الكنيسة، هو من كانت نبوءات لوكريسيا تهدد سلطانه تهديدًا مباشرًا.

بينما كانت لوكريسيا تتلقى رسائل حب سرية من ديغو، كان بعضها مشحونًا باقتباسات من أشعار بتراركا، كانت تواصل علاقة مغازلة مع مفتش تحقيق جذاب يُدعى لوبي دي ميندوزا. قال لها ميندوزا هذا: « فيك من الجمال ما يُوقظ حتى أرواح

الراجلين». (362) رتب لقاءات خاصة معها في غرف مأمور السجن، بل وأخذها إلى بيته. لا بد أن اهتماماته بلوكريسيا توقفت عندما بدأت بطنها تكبر. فبعد بضعة أشهر من سجنها، أنجبت طفلةً. وإذا لم يكن هذا دليلاً كافياً على أنها كانت من طينة مختلفة عن «الأمهات الروحيات»، فهناك شهادة لزميلة لها في الزنازة تفيد بأن لوكريسيا كانت تملك معرفة لا فتة في شؤون العلاقة الجسدية، وكانت توصي باستخدام وسائل تضمن الراحة والسلامة. (363)

انتهت الأيام السعيدة في سجن طليطلة بحملة تطهير أطاحت بالمسؤولين المتعاطفين. وجاء محققون جدد عذبوا لوكريسيا حتى رأوا أنها أصبحت مذعنة لهم. «تَوَسَّلْتُ، بحق الرب، ألا تُعذب مرةً أخرى، لأنها إن حلمت بتلك الأحلام السوداء الملعونة وحكتها كما حلمت بها لدون ألونسو دي ميندوزا، كان سيء تأويلها، وهي ليست الملوثة عن ذلك». (364)

مرت سنوات طويلة في السجن، ضاعت معظم تفاصيلها في السجلات، حتى ظهرت لوكريسيا في أغسطس من عام 1595 ككتائب، بحبل حول عنقها، لتستمع إلى قائمة رسمية بالتهم الموجهة إليها؛ «أنها منذ صغرها كانت تزعم رؤية رؤى في المنام، يظهر فيها كائنات نورانية وشخصيات مقدسة من التراث الديني، بالإضافة إلى رموز أخرى كانت تُفسر على أنها ذات طابع غيبي». وورد أنها كانت قد اعترفت بأنها قد نُقِلَتْ بواسطة ثلاثة كائنات مقدسة إلى «مناطق مختلفة من الأرض والبحر، إلى ممالك ومقاطعات مختلفة» حيث شهدت «رؤى عن الحرب والسلام، والمتعة والرعب، إلى

(362) Ibáñez de Ochandia testified on April 4, 1591, that Mendoza told Lucrecia, "Que hermosa estás a que un muerto la podía empenñr." Kagan, Lucrecia's Dreams, p. 206n26.

(363) Lucrecia's cellmate in Toledo, Marí de Vega, had been charged as a judizante (one who secretly practiced Judaism); Kagan, Lucrecia's Dreams, p. 141. After hearing Marí describe a dildo made of sheepskin, Lucrecia allegedly commented that she preferred one fashioned from "a special kind of wood, with hinges, and a cover of satin or velvet," and that she had a friend in Madrid who owned one of these items. Ibid., p. 185n72, quoting AHN Inq 2105/1, fol. 205.

(364) Kagan, Lucrecia's Dreams, p. 145.

جانب أمور أخرى عن أشياء حسنة وسيئة ستحدث مستقبلاً» (365)

أدينّت بالتجديف، وتدّيس المقدسات، والافتراء، وعقد ميثاق مع الشيطان، ورواية أحلامها للآخرين، والسماح لهم بكتابتها. كما أدينّت أيضًا بأنها «أم المتنبئين» (366) التي تشجع الآخرين على استشراف المستقبل. وكان الحكم الذي عوقبت به خفيفًا (وفقًا لمعايير ذلك العصر): مئة جلدة، والنفي من مدريد، وستنان من العزلة في دار دينية. لكن صعوبة العثور على دير مناسب دفعت إلى وضعها (ربما مع ابنتها) مؤقتًا في مستشفى للمشردين والمجذومين؛ أسوأ مكان يمكن تخيله لامرأة جميلة. توسلت من أجل نقلها، ونُقلت في النهاية إلى مستشفى سان لورينزو. ومن تلك اللحظة اختفت تمامًا من سجلات التاريخ.

هل هربت؟ هل تلقت مساعدةً على الفرار إلى الخارج؟ هل ساعدتها السيدة جين دورمر، مضيفتها ومنتجة عروضها المسرحية، على الخروج، ربما إلى إنجلترا، حيث ربما كانت أجهزة الاستخبارات الناشئة مهتمة جدًا بقدراتها كجاسوسة أحلام؟ كانت السيدة جين مشهورة بأنها موالية للكاثوليكية، لكن من المعروف أنها أبقت على قناة اتصال خلفية مفتوحة مع إليزابيث ملكة إنجلترا. قد لا نعرف أبدًا مصيرها، إلا لو استطعنا، مثلما كانت لوكريسيا تفعل في لياليها الطيبة، أن نحلم ونشق طريقنا عبر الحلم إلى أعماق الحكاية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(365) Ibid., pp. 154–155.

(366) Ibid.

الفصل التاسع

شبكة تحرير العبيد السرية للأحلام

إن خيالها دافئ وغني، وهناك منطقة كاملة من العجائبية في طبيعتها، ظهرت أحيانًا بشكل لافت. لا ينبغي أن تُغفل أحلامها ورؤاها، ومخاوفها وإنذاراتها، في أي سرد لحياتها.

فرانكلين سانبورن عن هاريت توبمان، 1868

الفراولة البرية ناضجة الآن، حلوة وتفوح بطعم الشمس. تتجول أليس مبتعدةً عن الكبار، وهي تلتقط الفراولة البرية واحدةً تلو الأخرى. أصبح همس صوت أمها الآن أضعف من أزيز النحل بينما تقرأ للعممة هاريت من كتابٍ لرجل نُقِلَ، عبدًا، عبر المحيط من غرب أفريقيا في جوف سفينة عظيمة.

«كان لدينا كهنة وسحرة، أو حكماء. كانوا يحسبون أوقاتنا ويتنبئون بالأحداث. هؤلاء السحرة كانوا أيضًا أطباءنا أو معالجينا.»⁽³⁶⁷⁾

تأمل أليس أن تحكي العممة هاريت لاحقًا واحدة من قصصها الخاصة؛ فهي الأفضل على الإطلاق. أليس فتاة صغيرة سمراء، ذات عينيْن لامعتين ووجه جميل، رغم أن عائلة سيوارد، العائلة البيضاء التي ربّت وعلمت والدتها، تقول إن لون بشرتها «كستنائي».

تأكل أليس من التوت البري بسرعة لدرجة أن عصيره الوردي ينساب على ذقنها.

(367) The Interesting Narrative of the Life of Olaudah Equiano (1789), online at www.digitalhistory.uh.edu/modules/slavery/documents.html.

وفجأة تتجمد في مكانها، لأن شيئاً ما يتحرك في العشب العالي. ينزلق بسلاسة وبلا صوت، فيجعل العشب يتماوج. تبقى أليس ساكنة تماماً، رغم أن قلبها يخفق بشدة. لا تحب الأفاعي، وتذكر عندما قتلت ممرضةً من المستوصف أفعى جرسية بين الصخور خلف حظيرة الخنازير.

يقرب منها الشيء الذي يتحرك في العشب الطويل في حركات ثعبانية متعرجة. ربما يجدر بها الهرب. كانت تفكر في ذلك عندما ارتفع الرأس، كاشفاً عن وجه امرأة مسنة. يتهلل وجه العمة هاريت، الذي عادةً ما يبدو صارماً وجاداً في الصور، ويشرق كالشمس. وبينما تضحك ضحكة برّية ممزوجة بفحيح، ترفع قبضتيها أمام ذقنها وتلكز أليس بأصبعيها السابطين، مقلدةً أنياب الثعبان.

تندفع والدة أليس، مارغريت ستيوارت لوكاس، من الشرفة، لاهتهً، لتوبخ العجوز على إرهاق نفسها. تحولت ضحكة العمة هاريت إلى سعال، وتتهار ركبتها عندما تحاول الوقوف. تأتي ممرضة للمساعدة، ومعاً تسندانها نصف المسافة إلى كرسيها المدوّل على الشرفة. (368)

يفيض لسان أليس بالأسئلة. تريد أن تعرف كيف تعلّمت العمة هاريت الزحف كالثعبان. تريد أن تسمع مرة أخرى كيف طارت كطائر ورأت الطُرق التي جعلت الآخرين يسرون فيها.

«كوني أفعى في العشب الطويل، وفهداً في الغابة، وطائراً في السماء.»

في كرسيها تحت ضوء يونيو، تبدأ العجوز في الشرود. يمكن للمرء أن يراها تنجرف بعيداً، عيناها تفقدان التركيز قبل أن تنخفض جفونها. وسرعان ما تكون قد رحلت بوعياها.

إلى أين تذهبين؟ تَوَدُّ أليس أن تعرف.

(368) Alice Lucas Brixler to Earl Conrad Brixler to Conrad, July 28, 1939, in Kate Clifford Larson, Bound for the Promised Land: Harriet Tubman, Portrait of an American Hero (New York: Ballantine Books, 2004), p. 288.

«أنا عائدة إلى الديار، يا صغيري.»

أريك هذا أليس عندما سمعته لأول مرة. أليست العمة هاريت في ديارها بالفعل؟ لقد عاشت هنا، على أطراف قرية أوبورن في نيويورك، أطول من حياة كثير من الرجال. كانت قد جلبت والدّة أليس من شواطئ ماريلاند الشرقية عندما كان رجلاً بملايس باللونين الأزرق والرمادي لا يزالون يقاتلون. «كان قوم والدي يستطيعون الطيران.»

يرتكز هذا المشهد من سنوات هاريت توبمان الأخيرة على ذكريات أليس لو كاس بريكلر، التي تربّت كابنة لابنة أحد إخوة هاريت. ثمة غموض يحيط بالعلاقة الدقيقة بين هاريت ومارغريت ستوارت، والدّة أليس. ففي وقت ما قبل أن تسافر توبمان إلى ساوث كارولينا عام 1862 لتعمل ككشافة وجاسوسة لصالح أولى الفرق العسكرية الزنجية التابعة لجيش الاتحاد، كانت قد جلبت مارغريت، التي كانت تبلغ حينها ثمانية أو تسعة أعوام، من الشاطئ الشرقي لماريلاند إلى نيويورك، وطلبت من عائلة صديقها وراعيها ويليام سيوارد - وزير خارجية إبراهيم لنكولن - أن تتولى رعايتها وتعليمها. كانت هاريت قد أخذت مارغريت من عائلتها المباشرة «بسرية ودون حتى كلمة استئذان».⁽³⁶⁹⁾ قالت توبمان إن مارغريت هي ابنة أحد إخوتها العديدين، وهو رجل محرّر. تلك القصة لا تبدو متماسكة. تقترح كيت كليفورد لارسون، في سيرة ممتازة صدرت حديثاً لهاريت توبمان، أن مارغريت ربما كانت ابنة هاريت الطبيعية.⁽³⁷⁰⁾ وهذا الافتراض يستلزم بدوره أن توبمان كانت لا تزال قادرة على الإنجاب بعد إصابات طفولتها المروعة، وهو أمر يبدو مشكوكاً فيه. أما تعليق أليس فكان أن «ثمة جزءاً من تاريخ العائلة من الأفضل ألا يُروى أبداً».⁽³⁷¹⁾

لكن الغموض الأكبر يكمن متواريًا. ففي ثمانينيات عمرها، وهي مريضة وعليلة، كانت هاريت توبمان لا تزال قادرة على إرغام جسدها على التصرف بطرق غير معتادة، متجاوزة الأشكال المتوقعة، فتختفي وتظهر من جديد. تُستحضر في هذا المشهد طرق

(369) Brixler to Conrad, July 19, 1939.

(370) Larson, Bound for the Promised Land, pp. 196–202.

(371) Brixler to Conrad, November 26, 1940.

الأسلاف من صيادي الأحلام في غرب أفريقيا. إنّه يضعنا على درب واحدةٍ من أكثر الحالمين موهبةً في التاريخ الأمريكي، تلك التي قادت أحلامها العشرات، وربما المئات، من العبيد الهاربين نحو الحرية.

أحلام من شعب والدها

تُعدّ هاريت توبمان (1822-1913) شخصية بارزة في التاريخ الأمريكي؛ العبدّة الهاربة من الشاطئ الشرقي لماريلاند التي عادت إلى الجنوب، متحمّلة أخطارًا عظيمة، لتحرّر رفاقها من العبيد. أصبحت هاريت أنجح «مُرشّدة» في شبكة تحرير العبيد السرية، التي كانت تنقل «محرّري أنفسهم» إلى الحرية قبل الحرب الأهلية الأمريكية، ولم تخسر قط واحدة من «طرودها». ومع ذلك، نادرًا ما يُروى سرّ إنجازات هاريت توبمان. فقد كانت حاملةً ومستبصرة. في أحلامها ورؤاها، كانت تستطيع الطيران كطائر. وغالبًا ما كانت تطير فوق مناظر طبيعية لم ترها بعيني جسدها قط. ومن خرائطها الجوية، استطاعت أن تجد الطرق الصحيحة، ومخاضات الأنهار، والمنازل الآمنة التي كانت تنقل إليها العبيد الهاربين.

ومما لا شك فيه أن بعض الفضل في موهبتها كان يرجع إلى إرثها الأفريقي. فقد جاء أسلافها من غرب أفريقيا؛ ووفقًا للتقاليد، كان بعضهم من شعب الأشانتي. ويعرف متبّعو الأحلام من الأشانتي كيف يعيشون في تناغم مع أرواح الأسلاف، ولديهم علاقات شامانية مع حلفاء من الطيور والحيوانات.

وكما هو الحال غالبًا مع المستبصرين والشامان، كان ثمن موهبة هاريت توبمان الكاملة فادحًا. فعند بلوغها الثانية عشرة تقريبًا، تدخلت بين مشرف غاضب وفتى كان يحاول الهرب، فتلقت ثقلًا من الرصاص يزن رطلين على جبهتها مباشرة. لقد ماتت ثم عادت إلى الحياة.

عندما عادت إلى الحياة، كانت قد تغيّرت. كان هناك ثقب في جبهتها غطّته لاحقًا بارتداء قبعات رجالية. وكانت بحاجة متكررة إلى الاستلقاء وأخذ غفوة سريعة. قد

يصف الأطباء هذا بالنوم القهري. ويظنّ بعض الباحثين المعاصرين أنها كانت تعاني من صرع الفص الصدغي، وهو اضطراب يُسبّب إلى كثير من الشخصيات الشهيرة ممّن رأوا رؤى وسمعوا أصواتًا. وأيًا كانت التسمية الطبية، فقد كان ذلك محفزًا للرؤى. كانت هناك نافذة تُفتَح في رأسها، وكانت تنظر من خلالها - أو تطير من خلالها - وترى أشياء مهمّة.

وُلدت في مزرعة بروديس في مقاطعة دورشستر، على الشاطئ الشرقي لولاية ماريلاند. كان الاسم الذي سُمّيَتْ به عند الولادة أراميتا روس، وكانت تُعرف في طفولتها المبكرة باسم «ميتي». وفيما بعد، اتخذت اسم والدتها الأول. كان والدها ووالدتها، هاريت («ريت») وبن روس، عبدَين مملوكَين لعائلتين مختلفتين - طومسون وبروديس - جمعهما الزواج وفرقتها المشاحنات المتكررة والنزاعات على الديون.

أول ذكرى تحتفظ بها من طفولتها كانت لكونها تُهدّد في مهد مصنوع من جزء من جذع شجرة «السويت غم» (اللبان الحلو). وكانت هذه الشجرة تنمو في الأراضي الرطبة على الشاطئ الشرقي وتُعدُّ ثمينةً بسبب خشبها؛ وكان بن روس، الذي يعرف الخشب جيدًا، يعمل غالبًا حطّابًا ونَشَارًا. وفي الخريف، عندما تطير البذور المجتّحة للشجرة، كانت أوراقها النجمية الشكل تنفجر بألوان متّقدة من الأحمر والأصفر والبنفسجي. وكان يتعين على المرء عندها الحذر من كرات اللبان الجافة التي تغطّي الأرض، وتطعن الأقدام الحافية والكواحل بقرونها الشائكة.

في غرب أفريقيا، كان المتتبعون المهرة يستخدمون أقدامهم العارية كما يستخدم الكفيف يديه، ليلمسوا ويقرؤوا تضاريس الأرض ومعالم من سبقهم على الدرب.⁽³⁷²⁾ لكن الأمر كان مختلفًا على هذا الجانب من الممر الأوسط.

لن نجد قصة أسلاف هاريت توبمان الأفارقة في سجلات المحكمة التي تتيح لنا تتبّع نسب إدوارد بروديس وتحولاته المالية، الرجل الذي كان يملك هاريت

(372) R.S. Rattray, *The Leopard Priestess* (London: Thornton Butterworth, 1934), pp. 168-169.

ويستخدمها، لكنّ بضعة أدلة لا تزال باقية.

كتب فرانكلين سانبورن عام 1863، يصف هاريت توبمان بأنها «حفيدة عبدٍ جُلب من أفريقيا»، وأنه «ليس في عروقها قطرة دم بيضاء». (373) وفي عام 1907، استخرج مراسل صحيفة «نيويورك هيرالد» هذا المقطع من ذكرياتها: «كانت العجائز اللواتي كانت تروي لهن أحلامها يكتفين بهزّ رؤوسهن بمعرفة ويقلن: «أظنّك من الشانتي، يا طفلي.» وذلك لأنهن كن يعرفن تقليد دماء الأشانتي التي لا تُقَهَر، والتي جعلت من العبد المنتمي لتلك السلالة شوكةً في خاصرة المزارع أو مالك قصب السكر الذي أصبح هذا العبد مملوكًا له، ولهذا لم يكن كثير منهم في العبودية». (374)

«الشانتي»، أو الأشانتي، هم شعب أموميّ النَّسَب من غابات وهضاب غانا، التي كانت تُعرف في زمن هاريت بساحل الذهب. ومع أن ذكريات النميّة التي سمعتها في طفولتها لا تُعدّ دليلًا على أن هاريت كان يسري في عروقها دماء الأشانتي، إلا أنها تشير إلى أن الأشانتي كانوا معروفين في البيئة التي نشأت فيها، وأنها كانت مرتبطة بهم في أذهان الناس. أسّس الأشانتي إمبراطوريةً قويّةً في القرن السابع عشر تحت حكم ملكٍ كان عرشه عبارة عن مقعد ذهبي يُعتَقَد أنه يجسّد الروح الجماعية للشعب. وقد حافظ الأشانتي على استقلالهم حتى عام 1900، حين هُزِمُوا على يد البريطانيين، وضمّت أراضيهم بعد ذلك إلى مستعمرة ساحل الذهب.

كان زعماء الأشانتي، المعروفون باسم «سادة السلاح» أو ببساطة «الرجال الكبار»، يأسرون عبيدًا من القبائل المعادية ويبيعونهم للأوروبيين في موانئ التجارة عبر وسطاء من شعب الهوسا؛ وكانوا يتفاخرون بأن لا أحد من الأشانتي يمكن أن يُستعبد يومًا. (375) ومع ذلك، فمن المرجح أن بعض الأشانتي - بما في ذلك الفارين والمنبوذين الذين اختلفوا مع الزعماء أو خالفوا «المحرّمات الحمراء» - قد أسرهم أعداؤهم وباعوهم.

(373) Franklin Sanborn, "Harriet Tubman," Boston Commonwealth, July 16, 1863.

(374) Frank C. Drake, "The Moses of Her People," New York Herald, September 2, 1907.

(375) Marcus Rediker, The Slave Ship: A Human History (New York: Viking, 2007).

تشير سجلات الشحن إلى تجارة العبيد في خليج تشيزبيك إلى أن أسلاف هاريت قد جُلبوا إلى أمريكا من هذا الجزء من غرب أفريقيا. فتقريبًا جميع العبيد الذين نُقلوا إلى موانئ ماريلاند جاؤوا مباشرةً من أفريقيا، وكانت الغالبية العظمى منهم على متن سفن ضخمة من لندن التقطت حمولتها على امتداد ساحل الذهب أو من غينيا العليا.⁽³⁷⁶⁾ وكان مُلاك الأراضي في ماريلاند يطلبون باستمرار عبيدًا من ساحل الذهب؛ فقد كانت لهم سمعة طيبة فيما يتعلق بالقوة والجلد والمهارة اليدوية.

قالت هاريت إنها ورثت مواهب خاصة - من ضمنها القدرة على الخروج من الجسد وزيارة المستقبل - من والدها، الذي «كان بوسعه دائمًا أن يتنبأ بالمستقبل» و«توقع الحرب المكسيكية».⁽³⁷⁷⁾ كانت هاريت أقوى من بقية الفتيات، فكانت تُمضي وقتًا طويلاً مع بن روس في فرق تقطيع الأخشاب. وفي لحظاتهم الهادئة داخل الغابات، ربما أعادوا إحياء شيء من أجواء «الغابة المقدسة» للأشائني وممارسات متبعية الأحلام في غرب أفريقيا، الذين اعتادوا التحرك خارج الجسد البشري، أحيانًا في هيئة حيوانات.

لدينا مصدر مثير للاهتمام عن أحلام الأشائني، يتمثل في الكابتن روبرت إس راتراي، وهو «باحث أنثروبولوجي حكومي» بريطاني عمل في ساحل الذهب قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. أصبح راتراي تلميذًا متحمسًا لثقافة الأشائني، وأطلقوا عليه لقب «الفلفل الأحمر» بسبب شعره الأحمر الناري. ورغم أنه كان يشعر أحيانًا بالغيرة من القدرة على تنقل الوعي لدى الأفارقة الغربيين الذين أجرى مقابلات معهم، كان يبذل جهدًا كبيرًا في تسجيل ممارسات الأشائني فيما يتعلق بالأحلام.

يوضح راتراي أن «في فكر الأشائني، تنجم الأحلام إما عن زيارات من سكان عالم الأرواح، أو من أرواح، أي نفوس غير مستقرة لأشخاص لا يزالون أحياء، أو من

(376) Lorena S. Walsh, "The Chesapeake Slave Trade: Regional Patterns, African Origins, and Some Implications," *William and Mary Quarterly* 58, no. 1 (January 2001): 148.

(377) Sanborn, "Harriet Tubman"; Sarah Hopkins Bradford, *Scenes in the Life of Harriet Tubman* (Auburn, NY: W.J. Moses, 1869), pp. 79–80.

خلال رحلات روح الإنسان نفسه خلال ساعات النوم». (378) وفي لغة الأشانتي، الفعل «يحلّم» هو so dae، أي «يصل إلى مكان أثناء النوم»، وهو تعبير يوحى بالسفر. (379)

عند قبيلة الأشانتي، تُعدّ الأحلام امتدادًا للواقع، ويُنظر إلى ما يحدث فيها بوصفه ذا تأثير فعلي. فإذا رأى شخص في حلمه أنه اقترب من امرأة متزوجة، فقد يُعتبر ذلك تجاوزًا أخلاقيًا مجاسب عليه. ويُعدّ الطيران من التجارب الشائعة التي تظهر في أحلام أفراد هذه القبيلة. «إذا حلمت أنك صعدت إلى السماء... ثم عدت إلى الأرض... فذلك يعني طول العمر.» (380) وهذا بالتأكيد ينطبق على هارييت توبان، التي عاشت حتى سن الحادية والتسعين على الأقل.

يصف راتراي ممارسة أشانتيّة للتخلص من الحلم «السيئ» بالبوح به همسًا إلى مكبّ نفايات القرية، والذي قد يكون أيضًا مرحاضًا عامًا.

وقد روى أحد المخبرين لراتراي أن أخاه الميت كان يرشده في الصيد. قال: «كثيرًا ما أحلم بأخي، الذي كان صيادًا، وهو يريني أين أذهب. وكل ظبي أقتله، أقدم له قطعة منه مع بعض الماء.» وكان العم الراحل للرجل نفسه يعطيه وصفات علاجية في الأحلام. فعندما مرض طفلٌ في البيت، أرشده عمّه الميت إلى بعض الأوراق لاستخدامها كجزء من الدواء؛ و«فعلت ذلك وتعافى الطفل.» (381)

كان الصيادون وقصاصي الأثر من الأشانتي يسرون على مقربة شديدة من حيواناتهم الحارسة. من خلال الاندماج في جسد طاقي لنمر، أو ظبي ليلي، أو نسر سمّك، كانوا يسبقون أنفسهم في المسير لاستكشاف الأرض، وتحديد موقع الطرائد، أو لمعرفة مصدر تحرك قوة معادية. وكان الأشانتي يؤمنون، كغيرهم من الشعوب الأصلية، بأنه إذا لم تكن على تواصل مع أحلامك، فأنت لست على تواصل مع

(378) R. S. Rattray, Religion and Art in Ashanti (Oxford: Clarendon Press, 1927), p. 192.

(379) Ibid., p. 193.

(380) Ibid., p. 195.

(381) Ibid., p. 194.

روحك. «إذا لم يحلم الإنسان لثمانين يومًا، فذلك يعني أنه سيُصاب بالجنون.»⁽³⁸²⁾

في الأسئلة المصيرية، كانوا يلجؤون إلى رأي ثانٍ عبر العِرافة. وكانت الطريقة النموذجية أن يهزّ العِراف مجموعة من الرموز - حجارة وعظام، أو كرة شعر، أو جذر نبات، أو قرن بذور، أو صدفة حلزون - من حقيبة جلدية. ثم يُمسك العِراف بالطرف المتشعب لعصا، بينما يُمسك الزبون بالطرف الآخر المثبت عليه معدن. وفي أيديهما كانت العصا ترتجف وتشير إلى رمز تلو الآخر، مكوّنة قصةً يقرأها العِراف بعد ذلك.⁽³⁸³⁾

كم من هذه الممارسات وصل إلى ماريلاند مع أسلاف توبمان؟ ربما أكثر بكثير مما كان يُفترض عمومًا. فالأفارقة الغربيون الذين نُقلوا قسرًا إلى أمريكا الشمالية لم يفقدوا هويتهم وممارساتهم التقليدية بين ليلة وضحاها. وقد أظهرت الاكتشافات الأثرية الحديثة أن عناصر رئيسية من الثقافة الأفريقية الغربية نجت في ظل العبودية في أمريكا الشمالية: في القوارب المصغرة والأشياء الأخرى الموضوعة في القبور، وفي مجموعات «القطع الغربية» التي قد تكون مأخوذة من حقائب العِرافين.⁽³⁸⁴⁾ وفي عشرينيات القرن التاسع عشر، حين كانت مينتي روس تنضج، كانت عملية تنصير العبيد الأفارقة قد بدأت لتوها.⁽³⁸⁵⁾

هبات في الجراح

قالت زيلفا إلوا، وهي مبشرة سوداء جوّالة كانت تعقد اجتماعات دينية في الهواء الطلق بمقاطعة دورشيستر حين كانت هاريت توبمان طفلة: «لقد اختار الرب الأشياء الضعيفة من العالم ليُخزي بها الأقوياء.»⁽³⁸⁶⁾ ومن الممكن أن الطفلة مينتي قد ذهبت

(382) Ibid., p. 196.

(383) Rattray, *Leopard Priestess*, pp. 107–109.

(384) Walsh, "Chesapeake Slave Trade," pp. 162–163.

(385) Michael A. Gomez, *Exchanging Our Country Marks: The Transformation of African Identities in the Colonial and Antebellum South* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998).

(386) William L. Andrews, ed., *Sisters of the Spirit: Three Black Women's Autobiographies of*

مع والدتها لسماع وعظ زيلفا إلوا. نرى، في هذه اللحظة من الزمان والمكان، تلاقي تقليدين روحيين - واحد من أفريقيا والآخر من وحي مسيحي يختلف تمامًا عن إيمان مالكي العبيد - وكلاهما فاعلٌ بقوة في حياة هاريت توبمان ورسالتها.

تعلمت زيلفا إلوا من معاناتها الشخصية أنه قد تنبع من جراحنا هبات. فبعدما حطّمها المرض، عادت إلى الحياة بعد زيارة كائن مشعّ كانت تعتقد أنه السيد المسيح. كان موت زوجها المبكر سببًا في تركيز اهتمامها على قضيتها. وقد دفعها أحلامها كامرأة حرة من السود إلى خوض مغامرات بقيادة الاجتماعات الدينية في جنوب العبودية، بما في ذلك على الشاطئ الشرقي لماريلاند، حيث يُحتمل أن تكون هاريت توبمان قد استوعبت رسالتها بأن النساء كنّ أولى المبشرات: «أول واعظات للقيامة كنّ نساء.» (387)

وقبل أن تبلغ سن البلوغ بزمن طويل، كانت مينتي روس تحمل جراحًا كثيرة على جسدها. فمالكها، الذي كان يعاني دائمًا من ضائقة مالية، كان يؤجرها، وقد أساء بعض من أُجِّرت إليهم معاملتها بشدة. وكانت إحدى السيدات المؤقتات تتوقع منها أن تهدئ طفلةً قلقلة كثيرة الاحتياج طوال الليل بهزّها بجانب السرير. وعندما غفت مينتي وبدأت الطفلة في الصراخ، أمسكت الأم بالسوط الذي كانت تحتفظ به قريبًا منها، وضربت الفتاة السوداء على عنقها وكفيتها. وقد حملت مينتي آثار تلك الندوب زمنًا طويلًا بعد ذلك.

أرسلها سيّد آخر لخدمة أفخاخ فئران المُسك في مياه المستنقعات الباردة في الشتاء. كانت مينتي تعود مترنحةً وقد تجمّد جسدها حتى النخاع، وقدامها الحافيتان قد خدّرتا لدرجة تمنعها من تفادي أشواك قرون اللبان المتساقطة، لكن لم تُخدّرًا بما يكفي لتمنعها من الإحساس بالألم. وعندما لا تكون مراقبة عن كثب، كانت تدفع قدميها الممزقتين في رماد النار، تستجلب الدفء والشفاء إلى جسدها بالإرادة.

أصيبت بـ «عُقدة» في جانبها، حيث جلدتها أحد معذّبيها بحبل معقود. ولم يرغب المتعاطفون في الشمال، الذين كتبوا قصصها لاحقاً نيابةً عنها، في الحديث عن العنف وغيره من أشكال العنف الجسدي، رغم أن الجميع كان يعلم أن هذه الأمور كانت جزءاً من الحياة اليومية لعبدة أنثى. ومن آثار هذا العنف أنها، على ما يبدو، لم تكن قادرة على الإنجاب.

أما الجرح الأشد، فقد أصابها حين كانت في الثانية عشرة من عمرها تقريباً. لا يزال الموقع الذي تعرّضت فيه للاعتداء قائماً؛ متجر ريفي عند مفترق طرق في باكتاون. كانت واقفة في مدخل المتجر عندما رمى رجل أبيض غاضب بثقل رصاصي يزن رطلين نحو عبد آخر. وهناك روايات متضاربة حول ما حدث. يقول البعض إنها كانت تحاول مساعدة عبد على الهرب. في كل الأحوال، وقفت بينه وبين غضب سيده. وتلقّت الضربة على رأسها؛ وقد شقّت جمجمتها. وقالت لاحقاً إن شعرها الكثيف، الذي لم تكن تمسّطه وكان يبدو وكأنه تاج صوفي، هو ما حماها وامتنصّ وقع الضربة بشدة.

لم تتلقَ أي علاج طبي تقليدي. يمكننا أن نتخيل والدتها تضع لبخةً عشبيةً على الجرح، ووالدها يساعد في استدعاء روحها إلى جسدها من خلال صلواته. فعند الأُسَنتي، إذا تعرّض شخص لصدمة أو فاجعة، يقولون إن الـ «كرا» (الروح) قد «رحلت» أو «طارَت بعيداً». (388) ومن وظائف أولئك المتصلين روحياً أن يساعدوا في إعادتها.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت تعاني من «مشاكل في الرأس». وطوال حياتها، عانت من «النعاس القهري» – الحاجة المفاجئة والملحة للنوم، أحياناً في أكثر اللحظات والأماكن إرباكاً. وخلال هذه «الغفوات»، كانت ترى رؤى، بعضها عظيم. «حين تتاب هارييت هذه النوبات من النعاس القهري، تتخيل أن «روحها» تغادر جسدها، وتزور مشاهد وأماكن أخرى، ليس في هذا العالم فقط، بل أيضاً في عالم الأرواح. وأقل ما يُقال

(388) Eva L. R. Meyerowitz, "Concepts of the Soul among the Akan of the Gold Coast," *Africa: Journal of the International African Institute* 21, no. 1 (January 1951): 24.

عن أفكارها عن هذه المشاهد أنها تُظهِر خيالاً نادر النِّد في تحقيقاته حتى لدى أرقى العقول المثقفة.» (389)

وبعد إصابتها في الرأس، حاول بروديس أن يبيعها لكنه «لم يستطع أن يحصل مقابلها حتى على ستة بنسات». (390) وربما كانت تتظاهر بإعاقه أشد أمام المشتريين المحتملين؛ وإذا تابعنا قصتها عن كُثب، نجد فيها الحيلة كما نجد البصيرة. وفي السنوات التالية، أجهدت نفسها في أشد الأعمال الجسدية، تنقل الحطب وتقطعه وتجّره. وصار جسدها قوياً كجسد رجل صلب. وربما كانت تعمل بجلد الرجال، بل كأنها حيوان تحميل، لتجعل نفسها أقلّ لفتاً للأنظار كهدف للشهوة، بينما تنمّي عضلاتها.

كانت رؤاها تأتيها وسط الأعمال الشاقة، كما كانت تراودها أثناء «غفواتها». «كنا ننقل السباد طوال اليوم، وكانت الفتاة الأخرى وأنا جالستين على جانبي العربة، وكان فتى آخر يقودها، وفجأة سمعتُ موسيقى ملأت كل الأرجاء.» (391) في أحلامها، كانت تطير كعصفور فوق مناظر طبيعية خضراء، نضرة كأنها أول أيام الخلق.

تزوَّجت من رجل يُدعى جون توبمان. كان رجلاً حرّاً، وهو ما شكّل خلافاً واضحاً في العلاقة بينهما. لا نعرف الحسابات أو الكيمياء التي جمعتها، لكننا نعلم أنها أحبّته بصدق. ولو كانت قادرة على إنجاب الأطفال، كانوا سيُعتبرون ملكاً لسيدها. كان إدوارد بروديس، في سعيه باستماتة للحصول على المال، لا يكفي بتأجير عبيده، بل يبيعهم أيضاً لتجار الرق في أعماق الجنوب. لم يكن بيد هاريت ولا والديها أي حيلة لمنع بيع أختين لها؛ رأتهما تساقان بعيداً في سلسلة من العبيد.

كانت تخشى أن يكون بروديس يخطط لبيعها هي وإخوتها الذكور فور أن يجد مشترىً. أخبرت سارة برادفورد أنها كانت تصلي كل ليلة: «يا رب، بدّل قلب ذلك الرجل واجعله صالحاً.» وحين اتضح أن بروديس لن يتغير، غيّرت دعاءها: «يا رب،

(389) Bradford, Scenes, p. 56.

(390) Larson, Bound for the Promised Land, p. 42.

(391) Ednah Dow Cheney, quoted in Jean M. Humez, Harriet Tubman: The Life and the Life Stories (Madison: University of Wisconsin Press, 2003), p. 180.

إن لم تكن تنوي تغيير قلب ذلك الرجل، فاقتله يا رب، وأبعده عن طريقنا، حتى لا يرتكب مزيداً من الشر.»⁽³⁹²⁾

وقد استُجيبَت صلاتها هذه المرة، لكنها تمنت لو استطاعت التراجع عنها. فبعد وفاة السيّد، حاولت أرملته المثقلة بالديون والدعاوى القضائية جمع المال سريعاً ببيع أفراد عائلة هاريت.

وَعِدَ العبيد بأنه إن تم بيعهم، فسيكون ذلك لعائلات محلية، كي يتمكنوا من رؤية بعضهم بعضاً. لكن هاريت رأت الحقيقة في أحلامها. في «رؤى الليل»، سمعت صرخات النساء والأطفال وهم يُفصلون بالقوة، وصوت قرع حوافر خيول تجار العبيد.⁽³⁹³⁾

استعدت لاتباع الخرائط التي أُعطيَت لها في أحلامها. وقبل هروبها، حلمت بأنها «تطير فوق الحقول والبلدات، والأنهار والجبال، تنظر إليها من أعلى كأنها طائر.... وتقول إنها حين وصلت إلى الشمال، تعرفت على تلك الأماكن التي رأتها في أحلامها، وكثير من السيدات اللاتي ساعدنها كنّ أنفسهن من رأتهن في رؤاها.»⁽³⁹⁴⁾

هربت بمفردها. فقد رفض زوجها رفضاً قاطعاً أن يذهب معها. وعندما اتّمنت على أحلامها بالفرار، قال لها إنها حمقاء، دجاجة ترفرف بغباء. وافق إخوتها على الرحيل، لكنهم جبنوا في اللحظة الأخيرة. ومهتدياً بنجم الشمال، وخرائطها الجوية من الأحلام، كانت تسير ليلاً وتختبئ نهاراً «بلا مال ولا أصدقاء.»⁽³⁹⁵⁾

وعندما عبرت الحدود إلى ولاية بنسلفانيا الحرة، تفقدت نفسها لترى إن كانت تحلم داخل الجسد أم خارجه. «نظرت إلى يديّ لأتأكد إن كنت أنا نفس الشخص بعد أن أصبحت حرة. كان هناك بهاء عظيم يغلف كل شيء، والشمس كانت تلمع كالذهب

(392) Sarah Hopkins Bradford, *Harriet, the Moses of Her People* (New York: George R. Lockwood & Son, 1886), p. 24.

(393) *Ibid.*, p. 26.

(394) Sanborn, "Harriet Tubman."

(395) Bradford, *Harriet*, p. 29.

بين الأشجار، وفوق الحقول، وشعرت وكأني في ملكوت السماء.»⁽³⁹⁶⁾

كان ثمة جرح عظيم آخر في حياة هارييت توبان وهو فقدان زوجها. ومن هذا الجرح أيضًا، استخلصت هارييت عطية عظيمة.

لقد أحبّت جون توبان حبًا جمًّا، رغم أنه لم يدعمها يومًا أو يؤمن بها. بعد أن هربت إلى الشمال، قضت عامين تكافح وتدّخر المال من خلال أعمال وضيعة في بنسلفانيا، قبل أن تعود إلى الشاطئ الشرقي، عاقدة العزم على استعادة زوجها. وكانت قد ادّخرت ما يكفي لشراء بدلة جديدة له. لكن عندما وصلت إلى مقاطعة دورشستر، علمت أن جون توبان قد اتخذ لنفسه زوجة جديدة. ورفض حتى أن يراها. لاحقًا، كانت تخبر الجماهير المتعاطفة في الشمال أنها ذهبت من أجل زوجها، لكنها لم تحصل إلا على ملابسه.

لقد منحها فقدان جون تركيزًا. كان بإمكانها أن تنهار تحت وطأة الغضب والألم؛ لكنها، عوضًا عن ذلك، سمحت لهما بأن يمنحا قوة لرسالتها. قالت لإدنا تشيني إن جون توبان «سقط من قلبها»، «وإنها عازمت على أن تهب حياتها لأفعال شجاعة».⁽³⁹⁷⁾ وحيث أنها حرّمت من هويتها الجنسية لسنوات طويلة، وكثيرًا ما كانت تُخفي أنوثتها متقمّصة دور رجل أو عَجُوز شمطاء، فقد أصبحت مكرّسة كليًا لقضيتها.

المُرْشِدة

تقول برادفورد إن توبان عادت إلى الجنوب تسع عشرة مرة وأخرجت أكثر من ثلاثمائة عبد هارب.⁽³⁹⁸⁾ أما المؤرخون المعاصرون، فيرون أنها عادت تسع مرات فقط، ولم تكن مسؤولة بشكل مباشر عن نقل أكثر من سبعين عبدًا إلى الحرية، رغم أنها كانت تدير عمليات إنقاذ أخرى عن بُعد، أحيانًا من مخبأ في بالتيمور قرب الواجهة

(396) Ibid., p. 30 (dialect removed).

(397) Humez, *Harriet Tubman*, p. 183.

(398) Bradford, *Harriet*, p. 6.

البحرية.⁽³⁹⁹⁾ سواءً عادت هارييت توبمان تسع مرات أو تسع عشرة مرة، فقد كانت تخاطر بمخاطر استثنائية، خصوصًا بعد أن وُزِّعت منشورات تُعلن عن المكافأة الكبيرة الموضوعة للإمساك بها.

لقد أخرجت إخوتها، وفي نهاية المطاف والديها، بالإضافة إلى أناس لم يعرفوها إلا باسم «موسى». وعندما كانت تقترب من نقاط الالتقاء ليلاً، كانت أحيانًا تعلن عن قدومها بغناء الترتيلة الروحية التي استمدت منها اسمها الحركي:

اذهب يا موسى

اذهب إلى أرض مصر

وقل لفرعون المسن

دع شعبي يذهب.

قال ويليام ستيل، وهو موظف أسود في شبكة تحرير العبيد السرية في فيلادلفيا: «لقد بدت مفتقرة تمامًا إلى أي خوف شخصي. لم تكن تخطر في بالها أبدًا فكرة أن يقبض عليها صيادو العبيد أو مالكوهم. كانت، على ما يبدو، محصنة من جميع الخصوم.» كانت تبدو، لبعض من كانت تقودهم، وكأنها تسير في حالة من الغيوبة. «نصف الوقت، كان يبدو عليها كأنها نائمة، بل كانت تجلس بجانب الطريق وتغرق في النوم أثناء مهمات الرحمة التي كانت تنفذها في الجنوب.»⁽⁴⁰⁰⁾

دفعتها واحدة من «الإشارات المفاجئة» التي انتابتها خلال غفوة، إلى اتخاذ قرار بعبور مجموعة من العبيد الهارين لنهر في يوم بارد من شهر مارس. بينما كانت تسير بهم على طريق ريفي، بدأ رأس هارييت يؤلمها بشدة. انهارت على ركبتيها وسقطت في مكانها، على مرأى من الجميع، ودخلت في واحدة من «غفواتها» اللاإرادية. وعندما استعادت وعيها، أمرت المجموعة بأن تتبعها في طريق غير متوقع تمامًا بدا وكأنه

(399) Compare Larson, *Bound for the Promised Land*.

(400) William Still, *The Underground Railroad: A Record of Facts, Authentic Narratives, Letters, c* (Philadelphia: Porter & Coates, 1872). Project Gutenberg Ebook 15263.

يقودهم أعمق في أراضي العبيد. وصلوا إلى نهر بدا عميقًا جدًا بحيث لا يمكن خوضه، ولم يكن أي منهم يعرف السباحة. أصرت هاريت على أن عليهم جميعًا دخول النهر؛ كانت واثقة من وجود مكان يكون فيه الماء ضحلًا بما يكفي لعبوره مشيًا. كانت قد رأت في حلمها أنهم سيتمكنون من العبور، وأن اجتياز النهر سيمحو آثارهم من أعين صائدي العبيد الذين كانوا يلاحقونهم. كما رأت كوخًا على الضفة الأخرى سيجدون فيه طعامًا ومأوى. خاضت في النهر سالكةً مسارًا متعرجًا. وصل الماء إلى ذقنها، لكنه لم يعمل أكثر من ذلك؛ فقد عثرت على ممر مخفي تحت الماء. تبعها الآخرون، وكان في استقبالهم على الضفة الأخرى عائلة سوداء وفّرت لهم المأوى في كوخها. علمت جماعة هاريت لاحقًا، أنهم لو تابعوا سيرهم على الطريق السابق، لكانوا قد وقعوا في قبضة فرقة مطاردة كانت في انتظارهم.⁽⁴⁰¹⁾

كانت تدفع من معها بقوة وحزم. «لم تكن لتسمح لأي منهم بأن ينوح مرة واحدة أنه «قد أنهكه التعب وسيعود»، مهما بلغ بهم الإعياء من الترحال ليلاً ونهارًا.» كانت تحذر الذين ينضمون إليها بأن المخرج الوحيد هو إما الحرية أو الموت، وكانت أحيانًا تؤكد هذا التحذير بإشهار مسدسها. أخبرتهم أن «العبد الهارب إذا عاد يمكن أن يلحق ضررًا كبيرًا، لكن الميث لا يبوح بأسرار»، وقد استوعبوا رسالتها.⁽⁴⁰²⁾ كان هناك خونة ومنشقون على شبكة تحرير العبيد السرية، لكن ليس على خطها.

كان لديها معرفة باطنية، ويقين بأنها تسير برفقة قوة عليا، إله تستطيع أن تناجيه. وجود رفيق روحي بجانبها جعلها شبه محصنة من الخوف. كانت سارة برادفورد ترى أنها كانت على «اتصال مباشر مع السماء». وقد وجدت برادفورد صعوبةً في سرد هذه الجزء من القصة: «أجد صعوبةً كبيرة في معرفة كيفية الاقتراب من التجارب الروحية لبطلتنا السمراء. فتلك التجارب تدخل في نطاق الخوارق، حتى أنني لا أستغرب من أن من لم يعرفوها يميلون إلى التشكيك في القصة.... فلو لم أكن أعرف شخصيتها المتدينة بشدة، وضميرها الصادق، ولو لم أكن، بعد الحرب، حين أقامت في منزلي، قد

(401) Bradford, *Harriet*, pp. 73–74.

(402) Still, *Underground Railroad*.

شهدت بنفسي مواقف مذهلة من تواصلها المباشر مع السماء، لما تجرأت أن أخاطر بسمعتي فيما يتعلق بالصدق بأن أروي هذه الأمور علناً بهذه الطريقة.»⁽⁴⁰³⁾

قال الناشط المناهض للعبودية توماس غاريت، الذي ساعد هاريت في تهريب «محرري أنفسهم» إلى ديلاوير: «لم ألتق قط بشخص، من أي لون، يمتلك هذا القدر من اليقين والثقة في رسالة الله، التي كانت تصل مباشرة إلى أعماق روحها». كانت «لا تغامر إلا حيث أرسلها القوي.»⁽⁴⁰⁴⁾ وقد زوّدت غاريت بعدة أمثلة على مواهبها الاستبصارية. في إحدى المرات زارته وقالت: «لقد أخبرني قوة روحية أن لديك مبلغاً مالياً، يقدر بحوالي ثلاثة وعشرين دولاراً.» مع أن هاريت لم يكن يمكن أن تعرف هذا عبر وسائل عادية، إلا أن هذا المبلغ كان بالضبط قيمة تبرع قدره خمسة جنيهات إسترلينية تلقاه غاريت مؤخراً من متعاطف إسكتلندي كان يرغب في أن تصل الأموال إلى توبمان. اعترف غاريت بأنه لم يتمكن من التمييز بين كونها «رؤية استبصارية أو انطباع إلهي في عقلها»، لكنه أضاف أن «الأمر المؤكد أنها كانت تمتلك دليلاً داخلياً يقودها.»⁽⁴⁰⁵⁾

طوّرت هاريت القدرة على نقل رؤاها. ولنفهم ذلك، علينا أن نستمع إلى نبرة صوتها المثيرة التي تأسر القلوب. كانت تستطيع أن تغرس الشجاعة في قلوب الناس عبر الغناء. واستخدمت الترانيم الروحية كرسائل مشفرة، تُفهم على أنها إشارات بالأمان أو أوامر للاختباء، أو رسائل تفيد بأنها ستنطلق، «متجهة إلى الأرض الموعودة».

لم تكن أغانيها مجرد رسائل مشفرة فحسب، بل كانت تحمل طاقة خام متجددة تنبعث منها. فقد اكتسبت الكلمات المأخوذة من الصلوات الكنسية البيضاء هوية وروحاً جديدة حينما امتزجت بأرواح الأفارقة وشوقهم إلى الأرض الموعودة على أرض أمريكا. وفي زمنها، كانت الكنائس السوداء لا تزال في طور التكوين في أمريكا

(403) Bradford, *Harriet*, pp. 75–76.

(404) Thomas Garrett, 1868 testimonial letter in Bradford, *Harriet*, pp. 83–84.

(405) Ibid., pp. 86–87.

الشمالية، ومن خلال استذكار عصر توبمان، نشهد ولادة التمازج الأول بين التقاليد والأساليب المسيحية والأفريقية. كانت سارة برادفورد كثيرًا ما تسمع هاريت تغني هذا المقطع:

من تهز الرعود خليقته

من يأمر الكواكب أن تدور

من يركب العاصفة

ومن يسيطر صولجانه على الكل.⁽⁴⁰⁶⁾

تخيّل أثر ذلك الصوت العظيم، وهو يحمل هذا الابتهاال الرائع للقوة الروحية، إلى أولئك المختبئين في «حفر البطاطس» وسط الظلام. بشهادة الجميع، كان صوت هاريت عظيمًا، ومختلفًا بطريقة مذهشة على آذان البيض. تتذكر برادفورد، قائلة: «اللعن المصاحب لهذه الكلمات كان جامعًا جدًّا، ومليئًا بجرسٍ طفيف حزين وارتجافات غير متوقعة، حتى إنني أتحدّى أي شخص أبيض أن يتعلمه. ورغم سماعي له مرارًا، فإنه كان يفاجئني في كل مرة.»⁽⁴⁰⁷⁾

وقال مستمع آخر إن صوتها كان «جهوريًا أكثر من كونه ناعمًا.»⁽⁴⁰⁸⁾ كانت قوة المغنية، والقوة التي رافقت كلماتها، من مفاتيح قدرة توبمان على غرس الشجاعة والإيمان في نفوس الذين ساعدتهم على التحرر، وإيصالهم عبر الغابات والمستنقعات في ظلمة الليل.

وبالإضافة إلى قوة الأغنية، امتلكت هاريت موهبة السرد. كانت قادرة على إدخالك إلى قلب الحكاية، سواء أكانت مثلًا تعليميًا، أو قصة بطولة تهزّ المشاعر، أو حكاية فظة تسخر فيها من ذاتها، أو أفقًا جديدًا من الإمكانيات. قالت إدنا تشيني: «كانت تملك قوةً درامية عظيمة. فالمشهد ينبثق أمامك كما رآته هي، وصوتها ولغتها

(406) Bradford, *Harriet*, p. 36.

(407) Ibid., p. 37.

(408) Humez, *Harriet Tubman*, p. 137.

يتغيران بتغير الشخصيات التي تمثلها.»⁽⁴⁰⁹⁾

وللتعليم والإلهام، كانت كثيرًا ما تستخدم الأمثال. حينما ناشدت الرئيس لينكولن بالإسراع في إعلان تحرير العبيد، اعتادت أن تسرد مثلَ الأفعى على الأرض: «تخيل أفعى ضخمة على الأرض، تعضّك. الناس يرتعون لأنك ستموت. تستدعي طبيبًا ليشق موضع العضة؛ لكن الأفعى لا تزال هناك ملتفة، وبينما الطبيب يعالجك، تعضّك مرة أخرى. الطبيب يشق موضع تلك العضة مجددًا؛ لكنها تقفز وتعضّك من جديد؛ وتظل تفعل ذلك، حتى تقتلها. هذا ما يجب أن يعرفه السيد لينكولن.»⁽⁴¹⁰⁾

الحلم بالحرب وتحرير العبيد

هي الآن في برية من الصخور والشجيرات. هناك شيء يتحرك بين الصخور. ترفع أفعى هائلة رأسها وتلتفت نحوها. يتحول الرأس إلى وجه رجل ذي لحية بيضاء كثيفة، ينظر إليها «برغبة»، كما لو كان يرغب في الحديث. يرتفع رأسان آخران بالقرب منه، عليهما وجها شايين. ثم يندفع جمع من الرجال إلى المشهد. يضربون رأسي الشايين ثم رأس الرجل المسن، الذي يستمر في التحديق فيها «برغبة».⁽⁴¹¹⁾

تعرفت هاريت على «الرجل الأفعى» الذي رآته في حلمها بعد بضعة أيام، في أبريل عام 1858، حين زارها جون براون في منزلها في سانت كاثرينز. كان عائدًا لتوه من معارك ضارية بالسيف والنار مع «البلطجية الحدوديين» المؤيدين للعبودية في كانساس، وكان هذا المتحمس لإلغاء العبودية يُجند السود لما كان يعدّه مهمة إلهية: إشعال تمرد للعبيد في الجنوب. نشأت بسرعة صداقة بين توبمان وبراون. بعد لقاءهما الأول، كتب القبطان براون إلى أحد أبنائه قائلًا إن هاريت «أشبه من التقيتهم في حياتي، فطرةً، بالرجال.»⁽⁴¹²⁾ وسرعان ما بدأ يتناديها بـ «الجنرال» توبمان.

(409) Larson, *Bound for the Promised Land*, p. 169.

(410) Lydia Marie Child to John Greenleaf Whittier, January 21, 1862, in Larson, *Bound for the Promised Land*, p. 206.

(411) Sanborn, "Harriet Tubman."

(412) Letter to John Brown Jr., April 8, 1858, in Franklin B. Sanborn, *Life and Letters of John*

في العام التالي، كانت معه في بوسطن بينما كان يجمع المال وبنادق سبرينغفيلد من أنصار إبطال العبودية. غير أن المصير الذي رآته هاريت له في حلمها ربما زرع الحذر في قلبها. فبينما انضم بعض العبيد الهاربين من سانت كاثرينز إلى جيش براون الصغير، لم يتمكن رجاله من العثور على توبمان بين يوليو وسبتمبر 1859، حين أرادوا تجنيدها للمشاركة الفعلية في الهجوم المخطط على مستودع الأسلحة في هاربرز فيري.

كانت توبمان في نيويورك ليلة الأحد، 16 أكتوبر 1859، عندما استولى براون ورجاله على المستودع، مفاجئين الحارس الوحيد. ومن بعيد، شعرت بـ «خفقان، خفقان» في قلبها، وهي إحدى الطرق التي كانت تستشعر بها الخطر. وقالت لمضيفتها إنه «لا بد أن الكابتن براون في مأزق.»⁽⁴¹³⁾

لسبب ما، تحصّن براون وقوته الصغيرة داخل المستودع بدلاً من الهروب بالأسلحة التي تمكنوا من حملها، وسرعان ما أطاحت بهم قوات مشاة البحرية الأمريكية بقيادة روبرت إي. لي. وتحقق حلم هاريت الذي رأت فيه ثلاثة رؤوس تُضرب حين رُبطَ جون براون، وهو يرتدي السواد بالكامل، على نعشه ليقاد إلى المشنقة، وشُنقَ اثنان من أبنائه بعده. قالت توبمان لإدنا تشيني: «الذي مات على تلك المشنقة لم يكن جون براون.... لم يكن إنساناً فانياً، بل كان في داخله.»⁽⁴¹⁴⁾ كان براون قديساً وشهيداً في أعين كثير من أنصار إبطال العبودية في الشمال، و«مرعباً» للجنوبيين والمعتدلين.⁽⁴¹⁵⁾ لقد فشل هذا الرجل الجامح الغريب في كل شيء في حياته، إلا في جهوده لإشعال شرارة حرب أهلية.

كانت لدى هاريت توبمان رؤية قوية لتحرير العبيد. وصفتها لأحد أبرز أنصار إبطال العبودية السود في نيويورك، هنري غاريت، في أوائل عام 1861. قال غاريت إنه لا يعتقد أنه سيرى تحرير العبيد في حياته، ولا حتى في حياة أحفاده. ردت عليه

Brown (1885; reprint, New York: Negro Universities Press, 1969), p. 452.

(413) Bradford, *Harriet*, p. 119.

(414) Humez, *Harriet Tubman*, p. 40.

(415) Ken Chowder, "The Father of American Terrorism," *American Heritage* 51, no. 1 (February–March 2000).

توبمان قائلة إنه مخطئ. «سترى ذلك، وستراه قريبًا. قومي أحرار! قومي أحرار!» (416)

لكن هاريت رأت أيضًا، قبل اندلاع الحرب الأهلية بـ 20 سنة، أن إنهاء العبودية لن يتحقق إلا بالقوة المسلحة. كانت تؤمن، كما آمن براون و«الستة السريون» الذين دعموه (وكان من بينهم أول كاتب لسيرتها، فرانكلين سانبورن)، بأن الأمريكيين من أصل أفريقي، عبيدًا وأحرارًا، يجب أن يُسلِّحوا للمشاركة في تحرير أنفسهم.

بعد أن استولى جيش الاتحاد على الجزر البحرية قبالة سواحل كارولينا، توجهت توبمان جنوبًا لدعم أولى الكتائب السوداء التي تشكلت من عبيد سابقين. وبمبادرة من الحاكم جون أندرو من ماساتشوستس، عُيِّنَت هاريت كشافًا وجاسوسة، وكذلك ممرضة وطاهية. كانت تمشي في شوارع بوفورت، بولاية ساوث كارولينا، تحت وطأة الحر الخانق، وأصداف المحار تتهشم تحت قدميها، لتقابل الجنرال ديفيد هنتر، الذي أغضب لينكولن بإعلانه تحرير العبيد قبل الأوان وتسليح بعضهم. أظهرت مهاراتها كمعالجة بالأعشاب حين أعدت شرابًا من الجذور والنباتات المحلية شفى طبيبًا عسكريًا من الدُوسْتاريَا؛ فطلب الطبيب منها لاحقًا إعداد كمية تكفي لعلاج كتيبة كاملة. رافقت الكولونيل جيمس مونتغمري، ذي الشارب الأحمر الناري، و«البضائع المُهرَّبة» - العبيد السابقين في فوج ساوث كارولينا الثاني - في غارة عبر نهر كومبيهي حرروا خلالها ثمانمائة عبد، واستولوا على كميات هائلة من الأرز. وكان متوقعًا منها أن تترجم للضباط الاتحاديين، لكنها وجدت أن تواصلها مع ناطقي لغة الجولا لم يكن أفضل من تواصل الضباط أنفسهم. غير أنه في حادثة كاشفة، عندما بدأ سكان الجزر البحرية، المذعورين، بالتشبث بقوارب الإنقاذ مهددين بقلبها، اندفعت هاريت تغني مستخدمةً صوتها الملهم القوي. «حينها رفعوا أيديهم وبدؤوا يهتفون: المجد! وابتعد المجدفون بالقوارب. وواصلت الغناء حتى صعد الجميع على متن القوارب.» (417)

كانت ساخطة على لينكولن لتأخره في إعلان تحرير العبيد الذي رآته في أحلامها. حثته على الإسراع، قائلة: «الرب لن يسمح للسيد لينكولن بهزيمة الجنوب حتى يفعل

(416) Bradford, *Harriet*, p. 93.

(417) Humez, *Harriet Tubman*, p. 191.

وقد احتُفل بإعلان تحرير العبيد قرب بوفورت، بولاية ساوث كارولينا، في الأول من يناير 1863، بحفل صاحب أُقيم تحت أشجار السنديان، حيث تدلت الطحالب الرمادية فوق رؤوس النساء السود اللواتي يعتمرن «العمام» والجنود السود الذي يرتدون سراويل «زواف» القرمزية العريضة. لم تشارك هاريت في الاحتفالات. قالت: «كان يوم فرحي قبل ثلاث سنوات. ابتهجت كما لم أفعل من قبل؛ لم يعد لديّ متسعٌ للفرح.» (419) وفي صورة بورتريه التُقطت لها في تلك الفترة، كانت تحمل بندقية.

وعند نهاية الحرب، عادت هاريت إلى منزلها في مدينة أوبورن، بولاية نيويورك، حيث كانت قد استقرت مع والديها وأفراد آخرين من عائلتها. وعندما أبرزت تصريحًا حكوميًا لمسؤول قطار عنصري خلال رحلة من فيلادلفيا إلى نيويورك، لم يأبه به. صرخ في وجهها قائلاً إن الشركة لا تسمح لأي «زنجي بنصف السعر» بالجلوس بين البيض. (420) وحين حاول طردها من العربة، اشتبكت معه وسرعان ما تمكنت من التغلب عليه بفضل القوة البدنية الهائلة التي اكتسبتها في الحقول ومناشر الأخشاب. لكن رجالاً بيضاً آخرين تدخلوا لمساعدته، فكسروا ذراعها وعدة أضلاع أثناء دفعها إلى عربة الأمتعة. لم يكن هذا الاستقبال العنيف عند عودتها فألاً حسناً لقضية حقوق الأمريكيين من أصل أفريقي، ولا لمصير هاريت الشخصي بعد الحرب الأهلية.

تحملت هاريت الحياة لما يقرب من نصف قرن آخر، متنقلةً بين الشهرة والنسيان، وتعيش في فقر دائم، تكافح لإطعام والديها وإخوتها والعدد الذي لا يُحصى من المشردين الذين كانوا يجدون ملاذاً في مزرعتها الصغيرة في أوبورن. سعت لسنوات طويلة للحصول على معاش حربي، لكنها لم تنل قط ما كانت تستحقه. وجدت هاريت أن الكاتبة المناسبة لسيرتها هي سارة برادفورد، التي كانت مؤلفة كتب أطفال ومعلمة

(418) Lydia Maria Child to John G. Whittier, January 21, 1862, in Larson, *Bound for the Promised Land*, p. 206.

(419) Bradford, *Harriet*, p. 93.

(420) Martha Coffin Wright to Marianna Pelham Wright, November 7, 1865, in Larson, *Bound for the Promised Land*, p. 232.

في مدرسة الأحد، والتي كانت قد قرأت قصصًا من الكتاب المقدس لوالدي هاريت المسنين. وعلى الرغم من انشغال برادفورد بالتحضير لرحلة أوروبية، جمعت على عجل النسخة الأولى من سيرتها الذاتية، وقد كان ذلك أمرًا طيبًا، لأنها لم تجد وقتًا لتحذف بعضًا من أكثر الوقائع قسوة، كاكْتِشاف هاريت لخيانة زوجها. حذفت برادفورد (التي كان زوجها قد هجرها هي الأخرى) هذا المشهد من الطبعة الثانية. قرأت الملكة فيكتوريا النسخة التالية من السيرة الذاتية، ودعت هاريت إلى حفل عيد ميلادها. وَجَنَتْ توبمان من الكتاب ما يكفي لسداد رهن بيتها في أوبورن.

أما زوجها الخائن، جون توبمان، فقد قُتِلَ بعد نهاية الحرب الأهلية بقليل، في شجارٍ مع رجلٍ أبيض. ربما وجدت هاريت سلواها في زواجها الثاني من رجل طويل القامة يصغرها بعشرين عامًا، لكنه كان يعاني من السل، وسرعان ما تحوّل دورها إلى ممرضةٍ له.

ليس مفاجئًا أن تواصل هاريت توبمان إلهام الناس حتى اليوم، عبر الأحلام، بالإضافة إلى السير الذاتية والمعارض المخصصة لـ «شبكة تحرير العبيد السرية». في بعض الأحلام المعاصرة، تظهر هاريت كرسولة، وأحيانًا كساعية بريد تدفع الرسائل من تحت الأبواب.

رأيتها لأول مرة على هيئة طيف حي بينما كنت انجرف بين اليقظة والنوم، في سريري داخل منزل كنت أملكه ذات يوم في تروي، بنيويورك. علمتُ لاحقًا أن هاريت كانت قد قادت حشدًا هناك في تروي لتحرير عبد هارب يُدعى تشارلز نال، كان على وشك أن يُعاد إلى الجنوب بموجب قانون العبيد الهاربين سيء السمعة. وفي حلمي المفضل عنها، كانت تؤدي مهامها من نافذة مكتب بريد فريد من نوعه؛ مكان يمكنك أن تذهب إليه لتسترد أحلامك الضائعة أو التي لم تُسَلَّم.

الفصل العاشر

الحياة المُقَفَّاة لمارك توين

قد لا يعيد التاريخ نفسه، لكنه يتناغم.

— مقولة تُنسب إلى مارك توين

«شعرت وكأنني قد استيقظت لتوّي من سباتٍ عميق طويل.»

كانت هذه هي الجملة الافتتاحية التي بدأ بها كاتب شاب يُدعى سام كليمنس أول مقالة يوقعها باسم «مارك توين». كانت المقالة عبارة عن رسالة أرسلها إلى صحيفة «تريتوريال/إنتربرايز» في فرجينيا سيتي بولاية نيفادا؛ وهي مدينة قضى فيها سام وقتًا طويلًا يحتسي الويسكي الأحمر ويحاول تحقيق ثروة — بتاريخ 3 فبراير، 1863.

ما كان سام كليمنس ليصبح مارك توين لولا مغامرة شبيهة بالحلم نسجتها الصدف السعيدة، التي كانت رفيقة دربه في أغلب أوقات حياته. وتُعدّ الحادثة التي قادت به إلى الطريق النهري الذي مهّد له أن يصير مارك توين مثالًا باهرًا على القاعدة الذهبية في قانون التوجّه بالمصادفات السعيدة: لكي نهتدي إلى الطريق، لا بدّ أولاً أن نضلّ.

بينما كان سام يعمل في مهنة الطباعة في مدينة كيوكوك بولاية أيوا، وقع بين يديه ذات يوم كتاب يصف «منتجًا نباتيًا ذا قوى إعجازية» ينمو في البرازيل. ألهم هذا الوصف في نفسه شغفًا عارمًا بالذهاب إلى نهر الأمازون، والحصول على كمية من هذا النبات العجيب؛ ومن ثم، جني ثروة طائلة من ورائه. وقد انتقل هذا الحماس إلى رجل أعمال محلي يُدعى وارد، وأستاذ في الكيمياء يُدعى جوزيف مارتن، والذي كان يُفترض أن يمتلك القدرة على تقييم الخصائص المزعومة لهذا النبات البرازيلي. اتفق الثلاثة على

تنظيم بعثة استكشافية مشتركة. غير أن صعوبة بسيطة في الترتيبات اعترضت طريقهم: لم يكن أيُّ منهم يعرف السبيل إلى البرازيل. وقبل أن يتمكنوا من حل هذه المعضلة، بدأ رفيقاه يفقدان اهتمامهما بالمشروع. أما سام، فقد واصل المغامرة منفردًا، حتى وصل إلى مدينة سينسيناتي، حيث استقل باخرة نهريّة حملته عبر نهر أوهايو إلى نهر المسيسيبي، متجهًا صوب نيو أورليانز. وكان قائد السفينة آنذاك يُدعى هوراس بكسباي.

عندما وصل سام إلى نيو أورليانز، تبين له أن الميناء يخلو من أي سفينة تتجه إلى البرازيل، ولم يستطع أحد أن يدلّه على الطريق إليها. كتب لاحقًا يقول: «لم أتمكن من الوصول إلى الأمازون»، وأضاف: «لذا قصدتُ هوراس بكسباي وطلبت منه أن يصنع مني ربّانًا.» وحين أبحر بكسباي في النهر، كان سام على متنه متدرّبًا على فنون الملاحة، وهو ما كان يُعد آنذاك طريقًا إلى حياة كريمة؛ بل وأكثر من ذلك بكثير بالنسبة إلى الشاب سام كليمنس.⁽⁴²¹⁾ فمن خلال عمله على نهر المسيسيبي، استلهم العديد من الأفكار التي شكّلت لاحقًا جوهر الكتب التي ستخلد اسمه تحت اسم مستعار اقتبسه من نداء البحارة: مارك توين، والذي يشير إلى عمق يُقدر بقامتين، علامة على أمان المسار الملاحي.

لم تكن النبتة العجيبة التي انطلق سام بحثًا عنها سوى نبتة الكوكا. ولو أنه نجح في تنفيذ خطته الأولى، ربّما أصبحت كيوكوك، بولاية أيوا، عاصمة الكوكايين في أمريكا. ولأن سام كليمنس لم يتمكن من الوصول إلى البرازيل، فقد فشل في أن يصبح أول تاجر كوكايين في تاريخ أمريكا الشمالية، ليصبح بدلًا من ذلك مارك توين.

الحياة على النهر، التي كانت مصدر فرح وإلهام إبداعي لسام، سرعان ما جلبت له مأساة أيضًا. فقد رأى سام كليمنس في حلمٍ موت شقيقه الأصغر الحبيب، هنري، بكل تفاصيله الدقيقة، قبل أن يقع الحادث. كان الاثنان على متن السفينة النهريّة «بنسلفانيا»، حيث كان سام يعمل ربّانًا متدرّبًا، بينما شغل هنري وظيفة متواضعة كـ «عامل طين»؛ وهو موظف يحصل على الطعام ومكان للنوم مقابل مساعدته في نقل

(421) Mark Twain, "The Turning-Point of My Life," in *What Is Man? And Other Philosophical Writings*, ed. Paul Baender (Berkeley: University of California Press, 1973).

البضائع في المواقع التي تفتقر إلى مراسي مناسبة، مما يضطره إلى الخوض في الوحل لتسليم الشحنات. في الليلة السابقة لإبحارهما، حلم سام بأنه يرى هنري جثةً مسجاة في نعش معدني، مرتدياً إحدى بدلات شقيقه الأكبر، وعلى صدره باقة ضخمة من الورود البيضاء تتوسطها وردة حمراء وحيدة.

استيقظ سام مثقلاً بالحزن، مقتنعاً بأن ما رآه في حلمه كان حقيقة، وأن هنري مسجى في الغرفة المجاورة. لم يستطع أن يستجمع قواه أو يقنع نفسه بأن ما رآه لم يكن «حقيقياً»، حتى خرج يتمشى خارج المنزل. وقد تذكر لاحقاً أنه سار مسافة حيّ كامل قبل أن «يباغطني فجأة الإدراك بأنه لم يكن هناك شيء حقيقي؛ لقد كان مجرد حلم»، على حد قوله.

أخبره أفراد عائلته بأنه «مجرد حلم». وعلى الرغم من أن قوة مشاعره كانت توحى له بشيء آخر، وافق سام على محاولة تجاهل الحلم وإبعاده عن ذهنه.

بدأت المأساة تتكشف بعد وقت قصير من صعود الشابين إلى متن السفينة «بنسلفانيا». وبحسب التعبير المفعم بالحياة لرون باورز، فقد كان ملاح السفينة، ويليام براون، «رجلاً ثائراً سليط اللسان»، وسرعان ما نشب بينه وبين سام شجار. (422) خلال الرحلة في مجرى النهر، اندلع قتال عنيف بينهما. انحاز القبطان إلى جانب سام، وأعلن أنها سيبحثان عن ملاح جديد عندما يصلون إلى نيو أورليانز. لكنهم لم يتمكنوا من العثور على ملاح بديل، وبما أن سام وبراون لم يكونا قادرين على التعايش في السفينة ذاتها، تم نقل سام إلى سفينة أخرى، بينما بقي أخوه هنري على متن «بنسلفانيا»، التي بدأت رحلتها صعوداً مع مجرى النهر أولاً. وقبيل افتراقهما، تحدث سام وهنري عن كيفية التصرف في حال وقوع كارثة نهريّة، مثل انفجار الغلايات، وهي حوادث شائعة في ذلك الوقت.

انفجرت غلاية السفينة «بنسلفانيا» بجحيم من البخار والنار، تماماً كما كان سام وهنري يتحدثان من قبل. وبعد أن أصيب هنري بحروق شديدة، نجا لبضعة أيام، قبل

أن يتوفى في ممفيس، حيث تم نقل المصابين. لم يمَسّ الأذى وجهه الوسيم، وقد تأثرت السيدات المتطوعات بجسماله وبرأته لدرجة أنهن قدمن له أفضل نعش متاح؛ نعشًا معدنيًا.

عندما دخل سام إلى «غرفة الموتى» في مبنى ممفيس إكسستشينج في الحادي والعشرين من يونيو عام 1858، هاله المشهد حين رأى حلمه وقد تحقق أمامه: أخوه الميت مسجى في نعش معدني، مرتديًا بدلة مستعارة. كان هناك عنصر واحد فقط مفقود: باقة الزهور. وبينما كان سام يراقب بحزن، دخلت سيدة تحمل باقة من الورود البيضاء تتوسطها وردة حمراء وحيدة، ووضعتها على صدر هنري.⁽⁴²³⁾

ظل مارك توين يروي ويعيد سرد ظروف وفاة هنري - في ذهنه وفي كتاباته - طوال حياته. ولم يستطع يومًا أن يتخلص من فكرة أنه لربما تمكن من إنقاذ هنري، لو كان يعرف كيف يستفيد من المعلومات التي قدمها له حلمه.

كانت الأحلام والصدف تتداخل باستمرار مع أحداث حياة مارك توين وإبداعاته. وعبر هذا النسيج، كانت تناسب شرائط عريضة من النور والظلمة، من الحزن والفرح، من الانتصارات والمآسي. كان يقول إن الكتابة العظيمة لا تولد إلا من رحم المآسي، وقد عاش هو نصيبًا وافرًا منها. لقد كانت كوميديته تطفو فوق هاوية من الألم، ولهذا كانت أكثر صدقًا وأعمق أثرًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

العيش على إيقاع المصادفات

كانت المصادفات هي نَسَقَ حياة مارك توين، وقد كان يعي بذلك. بإمكاننا تتبع هذه الظاهرة بتفاصيل دقيقة، لأنه تبَنَّى في وقت مبكر من حياته عادة حميدة، وهي تدوين ما «يلاحظه» في «دفاتر ملاحظاته». ولاحقًا، صمم دفاتر خاصة تحتوي على ألسنة قابلة للسحب، كي يتمكن من الوصول بسهولة إلى الصفحة التي كان يعمل عليها. كما أننا

(423) The Autobiography of Mark Twain, ed. Charles Neider (New York: Perennial Classics, 1990), p. 130.

نستفيد اليوم من سيرة ذاتية حديثة ورائعة كتبها رون باورز، تتبعت تداخل الصدفة في حياة مارك توين بدقة تفوق ما رأيته في أي سيرة حديثة كبرى لأي شخصية مهمة.

ظهر مذهب هالي في سنة ولادة سام كليمنس، عام 1835. وفي السنة التي سبقت وفاته، قال لصديقه آرثر بيجلو باين: «لقد أتيت مع مذهب هالي وسأغادر معه». وقد كان محققاً إلى حد كبير؛ إذ اختفى كل من مارك توين والمذهب في العام نفسه، 1910، وإن لم يكن في اليوم ذاته.

وُلد صمويل لانجهورن كليمنس قادمًا من عالم الأحلام إلى بلدة فلوريدا بولاية ميزوري، في 30 نوفمبر عام 1835، قبل موعد ولادته بشهرين. كان طفلاً وُلد قبل أوانه، هشًّا للغاية، قضى معظم سنواته الأربع الأولى طريح الفراش. وكما يشير أفضل من كتب سيرته الذاتية: «عادةً ما يكون الأطفال الخدج عاجزين عن النوم العميق، ويعيشون أحيانًا في عالم أشبه بالحلم، عالم ذي حدود غير مستقرة.»⁽⁴²⁴⁾

كان سام طفلاً حالمًا، سائرًا أثناء النوم. وقد كانت هذه العادة في سنواته الأولى مؤشرًا قويًا على أن الحدود المألوفة للعالم من حوله لم تكن تعني له شيئًا. وقد زعم شقيقه الأكبر، أوريون، لاحقًا أن سام – ولم يكن قد بلغ الرابعة بعد – دخل «عائًا» إلى غرفة شقيقته المريضة مارجریت وهو نائم تمامًا، وجذب بطانيته قليلًا، ثم انسحب مبتعدًا. توفيت مارجریت بعد بضعة أيام من تلك الحادثة؛ وكان هذا كافيًا – في نظر والدته جين – لتعتبره طفلاً ذا موهبة نفسية خارقة. ففي كنتاكي – مسقط رأس جين لانجهورن – كان يُعتقد أن من «يجذب غطاء» شخص يحتضر، ثم يموت ذلك الشخص لاحقًا، إنها يُظهر قدراتٍ نفسية غير عادية.⁽⁴²⁵⁾

عندما كان سام في الرابعة عشرة من عمره، تطايرت صفحة من كتاب في الشارع كأنها ورقة خريف، والتفت حول ساقه. وحين نزعها، اكتشف أنها صفحة من كتاب عن جان دارك. أشعلت الفقرات القليلة التي قرأها شرارة اهتمام حيّ في داخله، لم

(424) Powers, Mark Twain, p. 9.

(425) Ibid., pp. 20–21.

يُحمد، بل عاد ليشتعل من جديد في عام 1891، عندما مر بقرية دومريمي، مسقط رأس القديسة، خلال جولة أوروبية.⁽⁴²⁶⁾ هناك، انكب بكل طاقته على بحث شامل ورحلة تخيلية أثمرت عن كتابه «ذكريات شخصية عن جان دارك» *Personal Recollections of Joan of Arc*؛ الكتاب الذي اعتبره الأهم في مجمل أعماله. وقد استند فيه إلى وثائق أصلية من المكتبة الوطنية في باريس، واستحضر فيه بقوة ما سماه «نور المعركة» الذي كان يشع من Jehanne (جان دارك)، إضافة إلى صلتها الروحية بأشجار بعينها، وكتب: «جاء ظل أبيض ينساب ببطء فوق العشب متجهًا نحو الشجرة. وصل إليها، وانسكب فوقها، وكساها بجلال رهيب.»⁽⁴²⁷⁾

ساهم حلم تبعته صدمة غريبة في إنتاج أحد أبرز أعمال مارك توين، وهي القصة التي جعلته مشهورًا بوصفه كاتبًا فكاهيًا، وأطلقت مسيرته في تأليف الكتب. كان حينها في الثلاثين من عمره، بلحية كثّة وسروال راعي بقر، يتجول في نيفادا، يتفقد مواقع التعدين على «تلة جاك-آس»، ويحتسي كميات وفيرة من الويسكي في فندق أنجلز كامب بمقاطعة كاليفوراس المجاورة. في الليلة الأولى من عام 1865، راوده حلم عن راوٍ يدعى جيم تاونسند، كان يُعرف على نطاق واسع باسم «جيم الكذاب» نظرًا لبراعته في نسج القصص الخرافية. إحدى هذه القصص كانت عن ضفدع دخل في مسابقة قفز، لكنه خُدع بعدما تم تحميله خفية بكرات من الرصاص ليخسر المنافسة. في حلم سام، قدّم له «جيم الكذاب» كتابًا قال إنه سيكون من تأليف سام نفسه. وقد دوّن سام الحلم في دفتر ملاحظاته، بعد أن حذف سيلاً من الشتائم، وكتب أن جيم قال له: «يمكنني أن آخذ هذا الكتاب الـ *** و *** به كل *** في كاليفورنيا، من سان فرانسيسكو حتى أعالي الجبال.»⁽⁴²⁸⁾

فتح ذلك الحلم صنبور الإلهام في ذهن سام، فتدفقت الأفكار بقوة في إحدى لياليه بفندق أنجلز كامب، حين التقى براوٍ بارع يدعى بن كون. لم يكن حبهما للقصص المبالغ

(426) Ibid., p. 541.

(427) Mark Twain, *Personal Recollections of Joan of Arc* (New York: Gramercy, 2000), p. 50.

(428) Mark Twain, *Notebooks & Journals*, ed. Frederick Anderson et al. (Berkeley: University of California Press, 1975–1979), 1:69.

فيها هو القاسم المشترك الوحيد بينهما؛ فكلاهما سبق أن عمل ملائحاً نهرياً. غلب الضحك سام وأصدقائه من شدة استمتاعهم بطريقة بن كون البارعة في سرد قصة الضفدع القافز. دَوّن سام ملاحظات فورية خلال الجلسة، وقال: «إذا استطعت أن أروي هذه القصة كما رواها بن كون، فإن قصة ذلك الضفدع ستجوب كل أنحاء العالم.» وقد كان. فبعد فترة وجيزة من لقائه بن كون، تخلى مارك توين عن التنقيب عن الفضة والذهب، وبلغ عرقاً ثميناً من الذهب الأدبي حين كتب قصة «ضفدع مقاطعة كالافيراس القافز» *The Jumping Frog of Calaveras County*، التي رسّخت صوته الأدبي المتفرد، وأطلقت مسيرته كمؤلف كتب محترف. (429)

حصل مارك على أول سبق صحفي في مسيرته – وهو سبق تصدر به الصفحات الأولى في الصحافة العالمية، وساهم في تحوله إلى «نجم روك» على منصات المحاضرات – وكل ذلك بسبب قروح السرج. كان في زيارة إلى جزر الساندويتش، المعروفة اليوم باسم جزر هاواي، حين استوقفه مشهد النساء البولنيزيات وهن يسبحن عاريات. استمر في مراقبتهم وكأنها لعبة يسعى فيها لتحقيق رقم قياسي. وبينما كان يحب على ظهر حصانه شواطئ أوهاو ذات الرمال البيضاء، أصيب بقروح مؤلمة أرغمته على المكوث في فندقه في هونولولو. وفي هذه الأثناء، وصل الناجون من سفينة «هورنت» إلى أحد شواطئ الجزيرة. كانت مصائر رجال «هورنت» موضع تكهن عالمي منذ أشهر، بعد أن تحطمت سفينتهم قرب رأس الرجاء الصالح، وانجرفوا أربعة آلاف ميل عبر المحيط قبل أن تطأ أقدامهم اليابسة. وكان من يسبق إلى إجراء المقابلة يضمن لنفسه موقعاً بارزاً في واجهة الاهتمام العالمي؛ وكان مارك توين هناك، جاهزاً، حالماً وفر له صديق دبلوماسي أمريكي نقالة لحمله إليهم. كان ذلك الصديق قد عاد لتوّه من مهمة لفتح العلاقات مع الإمبراطورية الصينية. وبفضل هذه المصادفة، ذاع صيت مارك توين في لندن ونيويورك وباريس وروما، وأصبح يحشد الجماهير في كبرى قاعات المحاضرات في الولايات المتحدة. (430) لقد كانت هذه الحكاية تطبيقاً مثالياً لواحدة من

(429) Powers, Mark Twain, pp. 151–152.

(430) Ibid., pp. 162–164.

وكانت الصدفة هي من أنقذت، بل وساهمت في تشكيل، علاقة مارك توين العاطفية التي كادت أن تنهار مع أوليفيا («ليفي») لانجدون. ففي قصر عائلة لانجدون بمدينة إليرا في نيويورك، كان سام يحاول عبثاً أن يعبر عن مشاعره الجياشة، دون أن ينجح في إثارة إعجاب ليفي، التي لم تنبهر على الفور بذلك الرجل القصير، المدخن للسيجار، ذي الشعر الكثيف الأحمر بلون الجزر، والمعطف المصنوع من جلد الفقرة، ومشيته المتمايلة التي توحى إما بأنه اعتاد السير على سطح سفينة، أو أنه يجد صعوبة في العودة إلى منزله بعد سهرة صاخبة. وجد سام نفسه يلجأ إلى تشارلي، شقيق ليفي، معترفاً له بحبها. وكان تشارلي رفيقه القديم في الشرب والمغامرات خلال الرحلة العجيبة على متن سفينة «كواكر سيتي»، تلك التي طافت بهما في أرجاء أوروبا والأراضي المقدسة؛ وهي الرحلة التي وثقها مارك توين في كتابه الشهير «الأبرياء في الخارج» *Innocents Abroad*.

لم يكن تشارلي متقبلاً لفكرة أن صديقه سيئ السمعة يطمح للزواج من شقيقته العذراء، فأخبر سام بلهجة حازمة أنه يجب أن يغادر فوراً، وأنه سيوصله بنفسه إلى محطة القطار. لكن ما إن صعدا إلى العربة، وضرب تشارلي الحصان بسوطه، حتى انقلب المشهد، حرفياً: طار الاثنان إلى الوراء في شقيلة مزدوجة، وارتطما بأرض الطريق المرصوف بالحجارة؛ إذ تبين أن مقعد العربة لم يكن مثبتاً بإحكام. تمدد سام على الأرض وهو يرى النجوم تدور في السماء، إلى أن هرعت نساء آل لانجدون لمساعدته. وبفضل هذا الحادث الهزلي، حصل سام على دعوة للبقاء يوماً آخر في بيت العائلة، ليستأنف سعيه وراء قلب ليفي، وقد نال الآن تعاطف الجميع بصفته «العاشق المصاب».⁽⁴³¹⁾

في إحدى ليالي نوفمبر الضبابية في نيويورك، أدى لقاء «بالمصادفة» في الشارع لأن يصبح مارك توين ناشراً للكتب، ومنحه أعظم مكسب مالي في مسيرته. فقد خرج رجلان من أحد المداخل، وظهرأ أمامه مباشرة، وشرعا في محادثة حماسية لم يكن أمامه

من خيار سوى الاستماع إليها. قال أحدهما: «هل تعلم أن الجنرال جرانت قرر أخيرًا أن يكتب مذكراته وينشرها؟ لقد صرّح بذلك اليوم، وبوضوح تام.»⁽⁴³²⁾ في سيرته الذاتية، ادعى مارك توين أن المتحدث كان غريبًا لا يعرفه. غير أن الحقيقة أن الرجل لم يكن سوى آر. دبليو. جيلدر (ريتشارد واتسون جيلدر)، محرر مجلة «القرن» Century، وكان توين يعرفه معرفة شخصية؛ ومع ذلك، لم تفقد المصادفة شيئًا من طرافتها أو وقعها المذهل.

زار مارك توين الجنرال يوليسيس إس. جرانت في منزله بنيويورك مرارًا، وكان من أشدّ الملحين عليه لكتابة مذكراته. كان لما التقطه مارك بأذنه في تلك الليلة الضبابية أثر مباشر: إذ سرعان ما اكتشف أن شركة «سينشري» Century كانت تعزم عرض نسبة 10٪ فقط من الأرباح على جرانت؛ وهي صفقة اعتبرها مارك هزيلة ولا تليق ببطل قومي. فتوجّه إلى جرانت بنفسه، وعرض عليه عرضًا مذهلًا: 75٪ من الأرباح. صفقة من شأنها أن تذهل الكتاب والناشرين في أي زمان، لأسباب وجيهة. حين وافق جرانت، أصبح مارك توين ناشرًا. صدر كتاب مذكرات جرانت عن دار نشر جديدة أسسها توين، حملت اسم زوج ابنة أخته، تشارلي ويست، الذي تولى إدارتها. وكانت النتيجة: عمل فائق النجاح والمكانة، أنقذ عائلة جرانت من ضائقة مالية، ومنح القائد المحتضر عزيمة للاستمرار في الكتابة، رغم آلام السرطان التي كانت تفتك بحنجرته. أنهى جرانت مراجعة الجزء الثاني من مذكراته، وتوفي بعدها بخمسة أيام فقط، جائعًا وعاجزًا عن الأكل. أما مارك توين، فقد جنا من ذلك الكتاب مئتا ألف دولار، وهو ما يعادل اليوم ملايين الدولارات.⁽⁴³³⁾

رغم نجاحه الباهر في أولى تجاربه كناشر، وتزايدتهم الجمهور لكتاباته ومحاضراته، لم يكن مارك توين بارعًا في الاحتفاظ بالمال. كان يعشق استئجار الأجنحة الفاخرة في أرقى الفنادق، وطلب أرقى الأطباق في المطاعم. ثم كانت هناك النفقات الطائلة على

(432) Twain, *Autobiography*, p. 310.

(433) *Ibid.*, pp. 310–311; Mark Perry, *Grant and Twain: The Story of a Friendship That Changed America* (New York: Random House, 2004), pp. 85–89.

قصره في هارتفورد، كونيتيكت، وهو المنزل الذي أحبه أكثر من المدينة التي لم تكف عن التعجب منه. (وقد قال ساخرًا: «إذا كان في هارتفورد رجل ليس لصًا، فأنا لا أعرفه، ولم ألتق به.»⁽⁴³⁴⁾) أما جرس الإنذار المزعج، الذي كان يربك عائلته ويشتت تركيزه على الدوام، فربما كان من بين التحذيرات التي تجاهلها.⁽⁴³⁵⁾ لكن الكارثة الحقيقية كانت في استثماراته التجارية، التي تحولت إلى مستنقعات التهمت ثروته. ومن سخرية الأقدار - وهو الذي طالما أفادته المصادفات السعيدة - أنه ربما كان بإمكانه تفادي أسوأ أخطائه التجارية لو أنه أولى اهتمامًا للمصادفات السلبية التي تنذر، والتي تمثلت في زلة متكررة تجاهلها عنادًا أو غفلة.

أعجب مارك توين بشخصية مخترع ومروج بارع لنفسه يُدعى جيمس بايج. وقد قال توين لاحقًا، بأسف، إن بايج «كان بوسعه أن يقنع سمكة بالخروج في نزهة معه.»⁽⁴³⁶⁾ كان بايج يعمل على تطوير آلة جديدة لصف الحروف، ولأن سام بدأ مسيرته في مطابع الصحف، فقد اقتنع سريعًا بأن هذا الاختراع سيكون أعظم ما شهدته عالم الطباعة منذ جوتنبرج. وهكذا، أصبح المستثمر الرئيسي في هذا المشروع. غير أن العمل تعثر بتأخيرات متكررة، وبحلول الوقت الذي نجح فيه بايج في إنجاز نموذج فعال، كانت الآلة قد عفا عليها الزمن، وتفوقت عليها آلات أحدث وأكثر كفاءة. وانتهى الأمر بتوين وقد خسر معظم ثروته في تلك المغامرة الفاشلة.

والآن مع تلك الزلة: «لم يستطع مارك توين يومًا أن يكتب اسم المخترع، ولا اسم الآلة المنسوبة إليه، على نحو صحيح. مرارًا وتكرارًا، في رسائله الغزيرة وتدويناته حول هذا الموضوع، كان يكتب الاسم Page بدلًا من Paige. وكان عجزه المستمر عن كتابة اسم أكبر استثماراته بالشكل الصحيح، بلا شك، نذير شؤم. ولو نظر إلى الوراء، لما تردد لحظة في الإقرار بصحة التعليق الساخر: «انتبه لما بدأ ينكشف من زلتك.»»

كان مارك توين على وشك الإفلاس، حين ساقه القدر إلى لقاء عابر جمعه بالرجل

(434) Twain, Notebooks & Journals, 2:412.

(435) Ibid., p. 402.

(436) Powers, Mark Twain, p. 545.

الذي أنقذه وأعادته إلى سابق عهده. قال توين عنه: «كنا غرباء حين التقينا، وأصدقاء حين افترقنا، بعد نصف ساعة فقط. كان اللقاء عرضيًا وغير متوقع، لكن نتائجه بالنسبة إلي كانت لا تُنسى. لقد انتشلني من تلك الورطة، ومن التي تلتها أيضًا.» (437) جرى ذلك اللقاء في بهو فندق موراي هيل، حين تعرّف صديق سام، الدكتور رايس، على هنري روجرز من شركة ستاندرد أويل. وسرعان ما انسجم مارك توين مع روجرز، ذلك الرأسمالي الصارم المعروف أحيانًا بلقب «كلب الجحيم». أعاد روجرز هيكله شؤون مارك توين المالية، وحماه من دائنيه حتى خرج أخيرًا من دائرة الدين. ومنذ ذلك الحين، رافق مارك توين ذلك الثري في رحلات بحرية على يخته الفاخر.

قد يبدو من غير المحتمل أن يكون مارك توين قد دعا روجرز إلى التوغّل عميقًا في عالم أحلامه، أو أن رجل الأعمال كان ليقبل بذلك. ومع ذلك، كتب مارك توين إلى روجرز بشأن حلم روته سكرتيرته، كاثرين هاريسون، قائلاً: «الآنسة هاريسون رأت حلمًا يعدني بحساب مصري ضخم.» «وقد أوصاها مارك توين بالعودة إلى الحلم مرة أخرى: «أريدها أن تواصل وتحلم به مرتين إضافيتين، حتى تصبح النبوءة مؤكدة التحقّق.» (438)

التلغراف العقلي

في عام 1878، جمع مارك توين بعضًا من تجاربه وملاحظاته في مقال شيق جدًا بعنوان «التلغراف العقلي» Mental Telegraphy. لكنه أرجأ نشره ثلاث عشرة سنة، خشية السخرية أو التكذيب. وعندما بدأ اهتمام العامة والبحث العلمي – لا سيما أبحاث جمعية الأبحاث النفسية الناشئة في إنجلترا – يواكب اكتشافاته، قرر نشر المقال في مجلة «هاربرز» Harper's. كتب فيه يقول: «لقد توصلت ذات مرة إلى اكتشاف عظيم، وهو أن أنواعًا معينة من الأمور، التي ظلّ الناس يعدّونها منذ فجر التاريخ مجرد

(437) Twain, Autobiography, p. 339.

(438) Mark Twain, Which Was the Dream? And Other Symbolic Writings of the Later Years, ed. John S. Tuckey (Berkeley: University of California Press, 1968), p. 4.

«مصادفات غريبة»، أي حوادث عرضية، لم تكن في حقيقتها صدفاً قط، تماماً كما في إرسال واستلام البرقيات الذي لا يمكن اعتباره صدفة.»⁽⁴³⁹⁾

كان من بين أمثله المفضلة على التداخل الغامض بين النفس وقوانين الفيزياء، الذي يولد ما يُعرف بالمصادفة، ظاهرة تُسمى «الرسائل المتقاطعة». فعندما تكتب لشخص ما (أو حتى تكتفي بالتفكير فيها) – ربما شخص لم تتواصل معه منذ شهور – تُفاجأ برسالة أو مكالمة منه في اليوم نفسه أو بعد ذلك بفترة وجيزة. فعلى سبيل المثال، دوّن مارك توين في مذكراته أنه بعد يومين فقط من أن خطرت لوزير، ابنة عم زوجته، في ذهنه للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات، تلقى منها رسالة تطلب فيها دعماً مالياً.⁽⁴⁴⁰⁾

ولاحظ أن ظاهرة «الرسائل المتقاطعة» كانت متكررة الحدوث، وكلما فكر فيها أكثر، بدا أنها تحدث بتكرار أكبر. وخلص إلى أن ذلك قد يكون ناتجاً عن تواصل بعيد بين عقول متناغمة تعمل على الترددات ذاتها. أما المثال الأكثر إدهاشاً لديه فهو كتاب Great Bonanza.

في ظهيرة أحد الأيام، اجتاحت مارك قناعة ملحة بأن كتاباً عظيماً يمكن أن يُكتب عن ثروة الفضة الهائلة في نيفادا. وكان يشعر بأن زميله القديم في الصحافة، ويليام رايت (المعروف باسمه المستعار دان دي كويل)، هو الشخص المثالي لإنجاز هذه المهمة. إلا أن مارك توين كان مهووساً بالفكرة لدرجة أنه، وسط ضباب دخان السيجار في غرفة البلياردو بمنزل هارتفورد، وضع مخططاً للكتاب وكتب فصولاً نموذجية ليمهد الطريق لصديقه القديم. وبينما كان يستعد لإرسال هذه المواد إلى رايت بالبريد، وصلته حزمة. قبل أن يفتحها، أعلن مارك توين أمام الحاضرين أنه بصدد تقديم «نبوءة»: إذ صرّح أن الحزمة تحتوي على رسالة من صديقه القديم دان دي كويل، تتضمن مسودات لكتاب عن Great Bonanza. وبالفعل، كان الأمر كذلك عندما

(439) Mark Twain, "Mental Telegraphy," in *Tales of Wonder*, ed. David Ketterer (Lincoln: University of Nebraska Press, 2003), pp. 96–111. See also "Mental Telegraphy Again," in *ibid.*, pp. 112–116.

(440) Twain, *Notebooks Journals*, 2:402.

أقنع هذا الحادث مارك توين ليس فقط بوجود التلغراف العقلي واقعيًا، ولكن أيضًا بقوة التي قد تكون كافية لنقل المحتوى الكامل لكتاب عبر قارة بأكملها. وعند دراسته للتسلسل الزمني الدقيق لهذه الرسائل المتقاطعة، استنتج مارك توين أن «تيارات مغناطيسية» انطلقت من الغرب إلى الشرق. قال لصديقه: «لقد كانت تياراتك المغناطيسية هي التي تدفقت عبر الجبال والصحارى لمسافة ثلاثة آلاف ميل وأثرت عليّ».⁽⁴⁴¹⁾ كان مارك توين يرى أن العقول تتناغم مع بعضها البعض، وعند هذا التناغم، تنتقل الأفكار والرسائل ذهابًا وإيابًا. وكان شديد الاهتمام بمعرفة ما إذا كان في وسعنا أن نبادر بتحريك أوتار الفكر، كما نتنظر رنينها.

من الأمثلة اللافتة التي ذكرها مارك توين في مذكراته تحت عنوان «التلغراف العقلي» هي قصة رجل أمريكي كان في جولة سياحية واسعة في أوروبا، وكانت تملؤه الحيرة والقلق لأنه لم يتلق أي خبر من ابنه المقيم في سان فرانسيسكو منذ أشهر، على الرغم من كثرة ما أرسل إليه من رسائل. نصحه توين بأن يرسل برقية، وهي نصيحة تبدو للوهلة الأولى مجرد تصرف منطقي وبديهي. ولكن الغريب في الأمر أن سام قال له إن الوجهة لا تهم – «أرسلها إلى بكين، إن شئت»⁽⁴⁴²⁾ – فكل ما في الأمر أن يرسل برقية، وبالتالي إشارة إلى الكون. ووعده مارك توين أنه إن فعل فسيستلقى خبرًا من ابنه على الفور. امثل الرجل للنصيحة، وأرسل البرقية. وفي اليوم التالي، تلقى رسالة من ابنه يخبره فيها بأنه كان قد غادر سان فرانسيسكو منذ أشهر على متن سفينة بطيئة، ولم تتح له فرصة للكتابة إلا قبل أيام. لم تكن البرقية سببًا في وصول الرسالة – إذ كانت الأخيرة قد كُتبت وأُرسلت قبلها بفترة؛ لكن وصولها تزامن، تمامًا كما توقع توين.

طور مارك توين ما كان يُسعدده أن يسميه «خرافة» بشأن هذا الموضوع، فقد قرر أنه حينما يرغب في سماع خبر من أحدهم، يكتب له رسالة ثم يمزقها. وكان يؤكد أن

(441) Letter to Dan De Quille, March 29, 1875; Mark Twain, Letters, ed. Michael B. Frank et al. (Berkeley: University of California Press, 1988 2002), 6:434.

(442) Twain, "Mental Telegraphy."

الرسالة ستصل إليه حتمًا من الطرف الآخر. وإن كانت «خرافة»، فهي خرافة مستحدثة ومبتكرة، وعملية إلى حد بعيد: فقد كانت تجدي نفعًا.

تشير بعض الحوادث الأخرى في حياة مارك توين إلى ما هو أبعد من مجرد تواصل بين العقول، إذ توحي بأن ما يدور في الذهن قد يؤثر في العالم المادي، والعكس كذلك. ففي يناير من عام 1870، كان مارك توين في مدينة كامبريدج بولاية نيويورك. كان قد وصل إليها منهكًا وسط عاصفة من البرد والجليد، ليكتشف أن صحيفة محلية تُدعى «تروي تايمز» Troy Times قد نشرت تقريرًا لمحاضراته التالية؛ حتى أنها أدرجت الشرطات والنجوم لتجسيد إيقاعه البطيء في الإلقاء. استشاط غضبًا؛ فقد حرّمته هذه الخطوة من عنصر المفاجأة عند إلقاء المحاضرة، وقد تُضعف من إقبال الجمهور عليها. وبينما كان يقفز صعودًا وهبوطًا في ذروة انفعاله - حتى قيل إنه ربما اصطدم بالسقف حرفيًا (كما كان يُعرف عنه في نوبات غضبه الشديد) - لمح ألسنة لهب ودخان تتصاعد من قاعة المحاضرات القريبة، حيث كان من المفترض أن يُلقي محاضراته. وبينما كان الحريق يشتد، اجتاح مارك توين شعور جارف بالعدل والقوة. قال لاحقًا: «ارتفعت معنوياتي حتى شعرت أن الشيء الوحيد الذي ينقص سعادتي الكاملة هو أن أرى محرّري «تروي تايمز» محتجزين داخل ذلك المبنى المشتعل.»⁽⁴⁴³⁾

كان توين يأمل أيضًا في الحصول على ليلة من الراحة، لكن خيبة أمله كانت كبيرة حين وصل رجال الإطفاء على الفور وأخذوا الحريق، مما اضطره إلى إلقاء المحاضرة المسربة رغم كل شيء، في قاعة تعبق برائحة الرماد المبلّل.

قبل أن يُعرف ما يُسمى بـ «تأثير باولي»⁽⁴⁴⁴⁾ Pauli Effect، كان ثمة ما يمكن تسميته «تأثير مارك توين».

(443) Twain, Letters, 4:25.

(444) يشير مصطلح «تأثير باولي» Pauli Effect إلى ظاهرة غريبة وغير علمية يُزعم أنها تحدث عندما تتوقف المعدات التقنية عن العمل بشكل مفاجئ أو تتعرض لأعطال فادحة في حضور أشخاص معينين. وبالتحديد الفيزيائي النظري النمساوي فولفجانج باولي نفسه. يُروى أن باولي كان معروفًا بتعطيل المعدات المخبرية بمجرد وجوده بالقرب منها، حتى لو لم يلمسها. وقد أصبحت هذه الظاهرة الأسطورية شائعة بين زملائه الفيزيائيين، الذين كانوا يمزحون حولها ويطلقون عليها «تأثير باولي». (المترجم)

في مشهد رائع من الفصل الثامن عشر من روايته «مغامرات توم سوير» The Adventures of Tom Sawyer، تقول ماري: «اصمت يا سيد! الإنسان يفعل في الحلم تمامًا ما كان سيفعله لو كان مستيقظًا.»⁽⁴⁴⁵⁾ لكن القارئ يعرف – كما ستكتشف العمة بولي وماري وسيد لاحقًا – أن القصة المفصلة التي رواها توم عن رؤيته لجميع تفاصيل حياتهم المسائية في الحلم ليست سوى خدعة. فقد عبر النهر سرًا من مخبئه وتسلل إلى داخل المنزل ليختبئ ويتنصت. ولكن الخدعة التي مارسها توم على عائلته هي عكس الخدعة التي يمارسها مارك توين على القارئ.

في كتاباته اللاحقة، يؤكد مارك توين بشكل واضح للغاية أن الأحلام هي تجارب حقيقية، بل وتصل حقيقتها إلى المستوى الجسدي. ومن خلال دفاتره ورسائله، يتضح لنا أنه لم يقتصر على تأييد قول ماري حينما قالت: «يفعل الجسد في الحلم ما يفعله إذا كان مستيقظًا»، بل كان يؤمن أيضًا بأن الذات الحاملة تتمتع بقدرات أوسع وفرص أكبر للسفر مقارنة بالذات العادية.

يخبرني حدسي أن مارك توين كان واعيًا تمامًا بهذه الأفكار عندما كتب «مغامرات توم سوير»، لكنه لم يكن مستعدًا بعد لياخذ قراءه إلى هذا العمق الفكري، أو ربما لم يكن يعتقد أنهم سيكونون مستعدين لمجاراة تلك الأفكار. لذلك لجأ إلى تبديل الواقعين، وجعل توم يخلق «كذبة» حول حلم. حيث سيكون من الممتع إعادة كتابة المشهد بحيث يخلق توم «كذبة» عن التنصت ليبرر معرفته بكل ما رآه فعليًا في حلمه.

في إحدى قصصه اللاحقة، «حبسيتي الأفلاطونية» My Platonic Sweetheart، كتب مارك توين: «في أحلامنا – وأنا على يقين من ذلك! – نعيش الرحلات التي نعتقد أننا نخوضها، ونشهد الأشياء التي نتصور أننا نراها.»⁽⁴⁴⁶⁾ كما استعرض طريقة

(445) The Adventures of Tom Sawyer, chap. 18, in Mark Twain, Mississippi Writings (New York: Library of America, 1982), p. 120.

(446) "My Platonic Sweetheart," in Tales of Wonder, ed. David Ketterer (Lincoln: University of Nebraska Press, 2003), pp. 117–126.

للتدريب على تقوية الذاكرة بهدف استحضار المزيد من الأحلام واستغلالها لفهم جوهر الشخصية وحقيقة الواقع. وقال: «قلة هم من يدربون ذاكرة الأحلام، ولا يمكن لأي ذاكرة أن تظل قوية دون تدريب.» تعتمد هذه الطريقة على تدوين الأحلام مباشرة حين لا تزال صافية في الذهن، ثم تأملها ومراجعتها مرارًا، ومحاولة الكشف عن «مصدر الأحلام، وأي من الشخصيتين أو الثلاث شخصيات المستقلة التي تسكننا هي من يشكلها.» (447)

كانت تجربة مارك توين تشير إلى أننا في الأحلام قد ننطلق إلى عوالم موازية نعيش فيها حياة مستمرة، تُطوى صفحاتها غالبًا عند الاستيقاظ. في تلك الحيوانات الموازية، قد نواصل السير في دروب تركناها خلفنا في حياتنا اليومية. وقد نجد أنفسنا نعيش مجددًا مع حب ضائع أعاده الحلم إلى الوجود.

حين كان ربنًا متدربًا، وقع سام في حب فتاة جميلة في الرابعة عشرة من عمرها تُدعى لورا رايت، ذات ضفيرتين. قضى يومين قريبًا منها بقدر ما تسمح به الظروف، ثم فرقتها الحياة كل في طريقه. وتشير ملاحظات مارك توين في دفاتره إلى أنه ظل يحلم بلورا، وبحياة موازية تجمعهما، على مدار معظم سنوات عمره.

في رسالة غامضة كتبها عام 1893، قال: «حلمت أنني وُلدت، وترعرعت، وأصبحت قبطانًا على نهر المسيسيبي، ثم منقَّبًا عن الذهب، وصحفيًا، وكان لي زوجة وأطفال؛ وهذا الحلم لا ينتهي، بل يمتد ويمتد، وأحيانًا يبدو حقيقيًا لدرجة أنني أكاد أصدقُه. تُرى، هل هو كذلك؟» (448) كانت أمنيته أن يهاجر إلى عالم مواز، حيث يمكنه أن يلتقي بأحباء انتزعهم القدر منه بقسوة.

لم يشعر بتلك الرغبة في الانفصال عن هذا العالم بقوة أكبر مما شعر به بعد الرحيل المبكر لابنته الحبيبة «سوزي» - أوليفيا سوزان كليمنس - التي اختُطفَت من الحياة بسبب التهاب السحايا وهي في الرابعة والعشرين فقط من عمرها. تجلَّى نبوغ سوزي

(447) Ibid.

(448) Letter to Susan Crane in Mark Twain, Letters, 2:581.

في الكتابة في وقت مبكر؛ فقد ألقت سيرة أبيها وهي لا تزال في الرابعة عشرة. كانت تروي كيف كانت هي وأختها كلارا تجلسان على ذراعي مقعد والدهما في مكتبة منزلهم بمدينة هارتفورد، حيث كان يرسم لهما عوالم من القصص مستوحاة من الصور المعلقة على الجدران. تلك الروايات الخيالية كانت تبدأ من مشهد لقط في لوحة زيتية، لتختتم بصورة فتاة جميلة مرسومة بالألوان المائية. (449)

كانت فاجعة موتها بعد عقدٍ من الزمان صدمة قلبت المشهد كله من حلم طفولي إلى كابوس لا يُحتمل. تسللت عدوى قاتلة إلى جسدها، ونفذت إلى غشاء دماغها ونخاعها الشوكي، فمزقت أتران عقلها قبل أن تُسكت أنفاسها. راحت تهيم في أرجاء بيت هارتفورد، تهذي وتخربش رسائل غريبة، تدّعي فيها أنها مغنية باريسية راحلة. وقيل موتها، تشبث بثوب من أثواب أمها، ظناً منها أنه «ليفي».

كان مارك توين في إنجلترا حين جاءه النبأ. كانت ليفي وكلارا في طريقهما عبر البحر عندما أبلغتا بخطورة مرضها، لكن الموت كان أسرع من السفينة، فلم يبلغوها في الوقت المناسب. وفي أعقاب الصدمة، كتب توين قائلاً: «إنها لإحدى غرائب طبيعتنا أن يتلقى الإنسان ضربة صاعقة كهذه، من دون استعداد لها، ويظل حياً بعدها.» (450)

جاءت وفاة سوزي كأكثر المصائب قسوة في حياة مارك توين بأكملها. لقد كانت أعماله الإبداعية، و«المنابع الباطنة» للذات التي تمدّه بالطاقة، هي ما ساعده على الاستمرار. وقد يكون جاستن كابلان محقاً حين قال: «من خلال تحويل حياته الحلمية إلى مسألة أدبية – ومن ثم إلى عمل – أنقذ نفسه من الجنون.» (451) في قصة «أيها كان / الحلم؟» Which Was the Dream، التي بدأها بعد عام من وفاة سوزي، ينسب مارك توين سلسلة من الأحلام المربعة إلى شخصية طفلة تُدعى «بيسي». وثمة سبب وجيه للاعتقاد بأن بيسي (التي كانت مرحلة كفقاقيع الصابون العابرة، وزاهية كألوان

(449) Twain, *Autobiography*, p. 267.

(450) *Ibid.*, p. 422.

(451) Justin Kaplan, *Mr. Clemens and Mark Twain* (New York: Simon & Schuster, 1966), p. 343.

قوس قزح، ومضيئة كالألعب النارية) كانت مستوحاة مباشرة من طفولة سوزي. ومن المرجح كذلك أن أحلام بيبي المخيفة - والتي يتكرر فيها شعور الملاحقة والافتراس من قبل دبة - كانت أيضًا مستندة إلى أحلام سوزي. فالأحلام التي يظهر فيها الدب كعدو غالبًا ما تُنذر بمرض وشيك. وحيث إن الدب يُعدّ، في تراث أميركا الشمالية، حيوانًا ذا صلة بالشفاء، فإن الدخول في صراع معه داخل الحلم هو أمرٌ يستوجب البحث العميق كتحذيرٍ محتملٍ على مستوى الصحة.

حين وصف مارك توين أحلام بيبي، بدأ بنبرة خفيفة، وعابرة، ولا مبالية: «مثل معظم الناس، تُزعج بيبي بأحلام متكررة.» لكنه سرعان ما يفاجئنا بمحتواها: «الحلم الثابت لديها هو أنها تُوكَل من الدبة. إنه الرعب الجوهري في حياتها. وقد راودها هذا الحلم مجددًا الليلة الماضية.»

ثم يصور بيبي وهي تغوص في تأملات شاقة حول هذه الأحلام المفزعة، رافعة عينيها إلى الأعلى كمن يشعر أن الحياة لم تُنصفه، قائلة: «لكن يا ماما، المشكلة أنني لست الدب أبدًا، بل دائمًا الشخص الذي يُوكَل.»

والآن، يُدخل الكاتب تطورًا مفاجئًا ومثيرًا في مجرى السرد لم يكن في الحسبان على الإطلاق؛ إذ كان الوالدان يميكان خطة لتحويل «الحلم المزعج» الذي يلاحق بيبي إلى شيء مختلف تمامًا. ففي عرض مفاجئ سيتم تقديمه مساء اليوم نفسه، خلال حفل عيد ميلاد بيبي، سيُسَخَّر والدها «طاقاته الرفيعة في الابتكار» ليحوّل ذلك الكابوس إلى «لوحة رومانسية مفعمة بالجمال والمشاهد الخلابة».

وكيف سيُدبّر هذا التحوّل؟ هل بارتداء بيبي بدلة دبّ، ومطاردة الضيوف في الحفلة والتظاهر بأكلهم؟ أم بجعل جمع من الناس يرتدون زيّ الدبة ويهربون أمامها؟ أم بجعلها تُصادق الدب، وتُطعمه كعكة عيد ميلادها، وترقص معه؟

لا نعلم كيف كان سيتم الأمر، لأن الحفلة لم تُقَم قط. ففي تلك الليلة، شبّ حريق مروّع أتى على المنزل بالكامل، ودفع بالأب وعائلته إلى دوامة من الفوضى والمأساة، حتى بدت أيامهم السعيدة السابقة وكأنها حلم يتلاشى. وينطلق مارك توين بعد ذلك

ليستأنف أحد أبرز موضوعاته في سنواته الأخيرة: صعوبة التمييز بين حلم الوجود الجسدي وبين أي حلم آخر.⁽⁴⁵²⁾

لكن في المقطع المتعلق بأحلام بيسي، يبدو أن مارك توين - وربما بعد أن نظر إلى مأساة سوزي بأثر رجعي - قد خطا خطوة بعيدة نحو فهم وتمثيل جانبيين جوهريين من جوانب الشفاء عبر الأحلام. الأول هو أن الأحلام تنبها إلى مشكلات محتملة قبل أن تتفاقم الأزمة. والثاني هو أنه من خلال إعادة تشكيل مشاهد الحلم، شريطة أن نضفي عليها ما يكفي من «ابتكار» وصدق وإثارة درامية، يمكننا السير في طريق الفرج والشفاء. يمكننا أن نتوقف عن أن نكون «الشخص المفترس» وأن نطالب بهدايا الدب الشافية. ولكن للأسف، وكما هو حال شخصيات قصته، لم يكن مارك توين قادرًا على تطبيق هذه البصيرة بالكامل في ظروف حياته العائلية.

كُتِبَ آخر عمل روائي كبير لمارك توين في فيجيس، عند معبر العبارات السلتيه القديم على ضفاف بحيرة لوسيرن، في صيف عام 1897، بعد وفاة سوزي. وكانت الكتابة، كالعادة، علاجه من الحزن وخيبات الأمل. هناك، على ضفاف البحيرة، كان يكتب تسع ساعات يوميًا، سبعة أيام في الأسبوع. ومن هذه العزلة خرج بمجموعة من المسودات أطلق عليها اسم «تاريخ الشاب الشيطان» *The Chronicles of Young Satan*. وقد نُشرت هذه الرواية القصيرة بعد وفاته تحت عنوان «الغريب الغامض» *The Mysterious Stranger*.

على صفحة العنوان، وصف مارك توين القصة بأنها «حكاية قديمة وُجدت في جرة، وترجمت بحرية من الجرة». وكان هذا إحدى نكاته الداخلية. بصرف النظر عن الإشارة المازحة إلى الكحول، يتردد صدى هذا الوصف في قول أدلى به «الغريب الغامض» في منتصف القصة: «لا يمكن للمرء أن يصب هذا الامتداد اللامتناهي المرصع بالنجوم للكون في جرة.»⁽⁴⁵³⁾

(452) Twain, *Which Was the Dream?* pp. 46–47.

(453) Mark Twain, No. 44, *The Mysterious Stranger* (Berkeley: University of California Press, 1982), p. 144.

تدور أحداث قصة «الغريب الغامض» في قرية نمساوية تعود إلى العصور الوسطى خلال فترة إحراق الساحرات. تظهر الشخصية الرئيسة للرواية للصبية على قمة تلة برية، شابًا وسيًا يمتلك قوى سحرية، ويُظهر أولى قدراته عبر إشعال غليونه بقوة الإرادة وحدها. وبعدها يستعرض قوى أعظم، مثل صنع أشخاص مصغرين من الطين ثم تدميرهم عندما يشعر بالملل منهم. كما أنه يستطيع الانتقال بنفسه وبالأخرين إلى أماكن بعيدة - مثل الصين أو القمر - في لحظة واحدة. وكذلك يملك القدرة على طي الزمن، بحيث تصبح الرحلات الطويلة في أماكن أخرى مجرد لحظات تمر في البيئة العادية.

يمكنه تغيير مصائر الناس، ويُظهر مرارًا وتكرارًا أن أبسط تعديل في إحدى حلقات القدر قد يؤدي إلى اختلاف جذري في النتيجة. فالنهوض بعد دقيقتين فقط من الوقت المقدر يمكن أن يُحدث فارقًا بين الحياة والموت. تدخلاته قد تكون مجهولة وطبيعية المظهر، كأن يضمن أن يستيقظ صبي متأخرًا دقيقتين عما كان مقدرًا له، أو تكون استعراضية بشكل لافت، كأن يطيح بفرقة كاملة من صيادي الساحرات بناءً على طلب الراوي، متسببًا في كسر ضلع لكل واحد منهم.

لا يمكن رؤيته إلا إذا سمح بذلك. يمكنه بسهولة السيطرة على أشخاص مختارين، متحرّكًا فوقهم مثل «شريط شفاف» قبل أن يتغلغل في داخلهم. يروي قصصًا تحمل طابعًا أخلاقيًا - وأحيانًا تترافق مع مشاهد بانورامية عظيمة تُظهر مسار التاريخ بأكمله، بدءًا من قابيل وهابيل - ليثبت حماقة «الحس الأخلاقي» لدى البشر. يؤكد أن البشر هم من يخلقون مفاهيم الصواب والخطأ، ثم غالبًا ما يختارون الخطأ. وفي نهاية القصة، يصرح بأن العالم بلا معنى مطلق، وأن ما نعيشه ليس إلا حلمًا أو وهمًا. وفي كلماته الأخيرة، يبدو أن الراوي يشاركه هذا التصور. ويظهر هذا الكائن الغريب أولاً في هيئة «ملاك»، ثم يكشف لاحقًا عن انتباهه إلى قوى مبهمة تتجاوز الفهم البشري. ويزعم أن الكائنات العلوية لا تبالي بالبشر، لكنه وحده قادر على منحهم «النعمة» بتقصير المعاناة، أحيانًا عبر موت مبكر (حتى لو بدا عنيفًا)، لتجنبهم ألمًا أكبر. يُطلق على نفسه اسمًا يناسب العصر، فيليب تروم، الذي يعني «فيليب الحلم». إنه شخصية

جذابة، وتحبه الحيوانات. وصوله يبعث الطاقة في الناس. ويبدو أنه يستمتع باللعب مع البشر، ولكن لعبه يحمل لمسة قسوة، مثل صبي يحفر في عش نمل. إنه يقدم رؤية قائمة جدًا للبشرية وقدراتها، مُصرًا على أن أي إنسان لم يغير مصيره المحدد طوعًا؛ مع تلميح بأن أدنى تغيير قد يفتح مسار حياة بديل في عالم مواز. حيله السحرية، قطه المتحدث، وطريقته في إحداث تأثيرات هائلة من خلال تعديلات بسيطة جدًا في حياة شخص ما قد تكون جميعها ألهمت نسخة ميخائيل بولجاكوف عن الشيطان في موسكو في رواية «المعلم ومارغريتا» The Master and Margarita.

تتناول الرواية القصيرة مواضيع قديمة أثارت قلق مارك توين: ازدواجية النفس، وحياة الحلم المستقلة التي تسافر بحرية خارج الجسد المادي. يشير توين إلى «وجود شخص آخر داخلنا، ليس خاضعًا لنا، بل... ذو شخصية مميزة خاصة به».⁽⁴⁵⁴⁾ وفي تأملاته حول «جيكول وهاید»، يصفها بأنها «شخصيتان مزدوجتان في جسد واحد، تختلفان تمامًا في الطبيعة والصفات، وكل منهما يمتلك ضميرًا خاصًا به على الأرجح».⁽⁴⁵⁵⁾ ثم يتساءل في مذكراته عن إمكانية أن «الشخصين داخل الإنسان لا يملكان أي سلطة على بعضهما البعض». ويضيف: «لا يعرف أحدهما الآخر، ولم يسبق أن اشتبه أحدهما بوجود الآخر».⁽⁴⁵⁶⁾

يُميّز توين بين الازدواجية وجانب آخر من الذات يعمل بشكل مستقل عن الشخصية العادية ولا يتقيد بالجسد. يقول: «لدينا ذات مُروحة تستطيع أن تنفصل عنا وتذهب للتجوال في شؤونها الخاصة». هذه ليست ذاتًا مزدوجة، وليست «شريكة في الازدواجية». ويضيف: «لا أعرف ذاتي المزدوجة، شريكي في الازدواجية... لكنني أعرف (بصورة باهتة) ذاتي المُروحة وأعلم أنها وأنا كيان واحد، لأننا نتشارك في الذكريات».⁽⁴⁵⁷⁾ هذه «الذات المُروحة» هي رَحالة الأحلام التي تجد موطنها في عوالم

(454) Albert Bigelow Paine, ed., Mark Twain's Notebook (New York: Harper & Bros., 1935), p. 348.

(455) Ibid.

(456) Ibid., p.250.

(457) Ibid., pp. 349–50

عندما أكون في يقظتي، أتحرك ببطء وروية، لكن في أحلامي تتجاوز روحي المحلقة حدود الجسد، لتطير إلى أقاصي الأرض في طرفة عين، أسرع من أدنى جزء من المليون من الثانية. وهكذا، أجد نفسي أو من بذلك...

أنا أقوم فعليًا برحلات شاسعة من خلال ذاتي المروحنة. أواجه أخطارًا رهيبة ... أنتقل بين أماكن لا يمكن وصفها، وأتصرف بطرق خارجة عن المألوف؛ وكل حلم يبدو حقيقيًا، كل إحساس - جسديًا كان أو معنويًا - يكون واقعيًا تمامًا. (458)

رحلات بين الميكروبات

حلمت بأن الكون المرئي هو بمثابة جسد هائل حيّ، وأن تلك العوالم الواسعة التي تتلألأ في أعماق الفضاء ليست سوى كريات دم تجري في شرايينه، وأنا، نحن والكائنات الأخرى، لسنا إلا ميكروبات تنبض بالحياة في خلاياه. (459)

تتردد هذه الفكرة بين حياة مارك توين الحاملة وإبداعه الأدبي الأكثر تفرّدًا. في سنواته الأخيرة، تناول توين في كتاباته رحلات إلى عوالم متناهية الصغر، مثل العالم الكامن داخل حجر، أو مجتمع ميكروبات يعيش داخل خلية بشرية. وعلى الرغم من أن هذه المحاولات لتخيل وتصوير عوالم داخل الأشياء الصغيرة جدًا ليست معروفة على نطاق واسع اليوم، إلا أنها تبدو قراءة مثيرة في عصر تكنولوجيا النانوية، حيث تشير نظريات الفيزياء الحديثة إلى احتمالية وجود ستة (أو سبعة) أبعاد مخفية في الكون داخل الجسيمات الذرية، ويقترح علماء فيزياء الكم أنه إذا استطعنا الوصول إلى هذا الفضاء، فقد يمنح الإنسان القدرة على اختيار مسارات الأحداث التي ستظهر في الواقع من بين احتمالات متعددة.

في أغسطس عام 1898، سجل مارك توين فكرة مستوحاة من حلم رأى فيه تصورًا

(458) Ibid., pp. 350–351.

(459) Twain, *The Equator: A Journey around the World*, chap. 12.

مميزًا لأحد أكثر قصصه إثارة في سنواته الأخيرة. كتب يقول: «حلمت الليلة الماضية برحلة لصيد الحيتان داخل قطرة ماء. لم يكن ذلك بواسطة مجهر، بل بدا وكأنه واقع حقيقي.»⁽⁴⁶⁰⁾ في قصته «الظلام العظيم»، يصور عالمًا متكاملًا داخل قطرة ماء موضوعه على شريحة تحت المجهر. يدخل المسافر هذا العالم على متن سفينة مناسبة مع طاقم مؤهل لإنجاز المهمة، وبمساعدة شخصية تعرف باسم «مدير الأحلام»، الذي يظهر بجانبه بينما هو مستلق على أريكة ويتأمل. وما إن يدخل إلى عالم الماء، يصبح من الصعب تحديد أي العالمين هو الحقيقي: العالم الذي يضم الأريكة أم العالم الذي يضم السفينة والبحر، حيث إن رفاق الرحالة لا يعرفون أي واقع آخر سوى السفينة والبحر. مارك توين هنا يطرح سؤالاً مفضلاً لديه: أي العالمين هو الحلم؟ هل هو العالم الذي نظن أننا نعيشه في اليقظة، أم ذلك الذي نظنه حلمًا؟ كان توين يريد المضي قدمًا بهذا المفهوم. ففي ملاحظة حول تطوير هذه القصة، أشار إلى أن «مدير الأحلام» لم يكن راضيًا عن لقبه؛ حيث قال إن لقبه الصحيح هو «المشرف على الواقع»، وهو الاسم الذي يُطلق عليه في الكواكب الأخرى، ولكننا هنا نقلب معاني الكلمات رأسًا على عقب، وما كنا لنفهمه.»⁽⁴⁶¹⁾

في قصة «ثلاثة آلاف عام بين الميكروبات»، يُظهر مارك توين براعة في الانتقال السلس من العالم الإنساني إلى العوالم المجهرية: «أخفق الساحر في تجربته ... وكانت النتيجة أنني تحولت إلى جرثومة كوليرا عوضًا عن طائر، كما كان مخططًا.»⁽⁴⁶²⁾ تستند القصة إلى تجربة شخصية مليئة بالرؤى عاشها المؤلف بنفسه. وعندما أزال مارك توين اسمه ووضع بدلًا منه اسم «هاك»، الشخصية الأكثر شهرة بين أعماله، نسج بذلك ستارًا شفافًا يكاد لا يُرى، لنجد أنفسنا أمام سيرة ذاتية خيالية تعززها خيالاته الإبداعية.⁽⁴⁶³⁾

(460) Paine, Mark Twain's Notebook, p. 365.

(461) John S. Tuckey, ed., The Devil's Race-Track: Mark Twain's "Great Dark" Writings (Berkeley: University of California Press, 2005), p. iogn.

(462) Twain, Which Was the Dream? p. 434.

(463) Mark Twain wrote his own name on page 111 of his manuscript, then substituted "Huck." Tuckey, Devil's Race-Track, p. xvii. He identified the Huck of the story — a character

داخل عالم تعجُّ فيه الحياة والوعي بكل زاوية، يعيش هاك كجرثومة. لا شيء يظل ساكنًا أبدًا... لا وجود للجمادات؛ كل شيء في هذا العالم كائن حي؛ كل إلكترون هو كائن حي، وكل جزيء هو كائن حي، ولكل دوره المحدد وروحه التي تسعى للخلاص.⁽⁴⁶⁴⁾ في هذا العالم، يعادل أسبوع من الزمن البشري ألف سنة في عوالم الميكروبات، أو نحو ذلك. يتأقلم الإنسان الذي أصبح جرثومة مع واقعه الجديد، يعدل ذوقه، يتعلم لغات الميكروبات، ويندمج مع مجتمعه. هذا العالم ينبض بالتجارة، والسياسة، والموضات، والألعاب، والعلم؛ ما يتيح للمؤلف فرصة مثالية للسخرية من عيوب مجتمعه، مع تقديم رؤية أعمق عن الحياة والوجود.

يدهشنا مارك توين بتمثيله جرائم الأمراض على أنها النبلاء بين الميكروبات. وتعد خلايا السرطان «الألع» بينها، بينما يُعتبر العامل المسبب للسُّل الأكثر شاعرية. كل عائلة «نبيلة» لديها رمز يطابق الهيئة التي يظهر بها كل جرثوم عند النظر إليه بالعين المجردة عبر المجهر. التطور التكنولوجي الطبي منذ زمن مارك توين يشير إلى أن هذا قد يكون أكثر من مجرد اختراع أدبي؛ ربما استشعر توين، أو ربما رأى فعليًا، ما يجري بين خلايا الجسم في مواجهة السرطان. قدمت ممرضة متخصصة في علم الأورام، عندما شاركتها هذا الوصف، تعليقًا مثيرًا للاهتمام قائلة إن خلايا السرطان «توهج» في الأشعة السينية وغالبًا ما يُطلق عليها في لغة المستشفيات العامة اسم «النجوم».

أحيانًا، يحلم بطلنا بأنه قد عاد إلى العالم البشري، فيستيقظ وهو يردد ذلك السؤال الحتمي: أيُّها الحلم؟ وتأتي لحظة تجلٍّ حين يقرر هاك أن ييُوح لمجموعة من مثقفي العالم المجهرى بأنه آت من عالم آخر، من كوكب يقع خارج الجسد المترنِّح لرجلٍ ثملٍ يتشاركون العيش في أحشائه. لكنهم ببساطة عاجزون عن استيعابه. فعجزهم يبدأ من كونهم لا يدركون أنهم يسكنون داخل جسد كائنٍ أكبر، وأن سلوكهم قد يؤثر في

inside another character — as “Huxley Bishop,” to distinguish him from the famous boy hero of earlier adventures, but any reader’s mind would still go to Huck Finn.

(464) Mark Twain, “Three Thousand Years among the Microbes,” in John S. Tuckey, ed., *The Devil’s Race-Track: Mark Twain’s “Great Dark” Writings* (Berkeley: University of California Press, 2005), p. 162.

صحته، سواء بالخير أو بالشر. فكيف لهم إذاً أن يتصوروا وجود عوالم أخرى شبيهة، يمشي فيها الكائن الحي ويأكل فوق كوكبٍ واسع لا يمكن للعقل أن يحيط به؟ ومن هنا، لا عجب أن عباقرة عالمهم المجهري رفضوا هاك بوصفه مختلاً، أو في أحسن الأحوال، مجرد صاحب خيال حي ومعقد.

والأمر يقود راوينا إلى أن يتأمل قائلاً: «ليس من الآمن أن تجلس لتحكم على وهم شخصٍ آخر وأنت خارج دائرته. فبينما تظنه أنت حلماً، قد يكون هو يعلم تماماً أنه كوكب.» ثم يمضي مارك توين ليرينا علماء الميكروبات وهم يدرسون الكائنات الأدق التي تعيش داخل أجسادهم؛ «النانو-ميكروبات». ويروج - بحدة بارعة - لفكرة أنه إذا ما نظرنا إلى أنفسنا من منظور الكون الأوسع، فقد لا نكون نحن البشر سوى ميكروباتٍ بدورنا، ومع ذلك، قد نمتلك القدرة على التأثير في حالة كل شيء.

اطلعتُ للمرة الأولى على كتاب «ثلاثة آلاف عام بين الميكروبات» في أواخر ديسمبر عام 2005. وبعدها بقليل، وبينما كنت أتصفح أحد دفاتري القديمة، شعرت بإثارة غامرة حين أدركت أنني - على ما يبدو - قد تلقيت دعوة مارك توين لاستكشاف العوالم المختبئة داخل الأشياء الدقيقة قبل ذلك بأربع سنوات تقريباً. إليكم الحلم، تماماً كما دَوّنته في مفكرتي:

أحجار العالم [27 يونيو، 2002]

أنا أدرب مجموعة من الأشخاص على السفر إلى داخل الأشياء الدقيقة، وخصوصاً الأحجار. بعض هذه الأحجار تُدعى «أحجار العالم»، إذ تكتشف في داخلها عالمًا بأكمله. بعضها يحتوي على أكوان وُلدت من الكتب. ولكنني أستمتع بمغامراتي داخل حجر يحتوي على عالم هاك فن.

تلك سمة الحالم الفذ بحق: أن يستطيع، حتى في قلب الحلم، أن يقدم لك دعوة لمرافقته في رحلة شاردة عبر أراضي الأحلام. لقد جعل مارك توين من الأحلام، والمصادفات، وجموح الخيال، رفاق دربه في أخصب مراحل حياته إبداعاً وإنتاجاً، وكلما تقدم به الزمن ازداد غوصاً في عالمها الساحر. وقد كان يدرك تماماً أيضاً أهمية أن

يحتضن الإنسان حلم حياته ويتبعه: «بعد عشرين عامًا، ستندم أكثر على ما لم تفعله، لا على ما فعلته. لذا، ألق الحبال. أبحر بعيدًا عن المرافئ الآمنة. دع رياح التجارة تأخذ أشرعتك في رحلتها. اكتشف. احلم. غامر.»

الفصل الحادي عشر

الرجل الذي فجّر الأشياء

كان هذا نوعًا من التعويذة التي يُفترض أن يُلقِيها على الأشخاص أو الأشياء في محيطه، لا سيما في المختبرات الفيزيائية، متسببًا في وقوع حوادث من شتى الأنواع. تتوقف الآلات عن العمل عند وصوله إلى المختبر، وتتحطّم أدوات زجاجية فجأة، ويظهر تسريب في نظام تفريغ الهواء، لكنّ أيًا من هذه الحوادث لم يكن يؤدي أو يزعج باولي نفسه.

الفيزيائي النووي رودولف بايرلز عن «تأثير باولي»

لا نعلم ما إذا كان ما نعدّه في المستوى التجريبي ماديًا قد يكون، في المجهول الذي يقع خارج تجربتنا، متطابقًا مع ما نميّزه في هذا الجانب من الحدود على أنه نفسيّ. فقد يكونا متطابقين في مكانٍ ما يتجاوز تجربتنا الراهنة.

كارل يونغ، «محاضرات تافيسستوك: الجوانب النظرية والتطبيقية في التحليل النفسي»، 1935

على مدى ربع قرن، تقاسم عالم النفس كارل يونغ والفيزيائي فولفجانج باولي الأحلام، والمصادفات، والتخيلات الجامحة، في مسعى مشترك نحو صياغة نظرية موحّدة تفسّر تفاعل العقل والمادة في جميع مستويات الكون متعدّد الأبعاد. لقد كانت صداقة بين عمالقة فكريين، ويمكن تتبّعها من خلال رسائلهما المتبادلة. في هذا الحوار الطويل، نرى هذين العقليين اللامعين يتطوران ويحفّز كل منهما الآخر ليتجاوز حدوده

الأكاديمية ومناطق راحته. وكما تشير محللة يونغية مثل بيفرلي زابريسكي: «كان لدى كلٍّ منهما التواضع الضروري للبحث عن سوابق في الماضي، والغرور اللازم للمجازفة بالتكهّن بشأن المستقبل.»⁽⁴⁶⁵⁾ في لقاءهما، التقت الفيزياء بعلم النفس، وُحِّيت الفروق السطحية بين الموضوعي والذاتي، وفتِح الطريق نحو فهم الـ *Unus Mundus*، أي الوحدة الكامنة خلف الوجود.

كان باولي على الأرجح الشخص الوحيد في حياة يونغ الذي تحمّل منه عالم النفس العظيم ملاحظات نقدية قاسية ومباشرة بشأن أئمن الأمور عنده، ولأطول فترة ممكنة. وهذا، بحد ذاته، أمرٌ مدهش، لأن كثيرين كانوا يجدون فظاظة باولي ونقده الحارق لا يُطاقان.

في عام 1930، حين التقيا لأول مرة، كانت أفكارهما تسير على مسارات متوازية في استكشافهما المستقل لكتاب «آي جنغ» (التغيرات)، واهتمامهما العميق بالأحلام، وافتتاحهما برؤى عوالم ما قبل نيوتن من الكيميائيين وسحرة عصر النهضة، وسعيهما لإيجاد أرضية مشتركة بين العقل والمادة. كان كلاهما في ذروة إبداعه ومكانته المهنية. فقبل عدة سنوات، وفي العشرينيات من عمره، أنجز باولي الاكتشافات العلمية المهمة التي استحق عنها لاحقاً جائزة نوبل في الفيزياء. أما يونغ، فعلى الرغم من أن أعظم كتبه جاءت بعد أن شارف على الوفاة جراء أزمة قلبية في عام 1944، كان بحلول عام 1930 قد أسس مدرسته الخاصة في التحليل النفسي، وقدم نظريات أصلية حول بنية النفس وديناميكيتها، واللاوعي الجمعي، والنماذج الأصلية، ووظيفة «التعويض» في الأحلام.

كان يونغ يتلمّس طريقه نحو بلورة ظاهرة أطلق عليها اسم «التزامنية»؛ وهو مصطلح جرب استخدامه لأول مرة أمام جمهور في عام 1929، أي في السنة التي سبقت لقاءه مع باولي. كان يحتاج إلى عقل ثانٍ، عقل يتمتع بمهارات مُكمّلة وبذكاء

(465) Beverley Zabriskie, "Jung and Pauli: A Meeting of Rare Minds," in *Atom and Archetype: The Pauli/Jung Letters, 1932–1958*, ed. C. A. Meier, trans. David Roscoe (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001), p. xxviii.

موازٍ، يساعده في صياغة نظرية متماسكة. وكان باولي هو ذلك العقل.

كان لدى كلا الرجلين طاقة هائلة. يعزو لورنس فان دير بوست القدرة الاستثنائية لدى يونغ على «التوليد التلقائي» المستمر للطاقة الإبداعية المتجددة إلى أنه «كان، بطريقة ما، يسير دومًا في المجرى الداخلي لذاته». (466) ورأى يونغ أن أحد المحركات الأساسية في حياته كان اكتشافه «العمل» – العمل الذي تهب له كل كيائك، لذاته، دون غاية أخرى – في وقت مبكر جدًا. كتب عن نفسه قائلاً: «منذ سن الحادية عشرة، انطلقت في مشروع واحد، هو «عملي الأساسي»». (467)

أما باولي، فكان رجلاً ملتهباً بالدوافع، يسعى بلا كلل لفهم نسيج الواقع وتفسيره، ويتوق إلى التوافق والتناغم. إلا أن طاقته كانت متقلبة وانفجارية، تاركة وراءها آثاراً جاحمة وصادمة، لم تقتصر على من حوله فحسب، بل امتدت إلى البيئة المادية المحيطة به. وعندما التقى بيونغ في مستقبل الثلاثين من عمره، لم يحضر كزميل علمي، بل جاء كمريض يئن تحت وطأة الألم، رجل قد نفذ صبره ولم يعد يحتمل المزيد.

شياطين فيينا

وُلد فولفجانج باولي في فيينا، مدينة فرويد، في عام 1900، عام الذكرى المئوية، الذي شهد أيضًا نشر فرويد لكتابه عن الأحلام. ولولا قرار والده بتغيير اسم العائلة واعتناق الكاثوليكية الرومانية، لكان اسم باولي هو باشيلس، اسم جده، الحاخام المبجل في براغ، الذي أقام طقوس البار متسفا لفرانز كافكا. وكان هذا التحول خطوة سياسية تبناها يهود فيينا الآخرون في محاولة لتجنب معاداة السامية التي كانت تندفق في مجاري المدينة كما لو كانت مجاري صرف صحي مكشوفة. أما والدته، بيرتا شوتر، فكانت كاثوليكية من جهة والدتها، لكن والدها كان كاتبًا يهوديًا مشهورًا، مما يجعل

(466) Laurens Van der Post, *Jung and the Story of Our Time* (New York: Vintage Books, 1977), p. 94.

(467) C.G. Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, ed. Aniela Jaffé (New York: Vintage, 1965), p. 206.

فولفجانج ثلاثة أرباع يهودي. ولم يخبره أحد بذلك حتى بلغ سن المراهقة. وقد شكّل هذا أحد مصادر العديد من أزومات الهوية التي نَغَصَّت عليه حياته.

وقد وُصِفَت فيينا بأنها شقة ذات غرفتين: الغرفة الأمامية، حيث يُستَقْبَل الزوّار، مرحلة، وسطحية؛ أما الغرفة الخلفية، فمعمّنة، وكثيية، وغريبة وعصيّة على الفهم.⁽⁴⁶⁸⁾ كان هذا الوصف ينطبق تمامًا على حالة عائلة باولي.

كان صبيًّا لا يحب الحكايات الخرافية؛ كانت تثير فيه القلق.⁽⁴⁶⁹⁾ وتحت بريق نبوغه المبكر، كان يكمن إحساسٌ قَلْبٌ بوجود هاوية تحت السطح الظاهر، وتعمّق هذا الإحساس عندما أقدم أقرب أصدقائه على الانتحار.

بعد تخرجه بمرتبة الشرف في مدرسة دوبلينغر الثانوية في فيينا، تابع باولي دراسته في ميونيخ تحت إشراف أرنولد سومرفيلد، الذي عَرَفَه على أسرار «ثابت البناء الدقيق». طلب منه سومرفيلد أن يكتب مراجعة لنظرية النسبية لأينشتاين لصالح «موسوعة علماء الرياضيات» الألمانية. وأنجز باولي مراجعته بعد شهرين فقط من حصوله على شهادة الدكتوراه، وكان يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا. وامتدت مراجعة باولي إلى 237 صفحة. وعندما قرأها أينشتاين، أبدى تعليقًا سخيًّا استثنائيًّا: «لا يمكن لأي شخص يطالع هذا العمل الناضج، المصاغ بعظمة، أن يصدق أن كاتبه رجل في الحادية والعشرين من عمره. المرء يختار فيما يُعجَب به أكثر: الفهم النفسي لتطور الأفكار، أم الدقة في الاستنتاج الرياضي، أم العمق في البصيرة الفيزيائية، أم القدرة على العرض المنهجي الواضح، أم الشمول في معالجة الموضوع، أم الدقة في التقييم النقدي.»⁽⁴⁷⁰⁾ وبذلك تشكّلت سمعة باولي.

عندما كان في الرابعة والعشرين فقط، صاغ ما سيُعرف لاحقًا بـ «مبدأ باولي

(468) Paul Hoffmann, *The Viennese: Splendor, Twilight, and Exile* (New York: Doubleday, 1988), p. 1.

(469) R. E. Peierls, "Wolfgang Ernest Pauli, 1900–1958," *Biographical Memoirs of Fellows of the Royal Society* 5 (February 1960): 174.

(470) David Lindorff, *Pauli and Jung: The Meeting of Two Great Minds* (Wheaton, IL: Quest Books, 2004), p. 11.

للاستبعاد»، وهو الإنجاز الذي نال عنه جائزة نوبل، بناءً على توصية من أينشتاين، عام 1945. وباختصار، ينص هذا المبدأ على أنه لا يمكن للإلكترونين متماثلين أن يشغلا الحالة الكمومية نفسها.

وبينما كان باولي معروفًا في الأوساط العلمية كأستاذ في نظرية اللف المغزلي (spin)، كانت حياته الأسرية والشخصية تدور في دوامات عنيفة. ففي عام 1927، انتحرت والدته بعد أن علمت أن والده على علاقة عاطفية. وبعدها، تزوج والده شابة في عمر ابنه.

في العام التالي، انتقل باولي إلى زيورخ ليتولى منصب أستاذ في المعهد الفيدرالي للعلوم التطبيقية. وبينما كان سكان فيينا يسخرون من زيورخ ويصفونها بأنها «بضعف حجم مقابر فيينا، لكنها بنصف متعتها»، بقي باولي مقيمًا في زيورخ لبقية حياته، باستثناء الفترة التي قضاها في برينستون خلال الحرب العالمية الثانية.

في عام 1929، ترك الكنيسة وتزوج راقصة ملاهي ليلية تُدعى كاتِه دينر. كانت، عند لقائه بها، على علاقة مع رجل آخر - كيميائي - ويبدو أن باولي كان يشك في أنها استمرت في رؤيته سرًا. طَلَّقَهَا خلال أقل من عام، فتزوجت الكيميائي على الفور؛ وقال باولي إنه كان ليفضّل لو أنها هربت مع مصارع ثيران.

قد تكون الدراما القاسية لانهايار زواجه قد غدّت تفجرًا جديدًا واستثنائيًا لإبداعه العلمي؛ إذ يتمكن المبدعون أحيانًا من تحويل طاقة المشاعر «السلبية» مثل الحزن، والغيرة، والغضب - وجميعها كانت تعصف بباولي - إلى وقود لإنتاج جديد. ففي هذه الفترة تحديدًا اخترع باولي جسيم «النيتريو». لقد «اخترعه» من العدم، في محاولة لإنقاذ قوانين الحفاظ على الطاقة والزخم، التي كانت مهددة بنتائج تجريبية تتعلق بتحلل بيتا. وعندما عرض فكرته على المجتمع العلمي، في رسالة شهيرة بدأها بعبارة «زملائي المشغين الأعضاء»، انبهر البعض، فيما شكك آخرون.⁽⁴⁷¹⁾ وقد استغرق الأمر أكثر من

(471) Quotation from Wolfgang Pauli, *Writings on Physics and Philosophy* (New York: Springer Verlag, 1992), p. 18.

ثلاثين عامًا قبل أن تُثبِت التجارب أن ما اخترعه باولي كان حقيقيًا وموجودًا بالفعل.

لكن قلبه وعقله كانا يتفجران من فرط التوتر والعمل المتواصل. وقد تشير عيناه الجاحظتان إلى فرط نشاط في الغدة الدرقية، وهو أمر من شأنه أن يُضعِف التوازن العاطفي. كان يفرط في شرب الكحول للتنفيس عن نفسه، لكنه لم يكن يتحمّله جيدًا. طُرِدَ من الحانات والمطاعم، وحدث ذات مرة أن تُرِكَ ينزف على الرصيف بعد شجار في الشارع. وعندما خشي والده أن يكون ابنه على حافة انهيار عصبي تام، أصرَّ على أن يطلب المساعدة، وأوصى له بمحلل نفسي يُدعى يونغ، كان قد عمل سابقًا مع فرويد، ويعيش في الجوار.

الثعلب والحديقة

كان يونغ يمشي في حديقة منزله في كوسناخت، على ضفاف بحيرة زيورخ، مع إحدى مريضاته. كان يحب أن يراقب تفاعلات الظواهر الطبيعية أثناء حديثه مع مريض. وكان يجد معنى في كل تغَيّر يحدث في البيئة؛ نسمة مفاجئة تهبّج ماء البحيرة، شكل غيمة، صيحة طائر.

في ضوء الشمس اللطيف، واصل السير إلى خارج الحديقة، نحو غابة صغيرة. كانت المرأة تتحدث عن أول حلم في حياتها ترك أثرًا بالغًا فيها؛ وتصفه بأنه «انطباع أبدي». تقول: «كنت في منزل طفولتي، وشبح ثعلب ينزل الدرج.» تتوقف وتضع يدها على ذراع يونغ، لأنه في تلك اللحظة، يخرج ثعلبٌ حقيقيٌّ من بين الأشجار، على بعد أقل من أربعين ياردة أمامهما. يواصل الثعلب السير بهدوء على الممر أمامهما لبضع دقائق. «يتصرف الحيوان وكأنه شريك في الحالة الإنسانية.» (472)

كان يونغ معتادًا منذ زمن بعيد على قراءة الإشارات من العالم الخارجي، إلى جانب

(472) The date of this incident is not known. Jung described it in a letter to J. B. Rhine in November 1945, citing it as an example of "the synchronicity of archetypal events." C. G. Jung, *Letters*, ed. Gerhard Adler and Aniela Jaffé, trans. R. F. C. Hull (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1973), 1:395.

الأحلام، واستقاء المشورة من تقاطع الأحداث، أثناء تقديمه المشورة لمرضاه. وقد تعزز هذا النهج في عمله الرائد مع مريضة كانت تعاني من انغلاق فكري خطير، إلى أن رأت في حلمها خنفساء الجعل، خنفساء الروث في وادي النيل. وعلى الرغم من أصله المتواضع، كان الجعل أحد أهم الرموز المصرية القديمة للبعث والتحول؛ قُدس على هيئة قوى خارقة خبّري، وكان يُوضع فوق قلب المسافر الروحي ليهديه في رحلاته فيما بعد الجسد والموت. وأثناء حديث المريضة عن حلمها، ظهر عند النافذة خنفساء طائرة تُعرف بخنفساء الورد، وهي أقرب ما يمكنك أن تجده في أوروبا إلى الجعل المصري. وبينما اتسعت عينا المريضة دهشة واعترافاً، اختبرت شعوراً بالتصديق لحلمها وللعمل الذي كانت تقوم به مع يونغ، وقد أدى بها ذلك إلى شفاء عميق.

وحين كان يرى مريضه داخل المنزل، كان يُفضل أن يجلسا بحيث يواجهان الحديقة، وأشجار الحور على حافة البحيرة، والمياه الممتدة وراءها، منتبهاً لما تقوله له الطبيعة. وقد أثارت إعجابه حالاتٌ أخرى بدا فيها أن الطيور أو الحيوانات تشارك في تفاعل إنساني. إحدى المريضات أخبرته بأنها تلاحظ احتشاد الطيور حول منزلها كلما حدثت وفاة في العائلة. وأثناء معالجته لزوج هذه السيدة، شعر يونغ أن الرجل تظهر عليه أعراض مشكلة في القلب، وأصرّ على أن يراجع طبيباً. وفعل ذلك، وحصل على تقرير طبي يؤكد سلامته، لكنه مات بأزمة قلبية حادة وهو في طريقه إلى البيت. وبعد ذلك، أخبرته زوجته أنها كانت مستعدة لهذا الحدث بسبب احتشاد جديد للطيور حول بيتها. (473)

وأخبرته طبيبة بأنها شعرت بأن سلوك الحيوانات التي تحبها كان يعذبها، وكأنه عقاب لجريمة شنيعة نجحت في إخفائها لسنوات. واعترفت ليونغ بأنها سمّمت أعزّ صديقاتها كي تسرق زوجها. وقالت إنه، كنوع من الانتقام، صارت الخيول التي تحبها الطبية تتجنبها فجأة، بل إن أحدها طرحها عن السرج. وأصيب كلبها الوولفهاوند المفضل بشللٍ لم يتمكن الطبيب البيطري من تفسيره. وقد علّق يونغ: «أحياناً يبدو

وكأنّ حتى الحيوانات والنباتات «تعرف» ذلك.»⁽⁴⁷⁴⁾

ولم يُسجَل ما إذا كان يونغ قد سار مع باولي في حديقته، أو لماذا قرّر ألا يكون محلّله النفسي. فقد أحوال الفيزيائي المضطرب إلى محلّلة قليلة الخبرة نسيًا.

لماذا رفض يونغ أن يعمل شخصيًا مع باولي؟ كتب بغموض أن السبب يعود إلى أن نفس باولي كانت «مملّثة عن آخرها بمواد بدائية»⁽⁴⁷⁵⁾ ومع ذلك، فإن يونغ كان يعشق تتبع الإشارات الأركيولوجية القديمة. ربما شعر بمقاومة شخصية للعمل مع باولي، الذي كان شخصًا غريب الهيئة، ممتلئ الجسم، يهتز ويتأرجح بجذعه العلوي بالكامل عندما يُجهِد نفسه في التفكير، وكان قادرًا على التفوّه بأي شيء فجائيًا. وربما شعر يونغ بأن باولي، الذي كان مضطربًا للغاية في علاقاته مع النساء، قد يستفيد أكثر من معالجة على يد محلّلة نسائية. أو ربما شعر بأن تيار وعي باولي يحتوي على كنوز، ورأى في اختياره لمساعدة مبتدئة قرارًا حكيماً لضمان عدم مقاطعة ذلك التدفق. ولأنه كان يُدرك عبقرية باولي، فقد يكون يونغ قد استشرف إمكانية التعاون المثمر مع أحد رواد الفيزياء الجديدة، وربما أراد أن يتجنّب تحميل هذا التعاون بسجلّ علاجيّ قد يُعيّقه.

ولا يُستبعد أن يكون «تأثير باولي» الشهير – ذاك الذي يجعل الأشياء تنفجر من حوله – قد بدأ في أول زيارة له لمنزل يونغ، وجعل عالم النفس حذرًا. لم يكن يونغ غير معتاد على الظواهر الخارقة حين تتصاعد المشاعر. فقد اعتاد أن يتذكر صوت الطقطقة الصاخبة التي صدرت عن قطعة أثاث أثناء شجاره مع فرويد. كما كانت قد سادت أجواء منزله ظواهر شبيهة بالأرواح المشاغبة في الفترة التي سبقت كتابته لـ «العظّات السبع للأموّات». لكن لم يكن أحد مثل باولي في تفجير الأشياء.

المختبر السري للدكتور باولي

لكن يونغ لم يتجاهل تمامًا قضية باولي. فعندما بدأ باولي في إرسال سيل من تقارير

(474) Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, p. 123. Jung's brief reference to this case was the inspiration for Morris West's novel *The World is Made of Glass*.

(475) Jung, "The Tavistock Lectures: On the Theory and Practice of Analytical Psychology," in CW 18, par. 402.

الأحلام - بلغ عددها نحو 1300 خلال فترة 18 شهرًا - كانت المحللة الشابة تمر خلاصة الأحلام إلى يونغ، الذي استخدم حوالي 400 منها (بإذن من باولي ووعده بالحفاظ على السرية) في مقال رئيسي ضمّن في كتابه «علم النفس والخيماء». وإليك بعض النماذج:

يحلم باولي بكنز في الأعماق. للوصول إليه، عليه أن يغوص عبر فتحة ضيقة. هذا أمر مخوف بالمخاطر، لكنه سيجد رفيقًا في الأسفل. يغامر الحالم بالغوص في الظلام ويكتشف حديقة جميلة في الأعماق، مُنسقة بشكل متناظر، وفي مركزها نافورة ماء.⁽⁴⁷⁶⁾

في حلم آخر، لا يغوص بل يسقط في الهاوية. وفي القاع، يوجد دبّ تتوهج عيناه بتناوب بين أربعة ألوان، الأحمر، الأصفر، الأخضر، والأزرق. وعندما يدقق النظر، يلاحظ أن له أربع عيون تتحوّل إلى أربعة أضواء. يختفي الدب، ويواصل باولي طريقه عبر نفق طويل ومظلم. وخلفه، في الضوء، توجد كومة من الكنوز يتوجّها خاتم الماسي. يُقال لباولي إن هذا الخاتم سيقوده في رحلة طويلة نحو الشرق.⁽⁴⁷⁷⁾

وفي حلم يُحتمل أن يكون قد لامس وجدان يونغ، ابن القس الذي خاب أمله في الدين، يدخل باولي بيتًا غريبًا ومهيّبًا، يُدعى «بيت الاجتماع». ويقول حارس الباب عن الداخلين: «حين يخرجون من هنا، يكونون قد تطهّروا». وعندما يدخل باولي، يسمع هذه الكلمات: «ويل لمن يستخدمون الدين كبديل عن جانب آخر من جوانب حياة الروح؛ فهم في ضلال وسيلعنون. إن الدين ليس بديلًا؛ بل هو إضافة تُكَمِّل باقي أنشطة الروح. ومن فيض الحياة تولد ديانتك؛ وعندها فقط ستكون مباركًا!»⁽⁴⁷⁸⁾

بالإضافة إلى دفعه إلى السعي في مهمة مخوفة بالمخاطر بحثًا عن كنز سري - ربما سرّ الكون - خارج حدود أي خرائط، كانت أحلام باولي الآن تؤكد أن الدين لا يُعدّ بديلًا عن عمل الروح و«فيض الحياة». وربما تذكّر يونغ في تلك اللحظة حلمًا لا يُنسى من طفولته، حين نظر إلى السماء فوق كاتدرائية بازل، وتخيّل مشهدًا صادمًا من الأعالي

(476) Jung, "Individual Dream Symbolism in Relation to Alchemy," in CW 12, par. 117.

(477) Jung, CW 12, par. 262.

(478) Jung, "House of the Gathering," in CW 12, par. 293.

ينسف الشكل المقدس للمكان. ورغم غرابته، جلب له ذلك الحلم شعورًا غريبًا بالارتياح، وكأنه تخلص من ثقل رمزي كان يجثم على روحه. (479)

شعر كل من باولي ويونغ أن مغامرات باولي في الأحلام ومشاركتها قد قادت إلى نوع من التوازن، عندما ذكر حلم انسجام بديع، حلم «ساعة العالم». رأى فيه قرصًا أزرق عموديًا وقرصًا أفقيًا بأربعة ألوان، كلاهما يدوران من مركز مشترك ويدعمهما طائر عظيم. كانت هذه هي «ساعة العالم»، وكان لها ثلاث نبضات أو إيقاعات: دورة كاملة للقرص العمودي تحرك القرص الأفقي بجزء منها؛ ودورة للأفقي تحرك الحلقة الذهبية. وقد منح هذا المشهد لباولي إحساسًا بـ «أسمى درجات الانسجام». وقد فُتِنَ يونغ بهذه الصورة، باعتبارها «مندالة» متعددة الأبعاد تُظهر تفاعل الزمن والعصور والخلود. (480)

ولأكثر من عشرين عامًا بعد انتهاء علاجه بالتحليل النفسي، استمر باولي في مشاركة أحلامه مباشرة مع يونغ، خاصةً عبر رسائل طويلة وعميقة التفكير. لم يكن باولي يقدم أحلامه طلبًا لتفسيرها تحديدًا، رغم أنه كان يرحّب بالملاحظات والتعليقات التي كان يونغ يقدمها عادةً من خلال «التوسيع الرمزي»، إذ كان يربط رموز الحلم لدى باولي بصور مستمدة من معرفته الموسوعية بتاريخ العالم وأساطيره ودياناته. وكما أوضح باولي لاحقًا لزوجة يونغ، إيمان: «أنا متشكك جدًا بشأن تفسيرات الأحلام.... ما كان أنجح بالنسبة إلي هو، من ناحية، تسليط «أوسع ضوء ممكن» على السياق، والتأمل في المشكلات العامة الموجودة فيه، ومن ناحية أخرى، مراقبة الأحلام على مدى عدة سنوات.» (481)

من منظور باولي كعالم ومستكشف فكري، كانت الأحلام — على حد وصفه — «مختبر سري» يستقبل فيه أفضل أفكاره ويختبرها، وكانت تُشجّعه باستمرار على تجاوز النماذج

(479) Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, pp. 39–40.

(480) Jung, "World Clock," in CW 12, par. 307.

(481) Pauli to Emma Jung, November 16, 1950, in C. A. Meier, ed., *Atom and Archetype: The Pauli/Jung Letters, 1932–1958*, trans. David Roscoe (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001), pp. 52–53.

السائدة.⁽⁴⁸²⁾ ففي عام 1934، ظهر له في أحد الأحلام شخص يُشبه آينشتاين، وأبلغه بأن نظريته الكمومية ليست سوى «مقطع أحادي البعد من عالم ثنائي الأبعاد ذي معنى أكبر، بعده الثاني لا يمكن أن تكون إلا اللاوعي والنماذج الأصلية.»⁽⁴⁸³⁾ وقد فهم باولي من ذلك أنه يجب أن يعمّق تفاعله مع علم النفس العميق ويسعى إلى توحيد الفيزياء وعلم النفس.

ظهر مرشدو أحلام باولي مرارًا في أشكال تتطور بحسب نمو وعيه؛ أحيانًا بوجوه زملاء مألوفين أو أفراد عائلته الراحلين، وأحيانًا كغرباء غامضين، مثل «فارسي»، أو «الغريب ذو النور والظلمة»، أو «امرأة صينية» جذابة يمكنها أن تتحرك كراقصة بالأفاعي، وتصحبه إلى أماكن غير مألوفة وتجعله يواجه جماهير غير معتادة. مع أن باولي ويونغ كانا يحاولان أحيانًا تصنيف هذه الشخصيات ضمن مفاهيم يونغية (مثل «الأنيميا» أو «الظل»)، كانت تلك الشخصيات كانت تتجاوز دومًا هذه القوالب، كما في الحلم الذي قال فيه كائن حلمي غامض لباولي: «أنت ظلي.»⁽⁴⁸⁴⁾ أما المرأة الصينية، فقد تجاوزت فضاء الحلم كليًا إلى العالم الواقعي، بطريقة مثلت التحدي الفكري الأكبر في حياة باولي.

تأثير باولي في تأثير باولي

إلى جانب افتتاحهما المشترك بالأحلام، كان كل من يونغ وباولي يتشاركان شغفًا استنزفهما، وهو المصادفة ذات المعنى. كان كل منهما، بطريقته الخاصة، مغناطيسيًا لجذب المصادفات. عند يونغ، كانت هذه المصادفات غالبًا ما تتجلى عبر ظواهر طبيعية، كالثعلب في الطريق، أو «الجُعل» عند النافذة. أما عند باولي، فكانت المصادفة تظهر على نحو انفجاري، عبر ما عُرف لاحقًا باسم «تأثير باولي».

(482) Pauli, "Statements by the Psyche," in Meier, *Atom and Archetype*, p. 134.

(483) Meier, *Atom and Archetype*, p. 122.

(484) Herbert van Erkelens, "Wolfgang Pauli's Dialogue with the Spirit of Matter," *Psychological Perspectives*, no. 24 (1991): 38.

كلا الرجلين كان قد درس ما وصل إليه أسلافه في هذا المجال. كان يونغ، الذي كان عالماً متمكناً في الثقافة اليونانية والرومانية وقرأ اللاتينية واليونانية بشغف حتى نهاية حياته، ملماً بعقيدة الرواقين التي ترى أن كل الأشياء تتناغم عبر «تعاطف كوني». وكان يجب أن يردد العبارة اللاتينية Omnia plena diis esse، أي «كل الأشياء مملوءة بالرحمة». وكان على دراية تامة بالرؤية الكونية في العصور الوسطى، التي فيها كل شيء متصل، ويتحدث عن كل شيء آخر عبر التوافقات: «كما في الداخل، كذلك في الخارج؛ وكما في الأعلى، كذلك في الأسفل». وكان يستمتع بشكل خاص بلغة سينيسوس، الذي سمّيناه أسقف الأحلام، عندما تحدّث عن العلامات والتوافقات بوصفها «إغراءات رمزية». (485)

وقد خاض كل من يونغ وباولي تجارب متعمقة مع كتاب «آي جِنغ» (التغيرات). قرأ يونغ أولاً ترجمة جيمس ليغ الأدبية – التي كانت شبه غير صالحة للممارسة العملية – ثم حالفه الحظ في أن يتعرّف على ريتشارد فيلهلم، الاختصاصي الألماني الكبير في الثقافة الصينية، وتلقّى منه تعليمًا شخصيًا حول كيفية إلقاء نُصوص هذا العرّاف الصيني. وكان فيلهلم هو حقًا من فتح الأبواب للثقافة الغربية على هذا النص. كتب يونغ إلى أحد مراسليه عام 1935: «إن كنت أفهم أي شيء عن «آي جِنغ»، فأود أن أقول إنه الكتاب الذي يُعلّمك طريقك، والأهمية القصوى لهذا الطريق». (486)

أما باولي، فقد توصل إلى «آي جِنغ» عبر لينتزر (الذي درسه كنموذج رياضي للكون) وشوبنهاور. وكان باولي يستخدمه للحصول على «رأي ثانٍ» بشأن أحلامه، واعتبره بمثابة «كتاب رياضيات». وقد وجد باولي نفسه في الرمز السداسي رقم 51 من «آي جِنغ»، المسمى Chen («الإثارة»). كان يرى أنه يستحضر قوة شخصيته وتحدياتها. يصوّر الرمز السداسي خط يانغ يدفع بقوة نحو خطَي يين، بعنف يثير الذعر. وتُكرر هذه الصورة مرتين. اسم الرمز السداسي يعني «الصدمة» كما يعني «الإثارة». و«الحُكم» عليه، كما ترجمه فيلهلم، يقول:

(485) Jung, CW 8, par. 77.

(486) Jung, Letters, 1:201.

الصدمة تجلب النجاح.

الصدمة تأتي – آه، آه!

كلمات ضاحكة – ها، ها!

الصدمة تُرعب لمائة ميل،

ومع ذلك لا يُسقط الرجل ملعقة الذبيحة ولا الكأس.⁽⁴⁸⁷⁾

من السهل أن نفهم لماذا استهوت هذه الصورة بابولي. لقد كان يجب إحداث الصدمة لدى الناس. وكان يُفقد بعض زملائه القدرة على الكلام بفظاظته. لم يكن فقط يُحدث تأثيرًا يشبه الصاعقة لدى الناس، بل كان له تأثير فعلي في البيئة الفيزيائية المحيطة به، خاصة على الأجهزة العلمية باهظة الثمن. معظمنا يعرف شخصًا «يفجر المصابيح»، أو «يوقف الساعات»، أو «يجعل الحواسيب تنهار». وقد نكون لاحظنا ظواهر كهذه تتضاعف حولنا في لحظات من التوتر العاطفي الشديد. كان تفجير حاسوب أمرًا تافهًا بالنسبة إلى بابولي.

وقد صيغ مصطلح «تأثير بابولي» لوصف الكيفية التي يبدو أن وجوده في المكان يُسبب من خلالها تعطل الأشياء – وخصوصًا تجارب الفيزياء والمعدات – دون أن يُصاب بابولي نفسه بأي أذى. وقد وصل الأمر بأحد علماء الفيزياء التجريبية (أوتو شتين) إلى أن حظر على بابولي دخول مختبره تمامًا.

وصف رودولف بايرلز، صديق بابولي وزميله (وهو فيزيائي ألماني الأصل انتقل إلى إنجلترا وشارك لاحقًا في مشروع مانهاتن)، ما يُعرف بـ «تأثير بابولي» على النحو التالي: «كان هذا نوعًا من التعويذة التي يُفترض أن يُلقِيها على الأشخاص أو الأشياء في محيطه، لا سيما في المختبرات الفيزيائية، متسببًا في وقوع حوادث من شتى الأنواع. تتوقف الآلات عن العمل عند وصوله إلى المختبر، وتتحطم أدوات زجاجية فجأة،

(487) Richard Wilhelm and Cary F. Baynes, trans., *The I Ching, or Book of Changes* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990), p. 197.

ويظهر تسريب في نظام تفريغ الهواء، لكنّ أيّا من هذه الحوادث لم يكن يؤذي أو يزجج باولي نفسه. (488)

وعندما انفجر جهاز تجريبي بالغ الأهمية في مختبر البروفيسور جيمس فرانك في معهد الفيزياء بجامعة غوتينغن دون سبب واضح، علّق أحدهم بأن هذا قد يكون «تأثير باولي». لكن باولي لم يكن في المنطقة أصلاً؛ إذ كان في قطار متجه إلى الدنمارك. وتبيّن لاحقاً أنه، وقت وقوع الانفجار في المختبر، كان القطار الذي يقّله من زيورخ إلى كوبنهاغن قد توقف في محطة قطار غوتينغن.

وعندما وصل إلى برينستون عام 1950، احترق، دون سبب واضح، مسرع دوراني (سيكلترون) جديد باهظ الثمن، كان قد رُكّب مؤخراً، مما أعاد إثارة الجدل مجدداً حول تأثير باولي.

ولم تكن هذه الظواهر مقتصرة على المختبرات فقط. فعندما افتُتح معهد يونغ في زيورخ عام 1948، حضر باولي حفل الافتتاح، بناءً على طلب يونغ، ليكون «رأعياً علمياً» يُمثّل التقاء الفيزياء بعلم النفس. آنذاك، كان عقل باولي منشغلاً بالتوتر بين منهجين معرفيين قديمين، مثلهما الخيميائي روبرت فلود والعالم الفلكي يوهانس كيبلر. وعندما دخل باولي إلى غرفة الاستقبال لحفل يونغ، انزلقت مزهرية صينية كبيرة عن الطاولة بشكل غير مفسر، مسببةً فيضاً غمر بعض الضيوف المرموقين. رأى باولي في هذا الحدث أهمية رمزيةً هائلة، نظراً للتقاطع الصوتي بين اسم «فلود» (Fludd) وكلمة «فيض» (flood). وقد ألهمه هذا الحادث أن يكتب ورقته البحثية بعنوان «فيزياء الخلفية» (Background Physics).

وفي مناسبة أخرى، كان باولي جالساً في مقهى «أوديون» قرب النافذة، غارقاً في التفكير في اللون الأحمر وتردداته الشعورية. وبينما كان يتأمل «الأحمر»، لم يستطع رفع عينيه عن سيارة كبيرة غير مشغولة كانت متوقفة أمام المطعم. وفي أثناء مراقبته لها،

اندلعت النيران فجأة في السيارة، وامتلاً مجال رؤيته بلون أحمر نارى. (489)

وقد روى مؤرخ الفن الشهير إروين بانوفسكي أنه التقى، في شبابه، باولي وصديقاً آخر لتناول الغداء في مطعم في هامبورغ. وبعد جلسة طويلة وحيوية انتهت بالحلوى والمشروبات، نهض الثلاثة من الطاولة ليكتشفوا أن اثنين منهم – ولأسباب مجهولة – كانا جالسين على كرسي مخفوق، لطّخت سرواليهما من المؤخرة. أما الوحيد الذي لم يُصَب بأي أذى، فكان، بطبيعة الحال، باولي. (490)

وبحسب زميله المقرب ماركوس فيرز: «كان باولي مؤمناً تماماً بتأثيره». (491) كان يشعر بتوتر داخلي مزعج قبل انفجار الأشياء. وبعد الحدث، كان يشعر بالارتياح والتحرر من الضغط، بل أحياناً بالنشوة. ولا شك في أنه كان يستمتع بسمعته المتنامية في إثارة ظواهر غريبة وشبه شيطانية. فهذا، في نهاية المطاف، هو الرجل الذي تنكر في زي مفيسstofيليس لعرض ساخر أمام جماعة عالم الفيزياء نيلز بور في كوبنهاغن.

أفضل قصة رُويت عن «تأثير باولي» جاءت على لسان رودولف بايرلز. خطط بعض زملاء باولي من العلماء لمقلبٍ ساخر يستهزئون به من هذا التأثير المنسوب إليه، وذلك في حفل استقبال. فعلقوا بعناية ثرياً بحبل، كانوا ينوون إفلاته فور دخول باولي إلى الغرفة، لتسقط الثريا أرضاً. «لكن عندما دخل باولي، انحشر الحبل في البكرة ولم يحدث شيء، وهذا مثال نموذجي على تأثير باولي». (492)

ما الذي قد يفسّر تأثير باولي؟ من الصعب ألا يراودنا الشك في وجود نوع من التحريك النفسي Psychokinesis، أي انسكاب القوى الذهنية والعاطفية المتأججة داخل الرجل إلى العالم الفيزيائي من حوله. وقد كان بعض زملائه يمزحون، بقدر من التوتر، بأن تأثير باولي هو مثال بالغ للتوتر الدائم لدى علماء الفيزياء النظرية تجاه

(489) Maier, prefatory material in *Atom and Archetype*.

(490) Lindorff, *Pauli and Jung*, p. 13.

(491) Charles Enz, *No Time to Be Brief: A Scientific Biography of Wolfgang Pauli* (New York: Oxford University Press, 2002), p. 150.

(492) Peierls, "Wolfgang Ernest Pauli," p. 185.

أما يونغ، فربما فَسَّرَ تأثير باولي من خلال كتب الخيمياء وسحر عصر النهضة التي كان يعشقها. ومن اقتباساته المفضلة - والتي استخدمها في مقالته عن التزامنية - مقطع من رسالة تُنسب إلى ألبيرتوس ماغنوس، أستاذ توما الأكويني (رغم أن النص، في هذه الحالة، يُرجَّح أن يكون منسوبًا إلى ساحر مجهول من نوعية كورنيليوس أغريبا). ويتحدث هذا المقطع عن القوة العظيمة للعواطف الحيّاشة، وكيف يمكنها أن تُحدث تغيرات في البيئة المحيطة:

تسكن في النفس البشرية قدرة على تغيير الأشياء، وتُخضع الأشياء الأخرى لها، وخصوصًا عندما تتجرف في فائض عظيم من الحب أو الكراهية أو ما شابه. لذا، عندما تقع روح الإنسان في فيضان عاطفي، يمكن بالتجربة إثبات أنها تربط الأشياء وتغيّرها كما تشاء. لزمن طويل، لم أكن أؤمن بذلك.... لكنني وجدت أن العاطفية في الروح البشرية هي السبب الرئيس في كل هذه الظواهر.... ومن أراد أن يتعلم سر الفعل ونقض الفعل، فعليه أن يعلم أن كل إنسان قادر على التأثير في كل شيء تأثيرًا سحريًا، إذا بلغ فائضًا عاطفيًا هائلًا... ويجب أن يُجري فعله في الساعة التي يصيبه فيها هذا الفائض، وأن يعمل مع الأشياء التي تملئها عليه الروح.⁽⁴⁹³⁾

وربما كان تأثير باولي تجسيدًا غير واع (غالبًا) لمثل هذه القوى أثناء عملها. ونظرًا لعلاقته الصادمة مع العالم من حوله، لأُغرابة في أن باولي كرّس نفسه لدراسة تفسير التفاعل بين العقل والمادة. ومن هذه الزاوية، لا شك في أنه كان يُجسّد الحُكم الوارد في الرمز السداسي من كتاب «آي جنغ» الذي كان يتهاوى معه، ولم يُسقط أدواته المقدسة.

الطَّرَقَة على القلب

كان باولي في برينستون خلال سنوات الحرب، لكنه، بخلاف العديد من زملائه في

(493) Albertus Magnus [attr.], *De mirabilibus*. Found by Jung in the Zentralbibliothek, Zurich. Quoted in Jung, "Synchronicity," in CW 8, par. 859.

معهد الدراسات المتقدمة، لم يُدعَ للمشاركة في مشروع مانهاتن. وقد قيل إن السبب في ذلك أن أوبنهايمر وشخصيات رئيسة أخرى كانوا على دراية بتأثير باولي، وكانوا قلقين من أن يتسبب عن غير قصد في تفجير نووي في المكان والزمان الخطأ. (494)

في سويسرا، حيث الجبال والغابات التي كان ينتمي إليها بعمق، انزلق يونغ على الجليد أثناء جولته اليومية في فبراير 1944، ثم طلب رعايةً طبيةً لإصابته في الساق. أثناء وجوده في المستشفى، أصيب بأزمة قلبية وكاد أن يفارق الحياة. كانت فترة تعافيه طويلة، مؤلمة، وملئية بالتردد. وفي رؤيا اقتراب من الموت، شعر يونغ بأنه يغادر الأرض، التي رآها أسفل منه وكأنها تبعد آلاف الأميال. شعر بالرضا لتركه «أوهام الوجود الأرضي بأكملها» تتلاشى. وكان على وشك الدخول إلى معبد حينما صعد إليه طبيبه القلبي، طافياً، وأبلغه أن هناك احتجاجاً على الأرض بشأن رحيله؛ وعليه أن يعود. (495) وعندما تُوفي طبيبه القلبي بعد فترة قصيرة من تعافى يونغ، شعر يونغ بأنها قد تبادلا حياتيهما بشكلٍ ما.

ترافقت أزمات يونغ الصحية، كما يحدث غالباً عند اقتراب الإنسان من تحوُّم الحياة والموت، مع أحداث تزامنية وأحلام متداخلة تخص طلابه والمحيطين به. أصيبت إحدى طالباته بنوبة إنفلونزا مروعة وكادت أن تفارق الحياة. وتعافت بعد أن ظهر لها يونغ في رؤيا وأبلغها بلهفة: «لقد قررت العودة إلى الأرض؛ عودي إلى جسدك بأسرع ما يمكنك». (496)

قرب نهاية مرضه، وجد يونغ ينبوعاً داخلياً من القبول العميق يتدفق داخله: «نعم» غير مشروطة لما هو كائن، واستعداداً لمتابعة رسالته دون أن يجعلها الشعور بالذنب أو الندم على أخطاء الماضي تحيد عن مسارها. وقد أعلن حينها، بنبرة قاطعة: «من يسلك

(494) Suzanne Gieser, *The Innermost Kernel: Depth Psychology and Quantum Physics* (Berlin: Springer Verlag, 2005), p. 21.

(495) Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, pp. 289–290.

(496) Barbara Hannah, *Jung, His Life and Work: A Biographical Memoir* (Boston: Shambhala, 1991), p. 278.

بعد أزمته القلبية، قدّم يونغ أعظم أعماله، بما في ذلك كتاب «سر الاتحاد» *Mysterium Coniunctionis*، الذي رأى هو وباولي معاً أنه أعظم ما أنجز، وكذلك النسخة النهائية من نظريته حول التزامنية. لكي يمهد الطريق لذلك، كان عليه أن يواجه أمراً أثقل قلبه بشدة: الشر النفسي الذي اجتاحت ألمانيا، ومسؤوليته الشخصية تجاهه.

تمسك يونغ بقوة، في نهاية الحرب العالمية الثانية، كما كان يفعل دائماً، بأن العمل من أجل التغيير الإيجابي يجب أن يُركّز على الفرد، لأن «سيكوباتولوجيا الجماهير متجذّرة في نفسية الفرد.»⁽⁴⁹⁸⁾ ومع ذلك، جذبه تفكير أعمق في أشكال الفكر الجماعي، وإمكانية أن تستحوذ قوى غير واعية على وعي جمعي كامل. وتذكّر أنه منذ عام 1918 كان قد لاحظ في أحلام مرضاه الألمان وشواغلهم «اضطرابات غريبة... لا يمكن أن تُنسب إلى سيكولوجيتهم الفردية.» وقد أدرك أنه «كان ثمة اضطراب في اللاوعي الجماعي لدى كل مريض ألماني تعاملت معه.» ورأى أن صعود هتلر لم يكن ممكناً لولا «ثورة قوى كانت كامنة في اللاوعي، مستعدة لاختراق جميع الحواجز الأخلاقية.»⁽⁴⁹⁹⁾

ومع تكشف أهوال النازية، خلّص يونغ إلى أن هتلر لم يكن فقط مُستحوذاً عليه بقوة مظلمة، بل إن العقل الجماعي للشعب الألماني بأسره كان قد استُحوذ عليه أيضاً. وكانت محاولته الأولى والجادة لتفسير ظاهرة *Ergriffenheit* – حالة «الاستحواذ» أو «الانجراف الروحي» – في مقال عام 1936 بعنوان «فوتان» (Wotan). وفيه يستخرج من الميثولوجيا الجرمانية صورة الصياد، المتجوّل، الجامح، الذي يستحوذ على عقول الرجال ويدفعهم إلى الجنون والانفلات العنيف. قال: «فوتان هو «مُستحوذ» على الرجال، وما لم يرغب المرء في تأليه هتلر – وهو ما حدث فعلاً – فإن فوتان هو

(497) Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, p. 297.

(498) Broadcast talk, 1946; published as an introduction in Jung, *Essays on Contemporary Events*, trans. R. F. C. Hull (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989), p. 1.

(499) *Ibid.*, p. 2.

بينما يحاول فهم طبيعة الشرّ النفسي الذي استحوذ على ألمانيا، يتخلى يونغ عن لغته التجريدية حول النماذج الأصلية، ويرتد إلى فهم أكثر بدائية، وهو أن هناك قوى تعمل في التاريخ وقد جرى التعرف عليها عبر العصور باعتبارها آلهة أو شياطين، وهذه القوى قد تكون ودودة أو معادية أو مؤذية للبشر الذين يتعاملون معها.

أنت ظِلِّي

لم يكن لدى باولي ميلٌ إلى السعادة. فعندما عاد إلى زيورخ وعمله في المعهد الفيدرالي للعلوم التطبيقية بعد هزيمة هتلر، كان أكثر تعاسة من المعتاد، محبطاً في زواجه الثاني وفي علاقاته مع النساء الأخريات، ومبتعداً عن عمله في الفيزياء، ومدفوعاً للسعي وراء «العمل الأهم» - أي توحيد الفيزياء وعلم النفس - لكنه عاجز عن إيجاد السبل.

ظهر له مستشارون في أحلامه، بأشكال مختلفة: كامرأة صينية غريبة، أو كرجل داكن البشرة، أو كرجل يجمع بين البشرة الداكنة والشعر الأشقر، أو كمدرس بيانو. حاول باولي أن يصنفهم حسب تصنيفات يونغ (الأنيمات (الذات الداخلية)، والظلّ، وغير ذلك)، لكنهم رفضوا أن يحملوا هذه المسميات.

في أحد أحلامه «الكبيرة»، يصل باولي إلى منزله القديم، ويجد شاباً داكن البشرة يدفع برسائل وقطعة خشبية دائرية إلى داخل المنزل عبر نافذة. يعرف باولي هذا الشاب من أحلام سابقة، ويظنه فارسياً. لقد رُفِضَ دخول هذا الفارسي إلى المكان الذي يعيش فيه باولي ويعمل.

باولي: «أليس مسموحاً لك بالدراسة؟»

الفارسي: «نعم، لذلك أدرس سرّاً.»

«ما الموضوع الذي تدرسه؟»

«أنت!»

يُصدم باولي، ويقول: «هل أنت ظلي؟»

«أنا بينك وبين النور، إذن أنت ظلي، لا العكس.»

«هل تدرس الفيزياء؟»

«في هذا لغتك صعبة عليّ للغاية، لكن بلغتي أنت لا تفهم الفيزياء.»

«ماذا تفعل هنا؟»

«أنا هنا لأساعدك.» ثم يعطيه الفارسي نصيحة شخصية: «أنت تظن أنك منخرط في علاقات مع عدة نساء، لكن في الحقيقة هناك واحدة فقط.» ويختم بملاحظة أن باولي ليس لديه كرسي في مكتبه؛ ويقول إنه سيجلب له كرسيًا.⁽⁵⁰¹⁾

في حلم آخر، يكون باولي مع زملائه في الطوابق العليا من منزل تُعقد فيه ندوة حول الفيزياء والرياضيات. ويكتشف أنه من المقرر أن يعطي درسًا في الطهي. تندلع النيران في غرفة مجاورة، فيهرب مذعورًا على الدرج. وعندما ينظر إلى الوراء، يرى أن الطوابق التي كان زملاؤه مجتمعين فيها قد احترقت بالكامل.

يمشي إلى مرآب حيث تنتظره سيارة أجرة. بينما يملأ السائق الخزان بالوقود، يدرك باولي أن ملامح السائق مألوفة؛ إنه «الغريب ذو النور والظلمة». ومع هذا الإدراك، يشعر باولي بالأمان، رغم أنه يشبه في أن السائق هو من أشعل النيران في مبنى الفيزياء. يقول السائق بصوت خافت: «الآن يمكننا التزود بالوقود، لأن النيران اشتعلت في الأعلى. سأوصلك إلى حيث تنتمي!»⁽⁵⁰²⁾

استيقظ باولي وهو يشعر بـ «ارتياح عظيم». ولاحقًا علّق على سائق التاكسي الذي قد يكون أيضًا الجاني: «هو ليس «ضد المسيح»، لكنه بطريقة ما «ضد العلم»، وهو

(501) Pauli dream of December 1947 in the archive of Aniela Jaffé at the Federal Polytechnic Institute, Zurich. Translation in van Erkelens, "Wolfgang Pauli's Dialogue with the Spirit of Matter," pp. 36–37.

(502) Van Erkelens, "Wolfgang Pauli's Dialogue," p. 39.

من سيشعل النيران في «الطريقة العلمية في التفكير كما تُدرّس اليوم في الجامعات والكليات. وإذا تجاهلته، سيلفت الانتباه إليه بأي وسيلة من وسائل، كأن يظهر في ظواهر تزامنية (وإن كان يُطلق عليها «نشاطاً إشعاعياً») أو حالات اكتئاب أو مشاعر غير مفهومة.» (503)

بينما كان معاصرو باولي في حياته العادية يعتبرونه عبقرياً في مجاله، كان الغريب الغامض في أحلامه يراه جاهلاً في الأمور الأهم. بدأ باولي يشعر بأن هذا الغريب لا يعمل فقط في أحلامه، بل أيضاً في دور المصادفات من حوله. كثيراً ما كان الغريب يدفعه نحو دراسات جديدة ودورٍ عامٍ جديد. مراراً وتكراراً، دُعي في أحلامه إلى كرسي جديد، وأستاذية جديدة، ودورة محاضرات جديدة لجمهور جديد.

وكانت «المرأة الداكنة الغامضة» التي كانت تظهر كثيراً في أحلام باولي، وتعرض عليه مجموعة من «الإغراءات الرمزية»، أكثر إثارة للاهتمام من الفارسي وسائق التاكسي الذي يجمع بين النور والظلمة. في أكثر صورها إغراءً، بدت صينية وتتحرك برشاقة حسية ملتوية كراقصة أفاعٍ. في أحد أحلامه «الكبيرة»، تنزع خاتماً من إصبعها وتتركه يطفو في الهواء. تسميه «الخاتم ت» يرمز، الرياضيات في «ت» للوحدة التخيلية، أو الجذر التربيعي لسالب واحد. (504)

أفعال الخلق في الزمن

استغرق يونغ أكثر من عشرين عاماً ليُخرج نظريته حول التزامنية (Synchronicity) بصيغة كان مستعداً لنشرها. وبينما كان يعمل على المسودة النهائية لبحثه، كان في الوقت ذاته ينحت وجه محتال ضاحك على الجدار الغربي لبرجه في قرية بولينغن. (505)

(503) Ibid., p. 40.

(504) Ibid., pp. 47–52.

(505) Marie-Louise von Franz, *C. G. Jung: His Myth in Our Time* (New York: G. P. Putnam's Sons, 1975).

في دراسة حديثة متميزة، تصف سوزان جيزر نظرية التزامنية لدى يونغ بأنها «وصيته الروحية»، وتعرفها كما يلي: «مبدأ التزامنية هو محاولة لتحديد عامل آخر، إلى جانب قانون السببية، ينظم عالم خبرتنا، عامل يركز على تجمّعات تحدث في نفس الوقت نسبيًا وتحمل سمة أو دلالة معينة.» (506)

ابتكار يونغ لمصطلح «التزامنية» يضع التركيز على التزامن في الزمن. فعندما ألقى يونغ كلمة التآين لريتشارد فيلهلم عام 1930، رفع من شأن الزمن إلى مستوى المحرك للترانسية؛ إذ وصف الزمن بأنه «استمرارية ملموسة تمتلك خصائص أو شروطًا أساسية يمكن أن تتجلى في أماكن مختلفة في الوقت ذاته، من خلال توازٍ لا سببي.» (507)

اعتقد باولي (وكذلك آرثر كوستلر) أن يونغ أخطأ في تسليط الضوء على جانب من المصادفة ينطبق فقط على بعض الحالات، وليس على العنصر الجوهرية. أما أنا فأرى أن المصادفة ذات الدلالة تتعلق بتقاطع قوى خارج الزمن مع عالم الزمن، مع «الطبقة التحتية» التي تكمن تحت، ووراء، أحداث حياتنا السطحية وتنبثق فجأة في مجال إدراكنا. وهذا بالتأكيد يخلق تجارب تزامنية. لكنه يمكن أيضًا أن يُنتج تسلسلات «متناغمة» تتكرر، في الحلم واليقظة، عبر أيام أو أسابيع أو سنوات.

وأثناء عمل يونغ على مسودات متتالية لنظريته عن التزامنية، كان باولي يحثه ويستفزه كما لو كان المحتال الضاحك المنحوت على الجدار في بولينغن. منذ البداية، كانت لدى باولي فكرة شخصية واضحة جدًا عما تنطوي عليه المصادفة ذات الدلالة. إنها تقاطع بين حالة داخلية – كأن تفكر في شخص ما أو تسترجع حلمًا – وحدث خارجي يرتبط بتلك الحالة. الحالة الداخلية والحدث الخارجي مرتبطان بالدلالة. أحيانًا تشعر كما لو أن العالم يعكس أفكارك أو يعلّق عليها.

شنّ باولي حملة طويلة لإقناع يونغ بالتخلي عن استخدام مصطلح «التزامنية» لصالح مصطلح يُشير إلى الارتباط بـ «الدلالة» لا بـ «الترافق الزمني». وكان سيصبح راضيًا

(506) Gieser, *Innermost Kernel*, p. 274.

(507) Jung, CW 15, par. 81.

بالعودة إلى مصطلح القرون الوسطى القديم «المراسلات» (Correspondentia). لم
لا نتحدث إذن عن «مراسلة ذات دلالة» أو «ارتباط دلالي»؟⁽⁵⁰⁸⁾

في أحلام باولي، التي كثيرًا ما كانت تجسد المصطلحات العلمية كرموز حيّة، شُجّع
على استبدال مصطلح «التزامنية» بمصطلحات حديثة. ماذا عن «التماثل الشكلي»
(Isomorphy)؟ اقترح باولي هذا على يونغ بعد أن أُبلغ في حلم بأن «الكاتدرائيات
ينبغي أن تُبنى من أجل التماثل الشكلي». ⁽⁵⁰⁹⁾ في السياق غير الرياضي، يشير التماثل
الشكلي إلى الشكل نفسه الذي يعاود الظهور في بنى أو مواد مختلفة. لم يقتنع يونغ به،
ومن المستبعد أن يلقي رواجًا في وقتنا الحاضر.

كان باولي يلحّ باستمرار على يونغ لتوضيح الفرق بين ظاهرة المصادفة التلقائية
والظاهرة «المُستَحْتة»، كما ينتج في طرائق العرافة مثل كتاب «آي جنغ»
(التغيرات). ⁽⁵¹⁰⁾ وكان هذا التمييز محوريًا عند القدماء، وهو ما كان يونغ مدرّكًا له
تمامًا.

طوال نقاشاتها حول التزامنية، أظهر باولي خصالًا جعلت الكثير من زملائه
يغفرون له حدّته، بل إن بعضهم لقّبه بـ «ضمير الفيزياء»: النزاهة العلمية، ورفضه التام
لتحمل أي هراء من أي شخص، وحرصه على توضيح الأمور. أمثاله هم حجر
الأساس في تقدم العلم، وكان باولي ذا أهمية حيوية ليونغ. فقد كان يُمطره بالأسئلة
حول كل مصطلح وكل تعريف. ومن المدهش أن يونغ تحمّله.

عبر باولي عن رضاه، بعد قراءته نسخة شبه نهائية من ورقة يونغ البحثية حول
التزامنية، عن اتفاقهما التام بشأن «ضرورة وجود مبدأ إضافي لتفسير الطبيعة غير مبدأ
السببية». ⁽⁵¹¹⁾ وكان الإجماع الناشئ يتمثل في الآتي: في إدراكنا للعالم، نواجه أحداثًا
مرتبطة بالسببية، وأخرى مرتبطة بالدلالة. قد تُشبه هذه الثنائية علاقة الموجة/الجسيم

(508) Meier, *Atom and Archetype*, p. 44.

(509) Ibid., p. 69.

(510) Ibid., p. 44.

(511) Ibid., p. 53.

في فيزياء الكم؛ فإذا لم تنتظر، فهي موجة، وإذا نظرت، تصبح جسيماً.

كان باولي يعتنق موقف عدم اليقين الكمي - أن وجود المراقب يغيّر ما يُلاحظ - وأضاف أنه لكي نعرف «أي جانب من الطبيعة نريد إظهاره... فإننا نضحّي بشيء في المقابل». باختيار حدث، نضحّي بآخر. (512)

ولذلك فإنه، على المستويات الكمية، يُقال إن فعل الملاحظة هو الذي يستدعي حدثاً معيناً من تنوع هائل من الاحتمالات اللامحدودة إلى حيز الظهور. فماذا لو أن هذا «تأثير المراقب» يعمل على مستوى الإنسان، لا فقط في حزم الطاقة الصغيرة التي لا نراها؟ كيف سيكون ذلك؟ ربما يحدث طوال الوقت، ولا نلاحظه إلا حين نندهش من «مصادفة مذهلة»: أشياء تتقاطع بطريقة ذات مغزى لا يمكن تفسيرها إلا عبر فعل الملاحظة.

وتقول بيفرلي زابريسكي إن ظاهرة التزامنية تعتمد على «وضع نموذجي مثار لدى المراقب»، وتتمحور حول التقاء الأحداث الداخلية والخارجية. وقد تمتع شعوراً بالمشاركة في «أفعال خلق في الزمن». (513) ومن المثير التكهّن بما إذا كانت تجربة المصادفة ذات الدلالة يمكن أن تكون أيضاً جزءاً من «فعل خلق زمني» في العالم الخارجي، كما هي في الداخلي، عبر انتقاء حدث معين من موجة الاحتمالات الكمية وجعله يتجلى في الواقع.

امرأة باولي الصينية

إنها امرأة غامضة، مثيرة، تنتمي إلى عالم غريب، وربما تكون صينية. تغري باولي وتحثه على تجاوز الدائرة المألوفة لمعتقداته المعتادة. إنها «نفسية وجسدية في آن واحد»، كما يقول يونغ؛ وقد ظهرت لباولي في البداية في أحلامه كـ «حاملة لأسرار نفسية-

(512) Werner Heisenberg, *Across the Frontiers*, trans. Peter Heath (New York: Harper, 1974), pp. 35-36.

(513) Zabriskie, "Jung and Pauli," p. xxxix.

جسدية، تتراوح بين الجنسية والظواهر الحدسية الدقيقة».⁽⁵¹⁴⁾ إنها «ترى روابط لا علاقة لها بالزمن التقليدي».

إنها نابضة بالحياة بكل طاقتها. ويرجو باولي أن تؤول العلاقة إلى «زواج مقدس» (Hieros Gamos).⁽⁵¹⁵⁾ لكن هذا لن يتحقق ما لم يتجاوز أنماط تفكيره المعتادة.

في حلم في عام 1952، تسير المرأة الصينية أمامه وتدعوه لاتباعها. تفتح بابًا سرّيًا وتهبط على الدَرَج، تاركة الباب مفتوحًا خلفها. تتحرك كراقصة؛ تحمل معانيها في حركتها. يتبعها باولي ويكتشف أن الدَرَج يقوده إلى قاعة محاضرات ينتظره فيها جمع من الغرباء. تشير إليه المرأة أن يصعد إلى المنصة ويتحدث. «تعود لترقص إيقاعيًا صعودًا على الدَرَج، عبر الباب المفتوح إلى الهواء الطلق، ثم تهبط من جديد... ويتضاءل الفرق بين الطابقين بطريقة «سحرية»».⁽⁵¹⁶⁾ وعند عودتها، تبقى ذراعها اليسرى مرفوعة مع إصبعها السبابة نحو الأعلى، والذراع اليمنى وإصبعها السبابة يشيران إلى الأسفل. وتواصل حركتها الدائرية الإيقاعية. ويقرر باولي أن في هذه الحركة الدائرية تكمن وحدة النفس والمادة التي يسعى إليها.

يتساءل باولي إن كانت روح كتاب «آي جنغ» (التغيرات) قد تجسدت فيها. أما يونغ، وكما هو متوقع، فيراها «أنيمًا» الحالم. وربما كانت أيضًا تلك العاملة الصينية في جامعة كولومبيا التي فجّرت لاحقًا، بتجاربها الأملعية، واحدة من ركائز الإيمان العلمي لدى باولي.

في نوفمبر 1954، حلم باولي بأنه في غرفة مع «المرأة الداكنة الغامضة». وكانت تُجرى فيها تجارب تنتج فيها «انعكاسات». بينما كان الآخرون يرون هذه الانعكاسات أشياء حقيقية، كان باولي والمرأة يعلمان أنها ليست سوى صور مرآة. يصبح هذا «سرًا» خاصًا بينهما، لكنه سرٌّ ملأ باولي بالخوف والقلق.⁽⁵¹⁷⁾ بعد شهرين، حلّم باولي بأن

(514) Meier, *Atom and Archetype*, p. 88.

(515) Ibid., p. 91.

(516) Ibid., p. 89.

(517) Ibid., p. 162.

«المرأة الصينية» أنجبت طفلاً، «لكن الناس رفضوا الاعتراف به».⁽⁵¹⁸⁾

وقد يكون هذا الحلم حول تجارب الانعكاس قد أَعَدَّ باولي لاكتشاف علمي هزّه من الأعماق. فقد تعلق الاكتشاف بتحدي مبدأ حفظ التناظر، الذي كان باولي يفضل تسميته «التماثل المرآوي» (Spiegelung). وكان من المُسلّم به عمومًا أن قوانين الطبيعة تُظهِر تناظرًا تامًّا؛ كما في الانعكاسات: عندما يتحول اليسار إلى يمين، أو الشحنة الموجبة إلى سالبة. وكان باولي من أشد المدافعين عن هذا التناظر. وما كان لافتًا أن فريقًا من العلماء الصينيين هو الذي أجرى التجارب التي أثبتت أن الكون ليس متماثلًا تمامًا؛ فهو يميل قليلًا إلى تفضيل الجانب الأيسر.

اقتُرِحَت التجارب في عام 1956 من قِبَل اثنين من الفيزيائيين النظريين الشباب، هما تَشْن نينغ يانغ وتسونغ داو لي، اللذين قَدَمَا إلى الولايات المتحدة خلال الاحتلال الياباني للصين. وخلال غداء في مقهى «وايت روز» في نيويورك، استقطبا عالمة فيزياء لامعة تعمل في جامعة كولومبيا لتصميم تجربة تختبر نظريتهما. كانت تُدعى تشيان شيونغ وو، وكانت خبيرة في التحلل الإشعاعي بيتا. تحمّست كثيرًا للمشروع لدرجة أنها ألغت رحلة عاطفية كانت تخطط للقيام بها إلى الصين مع زوجها بمناسبة الذكرى العشرين لهجرتها، رغم أنها كانا قد حجزا بالفعل مقصورتها على متن سفينة «كوين إيزابيث».⁽⁵¹⁹⁾ أنشأت وو تجربة تعتمد على التحلل الإشعاعي لعنصر الكوبالت 60، والتي أثبتت في أوائل عام 1957 أن مبدأ التناظر – أي سلوك نظام فيزيائي عند انعكاسه مكانيًا أو عكس إحداثياته المكانية – لا يُحْفَظ في التفاعلات الضعيفة، وهي القوى المرتبطة بالتحلل الإشعاعي. أما في الجاذبية والكهرومغناطيسية والتفاعلات القوية (التي تربط أنوية الذرات بعضها ببعض)، فإن التناظر يُحْفَظ، لكن ليس في هذا السياق.

(518) "Afterward (January 1955), I dreamed that 'the Chinese woman had a child' but 'the people' refused to acknowledge it." Ibid., p. 163.

(519) Andrzej K. Wroblewski, "The Downfall of Parity – the Revolution that Happened Fifty Years Ago," *Acta Physica Polonica* 39, no. 2 (2008): 257.

وقد تجلّى ما يُعرف بـ «تأثير باولي» على المستوى الإنساني في جامعة برينستون عندما قاطع باولي محاضرةً لتشن نينغ يانغ، وسأله بانفعال: «ما كتلة هذا الجسم؟» أجاب يانغ أنه لم يحصل بعد على إجابة حاسمة (وهو أمر مألوف في فيزياء الجسيمات). فزجر باولي: «هذا ليس عذرًا كافيًا!» وقد أذهلت هذه الصيحة يانغ إلى درجة أنه اضطر إلى إيقاف محاضراته والجلوس ليلتقط أنفاسه ويهدأ. وفي اليوم التالي، وجد يانغ رسالة من باولي في صندوق بريده كتب فيها: «يؤسفني أنك جعلت من المستحيل تقريبًا أن أتحدث إليك بعد الحلقة الدراسية.» (520)

تقبل باولي في النهاية أن «الثورة الصينية» في الفيزياء قد نجحت؛ فالكون ليس متناظرًا تمامًا. وفي آخر رسالة بقيت من باولي إلى يونغ، في صيف عام 1957، كتب: «الكائن أعسر ضعيف، في نهاية المطاف.» واعترف بأن هذا الاكتشاف جاءه كـ «صدمة» هائلة؛ إذ شعر بـ «قلق شديد وتَصَرَّفَ بشكل غير عقلائي لفترة من الزمن». لم يكن باولي يطيق أن يُهرَمَ في مناظرة علمية. لكن كان هناك شيء أعمق يحدث هنا. فقد كانت ردّة فعله العنيفة تجاه خرق مبدأ التناظر تُذكر بحساسية أينشتاين تجاه بعض جوانب ميكانيكا الكم (والتي جعلته يصيح: «القوي التمكن لا يلعب النرد بالكون!»). قد يساعد الاختلال الجامح في الحياة العاطفية والنفسية لباولي في تفسير تمسّكه اليائس برؤية كون متوازن تمامًا، حيث بين ويانغ، ظلمة ونور، كلاهما يرقص ويتناوب في تناغم. وقد أشار يونغ إليه لاحقًا: «ذاتك الداخلية كانت بالفعل تفوح منها رائحة اللاتناظر» قبل أن يُثبت ذلك علميًا. (521) لكن باولي كان على وشك أن يكتشف أن «المرأة الصينية» في أحلامه كانت أكثر من مجرد صورة أنثوية من لا وعيه الشخصي حسب تحليل يونغ. لقد كانت تملك جسدًا حقيقيًا، واسمًا، وأصبحت تُعرف لاحقًا كواحدة من أعظم علماء الفيزياء التجريبية في العالم.

لقد تحقق حلم باولي بأن «المرأة الصينية» أنجبت طفلًا لم يُعترف به في نهاية نوفمبر

(520) Ed Regis, *Who Got Einstein's Office?* (Cambridge, MA: Perseus Publishing, 1987), p. 196.

(521) Meier, *Atom and Archetype*, p. 168.

1957، عندما قَبِلَ يانغ ولي جائزة نوبل في الفيزياء عن عملها بشأن عدم حفظ التناظر. أما عالمة الصينية التي أجرت التجارب التي أكدت نظريتهما، فقد تجاهلتهما لجنة نوبل. لم يُعترف بوليدها. وكما في أحلام باولي، كانت هذه المرأة جذابة للغاية؛ بل إنه عندما وصلت لأول مرة إلى جامعة أمريكية (جامعة كاليفورنيا، بيركلي) من شنغهاي، كانت «واحدة من أكثر الطالبات إثارة للاهتمام وتعرضًا للملاحقة في الحرم الجامعي».⁽⁵²²⁾ من الواضح أن باولي بحلمه قد استبق الأحداث قبل وقوعها بثلاث سنوات.

وقد انتهت مراسلات باولي و يونغ فجأة قبل هذا الحدث. وربما دفعه ذلك إلى إعادة تقييم دقيقة لنقاط القوة والقصور في المنهج الذي شجعه يونغ على اتباعه في تفسير الأحلام. ولو أدرك باولي أن «المرأة الصينية» كانت أكثر من مجرد صورة «أنثى» من لا وعيه، لربما كان استعد بشكل أفضل للثورة الجديدة في الفيزياء.

إن قصة «المرأة الصينية» في حياة باولي، «مذهلة» كما كان مارك توين سيقول. يتعزز الشعور بأن حلمًا قد امتد إلى حياة اليقظة بواسطة الأسماء والأماكن في القصة الواقعية: مقهى «وايت روز»، وسفينة متجهة ببطء إلى الصين، وما إلى ذلك. وتسلط هذه الحكاية ضوءًا باردًا وواضحًا على خلل قاتل في منهج يونغ تجاه الأحلام: قراره بإهمال المحتوى الحرفي والاستباقي للأحلام. لقد صاغ يونغ هذا المبدأ في وقت مبكر من مسيرته، وحتى في نسخته المعدلة، لا يزال يُحسُّ فيه تأثير فرويد: «أحد المبادئ الأساسية في علم النفس التحليلي هو أن صور الأحلام يجب فهمها رمزيًا؛ أي أنه لا يجب أخذها حرفيًا، بل يجب أن نستنتج معنى خفيًا فيها».⁽⁵²³⁾

لكن، ماذا عن القدماء الذين أحبهم يونغ بشدة وقرأ لهم بتعمق، والذين كانت تأويلات الأحلام عندهم تدور «غالبًا» حول قراءة المستقبل؟ كتب يونغ: «من منظور الإنسان الحديث، من الصعب تصوّر أن إلهًا موجودًا خارج ذواتنا قد يكون هو من

(522) Krishna Myneni, "Symmetry Destroyed: The Failure of Parity" (1984), online at <http://ccweb.org/documents/parity/parity.html#Madame%20Wu>.

(523) Jung, "Two Kinds of Thinking," in CW 5, par. 7.

يسبب لنا الأحلام، أو أن الحلم يتكهن بالمستقبل بطريقة تنبئية. لكن إذا ترجمنا هذا إلى لغة علم النفس، فإن الفكرة القديمة تُصبح أكثر قابلية للفهم. يمكننا أن نقول إن الحلم ينشأ من جزء مجهول من النفس ويهيئ الحالم لأحداث اليوم التالي.» (524) تتضمن الجملة الأخيرة إقراراً بأن الأحلام يمكن أن تجهزنا للأحداث المستقبلية، لكنه اعتراف متحفظ ومحدود جداً.

وقد تغير موقف يونغ قليلاً عندما كتب في رسالة عام 1947: «لا يمكن التعرف إلى الأحلام الاستباقية والتحقق منها إلا بعد وقوع الحدث المتوقع. بخلاف ذلك، تسود أعظم درجات عدم اليقين. كما أن مثل هذه الأحلام نادر نسبياً. لذلك لا جدوى من البحث في الأحلام عن أهميتها المستقبلية. فالناس عادةً يخطئون في تفسيرها.» (525) ها هو يعترف الآن بأن الاستبصار بالأحلام حقيقة واقعة، لكنه ينصح بتجاهله لأنه «نادر» ولأن الناس عادةً ما يخطئون في فهمه. ويبقى لنا أن نتساءل: كم من الرسائل بشأن المستقبل ربما تكون قد فاتت يونغ – وباولي أيضاً، إلى الحد الذي التزم فيه بمنهج يونغ – بسبب اتباعهما لهذا الأسلوب في التفكير؟ لقد شُخصَ المرض الذي قَتَلَ باولي قبل أقل من أسبوعين من وفاته. أليس من المحتمل أن أحلامه كانت تحذّره منذ وقت طويل؟ (526)

ثوابت الموت والمراسلات

في عام 1958، أصيب باولي بسرطان البنكرياس، وأُدخل إلى مستشفى الصليب الأحمر في زيورخ في الخامس من ديسمبر. لفت انتباهه رقم الغرفة التي نُقل إليها: 137. فمنذ كان في الدراسات العليا مع زميله زومرفيلد في ميونيخ، كان باولي مشغولاً بسؤالٍ

(524) Ibid.

(525) Jung, *Letters*, 1:460–461.

(526) To answer this question, it would be necessary to examine the mine of unpublished Pauli correspondence and papers in the archives of CERN (European Organization for Nuclear Research) and the Federal Polytechnic Institute, Zurich, from an angle different from that of investigators who have focused on Pauli's science or the Jungian approach.

محوري: لماذا للثابت البنيوي الدقيق (fine-structure constant)، وهو ثابت بلا أبعاد يحدد قوة التفاعل الكهرومغناطيسي، قيمة تقترب من $\frac{1}{137}$ ؟ وكان صديقه فيرنر هايزنبرغ يقول إن مشاكل نظرية الكم لن تُحلَّ إلا عندما يُفسَّر العدد 137.

بعد وفاة باولي، وبينما كان يونغ يشارف على الوفاة، عاد يتأمل في كتاب «آي جِنغ» كنموذج لفهم كون التزامنية، ولاستحضار حلم حسي والدخول فيه. قال: «يتألف كتاب «آي جِنغ» من نماذج أولية قابلة للقراءة، وغالبًا ما يُقدَّم صورةً ليس فقط عن الوضع الراهن بل عن المستقبل أيضًا، تمامًا كالأحلام. يمكن حتى تعريف نبوءة «آي جِنغ» بأنها حلم تجريبي، تمامًا كما يمكن تعريف الحلم كتجربة ذات طبيعة رباعية الأبعاد. لم أحاول يومًا أن أصف هذا الجانب من الأحلام، ناهيك عن الرموز السداسية، لأنني وجدت أن جمهورنا اليوم عاجز عن الفهم.»⁽⁵²⁷⁾ ندرك من خلال هذه الكلمات أن يونغ شعر بأنه ترك الكثير جدًا مما لم يقله عن طبيعة الواقع، رغم غزارة ما نشره.

لم تكن «مراسلات الموت» غريبةً عن يونغ. فبعد وفاة زوجته إيبا، وفي موجة برد قارسة، نزت الكرمة التي فوق الباب الأمامي لبرجه في بولينغن سائلًا أحمر غريبًا سال على شعاره؛ فشعر وكأن الكرمة تبكي دمعةً من دم.⁽⁵²⁸⁾

وقبيل وفاته، حلم يونغ بـ «بولينغن الأخرى»، المناظر في عالم آخر للملاذ الذي بناه بيديه. كان المكان مشبعًا بضوءٍ بلا مصدر. وأخبره الصوت العميق الذي وثَّق به طوال حياته أن بيته الجديد قد اكتمل، وحن وقت انتقاله إليه. وتحت البرج، رأى أنثى حيوان الشَّره تعلم صغيرها كيف يغطس ويعوم في مياه متلائة.⁽⁵²⁹⁾

توفي يونغ في الساعة الثالثة إلا ربعًا عصر يوم السادس من يونيو عام 1961. وبعد ساعتين فقط من وفاته، ضرب البرق شجرة حور عجوز في الحديقة التي كان يراقب منها تقلبات مزاج البحيرة. بقيت الشجرة واقفة، لكنها كانت ميتة عمليًا، فقد جُردت

(527) Jung, *Letters*, 2:584.

(528) Hannah, *Jung, His Life and Work*, p. 329.

(529) *Ibid.*, p. 344.

تمامًا من لحائها، وتبعثرت شرائح اللحاء في الحديقة. من عرفوا بالأمر أحسوا بدور التزامنية في الشجرة التي ضربها البرق.⁽⁵³⁰⁾ وربما كان يونغ سيرى في هذا رمزية أعمق. ففي آخر حلم سُجِّلَ له، رأى غابةً من الأشجار، «جذورها ليفية، تصعد من الأرض وتحاصره»، وتتخلل الجذور خيوطٌ ذهبية.⁽⁵³¹⁾ وكان قد كتب أن حياتنا الحقيقية «غير مرئية، مخفية في الجذر (rhizome)»؛ وأن ما نراه في الورقة واللحاء والزهرة عابر. تحت تدفق حياتنا السطحية، يظل الجذر قائمًا.⁽⁵³²⁾ لقد جرّد البرق الشجرة من لحائها، وجرّد الموت جسد يونغ من روحه؛ لكن الحياة استمرت، متجذرةً في عالم غير مرئي.

(530) Ibid., p. 348.

(531) Miguel Serrano, *C. G. Jung and Hermann Hesse: A Record of Two Friendships* (New York: Schocken Books, 1966), pp. 105–106.

(532) Jung, *Memories, Dreams, Reflections*, p. 314.

الفصل الثاني عشر

آلات زمن ونستون تشرشل

الفكرة المسيطرة على تشرشل، والركيزة الأساسية التي تنظم عالمه الأخلاقي والعقلي، هي مخيلته التاريخية بالغة السطوة؛ مخيلة شديدة الاتساع والعمق، قادرة على احتواء الحاضر بأكمله، والمستقبل كله، داخل إطار من الماضي ثري ومتعدد الأبعاد والألوان.

— آيزايا برلين، «السيد تشرشل في عام 1940»

ليس كافيًا أن تبذل قصارى جهدك. لا بد أن نحقق ما يجب تحقيقه.

— ونستون تشرشل

ويلز نبي من نوع خاص، وكتابه «آلة الزمن» تحفة رائعة... هو من تلك الكتب التي وددت لو أمكنتني اصطحابها معي حتى إلى «المطهر»⁽⁵³³⁾

— ونستون إس. تشرشل، 7 ديسمبر 1947،

كما ورد في مذكرات طبيبه الشخصي، اللورد موران

إنه شهر نوفمبر الكثيب، حيث يخيم ضباب رمادي باهت على الحدائق، كغسيل

(533) المطهر هو ذلك البرزخ الروحي الذي يُطهر فيه الإنسان نفسه قبل نيل الخلاص. (المترجم)

مبلل معلق على الجبال في هواء بارد. في الداخل، ينكب الرسام على لوحته تحت ضوء النهار الساطع الذي يتسلل عبر النافذة، مسلطاً بريقه على موضوعه: صورة متضررة لوالده، كانت قد أُنجزت في الأصل بناءً على طلب نادٍ سياسي في أيرلندا. لكن الصورة الأصلية تعرضت للتمزق والتشقق.

يصنع الرسام الآن نسخة منها.

رسم الوجوه ليس مجاله، ومع انشغاله الشديد بمحاولة إتقان تفاصيل هذه اللوحة، نسي تمامًا السيجار الكبير الذي يعصّه بين أسنانه. لقد انطفأ دون أن يلاحظ. ولكن ثمة شيء ناقص في الصورة التي ينسخها. في الحقيقة، لا يخلو أي بورتريه من نقصٍ ما. لكن ما الذي ينقص هذه اللوحة؟ هل هو ذلك الوميض اللامع الممزوج بشيء من الجنون في عيني والده؟ كلا، ليس الجنون. يطرد الرسام تلك الفكرة القاسية من ذهنه بعزم. إنه يختار أن يتذكر الأيام الطيبة، حين كان والده يشع ذكاءً وحكمة، ويزهو بحبٍّ للحياة لا يُحطّئه أحد. وخاصة ذلك اليوم البعيد في الطفولة... حين جلس والده معه على الأرض، وساعده في نشر جيوشه الصغيرة على سجادة الغرفة، يحاكيان معًا معركة في سهول فلاندرز.

تتجول عينا الرسام بين النسخة والصورة الأصلية. ثم يستدير، حاملاً لوح الألوان، ليتأمل انعكاس النسخة الأخرى في مرآة طويلة خلفه. إذا وقف في مكان معين، تبدى له النسخة غير المكتملة لوجه والده وسط بقع الطلاء الرطب. أما إذا تحرك قليلاً، تظهر له الصورة الأصلية بملاحظتها العتيقة، معكوسة في المرآة.

لكنه يظل في مكانه دون أن يتحرك، لأن والده يبدو وكأنه يراقبه ويستعد لإشعال سيجارته. بحركات مريحة ومعتادة، يقوم اللورد راندولف بحشو قطعة صغيرة من القطن داخل حامل السيجارة المصنوع من الكهرمان. يتذكر الرسام في هذه اللحظة أن والده كان يعتقد أنه يستطيع التخلص من العنصر الضار في النيكوتين بهذه الطريقة عبر صنع مرشح بسيط.

يبدو اللورد راندولف شابًا وأنيقًا.

لكن ثمة خطأ ما في اللوحة. يدرك أن الخطأ يكمن في الشارب؛ فالفنان المستأجر فشل في التقاط تلك اللمسة الأنيقة المميزة. يعود الرسام إلى لوحته ويبدأ بإضافة اللمسة الصحيحة.

لا يدرك الرسام تمامًا أن الصورة الجديدة لوالده ليست خيالاً ولّده انهماكه في العمل إلا عندما تصل إلى أنفه رائحة تبغ فيرجينيا؛ تلك الرائحة التي تختلف تمامًا عن العمق الرطب لدخان سيجاره الكوبي.

يدور بجسده مرة أخرى، وهذه المرة يوقن أن هذا اللورد راندولف ليس مجرد خداع من صنع المرأة. لو أنه كان في المرأة، فقد تجاوزها إلى الجانب الآخر؛ فهو الآن يجلس على الكرسي ذي التنجيد الأحمر، في الجانب الأقرب من المرأة.

«أهذا أنت يا ونستون؟ يا للهول، يا فتى، كيف أصبحت بهذا العمر والبدانة؟»

«إنه الزمن يا أبي.»

«ما العام الآن؟»

«عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعون.»

«من العصر المسيحي، على ما أظن.»

«نعم يا أبي. هذا هو الحال. على الأقل لا يزالون يعدّون بهذه الطريقة.»

«لا أتذكر أي شيء منذ — دعني أتذكر — منذ عام أربعة وتسعين. كنت مرتبكًا جدًا حينها. والآن يبدو أنني فقدت أكثر من خمسين عامًا. يجب أن تخبرني بكل شيء على الفور. لا بد أن هناك أعمالًا يجب إنجازها. ولكن انتظر؛ ما الذي تفعله يا ونستون؟» إذ لاحظ اللورد راندولف لوح الألوان وحامل اللوحات.

«أنا أنسخ صورتك الشخصية يا أبي، تلك التي رُسمت لك عندما ذهبت إلى أولستر.»

«أنت رسام؟ ما كنت لأصدق ذلك أبدًا.»

«أفعل ذلك فقط للترفيه.»

«إذا كيف تكسب قوتك؟»

«أكتب مقالات للصحف - يدفعون لي جيدًا - وأحيانًا أؤلف كتابًا أو اثنين.»

«لا عيب في ذلك يا ونستون.»

وفقًا لروايته الخاصة (والتي تتبعها هذه النسخة عن كُتب)، تلقى ونستون تشرشل زيارة من والده الراحل، اللورد راندولف تشرشل، في عام 1947، أي بعد أكثر من نصف قرن على وفاة راندولف. كان ونستون آنذاك في أوائل السبعينيات من عمره، وقد جاءت مكافأته على قيادته البارزة خلال الحرب في شكل هزيمة ساحقة لحزبه وسياساته في أول انتخابات عامة بعد الحرب. وفي حديثه مع والده الذي تلا ذلك، شرع تشرشل في تقديم وصف ساخر لكيفية عمل الديمقراطية وسط الاضطرابات التاريخية الكبرى، معبرًا عن رؤيته بأن «الديمقراطية هي أسوأ نظام سياسي على الإطلاق، باستثناء جميع الأنظمة الأخرى». وعندما سأله اللورد راندولف عما إذا كانت هناك حرب، أجاب ونستون: «لم نشهد سوى الحروب منذ أن تولت الديمقراطية زمام الأمور». ومع ذلك، لم يكشف ونستون خلال هذا الحوار أنه لعب دورًا أكبر من مجرد مراقب في هذه الأحداث العظيمة.

استخدام الحيلة الأدبية المتمثلة في تقديم قصة أخلاقية (أو حتى غير أخلاقية) ضمن إطار حلم مُخلَق هو أسلوب قديم، وكان تشرشل بلا شك على دراية به. قد نستنتج أن حلمه بوالده كان مجرد حيلة أدبية من هذا النوع، لولا الأجواء الخاصة جدًا التي تحيط بهذه المقالة غير المعروفة كثيرًا. أطلق تشرشل عليها اسم «مقالة خاصة» وأصدر أوامر صارمة إلى سكرتيره بعدم عرضها أو نشرها إلا بعد وفاته. وقد أُعيد تسميتها إلى «الحلم» ونُشرت لأول مرة بعد وفاته بعام في صحيفة «صنڊاي تلغراف»⁽⁵³⁴⁾.

(534) "The Dream," was first published in the Sunday Telegraph, January 30, 1966. It was reprinted in The Collected Essays of Sir Winston Churchill, ed. Michael Wolff (London: Library of Imperial History, 1976), 4:504–11. A handsome stand-alone edition was published in 2005 by Levenger Press.

روى ابن ونستون، راندولف، للصحيفة أنه سمع هذه القصة لأول مرة على مائدة العشاء العائلية، عندما سألت شقيقته عن الشخصية التي يرغب تشرشل في رؤيتها جالسة على الكرسي المقابل أكثر من غيرها. أجاب تشرشل دون تردد: «والدي، بالطبع.» ثم شرع في وصف زيارة لورد راندولف. وأضاف: «لم يكن واضحًا ما إذا كان يسترجع حلمًا أم يطور فكرة خيالية خطرت بباله في وقت سابق. لكن هذا كان أصل القصة.»⁽⁵³⁵⁾

تحمل القصة أبعادًا شخصية عميقة؛ فقد كان لورد راندولف، الذي توفي في سن مبكرة وبشكل مأساوي، يقلل باستمرار من قدرات ابنه. لم تكن هذه المحادثة بين تشرشل وإحدى الشخصيات من الماضي هي الوحيدة، لكنها الوحيدة التي وصفها بالتفصيل. فقد حلم تشرشل أيضًا بجده جون تشرشل، دوق مارلبورو، الذي حقق نصرًا شهيرًا على الفرنسيين في معركة بلينهايم عام 1704. وفي عام 1955، أخبر طبيبه أنه حلم بـ «حلم مثير للاهتمام» تحدث فيه مع السير إدوارد جراي، الذي كان وزير الخارجية البريطاني من 1906 إلى 1915، قائلًا: «لقد مر على ذلك أربعين عامًا»، و«كانت محادثة طويلة.»⁽⁵³⁶⁾

في مرسوم الرسام، أخرج اللورد راندولف علبة الكبريت الفضية المعلقة بسلسلة ساعته ليشعل سيجارته. لاحظ ونستون أن سلسلة والده مطابقة تمامًا لتلك التي يرتديها هو نفسه. شعر بإحساس من الرهبة الغامضة. فرك فرشاته في الطلاء الموجود على لوح الألوان للتأكد من أن كل شيء حقيقي. «مع ذلك، شعرت بقشعريرة.»⁽⁵³⁷⁾

تأتي الحقيقة مع قشعريرة. في هذه اللحظة، أي شك في أن رواية تشرشل عن زيارة والده هي مجرد فكرة متخيلة يتبدد تمامًا. ساعة الجيب المعلقة في نهاية السلسلة تشير إلى شيء أعمق بكثير: مرونة الزمن وتشابكه، وإمكانية السفر عبر الزمن، ووجود عوالم

(535) Randolph Churchill, "How He Came to Write It," Sunday Telegraph, January 30, 1966.

(536) Lord [Charles] Moran, Churchill: Taken from the Diaries of Lord Moran (Boston: Houghton Mifflin, 1966), p. 723.

(537) The Dream (Delray Beach, FL: Levenson Press, 2005), p. 47.

موازية في أزمنة متزامنة، وهي موضوعات لطالما أثارت اهتمام تشرشل. بعد هذه الزيارة، أخبر تشرشل مساعده المقرب وسكرتيه الخاص، السير جون («جوك») كولفيل، أنه سيموت في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده، الرابع والعشرين من يناير؛ وهو توقع تحقق بعد سنوات عديدة، في عام 1965.

إن تشرشل، الذي يمحو نفسه من سجل التاريخ العالمي في حوار مؤثر مع والده الراحل، ليس هو نفسه رجل الأفعال الذي عرفه العالم؛ ذلك الطامح الجسور، الذي أذهلت مغامراته محبيه وأربكت منتقديه على مدار أكثر من نصف القرن العشرين. إنه، بلا شك، يختلف عن تشرشل الذي وصفه الصحفي الليبرالي آلان جاردنر، عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، بأنه «رجل أفعال خالص، جندي مغامر يعيش من أجل المغامرة، ويجب القتال أكثر من القضية».⁽⁵³⁸⁾ أما تشرشل في قصة «الحلم»، فهو رجل عجوز، يواجه جسده المُنهك، ويدرك بقسوة اقتراب أجله. ورغم ذلك، لا يزال يسكنه ذلك الدافع القديم، الذي لازمه منذ شبابه المبكر: الرغبة العميقة في معرفة والده؛ ذلك الأب الذي أهمله، ثم غيَّبه الموت مبكرًا، قبل أن يبدأ ونستون في ترك أثره في العالم. وتلَمَّح هذه القصة المتأخرة إلى خيط خفي يسري في مجرى حياة تشرشل. فخلف كل ذلك الصخب والحركة والدراما، يكمن عقل واثق في رحاب الخيال، مستقر فيه كأنه هو موطنه الأصلي، قادر على أن يستخرج منه مواهب استثنائية.

نقاط العقيق الحادة للقدر

كما يلاحظ بول أديسون، فقد كانت مسيرة تشرشل «حافلة بالصعود والهبوط».⁽⁵³⁹⁾ وكان أطول انحدار عرفه في حياته السياسية هو الخطأ المأساوي في حملة جاليبولي عام 1915، في حين جاء أعظم صعود في حظوظه بتعيينه رئيسًا للوزراء في زمن الحرب، وهو في الخامسة والستين من عمره. قضى تشرشل أعوامًا مهمشة من

538) A. G. Gardiner, *Pillars of Society* (London: James Nisbert, 1913), p. 63.

539) Paul Addison, "The Three Careers of Winston Churchill," *Transactions of the Royal Historical Society* 11 (2001): 184.

حياته، يُقال عنه فيها إنه انتهى، إنه فاشل، وإنه مجرد ظلّ من زمن فيكتوري ولي. إلا أن عجلة الأحداث كانت - في كل مرة - تنقلب لتصب في صالحه من جديد. ففي أوقات الأزمات، كانت السمات التي اعتُبرت يومًا عيوبًا أو مظاهر من زمن منصرم تتحول إلى قوى فريدة ولا غنى عنها. عندما احتاجت بلاده من يصنع المستحيل، لم يكن هناك أفضل من الرجل الذي اتُّهم دائمًا بأنه يطلب المستحيل.

كتب تشرشل عن «الأشياء الضئيلة، ونقاط العقيق الحادة» التي قد يتوقف عليها مصير معركة أو مجرى حياة كاملة.⁽⁵⁴⁰⁾ وقد لاحظ «الدور الحاسم الذي تلعبه الصدفة والحظ في كل لحظة» من لحظات الأحداث، سواء كانت عظيمة أو تافهة.⁽⁵⁴¹⁾ وعندما نتأمل «نقاط العقيق» في حياة تشرشل نفسه، نجد أن الحظ - أو الصدفة - قد لعب دورًا هائلًا. وكان تشرشل واعيًا تمامًا لذلك، بل وكان يستمتع به - باعتباره رجلًا مولعًا بالمراهنات - حينما ينجح في أمر ما رغم الاحتمالات الضئيلة، بفضل صدفة غير متوقعة أو خطأ تحول إلى نعمة قدرية. وفي بعض الأحيان، يخيل إلينا أن «نقاط العقيق» لديه لم تكن سوى زوايا نرد، يُقذف بجنون فوق طاولة الحياة.

اشتهر تشرشل بأنه لم يكن طالبًا متفوقًا، وكانت امتحانات القبول في الجيش تتطلب منه «جهدًا استثنائيًا». لكن، في مناسبة واحدة على الأقل، حالفه الحظ على نحو لافت. كان يعلم أن عليه أن يرسم خريطة لأحد البلدان من الذاكرة في امتحان الطبوغرافيا، فقرر - دون سبب واضح - أن يحفظ خريطة نيوزيلندا. وعندما جلس في قاعة الامتحان، كان أول سؤال في ورقة الاختبار: «ارسم خريطة نيوزيلندا». وقد علّق تشرشل لاحقًا بالقول إن هذه النوعية من الرهانات، لو كان وضعها في مونت كارلو، كانت ستكسبه خمسة وثلاثين ضعف ما راهن به.

حالف الحظ تشرشل خلال عمله مراسلًا في حرب البوير⁽⁵⁴²⁾، فصار نجمًا

(540) Winston Churchill, "If Lee Had Not Won the Battle of Gettysburg" (1930), in The Great Republic (New York: Random House, 1999), p. 247.

(541) Winston Churchill, "Mass Effects in Modern Life," in Thoughts and Adventures (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949), p. 192.

(542) حرب البوير Boer Wars: سلسلة من الصراعات التي دارت في جنوب أفريقيا بين الإمبراطورية

مشهورًا، وضمن لنفسه دخلًا مستقلًا، وانطلقت مسيرته السياسية. ففي عام 1899، مع اندلاع القتال في جنوب أفريقيا، استأجرته صحيفة «مورنينج بوست» ليكون مراسلًا حربيًا. وما إن وصل إلى كيب تاون على أول باخرة متاحة، حتى أسرع شمالًا لتغطية المعارك في إقليم ناتال الشمالي، حيث كانت قوات البوير تحاصر قوة بريطانية كبيرة في بلدة ليديسميث.

بفضل صديق من الجيش، تمكن تشرشل من الاقتراب من قلب الأحداث على متن قطار مدرع أرسل في مهمة استطلاعية. تعرض القطار لهجوم من قوات البوير وتمت الإطاحة به عن السكة. وكعاقبته، لم يكتفِ تشرشل بدور المتفرج؛ بل أخذ على عاتقه الإشراف على إزالة العوائق من على السكة الحديدية، متجنبًا وابلًا من النيران. وجد تشرشل صعوبة في تسلق نافذة القاطرة والدخول والخروج منها بينما كان يحمل مسدس «ماوزر» في جرابه - وهو ما لم يكن جزءًا من عدة المراسل الصحفي العادية، لكن هذا كان تشرشل - لذا فك حزام المسدس وتركه في كابينة القيادة.

اندفع أحد مقاتلي البوير على حصانه، مرتديًا معطفًا طويلًا يرفرف في الهواء وقبعة مترهلة بفعل الطقس، وصوب بندقيته نحو تشرشل. روى تشرشل لاحقًا وقال: «كنت أعتقد أن بإمكانني قتل هذا الرجل، وكان لديّ رغبة شديدة في ذلك. وضعت يدي على حزامي، ولكن المسدس لم يكن هناك.» وهكذا استسلم تشرشل، متبعًا مبدأ نابليون الذي ينص على أنه «حين يكون المرء وحيدًا وأعزل، فلن يلومه أحد إذا استسلم.» (543)

عامله أسروه من البوير معاملة حسنة، إذ أعجبوا بفكرة أنهم أسروا «ابن أحد النبلاء». تمكن تشرشل من الهرب من معسكر أسرى الحرب عبر التسلق من نافذة مرحاض والخروج مباشرة من البوابة. قفز على متن قطار شحن للفحم واختبأ بين

البريطانية وجمهوريات البوير (المزارعين) المستقلة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. البوير هم أحفاد المستوطنين الهولنديين، والفرنسيين الهوجونوت، والألمان الذين استقروا في جنوب أفريقيا منذ القرن السابع عشر. (المترجم)

(543) Winston Churchill, My Early Life (1930; reprint, New York: Charles Scribner's Sons, 1987), p. 252.

الأكياس. ولكن بعد فترة، أدرك أن القطار كان يتجه في الاتجاه الخاطئ؛ نحو بريتوريا، مما يعني التوغل أكثر داخل أراضي البوير. قفز من القطار، وتجول لبعض الوقت، ثم قرر أن يطرق باب أول منزل يصادفه. ومن حسن حظه، كان الرجل الذي فتح الباب هو الوحيد الناطق بالإنجليزية في المنطقة، مدير منجم فحم يدعى جون هاوارد، والذي ساعد تشرشل على الهروب إلى بر الأمان.

تأمل تشرشل في حظه العجيب، ليس فقط في نجاحه في الهروب، ولكن أيضًا في ظروف أسرته. كتب قائلاً إن تلك التجربة «وضعت الأساس لحياقي المستقبلية». فقد منحته السمعة التي اكتسبها فرصة الدخول إلى عالم السياسة الوطنية، حيث بدأ وكلاء الأحزاب يلحون عليه ليكون مرشحاً في عدة دوائر انتخابية، كما أن الطلب المتزايد على كتبه ومقالاته ضمن له دخلاً جيداً ومستقراً.⁽⁵⁴⁴⁾

كان هناك جانب آخر للحظ الذي صاحب مغامرة تشرشل مع البوير. ففي إحدى وجبات الغداء التي أُقيمت للجنرالات الجنوب أفريقيين في لندن بعد ثلاث سنوات، التقى تشرشل بالجنرال لويس بوتا. في البداية، لم يتعرف تشرشل على هذه الشخصية البارزة في معطفها الرسمي باعتبارها نفس قائد الكوماندو الذي أسره تحت تهديد السلاح. لكن بعد أن ذكره بوتا بلقائهما الأول، تحولت تلك المقدمة شبه الخيالية إلى صداقة وصفها تشرشل بأنها «ثمينة للغاية». عاد بوتا إلى لندن بعد عدة سنوات كأول رئيس وزراء لترانسفال، وأخبر والدته تشرشل قائلاً: «لقد خضت أنا وهو المغامرات.»⁽⁵⁴⁵⁾

مع تتابع الأحداث، أدرك تشرشل أنه حين ترك مسدسه خلفه، كان قد نجا من أن يُشعل بيده مساراً بديلاً للحرب العالمية الأولى. فقد أصبح الجنرال بوتا حليفاً وانياً لبريطانيا، وأسهم بدور حاسم في إحباط تمرد بويري ثانٍ كانت ألمانيا تحرض عليه. قال تشرشل لاحقاً: «لقد ظلّت الصدفة والرومانسية تنسجان مصائرنا معاً بطريقة

(544) Ibid., p. 257.

(545) Ibid., p. 254.

عجيبة.⁽⁵⁴⁶⁾ وهكذا، وصلت رسالة من تشرشل إلى بوتا في موقع ناءٍ بشمال ترانسفال، عبر وسيلة تكاد تكون مستحيلة؛ لكنها وصلت في اللحظة الحاسمة، لتمنعه من صعود سفينة ألمانية في اليوم ذاته الذي اندلعت فيه الحرب الكبرى. ولو لم يتلقَ بوتا تحذير تشرشل في الوقت المناسب، لكان قد وجد نفسه ضيقاً على الألمان مع بداية الحرب، عاجزاً عن التأثير في مجريات الأمور داخل بلاده.

طوال سنواتٍ من حياته، ظلت فكرة «ماذا لو؟» تأسر خيال تشرشل. فلو أنه أطلق النار على بوتا عام 1899، أو لو أن رسالته عام 1914 لم تصل في الوقت المناسب، لربما اندلعت حرب بويرية جديدة. وكان هذا سيجبر البريطانيين على تحويل وجهة القوات الأسترالية والنيوزيلندية، التي كانت متجهة إلى قناة السويس، نحو جنوب أفريقيا. كان ذلك ليشكل نكسة للبريطانيين؛ لكنه، في المقابل، كان قد ينقذ الكثير من الأستراليين والنيوزيلنديين من الموت على شواطئ جاليبولي.⁽⁵⁴⁷⁾

كان تشرشل فخوراً للغاية بدوره في إنشاء سلاح الجو الملكي. فقد أدرك - قبل أي من السياسيين الآخرين أو كبار القادة العسكريين - أن القوة الجوية ستكون عنصراً حاسماً في حروب المستقبل. ومن عام 1911 حتى عام 1921 - باستثناء سنة 1916 حين اضطر إلى الانسحاب مؤقتاً من الساحة - كان تشرشل يتولى الإشراف المباشر على القوة الجوية البريطانية في مراحل نشأتها الأولى.

جاءت المصادفة والحظ بقوة لتهيمن على المشهد في تلك الفترة؛ فقد بدأت القوة الجوية الملكية في إيست تشرش بمقاطعة كنت، على أرض زراعية تم استئجارها لاستخدامها مهبطاً للطائرات. كان المزارعون المحليون متشككين، ينظرون إلى الطيارين الأوائل كما لو أنهم ركبوا أجنحة وأعلنوا أنهم ذاهبون إلى القمر. وكانوا يراهنون بأقداح الجعة في الحانات القروية على عدد الدقائق التي ستمر قبل وقوع التحطم التالي. ومن بين الطيارين الذين ترددوا كثيراً على إيست تشرش، كان الملازم

546) Ibid., p. 255.

547) Winston Churchill, "A Second Chance," in *Thoughts and Adventures* (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949).

جون ويليام دن، الذي ساهم في تصميم وبناء أول طائرة ذات أجنحة مائلة إلى الخلف عام 1910، وفق مبادئ لا تزال مستخدمة حتى اليوم في الطائرات الشبحية. وكان من بين الطيارين الدائمين في إيست تشرشل هو ونستون تشرشل، الذي استبد به الحماس للطيران، واعتبر أن رؤية اللورد الأول في الأميرالية وهو يقود طائرات تجريبية بنفسه سيكون بمثابة «دافع للتقدم» وجرعة تحفيز للمستقبل.

كان دن شخصية مثيرة للاهتمام للغاية. فعلى المستوى الظاهري، كان يجسّد صورة رجل الجيش الأنجلو-أيرلندي التقليدي؛ وكان كتابه الأول عن صيد السمك بالذباب الاصطناعي. لكنه في الوقت ذاته كان حالمًا من الطراز العالمي. فقد أسهمت أحلامه في إلهامه تصميم طائرة ناجحة، كما أن تجاربه المتكررة مع ظاهرة التنبؤ في الأحلام دفعته إلى تأليف سلسلة من الكتب المثيرة حول نسبة الزمن؛ وربما كانت تلك الكتب سببًا في إذكاء خيال تشرشل.

في مغامراته الجوية، كان تشرشل كثيرًا ما يقترب من الموت، وكأن الموت ظل يترصد كل من يخلق معه. فمعلمه الشاب الذي لقنه أول دروس الطيران في إيست تشرشل، قُتل في اليوم التالي مباشرة بعد تحليقها معًا. وبعد بضعة أسابيع، شارك تشرشل في تجربة طيران لطائرة بحرية تجريبية. وما إن أبحر في اليخت التابع للأميرالية «إنشانتريس» Enchantress حتى هَوّت الطائرة في المحيط، لتودي بحياة الضباط الثلاثة الذين كانوا على متنها. وقد حالت مشاغله الحكومية دون صعوده على متن آلة جديدة مزدوجة التحكم، كان يعتزم مشاركتها في رحلة تجريبية بصفته مساعد طيار؛ لكن الطائرة سقطت حينها في «دوامة من نوع لم يكن معروفًا آنذاك»، مما أسفر عن إصابة الطيارين الاثنين بإصابات بالغة.⁽⁵⁴⁸⁾

راودت تشرشل رؤيا لزوجته، كليمتين، أقنعتة بالتخلي عن دروس الطيران في صيف العام الذي سبق اندلاع الحرب العالمية الأولى.⁽⁵⁴⁹⁾ كان تشرشل يسترشد دومًا

(548) Winston Churchill, "In the Air," in *Thoughts and Adventures* (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949), pp. 135–136.

(549) Robert Moss, *The Three "Only" Things* (Novato, CA: New World Library, 2007), pp. 89–

بإحساس داخلي يخبره متى كانت الحظوظ في صفه؛ أو متى أوشكت على النفاد. ففي مأدبة عام 1919، نصح جون ألكوك، أحد الطيارين الذين نجحوا لتوهم في عبور المحيط الأطلسي جواً، قائلاً: «ينبغي أن تتوقف الآن وتغادر وأنت منتصر؛ لا بد أنك استهلك كل ما تملك من حظ.»⁽⁵⁵⁰⁾ وكان حدسه في محله؛ إذ لقي ألكوك مصرعه بعد ذلك بأشهر قليلة، أثناء قيادته لطائرة فيكرز مائية جديدة في طريقه إلى معرض باريس الجوي.

اشتكى أحد رؤساء أركان الجيش، بعد أن أصبح تشرشل رئيساً للوزراء، قائلاً إن تشرشل «سيئ الحظ». وأضاف: «كان كذلك طوال الحرب الماضية؛ وذلك أمر حقيقي، وعيب سيئ وخطير.»⁽⁵⁵¹⁾ لا شك أن تشرشل اتخذ قرارات انتهت بكوارث، آنذاك وفيما بعد. ومع ذلك، فقد ظل الحظ إلى جانبه حين تعلق الأمر بنجاته الشخصية. وقد تذكر ذات مرة موقفاً من أحد حقول فلاندرز، قال عنه: «لو لم أعد لأخذ علبه الكبريت التي نسيتهها في ملجئي بفلاندرز، أما كنت سأسير مباشرة نحو تلك القذيفة التي سقطت، بلا ضرر، على بُعد مئة ياردة فقط أمامي؟»⁽⁵⁵²⁾

الخيال والتاريخ

في محاضراته الوداعية بجامعة أكسفورد، أشار هيو تريفور-روبر إلى أن «وظيفة المؤرخ هي تمييز البدائل؛ وتلك، بلا شك، هي وظيفة الخيال». ثم أضاف: «التاريخ ليس مجرد ما حدث، بل ما حدث ضمن سياق ما كان يمكن أن يحدث. لذا، لا بد أن يتضمن - كعنصر لا غنى عنه - الاحتمالات والطرق التي لم تُسلك.»⁽⁵⁵³⁾ وكما رأينا في السجل الانتقائي للصدف والحظوظ في بدايات حياة تشرشل، فقد كانت لديه

أسباب وجهية لتبني هذه النظرة إلى التاريخ؛ إذ كان ذهنه دائم الدوران حول البدائل، وحول ظلال الدروب التي لم تطأها قدماء.

لاحظ مؤرخ إنجليزي آخر هو جي. إتش. بلا أن التاريخ لم يكن - في نظر تشرشل - مجرد موضوع دراسي؛ بل كان «جزءاً من تكوينه النفسي»، «يتخلل كل ما يلمسه، ويمثل النبع الذي يغذي سياساته، وسر قدرته الهائلة على الإقناع والتأثير». أما الفيلسوف آيزايا برلين، فخلص في دراسته لتشرشل في «أعظم لحظاته» إلى أن «الفئة المهيمنة عند تشرشل، والمبدأ الناظم الوحيد لعالمه الأخلاقي والعقلي، هي مخيلته التاريخية؛ مخيلة بالغة القوة، شاملة المدى، قادرة على أن تحتوي الحاضر بأسره، والمستقبل بأكمله، داخل إطار ماضيٍ ثري بتفاصيله المتباينة». (554)

كان تشرشل مسافراً عبر الزمن - على الأقل بخياله - وكانت قدرته على قراءة تقلبات مسار التاريخ، وفهم طبيعة البشر عبر العصور، تمنحه بصيرة نادرة لفهم أنباط الحاضر، وسط ضباب الحرب، وتشعب الضغوط وتفاصيلها الهائلة، بل وتمكّنه من أن يلم بتاريخ المستقبل.

وفي أسفاره الذهنية عبر الماضي، ربما كان أعظم ما كسبه تشرشل هو قدرته على الولوج - تماماً - إلى عقل وظروف سلفه العظيم: جون تشرشل، دوق مارلبورو، الذي قاد جيوش التحالف العظيم (الجيوش التي جمعتها علاقة تحالف مضطربة) نحو النصر على الفرنسيين في أوائل القرن الثامن عشر. تُعد السيرة الذاتية التي كتبها تشرشل عن مارلبورو في أربعة مجلدات، أثناء «سنوات التيه» التي قضاها خارج السلطة في ثلاثينيات القرن العشرين، أعظم أعماله الأدبية في نظر الكثيرين. وقد أعلن حينها أن غايته كانت أن يحل «ذلك اللغز الغامض الذي تمثله شخصية مارلبورو». (555)

تعلم تشرشل من رباطة جأش مارلبورو وثباته في وجه الشدائد؛ ففي مستهل

(554) J. H. Plumb, "Churchill the Historian," in Churchill Revised: A Critical Assessment, ed. A. J. P. Taylor et al. (New York: Dial Press, 1969), pp. 133-169; Isaiah Berlin, Mr. Churchill in 1940 (Boston: Houghton Mifflin, 1949), p. 12.

(555) Winston Churchill, Marlborough, His Life and Times (London: Sphere, 1987), 2:270.

قيادته، أعلن مارلبورو: «الخيار في هذه القضية هو بين الحرية أو الموت». ودرس تشرشل من مارلبورو فن القيادة داخل تحالف عسكري، في حرب تشمل جزءًا كبيرًا من العالم، وتفرض عددًا في الخيارات وتضاربًا في الأولويات. كان مارلبورو «لا يكف عن التفكير في الحرب كنسيج مترابط»؛ وكذلك كان تشرشل دائم البحث عن الصورة الأشمل. وقد لاحظ تشرشل أن نجاح مارلبورو في القيادة كان مرتبطًا بقدرته على الدخول إلى عقل خصمه: «يجب أن ينطلق تفكير القائد بوضع نفسه بإخلاص في موضع عدوه، وأن يفترض فيه الاستعداد لفعل أكثر ما كان هو ليخشاه... فالخيار الآمن دائمًا هو أن تتوقع أن العدو سيفعل أسوأ ما يمكن؛ أي ما لا تودّ وقوعه إطلاقًا.» (556)

خلص تشرشل من مثال مارلبورو إلى أن أصحاب الرؤى المخالفة للسائد يجنون النصر، حين يسترشدون بحدس صائب. فقد اتخذ مارلبورو قرارات قيادية أربكت، بل أرعبت، الجنرالات ذوي العقول التقليدية. ففي عشية معركة بلينهايم الحاسمة في أغسطس عام 1704، أقدم مارلبورو على خطوة جريئة حين بعث بالقائد الحليف، المارجراف بادن، في مهمة جانبية بعيدة عن ميدان المعركة الأساسي. وبذهاب قوات المارجراف، أصبح مارلبورو أدنى عددًا من الجيش الفرنسي. وقد علّق تشرشل قائلاً: «لا نعرف في سجل القادة العسكريين الناجحين من تجرباً على خرق مبدأ حشد القوات كاملة في ساحة المعركة كما فعل مارلبورو.» (557) لكن مارلبورو لم يكن مخطئاً؛ فقد رأى أنه سيكون أقوى، لا أضعف، إن تخلص من الجنود غير الموثوقين والقيادة المهزوزة التي يمثلها المارجراف. وقد أثبتت مجريات المعركة صدق حدسه؛ إذ أحرز نصرًا باهرًا في بلينهايم.

في أحلك فترات الحرب العالمية الثانية، حين كانت بريطانيا مهددة بالغزو في أية لحظة، قرر تشرشل أن يُقسّم قواته بإرسال فرقة قتالية كبيرة إلى القاهرة للدفاع عن قناة السويس ضد هجوم إيطالي محتمل.

(556) Ibid., 3:94.

(557) Ibid., page number not available.

كان تشرشل يجوب الماضي بحرية دون أن يضيع في دروبه، فقد مكّنه إلمامه العميق بالتاريخ من أن يلتقط جوهر المواقف واتجاهاتها الكبرى، وكان قادرًا على الغوص في التفاصيل دون أن تغمره.

حقق تشرشل في مسيرته ما يشبه الدور المزدوج الاستثنائي؛ حيث كان يقاتل ويكتب في آن واحد. فقد كان طرفًا فاعلاً في صنع الأحداث التي كان يسارع إلى تدوينها في كتب التاريخ. وقد قال عن الجدل: «سأتركه للتاريخ، لكن تذكّر أنني سأكون أحد المؤرخين». «وقد أسرّ إلى أيزنهاور، قبيل أن يتولى الرئاسة قائلاً: «أظن أننا متفقان على أن الأهم ليس فقط الوصول إلى الحقيقة، بل معرفة الطريقة المثلى لعرضها. (558)»

كانت أعمال تشرشل التاريخية أعمالاً يشارك فيها بنفسه؛ فقد كتب عن أحداث شارك هو فيها، أو شارك فيها أسلاف شعر تجاههم بقرابة روحية، كما كتب عن قضايا تبناها ودافع عنها. لم يكن تشرشل يدّعي أنه مؤرخ محيد يراقب مجرى الأحداث من مقعد المتفرج؛ فقد أوضح أن منهجه استلهمه من كتاب «مذكرات فارس» *Memoirs of a Cavalier* لديفو، حيث «نسج المؤلف وقائع التاريخ الكبرى على خيط التجربة الشخصية لفرد واحد، فجعل من حياته محورًا تسير عليه الحكاية.» (559)

جاء تأليف تشرشل لموسوعته الضخمة المؤلفة من ستة مجلدات بعنوان «الحرب العالمية الثانية» تجسيداً حياً لمبدأ ظل يتكرّر في حياته: أن في كل نكسة فرصة كامنة. فقد وجد متسعاً من الوقت لهذا المشروع (الذي استعان فيه بفريق من المساعدين) بعدما خسر انتخابات يوليو عام 1945. نُشر هذا العمل، الذي تجاوز المليون كلمة (وقد نُشر ثلثه في صحيفة «نيويورك تايمز») بين عامي 1948 و1954؛ في حين استغرق ديجول عقدًا كاملاً لإنهاء مذكراته. وقد جنى تشرشل من صفقة نشر الكتاب وحقوقه

(558) Churchill-Eisenhower conversation on January 5, 1953, reported in John ("Jock") Colville, *The Fringes of Power* (Guilford, CT: Lyons Press, 2002), p. 660.

(559) John Lukacs, *Churchill: Visionary. Statesman. Historian* (New Haven, CT: Yale University Press, 2002), p. 106.

الفرعية نحو 2.25 مليون دولار، وهو أكبر مبلغ دُفع مقدماً لعمل غير روائي في تاريخ النشر الأمريكي آنذاك؛ ما يعادل نحو 50 مليون دولار بمقاييس اليوم.⁽⁵⁶⁰⁾

تحليل المستقبل

بدا أن تشرشل كان بارعاً في التوغّل في تاريخ المستقبل، تماماً كما في استحضار الماضي. فعندما كان في الرابعة عشرة من عمره، قال لصديق له في مدرسة «هارو» إنه يحلم بالمستقبل: «أؤكد لك أنني سأكون مسؤولاً عن الدفاعات في لندن ... وفي الموقع الرفيع الذي سأشغله، سيقع على عاتقي إنقاذ العاصمة وإنقاذ الإمبراطورية.»⁽⁵⁶¹⁾ وقد تنبأ في أكثر من مناسبة، حتى قبل أن يفوز بمقعده البرلماني الأول، بأنه سيصبح رئيساً للوزراء.

لكن حدسه لم يكن مقتصرًا على مصيره الشخصي فحسب. ففي غرف العمليات بعد عام 1940، بدا إدراكه لما يحمله المستقبل – كقدرته مثلاً على التحديق في خريطة بحرية واستشراف أماكن تموضع غواصات الأعداء بعد أسابيع – شيئاً خارقاً في نظر من حوله؛ حتى أنهم نسبوا إليه بصيرةً تتجاوز المنطق.

وكما أدرك مبكراً الأهمية المتصاعدة للقوة الجوية، تنبأ بأن «المدركات البرية» – التي عُرفت لاحقاً بالدبابات – ستحدث نقلة نوعية في طبيعة الحرب البرية، وأنها يوماً ما ستُحرر المشاة من عناء عبور الأسلاك الشائكة. وقبل عقود من تطوير القنبلة الذرية، توقع ابتكار «قنبلة لا يتجاوز حجمها حجم برتقالة»، تحمل «قوة سرية تركّز طاقة ألف طن من مادة الكورديت، قادرة على تفجير بلدةٍ كاملة في لحظة.»⁽⁵⁶²⁾ وفي عشرينيات القرن الماضي، تنبأ بأن «الهاتف اللاسلكي والتلفزيون» سيسمحان لصاحبهما بأن «يتصل بأي غرفة مجهزة بشكل مماثل، فيسمع ويشارك في الحديث وكأنه أطلّ برأسه

(560) David Reynolds, In Command of History: Churchill Fighting and Writing the Second World War (New York: Random House, 2005).

(561) Douglas S. Russell, "Lt. Churchill: 4th Queen's Own Hussars," Proceedings of the International Churchill Societies (1994–95); the school friend was Murland Evans.

(562) Churchill, Thoughts and Adventures, p. 189.

من النافذة».⁽⁵⁶³⁾ ورأى الخطر المتصاعد في ألمانيا وشروع هتلر في وقتٍ كانت فيه النخب البريطانية والأمريكية تُعرض عن الرؤية.

بعد أن شهد عن كثب مدى تمسك رجال القبائل الأفغانية في إقليم الحدود الشمالية الغربية بالإيمان الإسلامي العميق، وهو الأمر الذي حير ضباط الاستخبارات ذوي النظرة العلمانية في تسعينيات القرن التاسع عشر، لاحظ تشرشل في عام 1921 حركة التيارات الدينية المحافظة في الجزيرة العربية، فاستنتج أن بعض هذه التيارات قد تُشكّل تحديًا كبيرًا للدول الغربية في المستقبل.⁽⁵⁶⁴⁾

وقد تنبأ أيضًا بالحرب الباردة، وبانهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية.

وفي مطلع القرن العشرين، حذر من أن البشرية باتت تمتلك القدرة على تدمير بيئتها الكوكبية. قال: «إن قصة الجنس البشري هي الحرب».⁽⁵⁶⁵⁾ لكن ما كان يبعث على الرعب هو التحول الرهيب الذي طرأ على طبيعة الحرب، إذ أصبحت الإنسانية «تمتلك - ولأول مرة في تاريخها - الأدوات التي تُمكنها من إتمام فنائها الذاتي بصورة مؤكدة».⁽⁵⁶⁶⁾

لقد أكد على ضرورة إحراز تقدم أخلاقي وروحي يمكن البشرية من احتواء الآثار المحتملة للتقنيات الحديثة حين تُسخر في سبيل القوة المجردة والعقائد المتطرفة قائلاً: «من المهم للغاية أن تظل الركائز الأخلاقية والروحية التي تستند إليها الأمم صامدة في وجه هذه التحولات العلمية الهائلة. ولعل من الأفضل، في بعض الأحيان، أن نُوقف مسيرة التقدم المادي والاكتشافات، على أن نقع تحت سيطرة أجهزتنا والقوى التي تتحكم بها».⁽⁵⁶⁷⁾

رغم أن تشرشل لم يكن معصومًا من ارتكاب أخطاء جسيمة، فإنه في هذه المسألة -

(563) Ibid., p. 209.

(564) Churchill's speech warning against Wahhabi fundamentalism was delivered to the House of Commons on June 14, 1921.

(565) Churchill, Thoughts and Adventures, p. 184.

(566) Ibid., p. 187.

(567) Ibid., p. 213.

كما في مسائل أخرى كثيرة - أثبت أنه صاحب بصيرة ثاقبة. لاحظ تشرشل أنه: «لا بد أن ينتمي كل نبي إلى قلب الحضارة، لكنه مضطر للخروج إلى البرية. لا تتبع النبوة إلا من رحم حضارة معقدة، على النبي أن يتشرب تعقيداتها وعطاءها أولاً، ثم ينسحب إلى العزلة والتأمل. فهكذا، بالضبط، يُصنع الديناميت النفسي».⁽⁵⁶⁸⁾

لا شك أن حياة تشرشل كانت زاخرة بما يكفي من المواد القابلة للاشتعال لصنع «ديناميت نفسي». لكن بصيرته لم تكن وليدة الحدس وحده، بل صقلها التوجيه أيضًا. ففي سنوات التيه بين الحربين العالميتين، تلقى تشرشل دروسًا حول تأثير التكنولوجيا الحديثة على الحروب من عالم فيزياء بريطاني ألماني لامع ولاعب تنس شهير يُدعى فريدريك ليندمان، كما زوده جاره الاستثنائي، الميجور ديسموند مورتون، بمعلومات استخباراتية سرية.⁽⁵⁶⁹⁾ وقبل كل شيء، صقلت خياله المستقبلي كتابات هربرت جورج ويلز وأدب الخيال العلمي الذي أبدعه.

في وقت مبكر من عام 1901، أرسل ناشرو ويلز إلى تشرشل نسخة من أحدث مؤلفاته آنذاك؛ كتاب «التوقعات» Anticipations، وهو كتاب تنبؤات يدعو إلى إنشاء مجتمع جديد على أسس علمية. فردّ الأخير برسالة شخصية إلى المؤلف قال فيها: «أقرأ كل ما تكتبه». التقى تشرشل وويلز لأول مرة في العام التالي، وظلا على تواصل حتى وفاة ويلز عام 1946. وقد تأثر خطاب تشرشل في جلاسكو عام 1906، الذي تحدّث فيه عن «الملايين المهمّشين» المستحقين لدعم الدولة، بكتاب ويلز «يوتوبيا حديثة» A Modern Utopia. كذلك، كانت رؤية تشرشل لحرب الدبابات مستوحاة إلى حد كبير من قصة ويلز «المدرعات البرية» The Land Ironclads، وإن كانت

(568) Winston Churchill, "Moses," in *Thoughts and Adventures* (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949), p. 219.

(569) Desmond Morton was born at 9 Hyde Park Gate in the house that was later Churchill's London home. He purchased a country estate (Earlylands) three miles from Churchill's beloved Chartwell within a year of the Churchills' moving in. Despite a careful recent biography, his role in the Churchill adventure has yet to be fully disinterred; see Gill Bennett, *Churchill's Man of Mystery: Desmond Morton and the World of Intelligence* (London: Routledge, 2007).

دبابات ويلز تسير على عجلات بدلاً من الجنزير. وربما يكون تشرشل قد استعار أيضًا عبارة «العاصفة المقتربة» - التي استخدمها عنوانًا للجزء الأول من تاريخه للحرب العالمية الثانية - من رواية ويلز «حرب العوالم» War of the Worlds، التي يصور فيها المريخيين كمهاجمين. (570)

أهم ويلز بخياله الفيزيائيين كما أهم السياسيين، بطرق أسهمت في تشكيل مسار التاريخ العالمي. ففي عام 1932، قرأ الفيزيائي المجري ليوزيلارد رواية إتش. جي. ويلز «تحرير العالم» The World Set Free (التي نُشرت أول مرة عام 1914)، والتي تصف جهازًا يسرّع عملية التحلل الإشعاعي، مما يؤدي إلى إنتاج «قنابل ذرية». وعندما وصل هتلر إلى السلطة في العام التالي، انتقل زيلارد إلى لندن. وهناك، أثار غضبه مقال في صحيفة «تايمز» سخر من فكرة إمكانية تسخير الطاقة الذرية لأي غرض عملي. وبينما لا يزال الغضب يغلي في صدره من ذلك المقال، حينما كان ينتظر تغيير إشارة المرور في أحد شوارع بلومزبري، راودته فجأة لحظة إلهام: تخيل كيف يمكن لتفاعل نووي متسلسل، كالذي صوّرته رواية الخيال العلمي ل ويلز، أن يوفر الوقود اللازم لصنع سلاح ذري. (571)

كلب تشرشل الأسود

كان تشرشل موضوعًا مفضلًا لدى علماء النفس المؤرخين، الذين يسعون إلى الربط بين العظمة والاضطرابات النفسية مثل الاضطراب الوجداني ثنائي القطب. لكن خلل

(570) Sarah Cassidy, "Churchill Borrowed Famous Lines from Books by H. G. Wells," The Independent, November 27, 2006.

(571) When he moved to the United States, Szilard made it his cause to mobilize the Roosevelt administration to get ahead of the Nazis in the race to produce nuclear weapons — a race people in Washington did not realize was under way — and recruited Einstein to cosign the famous letter that led to the Manhattan Project. Ironically, Szilard later lobbied passionately, humanist that he was, against the use of the atomic bomb on humans (as opposed to a demo on an unpopulated atoll). One of his last works was a visionary fable in which the dolphins — presented as a species wiser than humans — try to educate humans about their responsibilities to each other and the planet.

هذه المقاربات يكمن في أن هناك الكثير من المصابين بهذا الاضطراب، وقلة قليلة فقط ممن أنجزوا ما يوازي ما حققه تشرشل في أكثر من ميدان. وربما كان الوصف الأدق لحالته هو «الاضطراب الدوري المزاجي» - وهو مصطلح يدل على تقلبات مزاجية حادة ومتكررة - أكثر من كونه مصابًا بالهوس الاكتيبي بالمعنى الكامل. ومع ذلك، لم يكن تشرشل غريبًا عن الاكتئاب، إذ كان يُطلق عليه اسم «كلبه الأسود». أما في نوبات مزاجه المرتفعة، التي توصف على نحو أدق بـ«الابتهاج» لا بـ«الهوس»، فكان بمقدوره أن ينتج أعمالًا مذهلة.

لقد تغلب تشرشل على «كلبه الأسود» بالعمل، ثم العمل، ثم المزيد من العمل. وقد كاد يسيطر عليه تمامًا حين أقصي عن مواقع السلطة، بعيدًا عن مراكز النفوذ التي كان يعلم في قرارة نفسه أنه ينتمي إليها. ساعده الرسم بعض الشيء، لكن البحث والتأليف الذي تطلبته مؤلفاته التاريخية الضخمة كان على الأرجح أكثر نفعًا. ومع ذلك، فإن ما أنقذه حقًا كان العمل المتواصل، الذي لا يكل ولا يتوقف. لم يكن يستطيع أن يظل ساكنًا، ولم يكن بوسعه أن يتوقف. وحين ضاقت شرايين دماغه في منتصف الثمانينيات من عمره، واضطرت تلك الحالة إلى التباطؤ ثم التوقف، عاد «كلبه الأسود» ليخضعه من جديد. كان يجلس محددًا في الفراغ، مشلولًا تحت وطأة كآبة فادحة، أثر طبيبه، السير تشارلز ويلسون - المعروف بلقب اللورد موران، والذي كشف كثيرًا عن حياة تشرشل السابقة في يومياته ومذكراته - أن يُسدل عليها ستارًا من الصمت. لكن، من كان ليتوقع أن رجلًا عاش بكل هذا الاندفاع، كما عاش تشرشل، سيصمد حتى التسعين من عمره؟

كانت حياته تجسيدًا رائعًا للمبدأ القائل بأن الهبات العظيمة كثيرًا ما تولد من جراحنا. فقد وُلد قبل أوانه بشهرين، وهو أمر قد يكون أكسبه - على غرار ما لاحظته مارك توين في الأطفال الخدج - خفة في وعيه وسرعة في بديته. نشأ بجسد ضئيل هش. وعندما التحق بأكاديمية ساندهيرست العسكرية، لم يكن محيط صدره يتجاوز واحدًا وثلاثين إنشًا، ضيقًا بصورة ملحوظة مقارنة ببطنه. وكتب تشرشل من هناك سنة 1893 يقول: «ابتليتُ بجسد واهن إلى حد يجعلني بالكاد أتحمل أعباء

النهار.⁽⁵⁷²⁾» كان جلده ناعماً، ورقيقاً، ومفرط الحساسية، إلى درجة اضطر معها إلى ارتداء ملابس داخلية حريرية خاصة، بل وابتكر لاحقاً لنفسه بيجاما حريرية وردية اللون. في مدرسة «هارو»، تعرض للتنمر، وظلت في ذاكرته صورة مُرة ليوم اضطر فيه إلى الاحتماء خلف شجرة، هارباً من متنمرين كانوا يقذفونه بكرات الكريكييت. وكان قد تعرض لإهمال عاطفي فادح من والديه كليهما، ولم يتلق حناناً يذكر سوى من مربيته الشهيرة، السيدة «إيفرست»، التي كان يناديها باسم «وومني»؛ والتي ظلت صورتها معلقة في غرفته حتى آخر يوم في حياته.

كان عليه إذاً أن يثبت شيئاً؛ لنفسه أولاً، ثم للعالم من حوله. ومما لا شك فيه أن وحدته في سنوات طفولته الأولى كانت دافعاً قوياً لأن يلقي بنفسه في عوالم الخيال. لكن الأمر لم يلبث أن تحول؛ فما لبث أن ألقى بنفسه في قلب مغامرات العالم الفعلي، مُجسداً ما كان يتخيله ذات يوم حين كان يحرك جيوشه الصغيرة من الجنود المصغرين. كان عليه أن يبرهن - رغم ضآلة جسده - أنه قادر على خوض أي مغامرة، فغدت حياته بأكملها تأملاً في الشجاعة. خاض مخاطر لا تُصدق، سواء في السماء أو على الجبهة خلال الحرب الكبرى. ومع الزمن، تطورت لديه قناعة راسخة بأنه لا يُقهر. كان قد فقد إيمانه بالله منذ وقت مبكر، لكنه، في سنواته اللاحقة، راح يتأمل فيما إذا كانت هناك قوة عليا - سمها إن شئت «الله» - قد حفظته خصيصاً من أجل المهمة التي تولاهها حين أصبح رئيساً للوزراء وهو في الخامسة والستين من عمره. قال لطبيبه ذات مرة: «لا يمكن أن يكون هذا مجرد صدفة... لا بد أنه تصميم. لقد حُفظت خصيصاً لأجل هذا الدور.»⁽⁵⁷³⁾

كان هذا مثلاً على تفكيره السحري؛ تفكير لم يكن دائماً في صالحه أو في صالح العالم. إذ يعد خصومه السياسيون ما لا يقل عن خمس عشرة هفوة جسيمة في مسيرته، تبدأ من كارثة جاليبولي. ومع ذلك، فإن ما تخيله خلال الحرب العالمية الثانية كان كفيلاً بأن

(572) Randolph S. Churchill, Winston S. Churchill (London: Heinemann, 1966), 1:212.

(573) Lord [Charles] Moran, Churchill: The Struggle for Survival (London: Constable, 1966), p. 776.

يحمل بريطانيا عبر عزلتها الخطيرة.

كتب موران عن «العالم الداخلي من الخيال الذاتي الذي كان ونستون يجد فيه واقعه».⁽⁵⁷⁴⁾ ويُعزز الطبيب النفسي البريطاني أنتوني ستور هذه الفكرة بقوله: «من المرجح أن إنجلترا دانت ببقائها في عام 1940 لهذا العالم الداخلي من الخيال؛ فذلك النوع من الإلهام الذي أمد به تشرشل الأمة لم يكن قائماً على تقدير عقلائي، بل على قناعة باطنية لا تستند إلى الواقع الموضوعي ... لا نعرف، ولن نعرف أبداً، تفاصيل ذلك العالم التخيلي الخاص بتشرشل، لكن وجوده فيه وبطولته لا يمكن إنكارهما».⁽⁵⁷⁵⁾ وفي عام 1940، تقاطعت رؤى ذلك العالم الداخلي من الخيال مع معطيات الواقع الخارجي تقاطعاً نادر الحدوث في حياة أي إنسان. إنها تجربة لا تختلف كثيراً عن تجربة الحب العارم، حين تنهأ صورة المرأة المشتهاة لدى الرجل مع صورة المرأة المثالية التي يحملها في داخله.⁽⁵⁷⁶⁾

يقدم ستور تصحيحاً جوهرياً للفكرة المتكررة التي تربط بين العبقرية الإبداعية والاضطرابات النفسية، إذ يقول: «إن القوى الإبداعية تُعد إلى حد ما درعاً واقياً ضد المرض النفسي ... لقد ثبت أن الأشخاص المبدعين يُظهرون سمات عصائية أكثر من الإنسان العادي، غير أنهم أيضاً أكثر قدرة من غيرهم على التعامل مع مشكلاتهم النفسية».⁽⁵⁷⁷⁾

نقل الرؤية

كان ونستون تشرشل يجب أن يبدأ يومه بإشعال سيجار واحتساء الويسكي بالصدود، وهو مستلق في سريره يطالع الصحف. ليست هذه الصورة التي تخطر على

(574) Ibid., p. 778.

(575) Anthony Storr, "Churchill the Man," in Churchill's Black Dog, Kafka's Mice, and Other Phenomena of the Human Mind (New York: Ballantine Books, 1990), p. 27.

(576) Ibid., p. 49.

(577) Anthony Storr, "Sanity of True Genius," in Churchill's Black Dog, Kafka's Mice, and Other Phenomena of the Human Mind (New York: Ballantine Books, 1990), p. 264.

بال معظم الناس عند سماع كلمة «رؤيوي» أو «صاحب بصيرة». ومع ذلك، كما يؤكد جون لوكاس بحزم، يجب أن نعترف بتشرشل كرجل رؤيوي بالمعنى الإيجابي للكلمة.⁽⁵⁷⁸⁾ لقد امتلك بالفعل موهبة الرؤية وفقاً لمعنيين وردا في قاموس أكسفورد الإنجليزي: فقد كان قادراً على رؤية «ما يتعذر على البصر العادي إدراكه»، كما امتلك قدرة عقلية على تصور «واضح ومتمايز، يأخذ هيئة مخطط خيالي بارع أو توقع بالغ الخيال والتمييز».

لم يكن تشرشل يمتلك فقط موهبة الرؤية، بل كان قادراً على نقلها إلى الآخرين. وكانت هذه القدرة أكثر ما أعجبه في شخصية جان دارك، وهذه بالتحديد كانت سره في قدرته على حشد الشعب البريطاني لمواجهة هتلر عام 1940، في لحظة كان فيها كل شيء على وشك الانهيار. فلنتذكر ما حققه في خطابه الأعظم والأكثر تأثيراً.

في الثامن عشر من يونيو عام 1940، وبعد مضي ما يزيد قليلاً عن شهر على توليه منصب رئيس الوزراء، نبه تشرشل الشعب البريطاني إلى حجم الرهان في معركتهم ضد هتلر. فإن أخفقوا في المقاومة، فإن العالم سيُلقى به في «هاوية عصر مظلم جديد، أكثر شناعة، وربما أطول أمداً، بفعل أضواء العلم المنحرف».

لكن الانهزامية كانت سائدة آنذاك، وقد شلت مفاصل النخبة البريطانية وأبقت الولايات المتحدة على الحياد. فكيف استطاع تشرشل أن يشعل الحماسة في نفوس شعبه، ويقنعهم بإمكانية الانتصار رغم اختلال موازين القوى على نحو يائس؟ لقد أطلق أشهر عباراته على الإطلاق: «فلنستعد إذاً لمواجهة واجباتنا، ولنُحسن التصرف على نحو يجعل الناس – حتى لو امتد عمر الإمبراطورية البريطانية والكومنولث لألف عام – يقولون: كانت تلك أعظم ساعة في حياتهم».⁽⁵⁷⁹⁾

لقد أسرت هذه الكلمات خيال الشعب، ونقلت إليهم الشجاعة الأخلاقية والثقة بالنفس. علينا الآن أن نتوقف عند عنصرين مميزين في قدرة تشرشل على نقل رؤيته،

(578) Lukacs, Churchill, p. 2.

(579) Churchill's "Finest Hour" speech was delivered to the House of Commons and then broadcast, on June 18, 1940.

وهما ما ساعداها على أن تترسخ في أذهان كثيرين.

العنصر الأول كان نقلة زمنية؛ فقد حمل مستمعيه معه إلى المستقبل البعيد، متجاوزًا الأخطار الراهنة، إلى زمن حُسمت فيه الأمور منذ أمد بعيد. أقنع جمهوره بأن النصر على هتلر لم يكن ممكنًا فحسب، بل كان حتميًا، بل وكأنه قد تحقق فعليًا في الماضي؛ وبشكل باهر جعل كل ما تلاه يبدو باهتًا وعديم القيمة.

أما العنصر الثاني فكان نقلة إلى منظور الشاهد. لقد حرصهم على أداء واجبهم في الحاضر («أن نستعد لمواجهة واجباتنا»)، ولكنه في الوقت نفسه، ارتقى بهم بكلماته إلى موضع أعلى، إلى علو النسور، حيث ينظرون إلى صراعاتهم الحاضرة من مستوى أسمى. ومن هذا العلو، تنظر الذات الكبرى إلى الذات الصغرى وتقول بإعجاب: «كانت تلك أعظم ساعة في حياتهم».

لقد أدخل تشرشل جمهوره إلى أعماق مخيلته الجبارة، حيث كانت الحرب قد حُسمت والنصر قد تحقق بالفعل.

قمر رودولف هس الكامل

صادفت الذكرى السنوية الأولى لتولي تشرشل رئاسة الحكومة، في 10 مايو 1941، ليلة اكتمال القمر، وأيضًا أعنف غارة شنّها سلاح الجو الألماني على لندن حتى ذلك الحين. في وابل من القنابل، قُتل ألف وخمسمائة مدني، ودُمرت مبان كثيرة، منها قاعة مجلس العموم. وفي تلك الليلة نفسها، هبط زائر غريب بمظلة في مزرعة قرب جلاسكو.

اكان أول ما علم به جوك كولفيل عن هذا الحدث هو خاطر غريب وجده في ذهنه عند استيقاظه. ربما كان أثر حلم طواه النسيان. وقد دون السكرتير الخاص لتشرشل انطباعه عن هذا الشعور في مذكراته يوم الأحد، 11 مايو، بهذه الكلمات: «استيقظت وأنا أفكر بلا سبب واضح في كتاب بيتر فليمنج «الزيارة الطائرة» Flying Visit، وأسرح بخيالي متسائلًا: ماذا لو قبضنا على جورينج أثناء إحدى طلعاته الجوية المزعومة

كانت رواية «الزيارة الطائرة» رواية فكاهية خيالية، مُصورة برسوم الكاريكاتير للفنان الشهير ديفيد لو، وقد نُشرت في العام السابق. تدور أحداثها حول وصول هتلر إلى لندن بطريقة غير متوقعة وبدون أي تهديد، عبر هبوطه بمظلة. كان مؤلف الرواية، بيتر فليمنج، كاتب رحلات ومغامراً معروفاً، يعمل حينها مع الاستخبارات العسكرية (فرع الأبحاث) لتشكيل شبكات مقاومة في بريطانيا تتصدى لغزو نازي محتمل؛ وكان شقيقه الأصغر، إيان فليمنج، موظفاً في الاستخبارات البحرية، وسيشتهر لاحقاً بصفته مبتكر شخصية جيمس بوند.

خرج كولفيل من شارع داوونينج متجهاً سيراً على الأقدام إلى قداس الصباح في كنيسة ويستمينستر. أما تشرشل، فكان قد غادر لندن إلى متجّع ديتشلي بارك، حيث اعتاد أن يقيم عند اكتمال القمر. كانت السماء فوق لندن زرقاء صافية، لكن الدخان المتصاعد من الحرائق المتقدة حجب ضوء الشمس، بينما كانت أوراق محترقة من مطحنة تشتعل تتطاير في الهواء كأوراق الخريف. وعندما وصل كولفيل إلى الكنيسة، وجد أنه لا تُقام بها أي شعائر، إذ إن قبلة كانت قد سقطت على السقف. فأشار إليه شرطي كان واقفاً في المكان نحو ساعة «بيج بن»؛ كان وجه الساعة مثقّباً ومشوهاً. وكتب في مذكراته: «لم يبدُ على لندن، بعد أي غارة سابقة، أنها مجروحة بهذا الشكل.» (581)

توجه كولفيل يتمشى إلى وزارة الخارجية ليتحدث مع صديق كان في نوبة عمل نهاية الأسبوع. وجد صديقه يتحدث على الهاتف، وما إن رأى كولفيل حتى قال لمحدثه: انتظر لحظة، أعتقد أن هذا هو الرجل الذي تريده. كان المتصل دوق هاميلتون، عضو البرلمان المحافظ الذي تقع ضيعة عائلته بالقرب من جلاسكو، وكان يرغب في التحدث إلى السكرتير الخاص لرئيس الوزراء. وعندما تناول كولفيل الهاتف، أخبره الدوق بقصة «رائعة» بدت وكأنها مأخوذة من روايات التجسس: أحد كبار النازيين هبط في إسكتلندا في مهمة سرية. قال كولفيل: «في تلك اللحظة تذكرت بوضوح

(580) Colville, *Fringes of Power*, p. 385.

(581) Ibid., p. 386.

أفكاره التي راودتني عند الاستيقاظ عن كتاب بيتر فليمنج، وشعرت بيقين أن هتلر أو جورينج هو من وصل». (582)

لكن في الحقيقة، كان النازي الذي هبط هو رودلف هس، نائب الفوهرر؛ فقد أُلْعِن بنفسه بطائرة من طراز ميسرشميت 110، وتركها تتحطم بعد أن قفز منها بالمظلة بالقرب من ضيعة دوق هاميلتون، الذي سبق أن التقى به خلال دورة الألعاب الأولمبية في برلين عام 1936، وكان يأمل أن يصطحبه لمقابلة الملك جورج السادس.

عندما تمكن كولفيل من الوصول إلى تشرشل عبر الهاتف، قال له رئيس الوزراء أن يرسل الدوق لمقابلته؛ شرط أن يتأكد أولاً من أنه يتعامل فعلاً مع دوق هاميلتون «وليس مع مجنون». (583) وعندما وصل الدوق إلى ديتشلي بارك، وجد تشرشل مسترخياً يشاهد فيلماً للإخوة ماركس. فقال تشرشل: «في وجود هس أو من دونه، سأكمل مشاهدة الإخوة ماركس». (584)

وخلال الاستجواب، أوضح هس أن مهمته كانت التفاوض من أجل السلام، بهدف إقامة تحالف بريطاني ألماني ضد الاتحاد السوفيتي؛ وهو ما كان يتطلب إزاحة تشرشل من منصبه.

لم يُبلغ الرأي العام البريطاني بأمر هس إلا في الحادية عشرة والثلاث مساءً من يوم الاثنين، 12 مايو، حين قرأ مذيع في هيئة الإذاعة البريطانية بياناً صاغه تشرشل بنفسه. وقد منح هذا الخبر دفعة معنوية كبيرة للبريطانيين بعد موجة القصف الرهيبة. قال تشرشل في البرلمان إن رحلة هس كانت من تلك الحالات التي «تُربك فيها الوقائع الخيال؛ إذ تظهر على نحو لا يخطر ببال». وأمر بأن يُحتجز هس في حبسٍ انفرادي. أما الملابس الغربية لهذه الحادثة، فقد غدت عددًا من نظريات المؤامرة، خاصة في ظل التأخر الطويل من جانب الحكومة البريطانية في نشر الوثائق ذات الصلة، وانتحار هس في عام 1987 في سجن شبانداو في برلين، حيث كان قد حُكِم عليه بالسجن المؤبد

(582) Ibid., p. 387.

(583) Ibid.

(584) David Stafford, Churchill and Secret Service (Woodstock: Overlook Press, 1997), p. 219.

كمجرم حرب في محاكمات نورمبرج. وبما أن القصة تحمل عناصر روائية بامتياز، فمن المناسب أن تدور بعض الحكايات حول مبتكر شخصية جيمس بوند نفسه.

كان إيان فليمينج على تواصل مع الساحر البريطاني الغريب الأطوار أليستر كراولي، الذي استخدمه لاحقاً كنموذج لشخصية «لو شيفر» في روايته «كازينو رويال». ونظراً لشغف هس الواضح بعلم التنجيم والنظريات الباطنية، دبر فليمينج خطة بالاشتراك مع كراولي لخداع هس ودفعه إلى التواصل مع شبكة مزيفة من الغامضين المعادين لتشرشل. إلا أن هذه الخطة أصبحت بلا فائدة حين قرر هس أن يُخلّق بنفسه إلى اسكتلندا. وقد قيل إن إيان فليمينج واصل دوره لاحقاً عبر قنوات أخرى في عملية تضليلية وقع هس ضحيتها، لكن الأدلة على ذلك لا تزال حتى الآن غير مؤكدة. (585)

تشرشل، الذي كان يعشق «العمليات الطريفة»، كان ليُسر بلا شك بخطة خداع من هذا النوع تستغل سذاجة أحد قادة النازية وإيوانه بالخرافات، لكن مذكرات جوك كولفيل تشير بقوة إلى أن تشرشل لم يكن أحد أطراف عملية خداع كهذه، إن كانت حقيقية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

هل يمكن أن تُسبب هذه الأحلام أي ضرر؟

من بين جميع وثائق تشرشل، لا نجد الكثير عن أحلام نومه. لا يبدو أنه احتفظ بمفكرة للأحلام، كما أنه قلما تحدث عن عالم أحلامه مع أي أحد حتى في سنواته الأخيرة. لكنه تحدث عن تجربة رؤيوية مرعبة وقعت له عام 1938، بعد استقالة أنطوني إيدن من الحكومة احتجاجاً على سياسة الاسترضاء التي انتهجها تشامبرلين. خلال ليلة مضطربة بلا نوم، رأى تشرشل شاباً شجاعاً يصارع وحيداً قوى ظلام هائلة. ثم، مع انبلاج الفجر الرمادي، تراءت له هيئة الموت منتصبه فوق سهل رهيب.

وعلى النقيض من ذلك، في الليلة التي تلت توليه منصب رئيس الوزراء - في 10 مايو 1940 - نام تشرشل نومًا هادئًا، رغم الأعباء الجسيمة التي كان ينوء بها. وقد

(585) See Anthony Masters, The Man Who Was M: The Life of Charles Henry Maxwell Knight (Oxford: Basil Blackwell, 1987).

قال بابتسامة إنه لم يكن بحاجة في تلك الليلة إلى «أحلام تسر النفس»، ف «الوقائع أفضل من الأحلام».⁽⁵⁸⁶⁾ وخلال فترة رئاسته للحكومة في زمن الحرب، ظل تشرشل، على الأقل من الواجهة، يحتفظ بمظهر من ينام بعمق وسهولة، مستعدًا عند استيقاظه لمواجهة «صناديق» الأعمال الرسمية التي يحملها النهار بكل حزم. وقد تحدث عن «هبة سعيدة» يملكها هي قدرته على السقوط مباشرة في نوم عميق.⁽⁵⁸⁷⁾ ومن المحتمل أن قيلولاته الشهيرة لم تكن فقط للراحة، بل كانت مصدر إلهام لأحلامه؛ فقد كان كثيرًا ما ينهض منها بحل واضح لمشكلة ما، إلى جانب طاقة متجددة.

ربما كان تشرشل يهيئ نفسه لحل المشكلات أثناء النوم - كأنه يفرغ مكتبه العقلي - من خلال ممارسة ليلية وصفها بنفسه في أواخر صيف عام 1940 قائلاً: «كل ليلة، أجري لنفسي محاكمة عسكرية لأتبين إن كنت قد أنجزت شيئًا فعليًا خلال اليوم. لا أعني مجرد شيء سطحي؛ فبإمكان أي شخص أن يتظاهر بالعمل، بل أقصد أمرًا فعليًا بحق».⁽⁵⁸⁸⁾ يمكننا أن نتخيله يتجول في غرفته مرتديًا رداءه المزين بالتنانين الذهبية، وهو يستجوب نفسه قبل أن يخلد للنوم.

وأفضل مصدر لتتبع أحلام تشرشل الليلية هو مذكرات طبيبه الشخصي، اللورد موران، بعد الحرب؛ إذ وردت فيها أحلام شاركها تشرشل خلال الفترة التي بدأ فيها تدهور حالته الصحية - ولعل أحد هذه الأحلام كان نذيرًا بجلطة دماغية - وكان آنذاك منشغلًا بخوض حرب باردة ضد السوفييت. فعلى سبيل المثال، في أوائل عام 1952، استيقظ تشرشل من نومه مفزوعًا في مقصورته على متن السفينة «كوين إليزابيث» قائلاً إنه رأى في الحلم أنه «لا يستطيع أن يمشي بشكل مستقيم أو يرى بشكل سليم»، فسارع إلى اختبار ذلك بنفسه عبر التجول في الغرفة.⁽⁵⁸⁹⁾

في نهاية ذلك العام، قال تشرشل لطبيبه: «أحلم كثيرًا. لماذا يحدث ذلك؟ أحلامي

(586) Winston Churchill, *The Gathering Storm* (Cambridge, MA: Houghton Mifflin, 1948), pp. 522-523.

(587) *Ibid.*, p. 325.

(588) Colville, *Fringes of Power*, p. 231.

(589) Moran, Churchill: *Taken from the Diaries*, p. 395.

دائمًا ممتعة، حتى أنني أشعر بالأسى عندما أستيقظ. أود لو استمرت. إنها بالغة التعقيد. لقد حلمت الليلة الماضية بعشرة سيجار، كانت ضخمة الحجم، ومربوط بكل واحد منها ورقة تحمل تاريخ ذلك السيجار تحديدًا.» لم يذكر ما إذا فكر أحدهما في محاولة قراءة تواريخ تلك السيجار العملاقة، أو أن يكون قد خطر لأحدهما أن في الحلم إشارة تحذيرية صحية. كل ما سجله موران في مذكرته هو أن تشرشل كان يُظهر «دلائل الشيخوخة التي لا تخطئها العين»، لكنه «لم تكن لديه أي نية للتراجع أو الاستسلام».⁽⁵⁹⁰⁾

وفي أوائل عام 1953، كان ممتلئًا بالحيوية، يتصرف كما لو أنه قادر على إنجاز مهام نصف أعضاء الحكومة قبل الإفطار، وقد نسب تشرشل الفضل في نشاطه وسلامة مزاجه إلى أحلامه، قائلاً: «أحظى بأحلام ممتعة للغاية؛ تفاصيلها مُتقنة بجمال شديد. أشعر فيها وكأنني أعيش مشهدًا أو موقفًا بعينه.»⁽⁵⁹¹⁾

وفي الثاني من سبتمبر عام 1953، شارك تشرشل طبيبه حلمًا قد يحمل نبوءة بعيدة المدى: «رأيت الليلة الماضية امرأة ضخمة، على شاكلة إليانور روزفلت، وكانت هي رئيسة الولايات المتحدة. كل شيء كان حيًا بوضوح مذهش، وأريد أن أعرف ما معناه.»⁽⁵⁹²⁾ لم يخبرنا موران ما إذا كان قد ناقش احتمال أن تتولى امرأة رئاسة أمريكا ذات يوم، بل اكتفى بتسجيل أن تشرشل، كما في مناسبات كثيرة أخرى، كان متحمسًا للحصول على تفسير خبير لأحلامه. قال له: «هل تعرف شيئًا عن الأحلام، يا تشارلز، ومعانيها؟ لديّ أحلام غريبة، متقنة، معقدة. أستيقظ، وحين أعود إلى النوم، فإنها تستأنف سيرها.»⁽⁵⁹³⁾ وأكد على أنها «أحلام ممتعة».

وبعد تسعة أيام فقط من لقائه الخيالي برئيسة أمريكية، حلم تشرشل بأنه ساهم في القضاء على معظم قيادات الاتحاد السوفيتي: «رأيت في المنام أننا على متن قطار في

(590) Ibid., p. 420.

(591) Ibid., p. 429.

(592) Ibid., p. 496.

(593) Ibid.

روسيا، مع جميع البلاشفة الروس: مولوتوف، مالينكوف، جوكوف، وفوروشيلوف؛ العلاقة بيننا كانت حيّة، دقيقة، ومضبوطة. حدثت ثورة مضادة. كان لدينا نوع خاص من القنابل، لم تكن أي منها أكبر من علبة كبريت، لكنها ذات تأثير محدود جدًا في النطاق. استخدمناها للقضاء على الروس، جميعهم، ولم يتبق أحد. لقد نجحت الثورة المضادة تمامًا. استمر الحلم وقتًا طويلًا. «ثم سألت طبيبه: «هل يمكن أن تُحدث هذه الأحلام ضررًا، يا تشارلز؟»⁽⁵⁹⁴⁾ وكالعادة، لم يدون موران ما إذا كان قد أجاب عن السؤال، أو بماذا أجاب إن كان قد فعل.

في 20 يوليو 1955، دون موران هذه العبارة المختصرة لتشرشل: «رأيت حلمًا مثيرًا. كنت أتحدث إلى إدوارد جراي، قبل أربعين سنة. كانت محادثة طويلة.» وبينما كان تشرشل يحدث طبيبه، حط طائر ببغاء صغير على يده، فرفعه تشرشل إلى شفتيه بحنان، كما لاحظ موران. لم يستطع تشرشل تذكر شيء آخر من الحلم، سوى أنه تحدث إلى رجل دولة ميت منذ زمن بعيد. ثم انزلق في شكوى عن مقدار الجهد الذي يتطلبه تصحيح الأجزاء الثلاثة من عمله الضخم عن تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية، وعن صعوبة الفصل بين الحقب المختلفة في ذهنه. بدا وكأن الزمن بدأ يتداخل في أفكاره وتخيلاته، حيث يعبر الأموات إلى عوالم الأحياء، والأحياء إلى عوالم الأموات. قال متنهّدًا: «لا يجب أن أنغمس في ذلك كثيرًا. لا أملك سوى أن أموت.»⁽⁵⁹⁵⁾ وعندما عاد موران بعد بضعة أيام إلى تشارتويل، وجد تشرشل جالسًا بجوار البحيرة يتأمل البجع الأسود.⁽⁵⁹⁶⁾ وإن كان تشرشل قد قصّ عليه أحلامًا أخرى، فلم تُدوّن. وربما تضاءلت قدرته على تذكر الأحلام بسبب الحبوب المنومة التي بدأ الطبيب بوصفها له.

الرسم في العالم الآخر

في سنواته المتأخرة، كثيرًا ما خفت بريق الإنجازات العظيمة في ذهن تشرشل، أمام

(594) Ibid., p. 501.

(595) Ibid., p. 723. Sir Edward Grey was British foreign minister from 1906 to 1915.

(596) Ibid., pp. 723–724.

ما فشل في تحقيقه. فمنذ اندلاع الثورة البلشفية، لم يفارقه هاجس إسقاط الشيوعية السوفييتية، غير أنه في عام 1945، رأى بأم عينيه «الستار الحديدي»، كما أسماه، ينحدر على شرق أوروبا. ولهذا السبب، عنوان المجلد الأخير من تأريخه للحرب العالمية الثانية بعنوان يجمع بين النصر والفجيعة: «الانتصار والمأساة» Triumph and Tragedy. ومع ذلك، وفي مستهل عام 1953، قال لجوك كولفيل بثقة نبوية إنه إذا امتد عمر هذا الشاب إلى مداه الطبيعي، فسيرى أوروبا الشرقية وقد تحررت من قبضة الشيوعية.⁽⁵⁹⁷⁾ كانت نبوءته صائبة تمامًا، ولعل هذا التكهن المذهل يضيف برهانًا آخر إلى موهبة تشرشل النادرة في استشراف الزمن، إذ قل أن يوجد في قادة الغرب من استطاع أن ينظر بهذه البصيرة، إلى هذا الحد البعيد، وبهذا القدر من اليقين.

كان تشرشل، الذي سخر منه خصومه الأوائل بوصفه «نصف أمريكي» بسبب والدته الأمريكية الجميلة جيني جيروم، يتوق إلى لم شمل بريطانيا وأمريكا في تحالف عظيم يجمع الشعوب الناطقة بالإنجليزية. كانت هذه رؤية أخرى لم تتحقق، سوى في صفحات التاريخ البديل. في أحد أعياد ميلاده، حين بلغ السبعين من عمره، رد على دهشة ابنته ديانا من كل ما أنجزه في حياته قائلاً: «لقد أنجزت أكثر مما أنجزته في نهاية الأمر».⁽⁵⁹⁸⁾

ومع ذلك، ظل يجد عزاءه في الرسم حتى اقتراب النهاية؛ فقد لاحظ ذات مرة أن العمل بالنسبة إلى معظم الناس هو عمل، والمتعة هي متعة، لكن بالنسبة إلى البعض «العمل والمتعة شيء واحد... أولئك المحظوظون من أبناء الحظ ينتمون إلى هذه الفئة الثانية. فبالنسبة لهم، لا تكون ساعات العمل كافية أبدًا، وكل يوم هو بمثابة عطلة».⁽⁵⁹⁹⁾ ومع ذلك، فإن التغيير والتجديد أمران ضروريان، وكان الرسم بالزيت يمنح تشرشل التوازن وذلك «التجديد» الذي لا غنى عنه. وقد بدأ الرسم في سن الأربعين، في ذروة يأسه الشخصي بعد كارثة جاليبولي عام 1915. وكان قد أبعد إلى

(597) Colville, Fringes of Power, p. 658.

(598) Sarah Churchill, A Thread in the Tapestry (London: Andre Deutsch, 1967), p. 17.

(599) Winston Churchill, "Hobbies," in Thoughts and Adventures (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949), p. 228.

هامش الحياة السياسية في خضم الحرب، وشعر كما قال بأنه «مثل وحش بحري جُذب من الأعماق، أو غطّاس تم سحبه فجأة ... عروقي توشك أن تنفجر من شدة الضغط.»⁽⁶⁰⁰⁾ فوجد في الرسم متنفسًا له. بدأ بصندوق ألوان أطفال، ثم اشترى مجموعة كاملة للرسم بالزيت، ولم يتوقف حتى خذله جسده وعقله.

قال تشرشل ذات مرة: «عندما أصل إلى السماء، أنوي أن أقضي جزءًا كبيرًا من أول مليون سنة في الرسم، كي أبلغ أعماق هذا الفن. لكنني سأحتاج هناك إلى لوحة ألوان أكثر بهجة مما أملكها هنا في الأسفل. أتوقع أن يكون البرتقالي والقرمزي من أغمق الألوان وأكثرها كآبة على تلك اللوحة، وما بعدها سيتمد طيف كامل من ألوان عجيبة جديدة تُبهج العين السماوية.»⁽⁶⁰¹⁾

وعلى الرغم من أنه - في سنواته المبكرة - كان متشككًا في ادعاءات الأديان، فإن لقاءاته مع الراحلين أقنعتة تمامًا بوجود حياة بعد الموت. وقد لاحظ سكرتيه الخاص القديم أنه «في سنواته الأخيرة، نما لديه بلا شك يقين بأن هذه الحياة ليست نهاية المطاف.»⁽⁶⁰²⁾ وبينما تخيل نفسه رسامًا في السماء، أخبر طبيبه بأنه إن كان عليه أن يمر أولًا بالمطهر، فسيأخذ معه آلة زمن؛ وبالتحديد، نسخة من رواية «آلة الزمن» لهربرت جورج ويلز.⁽⁶⁰³⁾ من السهل أن نتخيل تشرشل وهو يسافر عبر الزمن، يتفقد الناس والأحداث من منظور رجل تحرر من قيود الواقع المعتاد. ونظرًا لولعه بالتاريخ البديل، فلا شك أنه سيتجاوز رؤية ويلز - التي اقتصرت على مسار زمني واحد - ليستكشف المسارات المتفرعة بلا نهاية والتي كان من الممكن أن تسلكها الأحداث. وبما أنه كان شغوفًا بتدوين مغامراته، فليس من الصعب تخيله يؤلف قصصًا مذهشة كنا لنقرأها، لو أتيح لنا، على أنها أدب خيال علمي. بل من الأسهل تصوره يرسم بألوان لا وجود لها في الطيف الأرضي، في عالم خُلق على الجانب الآخر.

(600) Winston Churchill, "Painting as a Pastime," in *Thoughts and Adventures* (1932; reprint, London: Odhams Press, 1949), p. 234.

(601) Ibid., p. 240.

(602) Colville, *Fringes of Power*, p. 128.

(603) December 7, 1947; Moran, Churchill: *Taken from the Diaries*, p. 352.

خاتمة

التاريخ اللاحق للأحلام

في حلمي، هز الملاك كتفيه وقال: «إن فشلنا هذه المرة، فسيكون فشلًا في الخيال». ثم وضع العالم برفق في راحة يدي.

— إريكا يونغ

بينما كنت أعمل على هذا الكتاب، وجدت نفسي على متن طائرة، جالسًا بجوار فتاة صغيرة مستديرة الوجه ترتدي اللون الوردي. كانت والدتها تناديه باسم «ماوس» ولم تُبدِ أي اهتمام بالحديث معها، لكن الفتاة كانت مفعمة بالفضول بشأن كل شيء، من نظام التهوية إلى خلق العالم، وظلت تمطرني بالأسئلة والقصص طوال الرحلة.

نظرت من النافذة بينما كنا نحلق فوق طبقات الغيوم، وقالت: «يبدو كأننا نطير فوق الزجاج.»

أدهشتني غضاضة هذا التعبير.

سألته: «هل سبق أن هبطت من السماء في الماء؟»

قلت: «ليس في هذا الجسد.»

«لكن هل يمكن للناس أن يفعلوا ذلك؟»

«نعم، بالتأكيد. ثمة نوع من الطائرات يُسمّى الطائرة العائمة أو الطائرة البحرية، تهبط على عوامات تُبقّيها طافية. وهناك أيضًا مركبات فضائية تهبط ويتم انتشالها.»

«هل سبق أن لمست الشمس؟»

«ليس بيدي».

قالت: «أحياناً أشعر أن الشمس تلاحقني، من قرب شديد».

شعرت أنا أيضاً بدفئها. بدأت أدون ملاحظات ذهنية. كانت هذه الفتاة نبعاً من الكلمات الطازجة.

قطّبت حاجبيها وسألتني مباشرة: «كيف اخترع العالم؟»

فعلت ما بوسعي لأجيب: «بعض الناس يقولون إن الله خلق العالم. وآخرون يقولون إنه بدأ بانفجار عظيم، وإن مادة النجوم استمرت في التوسع منذ ذلك الحين».

قالت لي: «أنا أعرف صبيّاً يقول إن الله خلق العالم حين نفخ الرمل».

ثم رفعت بصرها إلى فتحة التهوية وطلبت مني أن أريها كيف تعمل. شرحت لها أنه إذا أدّرت المقبض إلى اليسار، بعكس اتجاه عقارب الساعة، فإن الهواء يبدأ بالخروج. أما إذا أدّرتة إلى الجهة الأخرى، يتوقف.

قالت الفتاة ذات الرداء الوردى: «ربما خلّق الكون بهذه الطريقة. الله أدار كل شيء بعكس اتجاه عقارب الساعة».

ثم ضحكت، وقد راققتها نظريتها. أما والدتها، فقد بدت متجهمة؛ فلم يكن من المفترض بـ «ماوس» أن تضحك.

تُظهر المحادثة مع «ماوس» أمراً جوهرياً في الخيال: فالأطفال هم أمراء الخيال وأميراته بالفطرة، ما لم يستحقهم عالم الكبار ويقضي على فضولهم وشعورهم بالدهشة. وإذا ما خاننا خيالنا، فذلك لأننا فقدنا الصلة بذلك الطفل المتعجب في داخلنا؛ ذاك الذي يستطيع أن يتخيل الله يخلق العالم بلّفة واحدة إلى اليسار.

تُبدع لولي يانج - التي تُعدّ من أكثر مصمّات الأزياء أصالةً وشهرةً في أمريكا - وهي تستحضر بوعي الطفلة الكامنة في داخلها؛ تلك التي تؤمن بأنها قادرة على الطيران. استوحت لولي مجموعة خريف 2007 من أحلامها المتكررة في الطفولة

بالطيران. وفي مرسومها في سياتل، قالت لي: «أحلامي بالطيران كانت محرّرة.»

كانت في طفولتها المبكرة، كلّما حلمت بأنها مُلاحقة، تكون دومًا القادرة على الطيران، فتفلت من مَنْ يطاردها وتحلّق إلى أماكن أكثر بهجة. نشأت في تايوان وعاشت في اليابان. كان لها أصدقاء في بلدان أخرى، وتظل على تواصل معهم بالطيران إليهم في أحلامها. «كانت وسيلة فعّالة جدًّا للبقاء على اتصال؛ وبدون إرهاق السفر.»

في فبراير عام 2007، بينما كانت لولي تُخطّط لعرض الأزياء السنوي الخاص بها، راودها حلم بالطيران، واستيقظت مشحونة بسحر أحلام طفولتها. أخبرت فريق عملها أنها ترغب في تسمية العرض «الأحلام تحلّق» Dreams Take Flight، رغم أن التحضيرات كانت قد قطعت شوطًا كبيرًا على أساس موضوع مختلف. غير أن الموضوع الجديد بدا أكثر ملاءمة، لا سيما وأن العرض خُطّط له أن يكون لصالح مستشفى الأطفال، الذي يتخذ من المنطاد شعارًا له.

تصف لولي تجربتها مع الطيران في الحلم على النحو التالي: «أكون في جسدي، وأشعر بجريان التيارات الهوائية. أطيّر فوق المحيط، وبين المدن، بسرعات متفاوتة. أحيانًا أطيّر بسرعة كبيرة يصعب التحكم فيها. أنطلق من قمة جبل إلى سطح مائي ساكن، بلون أزرق استوائي. السطح أملس كالزجاج، والماء صافٍ لدرجة أنني أرى القاع بوضوح. يثيرني الفضول لمعرفة ما في الأعماق، فأقرر أن أغوص إليه. أكتشف أنني أستطيع التنفس تحت الماء، ما يمنحني حرية كاملة في الاستكشاف. أتنقل بين الماء والهواء، أو أكون بينهما.»

وقد انقسم عرض «الأحلام تحلّق» إلى خمسة أقسام، مثل كل منها جانبًا من حلمها. استدعى فستان أبيض فضي، صُنِع من أقمشة يابسة وطُوي بطرق غير مألوفة، صورة الطائرات الورقية في الأذهان. وجاء فستان آخر بلون أزرق جليدي مع لمسات فضية، بينما حمل تصميم «الشفق القطبي» ألوانًا ساطعة استلهمت من صورة لجبال عند الغروب، تم تكبيرها حتى لم يبقَ منها سوى أشربة الألوان وتدفقها. أما تصاميم أخرى فقد استحضرت بريق ضوء القمر المنعكس على المحيط، وتوهّجه في أعماق

الفضاء، وشعور التحليق فوق سطح البحر ثم الغوص إلى الأعماق.

الأحلام جزء من أسلوب لولي في العمل الإبداعي والحياة الإبداعية. تقول: «تساعدني الأحلام على إدراك الأمور. أنام وفي ذهني سؤال، فيأتي الحلم بحل للمشكلة أو يفتح لي أفقًا جديدًا. عندما نحلم، لا تشبثنا حواسنا، فنصبح قادرين على التركيز بعمق.»

سافر نيك كومبو، وهو معلم أسترالي شاب من ملبورن، إلى سفوح سيرا نيفادا في صيف عام 2007، لحضور ورشة عمل بعنوان «الحلم من القلب» Dreaming from the Heart كنت أقودها في منطقة حمى الذهب الأصلية في كاليفورنيا. وقد أدركت منذ البداية أن عطلة نهاية الأسبوع هذه ستكون مثيرة للاهتمام، عندما أخبرني زوجان أمريكيان مسنان بسبب حضورهما. كان الزوج قد تلقى منشورًا دعائيًا للورشة، يحمل صورة طائر الطنان. كان قد خضع مؤخرًا لجراحة قلب مفتوح، فاستوقفه عنوان الورشة وما ورد في المنشور من أن طائر الطنان هو «دواء للقلب». وبينما كان لا يزال مترددًا في حضور الورشة، فتح باب سيارته وهو ممسك بالمنشور، ليجد طائر طنان يرفرف داخل المركبة. أغلق الباب على الفور، وذهب لينادي زوجته، معتقدًا أنها لن تصدق ما حدث إن لم تره بعينيها. وعندما عادا وفتح الباب مجددًا، انطلق طائر طنان من الداخل. قال لنا مبتسمًا: «قررنا عندها أننا بحاجة فعليًا إلى حضور ورشة عمل طائر الطنان.»

أما الهدية الأثمن التي جلبها لي ذلك الأسبوع فكانت حلماً رواه زميلي الأسترالي الشاب نيك صباح يوم الأحد. في المشهد الأول من الحلم، كان في أحد الأحياء الفقيرة في ملبورن، بين لاجئين من منطقة بابوا الغربية الخاضعة لحكم إندونيسيا، وهم أناس لطالما حاول دعمهم في حياته الواقعية. ثم، في الحلم، قضم فلفلة حارة للغاية، فانفجر المشهد ليتحول إلى عالم مليء بالألوان الزاهية. وسأدع نيك يروي بقية مغامرته بنفسه:

وصلتُ إلى مبنى كبير. كان يبدو مثل مبنى جامعي شهير، لكنه كان مُغطى الآن ببلاط متعدد الألوان، تتداخل فيه درجات البرتقالي والأحمر والأصفر والأخضر

الزاهي. ومن خلف الواجهة، رأيتُ بيتًا زجاجيًا هائلًا يعجّ بتلاميذ مدارس صغار، يمرحون ويلعبون ألعابًا مرتبطة بالأحلام. كانوا يهتزون، ويتلوون، ويرقصون، ويتحركون؛ يجسدون أحلامهم ويؤدونها، ويتعاملون مع فعل الحلم من خلال حركة أجسادهم. وكانوا في غاية السعادة!

ثم، وفي الطرف الآخر من المبنى، لمحتُ وجه طفل أعرفه يبلغ من العمر نحو عشر سنوات. كان الأطفال الأكبر سنًا هناك يشاركون أحلامهم، ويصوغون منها قصصًا، ويتبادلون الاقتراحات والتعليقات. بعضهم كان لا يزال في بداية الطريق. بدا على إحدى الفتيات أنها تُرغي من فمها، وتجذ صعوبة اللغة في الحديث علنًا عن تجربتها، لكنها ستتعلم!

لقد سحرتني تمامًا ما أراه. أدركت أنني ألتقى رؤى حول طرق يمكن من خلالها تحويل العمل بالأحلام مع الأطفال إلى واقع، وإدخال فن الحلم في نظامنا التعليمي على جميع المستويات. أحسست بذلك الشعور القوي: «وجدتها!».

تساءلتُ عما أحدث هذا التحوّل. وفجأة وجدت نفسي داخل سيارة مع أربعة من أولئك الأطفال في سن العاشرة. كانوا مفعمين بالحياة والسعادة، يتحدثون معي عن أحلامهم وما يفعلونه بها. جميعهم يحتفظون بدفاتر أحلام ويحصلون على درجات في المدرسة مقابل ذلك. ثم بدأوا يغنون أغنية لمغنية بوب شهيرة عنوانها «مذكرتي السرية» My Secret Diary. تتحدث الأغنية عن الكنوز التي يعثر عليها المرء في دفتر أحلامه. ويبدو أن كل شيء تغير في الثقافة عندما اكتشفت تلك المغنية سحر الأحلام وجسّدته في أغنياتها.

سواء جاء التغيير على النحو الذي رآه نك في حلمه، أو جاء على نحو آخر، فإنه لا بد أن يحدث. نحن بحاجة إلى أن ندعم أطفالنا ونشجعهم، منذ السنوات الأولى في مدارسهم، على مشاركة أحلامهم، وعلى أدائها، وكتابتها، والإبداع من خلالها، وعلى نقل الطاقة والرؤى التي يحملونها من عالم الحلم إلى الحياة اليومية. عندها، سيكون بمقدورهم أن يعلموا آباءهم وكبارهم كيف يتوقفون عن إجبار الطفل السحري في

داخلهم على أن يلعب دور الفأر الصغير.

الانتقام من مونتيروما

دعونا نتأمل حلقة أخرى من التاريخ، بوصفها حكاية تحذيرية عما يحدث حين تُسكت ثقافة ما حُلّامها.

قبل أن تقع أعين مواطني الأزتك على أي أوروبي، أو يسمعون صوت السلاح الناري، بدأ الناس في المكسيك يحلمون بأشياء غريبة ومروعة. رأوا المعابد تشتعل، والمدن تُدمّر. ورأوا أشياء لا تملك لغة الناهواتل⁽⁶⁰⁴⁾ كلمات تصفها. وحين حاول الحالمون تفسير رؤاهم، تحدثوا عن جبال تتحرك فوق المياه، وعن أفاعٍ من معدن لامع تنفث النيران.

جاءت تلك الرؤى في أعقاب نذر شؤم مثل ظهور مذنب هالي، الذي اعتبره العرافون علامة فادحة تنذر بعالم يُقلب رأساً على عقب. وانتشرت أخبار تلك الأحلام الشريرة، التي رآها أناس يُوقرون لكونهم حُلّامًا ذوي شأن، فأثارت قلقًا عميقًا في النفوس. عندها، استدعى إمبراطور الأزتك، موكتيسوما الثاني – الذي يُعرف في العالم الأنجلوساكسوني باسم مونتيروما – بعض كبار الحالمين ليخبروه شخصيًا عما رأوه.

وإليك ما استطاع الراهب فراي دييجو دي دوران أن يستخلصه من ذاكرة الشيوخ بعد الغزو: أبلغ مونتيروما أن «بعض العجائز حلموا بأشياء عجيبة»، فأمر بإحضارهم إلى حضرته. قال له أحدهم: «في هذه الليالي الأخيرة، أرانا سادة النوم معبد هويتزيلوبوشتي يحترق بلهب مخيف، وكانت الأحجار تتساقط حجرًا وراء حجر، حتى دُمّر كليًا». وقالت له عجوز: «في أحلامنا، نحن أمهاتك، رأينا نهرًا هائلًا يقتحم أبواب قصر ك الملكي، فيجتاح الجدران بغضب، ويقتلعها من أسسها، حاملاً معه

(604) لغة ناهواتل: لغة أصلية في أمريكا الوسطى، وتحديدًا في وسط المكسيك، ويتحدث بها حوالي 1.5 مليون شخص. تنتمي لغة الناهواتل إلى عائلة اللغات الأوتو-أزتيكية، وكانت لغة الإمبراطورية الأزتيكية. (المترجم)

لا شك أن أولئك القائلين بالحقيقة كانوا شجعاناً، إذ تجرؤوا على إبلاغ الطاغية بأحلام لا يجب سماعها، وهو من أصدر أمراً مفاده أن «أي رجل من عامة الشعب يتجرأ ويرفع عينيه لينظر إليه، يجب أن يُعدم في الحال». لم يكن مونتيزوما على استعداد لتحمل أحلام مشؤومة. فبعد النجم الساقط وسائر النذر السيئة، يمكن لمثل هذه الأحلام أن تشجّع الولايات التابعة والمكائد الداخلية في العاصمة على الاعتقاد بأن الحظ قد هجر الملك، وأن ساعته قد أزفت. كافأ مونتيزوما هؤلاء الحالمين بالقائهم في السجن، وأمر بأن تُقدّم لهم كميات ضئيلة من الطعام، حتى يموتوا جوعاً ببطء مريع.

وقد تمكن بعض الحالمين من الهرب، على الأرجح بمساعدة بعض الحراس الذين آمنوا بقدراتهم. فأمر مونتيزوما جنوده بالتوجه إلى مدن كل من تنبأ بأشياء شريرة، وقال لهم: «أهدموا بيوتهم. اقتلوا نساءهم وأطفالهم. واحفروا الأرض في أماكن بيوتهم حتى تصلوا إلى الماء. يجب أن تُدمّر جميع ممتلكاتهم. وإن شوهد أحدهم يوماً في معبد، فليُرجم حتى الموت، ويُلقى بجسده للوحوش».

«بعد ذلك»، كما يروي ديبجو دي دوران: «لم يعد أحد يرغب في إخبار مونتيزوما بأحلامه». (606)

لقد نجح مونتيزوما في تسمية بصر إمبراطوريته. وعندما ظهرت الجبال التي تتحرك فوق الماء على هيئة سفن الغزاة الإسبان، كان الأزتِك في غفلة تامة، بلا أي استعداد. وقد أصيب مونتيزوما بالذهول أمام مظهر أولئك الغزاة، الذين بذل الحالمون جهداً كبيراً في وصفهم. رجال أشداء، كثو الشعر، يكسوهم درع معدني، يمتطون وحوشاً غريبة بأربع أقدام، ويحملون أفاعي تنفث النار. وفي محاولة لفهم ما وقع، تمسكت حاشية مونتيزوما بنبوءة قديمة عن عودة إله من وراء البحر؛ وهي خرافة ساهمت في شل إرادتهم وعجزهم عن اتخاذ أي رد فعل.

(605) Diego de Durán, *The Aptecks: The History of the Indies of New Spain*, trans. Doris Heyden and Fernanda Horcasitas (New York: Orion Press, 1964), p. 246.

(606) *Ibid.*, pp. 247–271.

كثيرة هي العوامل التي أسهمت في سقوط إمبراطورية الأزتك، لكن أحد العناصر الحاسمة تمثل في أن الإمبراطور - رغم أنه «كان يؤمن بألف نذير وعلامة»⁽⁶⁰⁷⁾ - لم يكن يصغي إلى الأحلام التي لا تروق له.

«الذين يموتون هم أولئك الذين لم يفهموا؛ أما الذين سيحيون، فهم الذين سيفهمون»؛ هكذا يقول كتاب النبوءات الماياوي «تشيلام بالام»⁽⁶⁰⁸⁾ Chilam Balam. ولم يمض وقت طويل على الغزو حتى جاء ميكيا فيلي، ذلك التلميذ الصارم في مدرسة التاريخ والسلطة، ليقول: «إن الأحداث الجسيمة التي تقع في مدينة أو دولة غالبًا ما تسبقها علامات ونذر، أو رجال يتنبأون بها» («الخطابات» Discorsi، 7، 56). وفي خطأ مونتيrozما، توجد رسالة موجهة إلينا اليوم، وعلينا أن نصغي إليها.

عودة الرائي: مستقبل لا غنى عنه

نحن واثقون بتقنياتنا - تلك التي تستطيع أن تلتقط قطعة نيكل من الفضاء عبر قمر صناعي، أو أن تجعل امرأة في الستين تبدو كأنها في العشرين، بكل ما في ذلك من أعضاء مستعارة - فلم نعد نثق إلا بما يمكن قياسه وصناعته. لقد سلمنا مفاتيح صحتنا لأيدي الأطباء وخبراء التجميل ومروجي الحبوب. ونحن مهددون بأن نقفل خيالنا في أقفاص الترفيه الاستهلاكي، والواقع الافتراضي، والألعاب الجماعية الكبرى.

صرنا نوكل قراءة المستقبل إلى ما يُعرف بـ «المحترفين»: من المنجمين العصريين، والرياضيين، والجواسيس، والمستشارين. ونحن نمضي في دفع أجورهم، حتى بعدما يخفقون مرارًا وتكرارًا.

في الغرب، رغم كل هذا التقدم التكنولوجي، لا نزال نتلقى الصدمات من أحداث كبرى تفاجئنا، وتحطم الصورة التي رسمناها سلفًا للممكن. قلة من أولئك المعنيين بالأمن هي من كانت تظن أن شيئًا مثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر قد يحدث، إلى

(607) Motolinia, "Carta de Chihuahua" (1554), quoted in Tzvetan Todorov, The Conquest of America, trans. Richard Howard (New York: Harper & Row, 1984), p. 64.

(608) Todorov, Conquest of America, p. 77.

أن وقع بالفعل.

نحن في حاجة ماسة إلى إحياء فن الرؤية الحقيقي ورعايته. وقد رأينا كيف مارسه جان دارك. فلنكن الآن على بينة مما تتضمنه الرؤية الحقيقية - في الحاضر والمستقبل. هناك ثلاثة أنواع من الرائيين: المستقبلون، والمسافرون، وأصحاب الرؤية البعيدة.

يعرف المستقبلون أشياء لأن المعرفة تأتي إليهم أو تمر من خلالها، كما يحدث مع الوسيط الروحي. إنهم يتلقون زيارات، في اليقظة كما في النوم. وقد يكونون «متحدثين باسم الموتى»، ينقلون رسائل من الراحلين. وهذا النوع من المستقبلين يحظى بطلب كبير، نظرًا إلى كثرة الأرواح على الجانب الآخر التي تتوق بشدة إلى التواصل مع الأحياء. وقد يكون المستقبلون أيضًا من ذوي الحسّ المرفف، ممن يلتقطون ما يجري داخل أجساد الآخرين وحقولهم الطاقية. وأول ما يحتاج إليه هؤلاء من تدريب هو تعلم كيف يمحسون أنفسهم ويضعون فلاتر حماية، وقبل كل شيء، أن يطوروا حس التمييز. فلا بد أن يتعلموا كيف يلتقطوا ما هو مفيد دون أن يغمرهم سيل من مشاعر الآخرين أو مخلفاتهم النفسية. إنهم بحاجة إلى مساعدة في إقامة حدود طاقية صحية، وإلى تطوير أجهزة استشعار داخلية قادرة على كشف الزيف، وتمييز المعلومات الكاذبة أو المضللة.

أما المسافر فهو من يتعلم من خلال الذهاب إلى حيث تكمن المعرفة، سواء في هذا العالم أو في أبعاد أخرى من الواقع. هذه هي طريقة الشامان، والسفر خارج الجسد قد يُدعم بإيقاعات الطبول أو غيرها من أشكال «التحفيز الصوتي». تستخدم بعض الثقافات الأصيلة نباتات مهلوسة لتيسير السفر النجمي، وهناك حركة سياحية نشطة في العصر الجديد تتجه إلى الغابات لاستهلاك مواد مقززة مثل الآياهواسكا. لكن لا يُنصح باستخدام العقاقير للمسافرين من أبناء الثقافات الغربية، وهي ليست ضرورية على الإطلاق. فالمسافر المتمرس لا يحتاج سوى شيئين للانطلاق في رحلته، بعد أن يهدأ جسده في مكان آمن وهادئ: صورة ذهنية، ونية محددة. ويشمل التدريب الضروري للمسافر تعلم التعرف إلى طبيعة المركبات الطاقية المختلفة التي يمكنها العمل خارج

الجسد الفيزيائي، وتطوير علاقة قوية مع الحياة الروحيين الذين يحملون الحالمين ويرشدون رحلاتهم. وكما يعرف الأطفال الصغار والشامانات، لا يوجد رفيق أفضل في هذه الرحلات من حيوان حارس.

أما صاحب الرؤية البعيدة فهو من يعرف عبر توسيع بصره ليشمل ما يحتاج إلى معرفته، كأن يشغل ضوءًا داخليًا ويوجهه - كأنه كشاف يتمتع بقدرة اختراق تشبه الأشعة السينية - نحو هدف ما قد يكون في الجهة الأخرى من العالم، أو داخل البنى الجزيئية للجسد، أو في بُعد آخر. وقد يمثل البعد الرؤيوي أيضًا في عملية توسيع ذهنية، يكبر فيها مجال الوعي حتى يدخل فيه كل ما يلزم معرفته. وهذا أمر بالغ البساطة إذا فهمنا أنه ما إن نفكر في شيء أو شخص، فنحن بذلك نكون معه. فالفكر يسبق الضوء في السرعة، وبالتالي فالاتصال لحظي. السريكمين في أن نتنحى جانبًا، أن نُبعد فوضى الذهن العادي المنشغل بالتفاهات اليومية، حتى نتمكن من الرؤية والعمل ضمن الحقل الأوسع.

وقد يكون أصحاب الرؤية البعيدة أيضًا ممن يتقنون «فن الاستبصار» skrying، أي استخدام أداة - أو مجموعة أدوات - كمركز تركيز للرؤية. قد نتذكر كيف كنا كأطفال نحدق في نقطة معينة على سطح جدول ماء أو بحيرة حيث ينعكس الضوء بصورة مميزة، فنحدق ونحدق إلى أن تبدأ الصور في الظهور على سطح الماء اللامع كالمرآة. أو كنا نجد أشكالًا داخل صخرة كريستالية خشنة، أو حين نحدق عبر فتحة في حجر، فنرى من خلالها الضفة الأخرى بقدر ما نرى الجهة المقابلة.

وفي زماننا هذا، كما في أزمنة أخرى، تأتي التمرينات الأساسية للرأي من الإصغاء التام للأحلام، والتزامات، واللغة الرمزية التي يتحدث بها العالم.

مستقبل الشفاء التخيلي

كلما استعدنا مهارات الحلم، ستصبح الصور التخيلية وسيلة مركزية في الطب والشفاء. وقد ساعدت التطورات الحديثة في الأبحاث العلمية الصارمة، لا سيما في

مجال علم النفس العصبي المناعي سريع التوسع، في ترسيخ هذا التوجه، إذ إنها تقدم أدلة غامرة على أن الجسد يؤمن بالصور، وأن أفكارنا ومشاعرنا يمكن أن تجعلنا نمرض، أو أن تعيدنا إلى العافية.

تقول عالمة الأحياء الجزيئية كانديس بيرت إن هناك «شبكة تواصل نفس-جسدية» لا تعمل في الدماغ فحسب، بل في جميع أنحاء الجسد أيضًا. أفكارنا ومشاعرنا، سواء أكانت واعية أو لا واعية، تؤثر باستمرار في صحتنا من خلال إرسال توجيهات إلى مصنع أدوية داخلي موجود في أجسامنا. إن أبحاث بيرت تسهم في تقويض هيمنة العقيدة الديكارتية التي طالما فصلت بين العقل والجسد. إنها ترى أن العقل حاضر في كل خلية من خلايانا. (609)

أما الطبيب لاري دوسي، أحد رواد الطب العقلي-الجسدي منذ الثمانينيات، فيلاحظ أن «الجسد يستجيب للمدخلات الذهنية كما لو كانت واقعية مادية». فالصور تولد تغيرات جسدية تمامًا كما لو أن التجربة حقيقية. فعلى سبيل المثال، إذا تخيلت نفسك مستلقيًا على شاطئ دافئ تحت الشمس، فإنك ستشعر بالاسترخاء، وتتمدد الأوعية الدموية الطرفية لديك، وتصبح يداك دافئتين، تمامًا كما لو كنت هناك فعلاً. (610)

تحدد مشاعرنا ما إذا كنا منفتحين أو مغلقين لاستقبال فيروس متسلل، كمن يقتحم المنزل خلسة. توضح كانديس بيرت أن «الفيروسات تستخدم نفس المستقبلات التي تستخدمها الببتيدات العصبية للدخول إلى الخلية، ويتوقف مدى سهولة دخول الفيروس على كمية الببتيد الطبيعي المتوفر للارتباط بذلك المستقبل؛ فكلما قلت كمية الببتيد الطبيعي، زادت فرصة الفيروس المناسب لذلك المستقبل في اقتحام الخلية». فعلى سبيل المثال، يستخدم فيروس الريو - الذي يُعتقد أنه من مسببات الزكام - مستقبل النورإينفرين، وهو مادة كيميائية طبيعية نشعرنا بالرضا. فيبدو، إذن، أنه إذا

(609) Candace Pert interview, in Bill Moyers, *Healing and the Mind* (New York: Doubleday, 1993).

(610) Larry Dossey, MD, personal communication.

كنت سعيداً، فإن فيروس الزكام لن يتمكن من دخول جسدك. (611)

في اللغة اللاتينية، كلمة placebo تعني «سأرضي». وفي الرعاية الصحية، يُستخدم مصطلح «تأثير الدواء الوهمي» placebo effect للإشارة إلى تحسن في الحالة الصحية نتيجة إيمان المريض بأنه يتلقى علاجاً، في حين أنه في الواقع لا يتلقى شيئاً فعلياً. فقد يكون العلاج المزعوم مجرد حبة سكر، أو إيجاء بإجراء جراحة أو إعطاء حقنة وريدية لم تحدث في الواقع. ولم يمضِ وقت طويل منذ أن كانت بعض صيدليات المستشفيات الأمريكية تحتوي على زجاجات مملوءة بأقراص من السكر أو النشاء، وُضعت عليها علامة ملصق Obecalp؛ أي كلمة placebo مقلوبة.

وهناك كم هائل من الأبحاث الحديثة التي تؤكد فعالية تأثير الدواء الوهمي. فمرضى باركنسون الذين خضعوا لجراحات وهمية، أو تلقوا أدوية مزيفة، أظهروا إنتاجاً لمادة الدوبامين (التي يعاني جسدكم من نقصها) بمستويات مقاربة لتلك التي يمكن أن تنتجها التدخلات الطبية الحقيقية. (612)

في عام 2006، أجرت مجموعة من جامعة جونز هوبكنز بقيادة الدكتور جيمس كامبل ما أحب أن أسميه «اختبار الفلفل الحار الأحمر». قام الفريق بحقن مادة الكابيسيسين - وهي العنصر الحار في الفلفل الحار - في أجساد المشاركين، ثم أعقبوا ذلك بحقن محلول ملحي غير فعال، وأخبروا المشاركين بأنه سيسكن الألم. وأظهرت فحوصات PET أن المنطقة المتوسطة في الدماغ لدى من استجابوا للدواء الوهمي أطلقت حينها مجموعة من المسكنات الطبيعية المعروفة باسم «الأفيونات الذاتية» endogenous opioids، ما خفف من شعورهم بالألم بسرعة. (613)

تشير الدراسات التي أجريت على مرضى الاكتئاب السريري إلى أن الأدوية الوهمية

(611) Candace Pert, *Molecules of Emotion: Why You Feel the Way You Feel* (New York: Scribner, 1997), p. 190.

(612) Raúl de la Fuente-Fernández et al., "Expectation and Dopamine Release: Mechanism of the Placebo Effect in Parkinson's Disease," *Science* 293, no. 5332 (August 10, 2001): 1164–1166.

(613) Baltimore Sun, December 6, 2006.

يمكن أن تحدث تغيرات ملحوظة في نشاط المناطق ذاتها من الدماغ التي تستجيب لمضادات الاكتئاب، مثل قشرة الفص الجبهي والقشرة الحزامية. وقد اهترت بعض شركات الأدوية الكبرى بفعل دراسة نُشرت عام 2002 أعادت تقييم بيانات إدارة الغذاء والدواء FDA بشأن ستة من مضادات الاكتئاب الشائعة، وكشفت أن 80٪ من فعاليتها كان مكرراً داخل مجموعات التحكم التي تلقت الدواء الوهمي.⁽⁶¹⁴⁾

ويؤكد الطبيب النفسي الفرنسي باتريك ليموان أن ما بين 35٪ إلى 40٪ من الوصفات الطبية الرسمية هي «أدوية وهمية غير نقية»؛ أي مواد غير فعالة طبياً تحتوي على كمية ضئيلة من المادة النشطة، لا تكفي لإحداث تأثير سريري حقيقي، ولكنها تتيح للطبيب الادعاء بأنها فعالة.⁽⁶¹⁵⁾

وكما أدرك المعالجون القدماء جيداً، فإن لشخصية المعالج، والطقوس، والدراما دوراً بالغ الأهمية في تعزيز تأثير الدواء الوهمي. فمَنْذ أن يخطو الزائر إلى معبد أسكليبيوس (إله الطب في اليونان القديمة)، يتلقى دعماً مستمراً ليؤمن بأن الشفاء ممكن، ويُشجع على التخلي عن العادات الذهنية القديمة والمواقف السلبية التي تقوض نفسها. أما في مجتمعنا المعاصر، حيث تُجسد السلطة في المعاطف البيضاء والشهادات الطبية، فإن تأثير الدواء الوهمي يكون أقوى بكثير حين يلتقي المرضى وجهًا لوجه مع الممارسين.

إننا غالباً ما نكون غير مدركين لأفكارنا ومشاعرنا المتغيرة، بل وقد نجهل تماماً ذكريات وصوراً عالقة في الجسد تسحبنا إلى الأسفل. إن قرار إحضار تلك الأفكار والمشاعر غير المعترف بها إلى وعينا هو خطوة جوهرية نحو الشفاء الذاتي. ومن هذه النقطة، يمكننا أن نبدأ في ممارسة توجيه طاقة انتباهنا نحو الصور التي تمنحنا الصحة والعافية.

يمكننا، على سبيل المثال، أن نختار عمداً أن نزيد تدفق الدم إلى جزء معين من

(614) Alun Anderson, "Physician, Fool Thyself," Fortune (September 18, 2006).

(615) Patrick Lemoine interview in Laura Spinney, "Purveyors of Mystery," New Scientist, no. 2582 (December 16, 2006).

الجسم، فنمنحه القوة اللازمة لطرد السموم وتوصيل المغذيات الضرورية للشفاء. وقد تعافى نورمان كازنز من كسر في مرفقه وعاد إلى ملعب التنس في وقت قياسي لأنه كان يقضي عشرين دقيقة يوميًا مركّزًا على نيته في زيادة تدفق الدم في المفصل المصاب، بعد أن أوضح له طبيبه أن إصابات المرفق غالبًا ما تشفى ببطء بسبب ضعف التروية الدموية فيه.

يرى هربرت بنسون أن جميع الاضطرابات المرتبطة بالتوتر، من ارتفاع ضغط الدم إلى الاكتئاب، ومن الصداع النصفي إلى التهاب المفاصل، يمكن التخفيف منها بما يُعرف باسم «استجابة الاسترخاء»، وهي تقنية بسيطة لتهدئة الجسد وتسكين الذهن، تتمحور حول التركيز على التنفس وتكرار كلمة أو عبارة بسيطة لمدة تتراوح بين عشر إلى عشرين دقيقة يوميًا. (616)

أما باحثة التفاعل الذهني-الجسدي، لين فريمان، فتؤكد أن التخيل هو «الأساس في طب الجسد والعقل»، وتعرفه بأنه «العملية الفكرية التي تستدعي الحواس وتفعّلها». وهو يستند إلى التجربة الحياتية المعاشة، «تجربة يمكن استدعاؤها بوضوح وإعادة تشكيلها». (617)

وثمة أدلة سريرية تظهر أن التخيل العلاجي مفيد في علاج أمراض الجلد، والسكري، وسرطان الثدي، والتهاب المفاصل، والصداع النصفي أو الناتج عن التوتر، وحتى الحروق الشديدة. وقد استخدم التخيل العلاجي أيضًا كوسيلة فعّالة لتحسين إدراك اللبن لدى أمهات الأطفال المولودين قبل أوانهم، وفي إدارة الألم، وتعزيز وظائف الجهاز المناعي. وعندما يُستخدم التخيل كأداة علاجية سريرية، فإنه يقوم على تركيز الانتباه المتعمد على صور ذهنية معينة بهدف إحداث تغييرات مرغوبة. وقد شرح مؤلفو كتاب «طقوس الشفاء» *Rituals of Healing*، الأنماط المختلفة للتبيل العلاجي المعترف بها في الأوساط الصحية شرحًا وافيًا. (618)

(616) Herbert Benson, MD, personal communication.

(617) Lyn Freeman, personal communication.

(618) Jeanne Achterberg, Barbara Dossey, and Leslie Kolkmeier, *Rituals of Healing: Using*

في صيف عام 2007، أُجريت دراسة لفتت انتباه شركات التأمين الصحي، إذ أثبتت أن التخيل العلاجي لا يحقق نتائج ملموسة فحسب، بل يُسهم في خفض التكاليف أيضًا. فقد قررت شركة «بلو شيلد» للتأمين الصحي في كاليفورنيا اختبار تأثير التخيل الموجه على 905 من مشتركّي خطتها الصحية المقرر إخضاعهم لعمليات جراحية. وقد أُجريت الدراسة من خلال تشغيل شريط بسيط للتخيل الموجه، صُمم لتهذئة مخاوف المرضى تجاه الجراحة وتعزيز فرص التعافي. وقد بدت نتائج الدراسة واعدة للغاية من منظور التكاليف؛ إذ تبنى 74٪ من المشاركين أسلوب التخيل الموجه، بغض النظر عن خلفياتهم أو مواقفهم المسبقة. وأسهم التخيل الموجه في التخفيف من القلق، وتسريع التعافي، وتقليص فترة الإقامة في المستشفى بعد الجراحة؛ ما أدى إلى خفض متوسط تكلفة العلاج لكل مريض بمقدار 2003 دولارات. وقد شكل هذا حافزًا قويًا لصناعة التأمين لإعادة تقييم جدوى تمويل برامج التخيل الموجه، لا سيما أن تكلفتها لا تقارن بتكاليف الإجراءات الطبية التقليدية.⁽⁶¹⁹⁾

وباتت تسجيلات التخيل الموجه، مثل تلك التي استُخدمت في الدراسة التي أُجريت في كاليفورنيا، متوافرة على نطاق واسع، وأصبحت المستشفيات توزع أقراصًا مضغوطة على المرضى لمساعدتهم على تجنيد قواهم الداخلية لمحاربة الخلايا السرطانية، أو لبناء «مكان شفائي» في الخيال يزورونه باستمرار.

ومع تحولنا إلى مجتمع عالم، يمكننا أن نطمح لأكثر من ذلك. ففي أحد أحلامي، ستُقام عيادات «ما قبل الحاجة» ضمن مراكز الرعاية الصحية والمجتمعية، حيث سيجتمع الناس لمشاركة أحلامهم باستخدام بروتوكول العمل الحلمى السريع Lightning Dreamwork،⁽⁶²⁰⁾ وسيساعدون بعضهم البعض على التعرف إلى

Imagery for Health and Wellness (New York: Bantam Books, 1994).

(619) Deborah Schwab et al., "A Study of Efficacy and Cost-Effectiveness of Guided Imagery as a Portable, Self-Administered, Presurgical Intervention Delivered by a Health Plan," *Advances in Mind-Body Medicine* 22, no. 1 (Summer 2007).

(620) See Robert Moss, *The Three "Only" Things* (Novato, CA: New World Library, 2007), pp. 82–94.

الإشارات التشخيصية والتنظيمية والتصرف بناء عليها.

سوف يصبح جمع صور التخيل عنصرًا محوريًا في نهج متكامل للرعاية الصحية، وسيشمل ذلك مساعدة المرضى - وكل من يختار الحفاظ على عافيته - على استخلاص صور إيجابية من تجاربهم الحياتية ومواد أحلامهم.

يمكننا أن نتعلم كيف نزرع ونمنح حلمًا - صورة شفائية، أو رؤية لإمكانية جديدة - لشخص يحتاج إلى حلم. وفي مجتمعنا الحالم، سيتلقى المرضى، والمعالجون، والمرشدون المجتمعون تدريبًا على تقنيات نقل الرؤى، من أجل إنتاج صور علاجية جديدة ومخصصة يمكن تقديمها كهدية لمن هم في حاجة إليها.⁽⁶²¹⁾

وستصدر قوة السرد الرؤية الجديدة في مجال الرعاية الصحية. فبما أن العثور على معنى في أي مرحلة من مراحل الحياة قد يكون في صميم عملية الشفاء، فإن معالجينا - سواء كانوا مُعلنين أم لا - سيساعدون الناس على استخدام قوة الأحلام لتجاوز تاريخهم الشخصي، والانخراط في قصة أكبر تحمل العصارة والمعنى والغاية التي تعينهم على الاستمرار.

وفي كل ذلك، سنسترشد ببصيرة مارك توين في كتابه Christian Science حين قال: «إن القوة التي يمتلكها خيال الإنسان على جسده - لشفائه أو لإمراضه - هي طاقة لا يولد أحد من دونها. لقد امتلكها أول إنسان، وسيحوزها آخرهم.»⁽⁶²²⁾

مستقبل علم آثار الأحلام

لكي نتذكر أهمية كل ما سبق، سنكون بحاجة إلى العديد من علماء آثار الأحلام الذين سيجلبون إلى النور المزيد من أسرار عمل المحرك الخفي للأحلام في تطور البشرية وتاريخها. فبعضهم - مثل المؤرخ جون لوكاش في دراسته لـ «المبارزة» بين تشرشل وهتلر - سيساعدنا على فهم أن المصادفة ليست أمرًا هامشيًا، بل قد تشير إلى

(621) Ibid., pp. 201-208.

(622) Mark Twain, Christian Science (New York: Harper & Bros., 1907), p. 51.

منطق خفي يوجه مجرى الأحداث.⁽⁶²³⁾ وبعضهم – مثل رون باورز في سيرته الباهرة لمارك توين – سيظهر لنا كيف أن تفاعل الأحلام والمصادفات قادر على أن يحرك مسار حياة كاملة، سنة تلو الأخرى. بينما سيني آخرون جسورًا بين التخصصات، ويمزجون بين المواد المختلفة. فقد نحتاج إلى فريق بحثي متعدد التخصصات لكشف القصة الكاملة لأحلام باولي، وما ارتبط بها من سلسلة مصادفات موازية تتعلق بـ «الثورة الصينية»؛ وسيبدأ هذا الفريق بالبحث في الأرشيف العلمي الهائل الذي أهده زوجته فرانكا إلى محفوظات مركز سيرن لأبحاث الفيزياء النووية في سويسرا.

وسوف ينقب عالم آثار الأحلام، تمامًا مثل عالم الآثار التقليدي، في أماكن لا تحتوي على نصوص مكتوبة. وبعض الاكتشافات التي ستظهر نتيجة لذلك ستنشر في هيئة روايات أدبية، إلى أن تقبل دور النشر الاعتراف بجنس أدبي جديد. دائمًا ما قد امتلك الروائي التاريخي الجيد القدرة على نقلنا إلى زمان ومكان آخرين نعود منها وقد ازددنا وعيًا. في روايات «الذكريات البعيدة» للمؤلفة جوان جرانت عن مصر، وفي رباعية الكاتبة الأسكتلندية ماندا سكوت عن بوديكا – الملكة المحاربة في بريطانيا القديمة – نجد أنفسنا نُقاد إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى عمق التجربة الحاملة في حضارات لم تخلف لنا الكثير من الوثائق ذات الصلة.

في روايات ماندا سكوت عن بريطانيا القديمة، يكون الحالمون من الكهنة الدرويد والشامانات. إنهم بمثابة الكشافة ومتتبعي الأثر للمحاربين، وصوت الضمير للقادة. يتوسطون بين الأحياء والأسلاف. يطرون مع الطيور، ويركضون مع الكلاب أو الغزلان. يدخلون الفضاءات النفسية لبعضهم البعض، ويسافرون بإرادتهم إلى أزمنة وأبعاد أخرى. لن نعثر على الكثير عنهم في النصوص القديمة، إذ كان درويد بريطانيا يكتبون باليونانية لكنهم اختاروا ألا يحتفظوا بسجلات مكتوبة، ولذلك لم يصلنا شيء من وجهة نظرهم.

سألت ماندا سكوت عن مصادرها. أخبرني بأنها استقت كل ما أمكنها من المصادر

(623) John Lukacs, *The Duel: The Eighty-Day Struggle between Churchill and Hitler* (New Haven: Yale University Press, 2001).

الرومانية، بما في ذلك رواية قيصر في كتابه عن الحرب الغالية De bello gallico عن «شعب يعيش إلى الأبد في أعين آلهتهم»، كما استندت إلى علم الآثار، لا سيما مخلفات النفايات العضوية لشعب بوديكا في شرق إنجلترا. كما أنها قرأت الملاحم الأيرلندية والويلزية القديمة بحثًا عن أدلة على وجود النساء كمحاربات، كما شاركت بنفسها في معارك محاكاة حقيقية، تدربت فيها على الطعن والدفاع باستخدام السيوف والرماح لتدخل إلى حياة شخصياتها بجسدها، لا بخيالها فقط.

وقد وجهتها أحلامها «بشكل هائل، ومستمر، وعبر كل جملة من الكتابة»، كما تقول. وتوضح قائلة: «كانت نيتي في الكتاب الأول أن تكون كل عناصر الحلم – من رحلة الرؤيا التي خاضتها بريكا، وصولًا إلى النهاية حيث تستدعي ماخا والحلمات الضباب لتضليل الفيالق – شيئًا قد خضته شخصيًا أو شهدته يحدث، وغالبًا ما كان من النوع الأول.» وأثناء كتابتها للروايات، كانت تسافر إلى عالم بوديكا بمساعدة قرع الطبول الشاماني.

كان ميلاد هذه السلسلة من الكتب تجربة مؤثرة تعكس حب ماندا سكوت العميق للحیوانات ومعرفتها الواسعة بها. كانت قد انتهت للتو من كتابة روايتها البوليسية المشوقة No Good Dead، وكانت قد أبرمت عقدًا لكتابة جزء ثانٍ. وفي أثناء نزهة مع كلبها – وهما من نوع «ليرشر» – كانت تفكر في الأمر. فقبض الكلبان على أنثى أرنب بري مرضعة وقتلها. تقول: «شعرت بصدمة عميقة. الأرانب البرية مخلوقات مقدسة، وكانت تلك الأنثى تُرضع صغارًا، وهو ما يعني أن صغارها سيموتون إن لم أعثر عليهم. حاولت طويلًا، لكنني لم أجدهم، على الرغم من أنني قضيت وقتًا طويلًا في البحث.» جلست على الأرض، وأخذت تفكر: «إذا كان لا بد لشيء أن يموت حتى أنتبه إلى أنني أسير بعقلي في وضعية الحياد، وفي الاتجاه الخاطئ، فعلي إذاً أن أصغي جيدًا.»

عادت وحدها إلى الغابة، وخاطبت العالم الطبيعي من حولها قائلة: «ماذا تريد مني؟» وشعرت بالإجابة تسري في كيانها: عليها أن تكتب قصة بوديكا. كانت قد

عقدت نية شخصية على ذلك منذ سنوات، لكنها أضعفت ذلك العزم بإضافة تحفظ: «حين أكون كاتبة جيدة بما يكفي». وفي لحظة الصدق تلك، سقطت جميع الأعذار والمبررات. (624)

صائد الحياة

كوبنهاجن، يونيو 2004

أجدني أنسج شبكة تمتد من الضفيرة الشمسية في جسدي. تتسع شيئًا فشيئًا، حتى تغطي مجتمعًا كاملاً، مثل نسيج عنكبوت هائل.

ما الذي يحدث؟ هل أنا في طريقي لأصبح عنكبوتًا؟

أدرك عندها أنني قد نسجت ما يشبه صائد الأحلام الضخم، إلا أنني لا أود تسميته كذلك. أفضل أن أطلق عليه اسم «صائد الحياة». ستعمل شبكته كمرشح، تمنع الطاقات السلبية والإسقاطات المؤذية من الدخول، في حين تفتح المجال أمام التأثيرات الإيجابية، الداعمة للحياة، والزيارات المباركة.

داخل هذا النسيج الآمن، يستطيع المجتمع أن ينمي رؤى مشتركة للحياة والإمكان، وأن يبحث عن سبل لتجسيدها على أرض الواقع.

يمكن للكشافين أن يتنقلوا عبر خيوط الشبكة، يترصدون ما يتشكل من أحداث أو تحولات من بعيد.

أستفيق من الحلم وأنا مفعم بالحماسة، أتحرج خارج السرير الضيق في غرفتي الصغيرة التي لا تكاد تتسع لي في فندق كوبنهاجن.

تذكرني تلك الشبكة - كما في الحلم ذاته - بصائدي الأحلام لدى الشعوب الأصلية في أمريكا. صديق من شعب الأونونداجا أخبرني ذات مرة أن صائدي الأحلام الأصليين كانوا في الحقيقة شبكات عنكبوت حقيقية. أما ما نجده اليوم من صائدي

أحلام مصنوعة في الصين أو أريزونا، فهي مجرد تقليد لتلك الشبكات، والفكرة أن هذه التعويضات تمسك بالأحلام السيئة وتدفع فقط الأحلام الطيبة تمر عبرها.

لكن الشبكة في حلمي في كوبنهاجن كانت شيئًا مختلفًا. في الحمام، تذكرت أن بعض الشعوب الأصلية تمارس نوعًا من الحلم الجماعي، يتضمن نسج شبكة طاقة جماعية. في سلسلة جزر نائية (لا أذكر أين بالتحديد)، يعيش قوم من الصيادين الشرسين في بيوت كبيرة، وينامون معًا. وقبل دخولهم النوم، يرددون الترانيم بصوت واحد، متزامنين في انطلاقتهم نحو عوالم الأحلام. وبينما يحلمون معًا، ينسجون شبكة تتيح لهم السفر الآمن حيثما يشاؤون. يتحركون عليها كأنهم عناكب بشرية، يتعقبون الطرائد أو أسراب السمك، ويرصدون بيئتهم بحثًا عن الأخطار المحتملة.

«هل تذكرت أي أحلام؟» سألتني صديقتي واندا بيرتش عندما التقينا على الفطور في صالة الفندق؛ فنحن لا نسأل أبدًا: «هل حلمت؟» فنحن من الحالمين، ونعلم أن معظم الناس - حتى في نظر أكثر العقول عنادًا في علم الأعصاب المعرفي، وبعضهم سيكون في مؤتمرننا - يحلمون كل ليلة. من يقول: «أنا لا أحلم» إنما يعني في الحقيقة: «أنا لا أتذكر.»

أخبرتني عن حلمي حول نسج الشبكة بينما كنت أستخدم قاطعة الجبن عند طاولة البوفيه. تناول اللحوم الباردة في الإفطار هو الطريقة الدنماركية، ولا أمانع إطلاقًا، فبدني لم يدرك الزمن بعد، منذ أن وصلنا بالطائرة البارحة.

قال أحد المشاركين في المؤتمر، وقد استرق السمع إلى حديثنا: «ربما ينبغي لك التواصل مع كُتّاب سيناريو «الرجل العنكبوت». لم يسبق لـ «سبايدي» أن بلغ هذا الحد بعد.»

سألتني واندا: «كيف شعرت حين استيقظت؟»

أجبتها: «مفعم بالطاقة. كأني منتش.»

قالت: «هل تعتقد أن شيئًا كهذا يمكن أن يحدث في المستقبل؟»

نظرتُ إليها بريبة.

تابعت: «هل هنالك طريقة يمكنك بها نسج شبكة كهذه للآخرين؟ ما الاسم الذي أطلقت عليها؟ «مصيدة الحياة»؟»

قلت بحماسة: «أجل، سأحبّ ذلك جدًّا.»

ثم سألتني: «ما الذي تودّ معرفته؟»

كانت تطرح الأسئلة التي نوجهها دومًا في لعبتنا اليومية لمشاركة الأحلام.

أما أنا، فما كنت أرغب في معرفته هو: هل حلمت بطريقة العودة إلى أسلوب قديم من الحلم؟ هل في هذا الحلم إشارة إلى ما نحتاج إلى استعادته؟

نمشي بخطى سريعة على طول الممر المفتوح تحت مطر الصيف. من حولنا تتفتح المظلات كأنها فطريات عملاقة. تنساب مياه المطر عبر طوق المعطف حتى تصل إلى عنقي. ومن رصيف القوارب، نستقل الحافلة المائية الصفراء، «التولدبوت»، عابرين القناة نحو حي «هولمن»، حيث يُعقد مؤتمر الجمعية الدولية لدراسة الأحلام IASD في مبنى كلية العمارة. تُعد IASD كيانًا رائعًا وفريدًا من نوعه، تجمع بين نخبة خبراء الأحلام ومريديها من شتى التخصصات، من أطباء النفس إلى صناع الأفلام.

يتنوع المتحدثون في المؤتمر بين علماء أعصاب يصفون الأحلام بأنها «هذيان»، وعلماء الأثروبولوجيا الذين كسروا الحواجز وذهبوا للعيش مع قبائل بدائية تحلم بالصيد وتتواصل مع الأرواح. كانت باتريشيا جارفيلد تلقي محاضرة عن أحلام هانس كريستيان أندرسن، وقد تُرجمت حديثًا من الدنماركية القديمة، وكيف أنه ربما كان يحاول معالجة حياته التعيسة من خلال كتابة نهايات سعيدة للأحلام التي أقلقته أكثر من غيرها.

وكان المتحدث الرئيسي في ذلك الصباح المطير هو أستاذ علم النفس الفنلندي، أنتي ريفونسو. كان شعره الأبيض يتلألأ كعنقود محكم من الجليد. حملت محاضرتة عنوانًا طموحًا: «نحو علم موحد للأحلام والوعي»، وافتتحت بصورة واعدة.

بضغط زر على فأرة الكمبيوتر، امتلأت الشاشة الكبيرة بمشهد لفتين وسيمين نائمين جنباً إلى جنب على سرير ذي مظلة. كان أحدهما يعانق زهور الخشخاش، والآخر تقبع قربه قيثاره مهجورة. يبدوان وكأنهما يفيقان من سهرة صاخبة في الزمن القديم. كان الأسلوب لا يُخطئ: لا بد أن تكون هذه لوحة للفنان جي. دبليو. ووترهاوس، أكثر الرسامين ما قبل الرافائيليين حلماً، والذي اشتهر بحوريات البحر والخور. عنوان اللوحة هو: «النوم ونصف شقيقه الموت». وهي تستلهم الفهم الكلاسيكي القديم للعلاقة الوثيقة بين النوم والموت، إذ إن كلتا الحالتين تنطوي على مغادرة الجسد والسفر إلى عوالم أخرى، من بينها تلك التي يكون فيها الموتى أحياء ومستقرين في موطنهم.

بدأ انتباهي ينحرف نحو خلفية اللوحة الضبابية. خلف الشابين المتهلدين، وبجانب مبخرة قد تكون تتصاعد منها أدخنة، يمتد رواق بأعمدة كورنثية، وفيما وراءها تتشكل ظلال غامضة في العتمة. استطعت أن أتخيل نفسي أنحني إلى الأمام وأعبر تلك البوابة.

شدني البروفيسور ريفونسو من شرودي وأعادني إلى القاعة. لكونه عالماً في الإدراك المعرفي - وهو حقل يُعرف كثير من رموزه بازدرائهم لمحتوى الأحلام - بدا صاحب نظرة رحة وغير معتادة إزاء عالم الأحلام. لكنه لم يكن هنا ليتحدث عن السفر إلى عوالم الموتى. ما شدني في حديثه هو نزعة البراجماتية. قال إن ما يحدث في الحلم هو نوع من «محاكاة للعالم»، فخطر ببالي إن كان سيقارن تلك العوالم المتخيلة في الدماغ النائم بألعاب تقمص الأدوار على الإنترنت مثل لعبة «الحياة الثانية» Second Life لكنه ذهب في اتجاه مغاير. كان حديثه عن التطور، لا الترفيه.

قدم ريفونسو أطروحة جريئة مفادها أن الأحلام تحتل مكانة محورية في تطور الإنسان، وربما في بقائه ذاته. فالحلم، باعتباره «عالمًا محاكياً»، يمنح الإنسان فرصة لممارسة ما أطلق عليه «محاكاة التهديد». هذه القدرة التي نشأت منذ العصر الجليدي، ساعدت البشر على الصمود والبقاء في مواجهة مفترسات أكثر مهارة، كانت تسعى لصيدهم كطعام في وجبة الإفطار. تقوم محاكاة التهديد على عنصرين أساسيين: تعزيز

قدرتنا على التعرف إلى الأخطار، وصقل ردود أفعالنا كي نواجه تلك الأخطار بسرعة وفعالية حين تظهر. يعتقد ريفونسو أن كل واحد منا يمارس هذه المهارة، كل ليلة، داخل مساحة الحلم الخاصة به. وحتى حين لا نتذكر أحلامنا، فإن آليات هذه المحاكاة لا تتوقف. وفي الواقع، كما يوضح، فإن تذكر الحلم أمر ثانوي لا يؤثر كثيرًا. الأهم هو التمرين الذي نحصل عليه، ليلة بعد ليلة. فنحن نجني الفائدة، حتى وإن لم نتذكر شيئًا مما عشناه خلال ساعات النوم.

كل هذا يروق لي، لكن نظرية «محاكاة التهديد» تبقى أقل بكثير مما كان يعرفه حالمو الشعوب القديمة والبدائية؛ وما يعرفه الحالمون النشطون اليوم. فالحلم ليس مجرد محاكاة داخل أدمغتنا، بل هو سفر فعلي. نحن قادرون على عبور الزمان والمكان، وعلى استطلاع المستقبل الممكن. نحن لا نتمرن فقط لمواجهة أخطار عامة، بل نستطيع رصد أخطار محددة تهددنا أو تهدد مجتمعاتنا، ونعود منها بمعلومات يمكن أن تلهم قرارات عملية ومباشرة.

عاد عقلي إلى حلم «صائد الحياة».

ثمة ما هو أوسع بكثير ممكن على نسيج الحلم مما يقبل به عادة علماء النوم والأحلام. علينا أن نخرج من مخبرات النوم إلى التجربة الحية للبشر في كل مكان، أولئك الذين تساعد أحلامهم على اجتياز الحياة، إذا أردنا أن نفهم بحق.

بعد مؤتمر كوبنهاجن، نشرت مجلة «دريمينج» Dreaming التابعة لجمعية IASD دراسة شيقة عن شعب الأندامان - وهم قوم من الصيادين وجامعي الثمار يسكنون جزرًا في خليج البنجال - ينسجون كل ليلة نسيجًا من الأحلام من أجل إنتاج معلومات تعزز بقاء الجماعة. ففي بيوتهم الكبيرة المشتركة، يدخلون حالة الحلم الجماعي من خلال قصة أو نية موحدة. قد تكون غايتهم استطلاع مواقع توافر أفضل محاصيل الجاك فروت، أو أماكن الخنازير البرية، أو أسراب الأسماك، لإطعام شعبهم في اليوم التالي. إنهم ينسجون نسيجًا مشتركًا وينطلقون عليه كما لو كانوا عنكبوتًا بشريًا

وقد أعاد هذا الوصف إلى ذهني حلم «صائد الحياة».

وفي نهاية ذلك العام ذاته، جاءت الكارثة الكبرى – تسونامي آسيا الذي أحدثه الزلزال قبالة سواحل سومطرة في 26 ديسمبر 2004 – لتؤكد لنا كم أن نسيج الأحلام قد يكون جوهريًا للحياة.

ألقت الهزات الارتدادية بالبحر على جزر الأندامان أمواجًا عاتية. وكان الأندامانيون، في ذلك الوقت من السنة، يقيمون عادة في مستوطنات صيدهم الموسمية الممتدة على السواحل. وعندما هدا البحر، كانت ملاجئهم قد اختفت تمامًا. وقد افترضت الحكومة الهندية – التي تدعي السيادة على الجزر – أن سكان الأندامان الذين كانوا على السواحل قد غرقوا، كما حصل مع قرابة 250,000 شخص في المنطقة كلها. لكن الأندامانيين ظهروا من جديد، في تلاهم المشجرة، وهم يطلقون السهام على مروحية استكشافية أرسلتها الحكومة الهندية. لقد كانوا يعرفون بأن التسونامي قادم، وابتعدوا عن طريقه بهدوء، تاركين أكواخ الصيد خلفهم وصاعدين إلى أعالي التلال. لقد عرفوا ذلك لأنهم راقبوا تحركات الحيوانات، وأصغوا إلى أصوات الرياح والمياه، ولأنهم يسافرون على نسيج الأحلام.

حقًا إن نسيج الحلم يمكن أن يكون صائدًا للحياة.

شكر وتقدير

أبدأ بتوجيه شكري إلى المعلمين في وطني أستراليا الذين شجعوني منذ البداية وساعدوني على تنمية حبي للتاريخ: كيه. سي. ماسترمان، وجيفري فيربيرن، ومانينج كلارك، الذي أصر على أن ينغمس طلابه في برنامج الامتياز لتاريخ الشرف في أعمال دوستوفسكي وفرويد، فوكنر وجوته، جيون وإنجيل الملك جيمس، لكي يعرفوا «الخندق الذي عُرسنا فيه». لقد غادر هؤلاء المعلمون زمن التاريخ منذ سنوات طويلة، لكنهم ليسوا أمواتاً في أحلامي.

وأنا ممتن لكوكبة من العلماء المتميزين وباحثي الأحلام الذين تكرموا بسخاء بمشاركة ثمار دراساتهم في تاريخ الأحلام وأنثروبولوجيا الحلم وعلم نفس الأحلام، ومن بينهم: ستانلي كرينر، باتريشيا جارفيلد، ديدري باريت، كيلي بالكيلي، إين إدجار، باربرا تيدلوك، تشارلز ستوارت، ريتشارد ويلكرسون، ريتا دواير، وبوب هوس. وأعرب عن امتناني لكل من لاري دوسي ولين فريمان؛ إذ أسهما في تعميق فهمي لمجال التصوير التخيلي في الطب والشفاء؛ هذا المجال العريق الذي يشهد، ولحسن الحظ، نهضة متجددة في زمننا.

كما أنني مدين بامتنان فكري عميق لاثنتين من كبار علماء الخيال الفرنسيين: هنري كوربان وجاك لوجوف.

لقد تعزز إحساسي بأهمية الأحلام في مساعدتنا على اجتياز التحولات الحاسمة في الحياة، وفي جلب الجديد إلى عوالمنا، بفضل آلاف الحالمين الذين شاركوني تجاربهم خلال ورش العمل والندوات التي نظمتها، سواء بالحضور الشخصي أو عبر الإنترنت. وأنا ممتن للمغامرين في الوعي الذين انضموا إليّ منذ عام 1996 في الخلوات التي أقمناها على جبل في أديرونداك بولاية نيويورك، وفي برامج متقدمة أخرى، حيث

اخبترنا تقنيات الحلم النشط الجديدة، وسافرنا معًا كمنقبي آثار في عالم الأحلام لاكتشاف المدن المدفونة في أعماق الخيال. وأخص بالشكر المنسقين المتطوعين الرائعين الذين أسهموا في إيصال ورش العمل إلى العديد من المجتمعات؛ ومن بينهم: دونا كاتسورانس، وكارين سيلفرستين، وإيرين داليسيو، وكارول ديفيس، وكارين ماكين، ونانسي فريدمان، وجين إي. كارلتون، وستيفاني لازير، وسوزيت ريوس-شويرر، وجيني هوجنسون.

وقد قدم لي عدد من الأصدقاء المبدعين دعمًا وتشجيعًا مميزين في الليالي والأيام التي قضيتها في تأليف هذا الكتاب. دفعتني لويسا بوكاشيفا بخفة إلى خوض مغامرة جاحمة عبر تاريخ الأدب الروسي في الأحلام، وبذلت جهدًا شجاعًا لتقريب من مفاهيم الفيزياء، وشاركتني معرفتها المدهشة بموسيقى البوب. أما روبين جونسون، فقد قدمت لي نوعًا من التغذية الراجعة الخلاقة، ما أبقى ذهني مشتعلًا، مع التأكد من أن شرارات الأفكار لا تتطاير في كل أرجاء المكان. وظلت جيمي جيميسون تطرح عليّ أفكارًا حول معنى الرؤية في القيادة، وشاركتني في ابتكار «طرائف لاذعة» نأمل أن مارك توين كان سيستمع بها. أما جاني كارلتون، وهي مضيئة رائعة وحارسة أحلام في منطقة خليج سان فرانسيسكو، فقد دفعتني للتحقيق في قصة ذلك الحالم الغريب الذي اكتشف النفط في الكويت، وأكدت لي أن الحالمين قادرون على السفر عبر الزمان وشفاء الأرواح.

التقيت «واندا بيرتش» في وادي الموهوك في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، عندما بدأت رحلة مستوحاة من حلم، لاستكشاف حياة رجل أنجلو-أيرلندي عاش بين قبائل الإيروكوا قبل الثورة الأمريكية. وجدتها تدير الموقع التاريخي الذي كان آخر منزل له. ومن خلال حبنا المشترك للتاريخ والأحلام، وحاجتنا المشتركة لفهم كيفية توظيف الخيال في الشفاء، نشأت بيننا صداقة ظلت تغذي وتدعم هذا الكتاب باستمرار.

لقد كتبتُ عن المصادفة بوصفها «مصافحة سرية من الكون»، وليس لديّ أدنى شك

في أن شيئاً من هذا القبيل هو ما قادني إلى محررتي الحالية، «جورجيا هيوز»، وزملائها الرائعين في دار نشر «نيو وورلد لايفراي». جورجيا محررة متميزة بحق؛ فهي تسعى لاستخلاص أفضل ما يمكن للكاتب أن يقدمه، وترافق عملية ميلاد العمل وتدعمه من جميع النواحي.

أما ابنتاي، فقد ساعدتاني على تذكر أن كل ما نحتاج إليه كي نلامس قوة الخيال، هو أن نطلق العنان للطفل القابع في داخلنا ليلهو ويلعب. ويبقى أعظم ديني لزوجتي «مارشا»، الصديقة والمستشارة الاستثنائية في جميع المراحل والمنعطفات، التي رأت شكل هذا الكتاب وطبيعته قبل عشرين عاماً من لحظة جلوسي لكتابته، على مكتب فريد - مكتب هو في الحقيقة باب - كانت قد صنعت لي بعد أن رويت لها أحد أحلامي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

التاريخ السري للأحلام

«لقد فعلها روبرت موس مرة أخرى؛ لقد كتب كتابًا جذابًا، وثريرًا بالمعلومات، وتنويريًا إلى أبعد حد. إنه أيضًا كتاب يتحدى العديد من التحيزات الأكثر رسوخًا وتفاعلية في اللاوعي لدى باحثي الأحلام العلميين... وكما يوضح الكتاب على نحو وافٍ، فإن الأهمية الجمعية والتاريخية لهذه الأحلام تحديدًا، والحلم بشكل عام، لا يمكن إنكارها. أوصي بهذا الكتاب من أعماق قلبي.»

جيريمي تايلور، مجلة «شيفت»

«هذا ليس كتابًا تقليديًا عن الأحلام، بل قراءة منيرة وممتعة للغاية لخبير الأحلام الشهير عالميًا روبرت موس، الذي يبدأ بالتركيز على دور الحلم باعتباره «محركًا سرّيًا» في التطور البشري والبقاء على قيد الحياة في جميع جوانب المجتمع. يوضح موس... كيف يمكن للأحلام أن تغير مسار التاريخ، وأنها تفعل ذلك بالفعل، وكيف يمكن استعادة تلك القوة واستخدامها.»

يوجا ماجازين

«واحد من أكثر الكتب التي قرأتها على الإطلاق شاعريّة وإلهامًا عميقًا عن الأحلام. يضيفي روبرت موس على هذا الكتاب الجديد الرائع براعة الروائي، وعمق الباحث، والحكمة الحاملة المتبصرة للشامان... والأكثر أهمية من أي شيء آخر هو أن موس يُعبر عن الفرح البدائي الذي تستثيره الأحلام، والحرية الإبداعية المطلقة التي تنطلق من عقلاها في كل مرة نخلد فيها إلى النوم. لو أنني علقت ذات يوم على جزيرة صحراوية مجازية، فسيكون هذا هو الكتاب الذي أود أن يكون معي هناك.»

كلي بالكي

مكتبة

t.me/soramnqraa

WWW.PAGE-7.COM

ISBN: 1-41-8470-603-978



9 786038 470411 >

Designed by Tawfiq Omrane

